رواية

أناهُ

رضا أميرخاني

تعريب: محمد جواد علي
عقيل خورشا

دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah

أناهُ

أناهُ

رواية مترجمة عن الفارسية

تأليف

رضا أمير خاني

تعريب

محمد جواد علي

عقيل خورشا

© جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

ISBN 978-614-440-079-1

[٢٠١٧م – ١٤٣٨هـ]

دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah

العنوان: لبنان – بيروت – سان تيريز – سنتر يحفوفي – بلوك c - ط ٣
تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ – email: almaaref@shurouk.org

تصميم:
أحمد شعيب

إخراج فني
إبراهيم شحوري

طباعة
DB UK 00961 3 336218
شركة دبوق العالمية للطباعة والتجارة العامة ش.م.م.
info@dboukart.com

بسم الله الرحمن الرحيم

فصلي الأول

في عام ألف وثلاثمائة واثني عشر هجري شمسي[١]، في شارع يمكن اجتيازه بثلاث قفزات، شارع خاني آباد الذي لم يعد يشبه بقية الشوارع منذ مجيء العميان السبعة، وهي التسمية التي يطلقها أهالي الحي على سبعة من الشحاذين العميان.

- يا أهالي خاني آباد، لا أذلكم اللّه، درهمًا واحدًا لسبعة عميان!

لا أحد يعرف لماذا يُطلَق على هذا المكان اسم «خاني آباد»، أي «محلة الحاكم العامرة»، ومنذ متى تم إعمارها.

يبدأ شارع خاني آباد من «مقر القزاقيين»، ويستمر حتى بستان «معير الممالك»، شارع يمتد من الشمال إلى الجنوب، وفي وسطه من اليسار يتفرع شارع «مختاري»، وسوق صغير يطلق عليه اسم «سوق إسلامي»، وفي مطلع الشارع من ناحية الجنوب نحو الشمال وعلى الجهة اليسرى منه، كانت ثمة العديد من المحلات والدكاكين، وفي بدايتها معمل ثلج الحاج قلي، حيث تزدحم حوله في الصيف دراجات وعربات تزود نصف طهران بقوالب الثلج، وهي البقعة الوحيدة التي تُرَش بالماء في ذلك الشارع الترابي. من معمل الحاج قلي كانت تخرج القوالب المعوجة والمائلة، وأثر حرارة الجو المرتفعة كان الثلج يذوب تدريجيًا، ليرطب الشارع من بدايته حتى نهايته، خصوصًا حينما يلامس تيارُ الهواء قوالبَ الثلج.

---

(١) حسب التقويم الايراني، ويعادله عام ألف وتسعمائة وثلاثة وثلاثين ميلادي.

ثم ترى مجموعةً من الدكاكين والورش المختصة بصناعة أنابيب الصفيح والمداخن، ومعامل صناعة عربات الخيل وقد تحولت في السنوات الأخيرة لصناعة الحافلات. وعند شارع مختاري فما بعد تأخذ المحال طابعًا تجاريًا، محلات السمسرة، دكاكين البزّارين[١] والخرّازين والحلاقين والقصابين، مطعم لبيع الكباب، وآخر لبيع المرطبات.

تتراصف جميع المحلات والمصانع والمتاجر على الجهة اليسرى من الشارع، أما على الجهة المخالفة فثمة أماكن منخفضة تضم بيوتًا صغيرةً لا تتجاوز مساحتها غرفةً من غرف الناس المتمولين.

شرع العميان السبعة بالعمل حينما وصلوا لتوهم إلى محل السمسرة، جلسوا على الأرض دون أية علامة فارقة تميّز أحدهم عن الآخر، بملابسهم الرثة المندرسة ذات اللون الرمادي القاتم، والتي يصعب معرفة لونها الحقيقي، وسراويلهم الفضفاضة السوداء، وقد اكتست هي الأخرى باللون الرمادي إثر الجلوس الدائم على الأرض. يجلسون على الأرض واحدًا تلو الآخر ويشرع الأول بالنحيب: «سبعة عميان بصدقة واحدة، لا أصابكم الذل والعوز».

وحينما يحصل على صدقة من أحد المارة، يدعو له قائلًا: «ليرزقك اللّه». وهاتان الكلمتان هما في الحقيقة إشارة اتفق عليها العميان فيما بينهم، إذ ما أن يسمعها الأعمى الجالس في نهاية الطابور، أي «الأعمى السابع»، حتى ينهض من مكانه ويتجه بخطًى وئيدة نحو مطلع الطابور ويبدأ دوره في الاستجداء.

- سبعة عميان بصدقة واحدة، لا سيطر عليكم الأنذال ولا قتلكم الأعداء.

- ليرزقكم اللّه.

- سبعة عميان بصدقة واحدة، ليحفظكم اللّه من ميتة السوء، لينجيكم اللّه من التيه والضياع.

وهكذا كلما حصل أحدهم على صدقة، قدِم الأخير من نهاية الطابور ليجلس

---

(١) البزّار هو بائع البزور، وبزّار الحي هو من يبيع القمح والذرة والأرزّ والعدس ونحوها. [المحرر]

في بدايته على الأرض ويأخذ دوره في الاستجداء. وكان الطابور يتحرك ببطء وقد وصلوا لتوهم إلى محل السمسرة.

يتهيأ علي فتاح الذي لم يتجاوز الثالثة عشرة من العمر للذهاب إلى الصف السادس الابتدائي، كان يجرّ هو وصديقه كريم خروفَين وراءهما، وقد وضع علي فصًا كبيرًا من الملح في يده يقربه بين الحين والآخر من فم الخروف الأسود ليلحسه فيواصل الخروف جريه وراءه، أما كريم فقد اهتم بالخروف البني.

وأثناء مرورهما بجوار العميان السبعة، وقف علي وأخرج درهمًا من كيسه وقدّمه للشحاذ الأول، قال له الشحاذ: «عسى أن يرزقك اللّه». نهض الشحاذ الأخير من نهاية الطابور وسار نحو البداية محدودب القامة، تلمس أكتافهم ليتأكد من الطريق، وقبل أن يبدأ بالقول: «سبعة عميان بصدقة واحدة» أخرج علي درهمًا آخر وأعطاه لكريم قائلًا: «من الأفضل أن تمنحه له بنفسك».

ضحك كريم قائلًا: «دعه، لنذهب ونبتع بهذا الدرهم قطعتَين من المرطبات لأنفسنا، وفي ذلك أجر أكبر»، لكنه ألقى نظرةً على الشحاذ الضرير ورأى رموشه التي غطت حدقتَيه الفارغتَين فرقّت مشاعره ورمى الدرهم في حضنه.

قال الشحاذ: «ليرزقك اللّه».

نهض الشحاذ الأخير من نهاية الطابور وتقدم إلى الأمـام. انحنى علي بفرح طفولي وذرع المسافة من أول شحاذ إلى آخر شحاذ: «يا كريم لم يقطعوا سوى مسافة ستة أشبار و إصبعَين مفتوحَين. نعم لقد وصلوا إلى نهايات محل السمسرة».

– من المحتمل أن يصلوا غدًا إلى مسجد قندي. خصوصًا إذا لم يصادفهم جدي أثناء الغروب.

– يوم أمس وأثناء عودة جدي الحاج فتاح من قمائن الطابوق أعطاهم الصدقة لينتقلوا من جنب معمل ثلج الحاج قلي إلى معمل الصفيح وقد تقدموا بذلك عشر خطوات عريضة.

قطع كريم كلام علي:

- عشر خطوات عريضة تشبه خطوات من فعلها في سرواله.

- يا قليل الأدب.

في وسط الشارع حيث مطلع زقاق صغيرعلى الجهة اليسرى يقع مسجد قندي، ما أن تدخل الزقاق وتجتاز مبيع درياني ذي الواجهتَين وعددًا من البيوت الصغيرة المتراصة إلى جوار بعضها الآخر، فإنك تصل إلى بيت عائلة السيد فتاح، بيت كبير، مساحة كل غرفة من غرفه الثلاث المعروفة بغرف الزاوية أوسع من بيوت الحفرة في الأحياء الفقيرة، في خاني آباد.

اليوم هو اليوم الأخير من فصل الصيف، وغدًا يبدأ العام الدراسي، وسوف تباشر عائلة الحاج فتاح بطبخ حساء اللحم المفروم.

نسي علي ما قاله كريم، فقد كان مفعمًا بالبهجة والنشاط، يضحك بين حين وآخر، نهض من جوار العميان السبعة، ونفض التراب العالق على سرواله، قرّب فص الملح من فم الخروف الأسود وشرع بالركض، وقد تبعه الخروف، لم يستطع كريم اللحاق بعلي لا بسبب ضخامة هيكله وإنما بسبب نعلَيه المهترئَين. مرّا بجوار المسجد ووصلا إلى البيت، فتح علي الباب الخشبي وقطع الممر الطويل ودخل الباحة، كان جميع أفراد العائلة منشغلين بالإعداد لوليمة كبيرة، ألقى نظرةً سريعةً على ما حوله، ثم أخذ الخروفَين إلى جنب شجرة الرمان، هناك وإلى جوار حوض الماء، شرع الخروفان باجترار طعامهما.

كان الجد قد أحضر نارجيلته ونصبها إلى جوار الغرفة ذات المصاريع الخمسة، نظر إلى علي، وأخذ نفسًا عميقًا من نارجيلته التي اتقد فحمها جيدًا، وما أن هدأت فورة الماء في النارجيلة حتى خاطب عليًا قائلًا: «تعال يا حفيدي العزيز، تعال واترك هذه الحيوانات المسكينة».

قفز علي وصعد من حافة النافذة. خرج إسكندر وموسى القصاب من الباحة الخلفية، شحذ موسى القصاب سكينه بحافة صحن فنجان ونظر إلى جدي وقال: «اسمح لي أيها الحاج أن أطرح الخروفَين أرضًا قرب شجرة الرمان وسأذبحهما بسلامة ابنكم المسافر، ولدفع البلاء عن أحفادكم جميعًا».

ضم الجد رأس علي إلى حضنه وقبّله، ثم قال لإسكندر: «يا إسكندر أعطهما

الماء، ودعهما يفارقان الحياة دون عذاب، ولا تنس البسملة وإلا حَرُم علينا لحمهما».

قفز علي إلى الأسفل، سأله الجد: «إلى أين أنت ذاهب؟» فأجاب: «يا جدي العزيز، إن صديقي ينتظرني عند الباب منذ وقت طويل، لقد نسيت، للأسف الشديد. أنا المقصر، أنا المقصر».

– من هو صديقك؟ هل هو ابن إسكندر؟

هزّ علي رأسه إيجابًا ومضى متجهًا نحو الباب. اجتاز الممر الطويل وفتح الباب. كان كريم قد ذهب، فأسرع راكضًا حتى نهاية الزقاق. كان السيد درياني جالسًا على كرسي إلى جنب محله ذي الواجهتَين، كان منظر درياني يثير القرف بعد حلق لحيته وشاربه، وكان يراقب الجميع، فنظر علي إلى دكانه، فبادره درياني بلهجته التركية الغليظة بالسؤال: «ماذا حدث يا علي؟ هل تبحث عن شيء ما؟».

لم يرغب علي بالتحدث مع درياني فهو شخص ثرثار للغاية.

– أبحث عن كريم، هل رأيت كريمًا؟

– رأيتُ من؟ رأيتُ كريمًا؟ ضحك درياني وقال: «أنت تشبه أباك. متى يرجع من السفر؟».

قال علي: «من؟ كريم؟»، قال درياني: «لا تداهرني يا علي! أقصد أباك. متى يرجع؟»، قال علي: «من؟ حينما يزهر الخيزران». ثم توجه راكضًا نحو الشارع.

كان درياني يتكلم مع نفسه قائلًا: «حينما يرجع بالسلامة من السفر، أرجو أن لا يعطي كل السكّر للتجار من آل أمين الضرب. فليعطِنا قليلًا منه أيضًا. يجب أن لا ينسى حق الجوار».

نظر علي إلى جانبَي الشارع. رأى حافلةً من نوع جيمس وعدة عربات. ولو لم يكن يبحث عن كريم لكان ذهب إلى نهاية الشارع ليرى الحافلة جيدًا. ذهب نحو المنطقة المنخفضة (بيوت الحفرة). كان العميان السبعة قد تقدموا بضع أشبار و دعا في قلبه أن يجتازوا الشارع قبل أن تهطل أمطار الخريف. نظر إلى بيوت الحفرة ولم ير كريمًا. رجع نحو البيت منزعجًا. وفي مطلع زقاق مسجد قندي قال له

درياني: «ماذا حدث؟ لم تعثر على كريم؟».

لم يجبه علي، كان باب الدار مغلقًا، طرق أكثر من مرة على المطرقة المخصصة للرجال، أسرع إسكندر نحو الباب:

- هل أنت الطارق يا عزيزي علي؟ انتظر لحظة يا عزيزي، لحظة وأفتح لك الباب. أنت تطرق بقوة كوالدك تمامًا. ظننت أنه هو الطارق وقد عاد من السفر.

لم ينبس علي ببنت شفة، دخل الباحة بعد أن اجتاز الممر الطويل، تقصّد النظر إلى شجرة الرمان، من جوار النارجيلة قال له الجد: «ماذا حدث؟ أين صديقك؟».

- لقد طار صديقي.

- صرت طاردًا للأصدقاء. مستحيل يا علي أن تطرد الأصدقاء وأن تصدر منك أفعال كهذه. حاشا للنبيل أن تصدر منه أفعال تتنافى مع قيم المعاشرة.

قال علي بامتعاض: «أنا لا أفهم معنى المعاشرة، ولكن باللّه عليك يا جدي لا تقل شيئًا لأمي عما حصل لي مع كريم».

خرجت أمي من حجرة الزاوية، وهي تحمل صينيةً كبيرةً، قالت لعلي: «أين كنت؟ لِمَ لمْ تأت لتودع أغنامك؟».

وجّه علي نظراته نحو أمه في اللحظة التي كانت تعطي صينيةً كبيرةً لموسى القصاب ليضع فيها الكلا والكبد، كان إسكندر قد علّق للتو الخروف الثاني على الشجرة بواسطة شنكل التعليق، ألقى علي نظرةً على الذبيحة، كان اللحم مكسوًا بالدم، لم يستطع النظر إليها، ركض نحو حوض الماء وتقيأ فيه، ركضت أمه نحوه وضمت رأسه إلى صدرها:

«لا أعرف ما ذا أكلت خارج البيت كي تصاب بالغثيان؟ لا بد أنك قضيت وقتًا طويلًا في اللعب مع كريم، أليس كذلك؟».

ضحك جدي وأخذ نفسًا عميقًا من نارجيلته.

قرّبت الأم فمها من أذن علي بنحو لا يسمح لإسكندر أن يسمع صوتها: «قلت

لك مرارًا عليك أن تكف عن معاشرة أبناء الحفرة، سوف تكون السبب في قطع رزق إسكندر وزوجته، فإذا عاد أبوك سوف يطردهما كليهما».

لم ينبس علي ببنت شفة، كان منحنيًا نحو الحوض.

خاطب جدي، أمي بصوت مبحوح:

– يا كنّتي العزيزة! إن للعشب مذاقًا طيبًا في فم الماعز، ومن أين للماعز أن يستطيب مذاق معاشرة ابن الحاج علي نقي الكاشاني أم ابن الحفرة؟ الصداقة لا تعرف الحواجز بين أبناء الحفرة وغيرهم من الناس.

لم يقل علي شيئًا. ثم نظر إلى علي والتقت نظرتاهما. اكتفى بالنظر إلى ماء الحوض حيث تتراقص صور الذبائح. كان قلبه مضطربًا، نهض من مكانه واتجه نحو الغرفة ذات المصاريع الخمسة، ثم جلس على حافة النافذة وقال للجد:

«كان الخروف الأسود لي والبني لكريم، أتعلمون لماذا؟».

– قال الجد: لا.

– لأنني أحب اللون البني كثيرًا ولهذا السبب أهديته لكريم.

– عاشت يداك، أنت خير حفيد، أنت حفيدي.

– ولكن الآن وقد سُلخ جلداهما لا أعرف أية ذبيحة هي لي.

– بلى، الأمر واضح جدًا، الذبيحة التي على جهة اليسار هي ذبيحتك، أي الخروف الأسود...

– من أين تعرف ذلك يا جدّي؟

– من رأس الخروف الأسود.

دعا الجد عليًا للتمعن في رأس الخروف الأسود، كان مائلًا وكأنه يحاول أن ينظر إلى جهة الذبيحة الأخرى.

– انظر! إنه ينظر نحو الخروف البني.

قال علي: «لكنه ينظر باتجاه اليمين وقد ذكرتم أن الذبيحة التي على اليسار هي ذبيحتي؟».

– نعم فما من رأس مقطوع يتطلع إلى جسده، إنما ينظر نحو صديقه، وهذه الخطوة الأولى في مراعاة أصول المعاشرة والصداقة.

خلع علي حذاءه ودخل الغرفة من جهة النافذة، كان يسمع أصوات أمه وأخته مريم وهما يوجهان الأوامر لإسكندر، غلبه نعاس شديد، سحبه الجد برفق إلى جانب ووضع رأسه على الوسادة، هنيهةً وكان علي غارقًا في نوم عميق.

رأى في الحلم كريمًا معلقًا على شجرة وقد تم تمرير شنكل التعليق بين ساقَيه، كان شبه عار، رأى أيضًا أخته مريم ومهتاب أخت كريم وأمه وإسكندر وزوجته وهم يركضون تجاه الشجرة، الشجرة أيضًا كانت تركض وتذهب بعيدًا، وكانت أمه تصرخ من بعيد: «هذا هو مصير سكان الحفرة لأنهم يأكلون القاذورات». وكان صوت أمه يبحث عن أذنه. ورأى صوت أمه يسير نحو الشجرة ويبقى عالقًا على أغصانها ثم يهبط فجأة في أذني كريم، وأخذت الشجرة تبتعد عنهم أكثر فأكثر، ثم رأى علي رأسه موضوعًا في طبق كبير، فيما عيناه تتطلعان إلى كريم المصلوب على الشجرة ويبتعد أكثر فأكثر. وكانت مهتاب أخت كريم الصغيرة ذات الشعر البني السرح تدير رأس علي باتجاه الشجرة كلما غيرت الشجرة مكانها ليرى كريمًا جيدًا، أما الجد فكان صوته يرتفع من بين فقاعات الماء المغلي في النارجيلة وهو يقول: «هذه بداية مشوار الصداقة، أن يكون رأس الإنسان مستقرًا في طبق، وثمة من يديره نحو الصديق»، و... حرك رأسه في الصينية النحاسية ودوى صوت وقعه وقد تدحرج فيها.

انزلق رأس علي من الوسادة وسقط على السجادة المفروشة في وسط الغرفة، كانت رائحة طيبة تفوح في كل أرجاء البيت، كانت تشبه تلك الرائحة التي كان الجد يقول لأمي حينما كانت تفوح: «يا كنّتي العزيزة! ولو بمقدار قرص رغيف من الخبز أعطي من هذا الطعام للجيران. فإن رائحته انتشرت في كافة أرجاء الحي».

يبدو أنهم كانوا يشوون الكباب، وقف علي إلى جوار نافذة الغرفة ذات المصاريع الخمسة، ولأنها كانت أكبر من سائر الغرف كانوا يسمونها ذات المصاريع الخمسة مع أنها كانت ذات أربعة مصاريع، ثلاثة منها ثابتة والرابع كان يفتح جهة

الباحة، وقد هدموا الدرجات التي كانت تصل الغرفة بالباحة، وبذلك يكون المصراع الرابع بمثابة نافذة مطلة على الباحة. جلس علي هناك وكان لا يزال مأخوذًا بأجواء الحلم، إنه آخر يوم من فصل الصيف، كانت الأم تسلّم قطع اللحم لإسكندر الذي كان يرميها بدوره في قدر كبير وقد أوقدوا تحت القدر نارًا ذات شعل نارنجية اللون، ومع سقوط كل قطعة من اللحم، كان يرتفع صوت أزيزها، كانت اللحوم تغلى بزيت ساخن جدًا مستخرج من شحوم الذبيحة نفسها وليّتها، وكانت رائحة الدخان تختلط مع رائحة اللحم والشحم. أما اللحوم فكانت تُعبّأ في دِنانٍ[1] وتحفظ في مخزن تحت الأرض، مجاور لمخزن الماء، وكان يصب الزيت عند فوهة الدن ليجمد فوق اللحم بعد أن يبرد، ويتم في فصل الشتاء استعمال اللحوم المحفوظة في الدنان في طبخ أنواع المرق.

جاءت أم كريم من نهاية الممر نحو الباحة، حاملةً صرةً أخرجت منها خبزًا حارًا، وكالعادة ألقت التحية على جميع الحاضرين بصوت مرتفع، أجاب جدي تحيتها وحده، أخذت مريم الصرة منها. ذهبت أم كريم إلى جنب القدر وأخذت اللحم من يد أمي. وحينما كانت تعطي اللحم لإسكند كانت تتحدث أيضًا وتقول: «بارك اللّه بموسى القصاب، كانت الخرفان سمينةً، فلا يشم من لحمها رائحة الزَنَج[2]، لحم طازج تفوح رائحته في أرجاء الحي، وتصل إلى دكان السيد درياني».

من مكانه خاطب الجد مريم وأمي قائلًا: «كما قلت لك يا كنتي العزيزة، لا بد من تقديم شيء من هذا الطعام اللذيذ ولو بمقدار قليل إلى الجيران ليستلذوا بطعمه الشهي. أحضري يا مريم العزيزة إناءً كبيرًا من الحساء ليكون حصة العميان السبعة، وسيحمله إليهم إسكندر، وفي هذا العمل الأجر والثواب».

نهضت مريم من مكانها، كانت في حوالي الخامسة عشرة من العمر، تكبر عليًا بأربع سنوات لكنها تشبهه، لها حاجبان متشابكان وشفتان تشبهان ورد الياسمين، ووجه يغتني عن مساحيق التجميل حسب تعبير أم كريم، وكانت تقترب يومًا بعد

---

(١) جمع كلمة دَنّ؛ والدنّ هو البرميل، وهو وعاء ضخم تُحفظ فيه الأطعمة والأشربة. [المحرر]

(٢) هو العطش الشديد، يقال زَنَجت الإبل أي عطِشت عطشًا شديدًا، وزَنَجَ الرجل أي تقبّضت أمعاؤه من كثرة العطش. [المحرر]

يوم من الأنوثة الكاملة، كان شبان الحي ينتظرون قدوم أبيها من السفر بغية التقدم للزواج منها، وكان بعضهم – ممن لم يسبق لهم الحضور إلى المسجد – يفِدون إليه في سبيل التملق لجدها، ويحضّرون حذاءه ويضعونه أمام قدمَيه ما أن يفرغ من أداء الصلاة.

أخرجت مريم الأواني من صندوق منصوب في ركن الغرفة، قالت لها أمها: «احذري يا مريم، فليس من اللائق أن نقدم للجيران طعامًا في أوان مثلومة».

قالت مريم بصوت منخفض يوحي بالاعتراض: «وهل لدينا أوان مثلومة؟».

وضعت سبع أوان في صينية كبيرة، أخذتها منها الخدّامة أم كريم وسكبت حساء اللحم المفروم في الأواني. طلب منها الجد أن تأخذ واحدًا منها للسيد درياني، وافقت مريم بامتنان ووقعت نظراتها على أخيها وهو واقف إلى جوار النافذة ذات المصاريع الخمسة.

قال الجد لعلي: «هل استيقظت أيها الولد الودود؟ هنيئًا لك، تعال وخذ من الصرة رغيفًا حارًا، وكُل حساءً ساخنًا، فهو لذيذ ولسوف يبقى مذاقه سبعين عامًا في فمك».

– سبعون عامًا، إنها فترة طويلة أيها الجد.

– نعم، كما قلت لك، لن يفارق مذاق هذا الحساء ذاكرتك، للحم المطبوخ بزيته مذاق لن ينسى مدى الحياة.

ألقى علي نظرةً على القدر الكبير، لفت انتباهه الخبز الحار واللحم الطازج، قفز من النافذة نحو الباحة، وحينما أخرج رغيفًا حارًا وقعت نظراته على رأس الخروف الأسود، وبينما هو يحدّق بعينه، انتبهت مريم لحال علي فخاطبته: «يا علي! ماذا دهاك؟ ما هذه الدهشة في عينيك؟».

– لا شيء.

أشارت مريم إلى علي بسبابتها تتوعده ثم أسرعت نحو والدتها، وقالت: «يا أمي أرجوك أسرعي ربما حدث شيء لعلي، أو ربما يخجل من أن يطلب لحمًا مفرومًا من إسكندر».

نهضت الأم من عند الجد ومضت نحو علي، أخذت رغيفه ثم طلبت من إسكندر أن يضع عليه مقدارًا من اللحم المفروم.

وفجأة ركض علي نحو إسكندر وسأله:

- يا عم إسكندر هل هذا اللحم هو لحم الخروف الأسود أو لحم الخروف البني؟

صار إسكندر يتمتم وقد خانه لسانه، فبادر الجد بضحكة أطلقها من الإيوان المجاور لغرفة الزاوية: «هذا لحم الخروف البني».

أخذ علي قطعة الخبز من يد إسكندر وأعطاها لأمه، احتارت الأم لذلك وأخرجت من الصرة رغيفًا آخر وطلبت من الخادمة أن تأتي بقليل من لحم الخروف الأسود ليتم قليه.

بدت الدهشة واضحةً على ملامح الخادمة وهي تنفذ ما طلبته منها أم علي، وأخرجت قطعًا صغيرةً من اللحم وأعطتها لإسكندر فقلاها لدقائق قليلة بالزيت الساخن في القدر ثم أخرجها بملعقة كبيرة. عندها طلب علي من إسكندر أن يضع قليلًا من لحم الخروف البني على قطعة رغيف أخرى ثم حمل الرغيفَين ومضى نحو جده قائلًا بكل هدوء:

- انظر يا جدي لقد أكلت قليلًا من لحم خروف كريم، أما الرغيف واللحم الآخر فهو من لحم الخروف الذي كان لي، فليس من المستحسن أن يأكل الإنسان من لحم خروفه، وسوف أعطي قطعة الخبز واللحم الأخرى لـ «كريم» لكي يأكلها.

- اذهب إذن إلى كريم وأعطه حصته.

- نعم يا جدي هذه هي قيم الرجولة التي حدثتني عنها، ها أنا ذاهب لأمارس التزامات الصداقة.

قال علي ذلك وركض مسرعًا نحو باب الدار، صادف مريم وهي ترتب عباءتها، ما أن رأت عليًا حتى قالت: «لمن هذه الشطيرة يا علي؟».

لم يجبها علي.

- إن لم تقل فأنا أعرف الجواب، إنها لكريم وسوف أخبر أمي بذلك. ماما...

- اصمتي أرجوك.

- لدي شرط.

- ما هو؟

- أن تأخذ هذا القدر الصغير للسيد درياني.

- وما علاقتي بذلك؟

- ماما...

- حسنًا سوف آخذه، ولكن لماذا لا تأخذينه بنفسك؟

- يا لك من غيور! هل تقبل أن تقدّم أختك غذاءً لرجلٍ غريب؟!

وافق علي على الشرط، طأطأ رأسه، لم تكن له حيلة أخرى، وضع الشطيرتَين فوق بعضهما ومسكهما بيده اليمنى، ومسك بيده اليسرى القدر المخصص لدرياني. وبعد لحظات وصل إلى دكان درياني.

- تفضل أيها السيد، إنها لك.

- شكرًا لك، أرجو من اللّه أن يتقبل هذا النذر منكم.

- ليس نذرًا.

- ماذا إذًا؟

- من أين لي أن أعرف؟ إنه اللحم المفروم المقلي الذي يُحضّر مطلع كل شتاء.

- كان عليكم أن تصبروا حتى عودة والدكم من روسيا، ولن تكونوا عندها مضطرين لذبح خروف آخر احتفاءً بوصوله سالمًا.

- كلامك صحيح، لقد سارت الأمور بضرر الخرفان ولا بمصلحتنا، ولكن كيف هو الأمر بالنسبة لكم؟

- أيها المشاكس، كلامك مفهوم، ولكن قل لي متى يعود الوالد؟

- كما قلت لك سابقًا حينما يزهر الخيزران!

- أيها اللعين لقد سألتك لأن رصيدك المالي ورصيد أختك شارفا على الانتهاء، أي إن المبالغ التي خصصها والدك لكما وأعطاني إياها مقابل ما تطلبون من أشياء تكاد تنفذ. خصوصًا وأن أختك وزّعت مصاصات من الحلوى على جميع زميلاتها في المدرسة.

- على جميعهن؟ هذا منها تبذير وغباء.

- أرجو أن لا تخبرها بأني حدثتك في هذا الخصوص، لأنها ستخاصمني وتخلق لي المشاكل. مع أنني حذرتها من أن فعلها تبذير ولكنها ردت بأن هذا ليس من شأني، لكوني استلمتُ المبلغ سلفًا من والدكم، وهي محقة في ذلك، فأنا مجرد بائع ولا شأن لي بتصرفات الآخرين.

- تجد شراء مصاصات تلعقها في الشارع مع زميلاتها أمرًا طبيعيًا، وتعتبر إيصال قدر اللحم أمرًا مشينًا يتنافى مع الغيرة!! سوف أنصب لها فخًا لن تخرج منه سالمةً.

ضحك درياني وواصل علي مسيره بعد أن ودعه.

أمسك رغيفَي الخبز بقوة، كان اللحم قد برد بعض الشيء، ففكر أنه لو أسرع المسير فسوف يقدم رغيفًا ولحمًا حارًا لكريم، ولكنه تردد حينما خطر في ذهنه أن الريح سوف تسرّع في برودة الخبز واللحم.

عند الرصيف المحاذي للشارع صادف الدرويش مصطفى، ماسكًا الكشكول بيده، سائرًا بخطوات بطيئة، مرتديًا ملابس بيضاء من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وكان مع كل خطوة يردد: «يا علي مدد»، تباطأ علي في السير كي يجتاز الدرويش طريقه، كان الناس يرددون إن الدرويش ليس على ما يرام، إلا أن الحاج فتاح كان يكنّ له الاحترام. ألقى علي التحية على الدرويش مصطفى، فرد الدرويش بعد أن بصق بصقة رماها في مجرى الماء وقال: «إن سير المرء بسرعة دليل على عجلته.. أما سيره ببطء فدليل عل جهله بالمقصد.. فهل عليه أن يحث الخطى، اللّه أعلم. يا علي مدد».

فكّر علي كثيرًا بكلام الدرويش دون أن يصل إلى نتيجة، وربما لهذا السبب كان الناس يعتقدون بجنون الدرويش.

ركض علي واجتاز الممر الترابي في الحفرة الكبيرة، أمال ظهره قليلًا إلى الوراء كي لا ينزلق أو يسقط.

مع كل هطول للمطر كانت البيوت الواقعة في الحفرة الكبيرة تغرق بمياه الأمطار أو بمياه السواقي، وكانت ملابس كريم تتبلل حينها فيضطر إلى تجفيفها بصعوبة كبيرة.

يقال أن أصحاب معامل الطابوق كانوا فيما مضى يسرقون التراب من المكان الذي تحول الآن إلى حفرة وسيعة ويستخدمونه في صناعة الطابوق بعيدًا عن أعين موظفي البلدية وعمدة المحلة. لقد بنوا أكواخًا في طرفَي الطريق الترابي الواقع في وسط المنطقة المنخفظة.

تعثر علي في طريقه عدة مرات حتى وصل بيت إسكندر. كان كريم واقفًا إلى جوار باب الدار، الذي كان أقل ارتفاعًا من مستوى الزقاق، دخلا سوية باحة الدار، وقد كان بيت إسكندر أكثر هدوءًا قياسًا ببيوت المنطقة المنخفطة.

لم يبق في البيت من أفراد أسرة إسكندر سوى كريم وأخته مهتاب، أما الآخرون، فإما تزوجوا أو هربوا.

قد لا يصح اعتبار مغادرة بيت لا يختلف كثيرًا عن الشارع هروبًا.

في باحة البيت كانت رائحة التعفّن تفوح من حوض الماء، وكانت تطفو طبقة من الأوراق والأعشاب الخضراء على سطح الماء الراكد. أعطى علي لكريم رغيف الخبز المحشو باللحم المفروم.

- كنت أركض من بيتنا إلى هنا كي لا يبرد الطعام.. في الحقيقة لم أكن أركض لأن ذلك سيعرضه للهواء البارد فيبرد أكثر.

تعالى صوت أنثوي من داخل البيت: «لم نفهم من كلامك هل ركضت أم لا؟».

صرخ كريم بفم فاغر: «هذا أمر لا يعنيكِ أيتها الفضولية»، ثم استدار نحو علي وقال له: «كُل بدل الكلام وإلا برد رغيفك».

نظر علي إلى كريم ثم حوّل اتجاه نظراته، كان كريم يأكل بشراهة، فمه ممتلئ

كمن يأكل للمرة الأخيرة في حياته، قد وضع رغيف الخبز على حافة حوض الماء وأخذ يلتهم قطع اللحم المفروم بطريقة مقززة، بعد أن يبتلع قطع اللحم كان كريم يلحس يده، فأدار علي رأسه كي لا يرى ذلك كله.

أما مهتاب فقد وقفت إلى جوار الغرفة بشعرها البني الشبيه بمياه شلال صاف، كانت ترتدي معطفًا طويلًا وسروالًا مطرزًا بورود حمراء، كان لها وجه مليح، خاصةً حينما تضحك، شفتاها شبيهتان بزهرتين تتفتحان كلما ارتسمت البسمة على محياها، وحينما كانت تضحك، كانت رائحة الورد الجوري تفوح في أرجاء البيت وتطغى على رائحة ماء الحوض الآسن. كانت في السنة السابعة من العمر.

كانت مهتاب تنظر هي الأخرى إلى طريقة أخيها، قدم لها علي مقدارًا من حصته لكنها رفضت ودخلت الغرفة، لحس كريم يده ومسحها بسرواله وقال لعلي: «لا تهتم بها، لا إحساس لها، لا تمتلك حتى أحاسيس حمار، لا تظنن أنها لا تحب اللحم المفروم ولكنها تكره أي شيء يصل من بيتكم».

وقفت مهتاب خلف نافذة الغرفة وقد عاود علي النظر إليها، حدق مليًا في عينيها، انتبه بعد برهة لنفسه، كفّ عن النظر نحوها وخاطب كريمًا قائلًا:

– بالمناسبة، إن قطع اللحم المفروم التي تأكلها الآن هي من لحم خروفي الأسود، لأنك إن أكلت من لحم خروفك البني فذلك سيعود عليك بشعور سيء ولربما يؤثر ذلك على صحتك ومزاجك.

قال كريم: «إذن، اللحم الموجود في رغيف الخبز الذي في يدك هو من لحم خروفي أنا».

– نعم.

أخذ كريم بيدَيه ما تبقى في يد علي من الخبز واللحم المفروم، وبحركة أثارت استغراب علي صار يلتهمها بعد أن قال لعلي: «إنها من لحم خروفي».

– نعم، إنها من لحم خروفك، ولكن من غير المستحسن أن يأكل المرء من لحم خروفه وإلا أصابه شعور سيء.

– أيها الأحمق من أين لك هذا الكلام؟ لقد أكلت من لحم خروفي ولم أصب

بأي شعور سيء، أنا على أحسن حال.

– سيؤثر ذلك على صحتك، هل نسيت يوم أمس حينما كنا إلى جوار معمل الطابوق نقود الخروفَين ونلعب معهما؟ ها أنت ذا تأكل من لحم خروفك دون أن يرف لك جفن، هل نسيت أننا كنا نعطيهما الملح...

أراد علي أن يستمر في كلامه حينما رأى المشهد القبيح مرةً أخرى، مشهد كريم وهو يلحس يده بتلذذ، وضع علي يده على بطنه وشعر بأنه ليس على ما يرام، اتجه نحو حوض الماء، تقيأ فيه فصار لون الماء أكثر اخضرارًا. مسح كريم يدَيه بسرواله ثم صار يربت على ظهر علي قائلًا: «ليس واضحًا ما الذي تناولتَه لتتدهور صحتك على هذا النحو أيها الأحمق، لا ينبغي أن تتذكر الخروف كثيرًا وأن تتحدث عنه إلى هذا الحد في يوم مخصص لتناول اللحم المفروم اللذيذ».

في الغرفة كانت مهتاب تضع إصبعها في فمها محاولةً أن تتقيأ هي الأخرى، كانت في مطلع السنة السابعة من العمر.

أولـه

في عام ١٣١٢ حسب التقويم الهجري الشمسي، كلّا، لا أظن أن التاريخ الذي ذكرته كان حسب التقويم الشمسي، وإنما كان عام ١٣٢٠ حسب التاريخ الهجري القمري، الأمر لا يعنيني، ربما يعني كريمًا، فأنا لا أفهم شيئًا بهذا الخصوص، كنتُ عاطلًا وباطلًا في تلك الأيام من ذلك العام، لقد أطلقوا على عام ١٣١٥ اسم «عام أكرم[١]» حسب التقليد الذي يقضي بتسمية كل عام باسم شخص معين، وكان الأطفال يسمونها «بنت سوسن البعيرة». قليلًا ما كان طول كريم يصل إلى أكتافها، وقد استأجرت أكرم غرفةً في بناية «شمس العمارة»، وقبل عام من ذلك التاريخ كان عام منع الحجاب، وكان كريم يعشق معلمة مريم البولندية.

أما عام ١٣١٦ فقد سمي باسم «ليلى العمياء»، وقيل إنها كانت متزوجة، ولكن يقال إن الحَوَل الذي أصاب عينَيها هو السبب الذي دفع زوجها إلى طلاقها، كانت تسكن في زقاق الغجر، في بيت لإحدى زوجات قاجار، وهي امرأة محطمة الأسنان، لم تدم إقامتها في ذلك المكان حيث تم طردها منه فيما بعد.

ولم يدم هذا التقليد أيضًا، فبعد التغيرات التي طرأت على المدينة، خصوصًا بعد فتح منطقة العاهرات وقدوم عدد كبير من الغجريات إليها، فقد كان الناس يسمون كل شهر بل كل يوم باسم امرأة، ومهما أطلقوا من أسماء على الأعوام والأشهر والأسابيع والأيام واللحظات، فإنها لم تكن بالنسبة لي تسمى إلا باسم

---

(١) أكرم هو في هذه الرواية اسم لامرأة، على غرار ما قد يظنه القارئ العربي، فاقتضى التنبيه. [المحرر]

من كان لها ذاك الشعر السرح، تلك التي كان يفوح عطر الياسمين في الفضاء كلما تورد خداها، لم تكن أيامي شمسيةً قط، بل كانت قمريةً تشبه الليالي، فحتى الشمس كانت بلون مهتاب[١].

كانت لنا حياة هانئة، كنتُ أنتظر بشوق ولهفة مجيء أبي من السفر، أن يجتمع أهالي الحي عند مطلع زقاق مسجد قندي ليهنئوني على وصول أبي سالمًا من سفره، وليقولوا لي: «أترى يا علي، لقد جاء والدك»، وأن يقبلني درياني، خادشًا بشرة وجهي بلحيته التي تبقى خشنةً حتى بعد الحلاقة، قائلًا لي بلهجته التركية: «لا تنسَ أن تذكّر أباك بحق الجيران وأن لا يقتصر بإعطاء السكر للتجار من أسرة الحاج أمين الضرب».

كنت مفعمًا بالسرور لأن جدي كان يقص علي في كل ليلة حكايةً، وإذا ذكر في الحكاية لقاء رجل بامرأة أتخيل نفسي برفقة مهتاب.

آه أيها الدهر.. انظر إلى ما فعلت بنا!! صيّرت كريمًا الخائف بطلًا وهميًا ثم ضربته بالأرض وقطعت أوصاله.

آه أيها الدهر.. يبدو أن الحاج فتاح وبرغم وجود جميع أنصاره وأعوانه قد سقط من أعلى العرش إلى قعر الوادي، كنا من الثراء على قدر يجب معه على قطتنا الحج[٢]، وبتنا فجأةً على قدر من سوء الحال صار معه كبيرنا مستحقًا للزكاة.

أنا لم أسبب شخصيًا الأذية لأحد، كنت متعاطفًا مع الخروف الأسود والخروف البني والخروف الأصفر والخروف الأحمر، كنت متعاطفًا مع الجميع، كنت أدعو من صميم القلب أن لا يهطل المطر حينما يمر العميان السبعة ويحاولون عبور الشارع. فكم يمكن للقلب أن يكون كبيرًا ليتسع كل هذه المشاعر؟

ربما كانت رقة مشاعري هي سبب شعوري بالغثيان في يوم كان الجميع يترقبه، وهو يوم الذبيحة وطبخ الحساء من لحمها الطازج.

---

(١) واستعمال لفظ مهتاب هنا ثنائي الدلالة، فهو من جهة يشير إلى شخصية مهتاب ومن جهة يشير إلى معنى القمر، لأن لفظ مهتاب الفارسي يعني باللغة العربية القمر. [المحرر]

(٢) إشارة إلى الثراء الفاحش.

أين أنت أيها الجد العزيز؟ أين الأغنام والنعاج والماعز التي كان موسى القصاب يطرحها في مطلع الزقاق وقد نذرتها من أجل شفاء ظهرك؟ أين هم الآن أولئك الأشقياء الذين كانوا يأكلون التفاح بقشره في محضرك كي لا ترى سكاكينهم.

أين أكياس الأرز التي بقيت عامرةً بعد عامَين من وفاة والدي؟

أين علب الزيت الكرمانشاهي الأصيل، الدنان المملوءة بمرق اللحم؟ تلك التي وصفت رائحتها الطيبة بأنها ستبقى في الذاكرة حتى بعد سبعين عامًا.

- سبعون عامًا يا جدي.

- سوف يبقى طعمها لذيذًا، اللحم المطبوخ بزيته الأصلي لن يفقد مذاقه قط.

حقًا إن اللحم المطبوخ بزيته لن يفقد مذاقه، وسوف يبقى في الذاكرة سبعين عامًا، ومن الجلي أن لحم الخاروف يحوي كثيرًا من الشحم، إلا أن لحم الإنسان يفوح برائحة الجرح، رائحة تؤذي حاسة الشم، وربما كان لحم الرجال أفضل لأنه أقل دسمًا من لحم النساء.

وبعد قصف الطائرات العراقية لأحياء طهران خلال الحرب المفروضة، لا أعرف لماذا هيمن عليّ، حين بلوغي بنايتهم المقصوفة، ذات الشعور الذي داهمني يوم طبخ الحساء. دخلت إلى الباحة، تسلقت الدرجات الملتوية، شممت رائحة الزيت والأصباغ، بل رائحة البارود التي تزكم الأنوف، اللحوم الممزقة قطعةً قطعةً مثل لحم الحساء، مثل لحم الخاروف الأسود الذي كنت أحب، الذي كنت أقدّم له فص الملح وكان يلمس يدي.

آه يا إلهي ما ألطف تلك المرأة، إنها تشبه وريقة وردة، دون اختيار وبمحض الصدفة ومن بين نساء مدينة يقطنها عشر ملايين نسمة، جاءت تلك المرأة مطأطئة الرأس - رأسها القبيح ذي الشعر المتساقط الشبيه برأس سمكة - وبقامتها غير المتناسقة، جاءت وكانت أول ضيف يتعرف على الفنانتَين وعلى لوحاتهما، وأول امرأة تنظر إلى شعرهما غير المغطى. كانت تنظر إلى اللوحات، وتراءت لي وكأنها فأرة صغيرة، وقد اختلطت رائحة شوائها الكريهة برائحة شواء جسدها وكأنها رائحة البارود.

لم أر شعرها منذ كانت في التاسعة من العمر، صار متصلًا بحاجبَي مريم. جلست على الأرض أمام نفسي، أمعنتُ النظر في عينَيَّ المتعبتَين، في عينَيَّ الهرمتَين وكأنهما عينا رجل له ستون عامًا أو أكثر. أما أنا نفسي فما زلت أبدو صغيرًا، ربما أشبه صبيًا في العاشرة من العمر. لم يعد بمقدور مريم أن تتحدث عني في غيابي، ولا أنا قادر على التبسّم لمهتاب في غيابها، وسؤالها عن حالها، ثم تأمل السطوح معًا، فهي الأكبر سنًا، كانت تتفهم اللوحات وتدرك معانيها، أما الأصغر عمرًا فقد كان يتأمل فقط الحريق الذي شبّ في اللوحات ويبكي. ربما كان يبكي فقط دون أن ينظر إلى اللوحات، قالت الأكبر عمرًا: «هل ترى اللوحات المائية، إنها لا تسمح لأحد أن يتأملها»، ولم يجب الأصغر عمرًا.

الصبي الأصغر عمرًا كان أخو مريم، والأكبر عمرًا... آه إنها مهتاب!

بعد قليل، جاء شخص يرتدي ثيابًا خضراء، اجتاز الدرجات المحطمة بصعوبة، ثم قال لنا: «ماذا تفعلان هنا أما فكرتما – وأنتما لستما بصغيرَين – أن ينهار السقف على رأسيكما»، ثم وجّه نظرات حادةً نحونا وتقدّم نحوي واحتضنني، فطلبت منه بصوت مرتعش أن يساعدني في جمع اللوحات التي كانت معلقةً على الحائط المنحني.

وافق الرجل على طلبي، ثم سألني إن كانت اللوحات لي،فأومأت له برأسي نافيًا، فقال: «رحمها اللّه. هل كانت زوجتكَ أم أختك؟».

كنتُ أجهش باكيًا بصوت طفولي، كان الحرس يبكي معي أيضًا، حملت جميع اللوحات، فوق بعضها. كان واضحًا على اللوحة أثر ساقية ماؤها بني اللون، كان الحرس يحاول أن يزيل هذا الأثر من قماشة اللوحة، لكنني لم أسمح له، بل قد فهم بنفسه أن الموقف يتطلب منه الكف عن ذلك. وقد تفهم الأمر وترك الشعر واللحم والروائح والصراخ معلقةً على اللوحة.

لا أعرف إن كانت مهتاب هي من تعلمت من مريم التي كانت أكبر منها سنًا أم العكس، أو أن الاثنتَين تعلمتا من مرسم الفن الحديث بباريس.

لم تقيما معرضًا أبدًا، كانتا تكرهان إقامة المعارض، وكان يضايقهما فكرة مجيء ثلاثة أو أربعة أشخاص لمعرضهما من أولئك الذين يفبركون كلامهم عند

شرائهم لأي لوحة أو من الذين يتفلسفون تفلسفًا أجوفًا: «لم تستقرالألوان على سطح القماشة، هل يمكن أن نرى الحداثة في مرآة التقاليد؟ ليتكم استشرتم النقاد قليلًا! ولكن لا أخفي أن هناك موهبةً عاليةً خلف هذه الأعمال.. لماذا لم تقدما دليلًا للأسعار؟ منذ كم تمارسان مهنة الرسم؟ وهل ترسمان وفق الطلب؟».

تم حفر قبر من طابقَين لهما في مقبرة بستان طوطي، دفنتهما معًا، سألني حفار القبور: «أيّهما تريد أن تكون في الطابق العلوي» فقلت «لا فرق»، لكني وجدت أثناء التلقين مريم في الطابق السفلي، ربما أرادت أن تتيح لي فرصة النظر إلى مهتاب أكثر، فداءً لإيثارك يا أختي مريم.

لم تمر سبعة أيام على دفنهما حتى أقمت معرضًا لأعمالهما. وبعد أسبوع انتشر خبر إقامة المعرض في المدينة كانتشار النار في الهشيم. يومها تحطم زجاج بعض النوافذ فانغرست قطعة زجاج مثلثة الشكل في إحدى اللوحات، لم أكن أعرف إن كانت لمريم أو لمهتاب، ولكن قطعة الزجاج جرحت يد الحارس، وترك دم يده أثرًا في اللوحة، ولأنه لم يكن دم شهيد فقد رسمت دائرةً حوله وكتبت هذا الدم غير مقدس.

بعد ذلك نشرت بعض المجلات غير المرموقة نقودًا عن المعرض، لم أكن أعرف هوية كاتب النقد، وإلا كنت وضعت سرواله على رأسه على حد تعبير كريم:

«هذا يعني نهاية فن الباستيل بالنسبة للفنانة المجهولة التي أحرقت جميع أعمالها الفنية وأرادت من ذلك أن تقول إن فن الباستيل قد أشرف على النهاية.

إن هذه الرؤية الحداثوية هي في منتهى الواقعية والجمال. وكأن شيئًا ما قد انفجر ومزج بين أعمال الفنانة المجهولة وجسدها، لقد شاهدنا تمازجًا بين الاثنَين وكأن الحرائق قد أخذت مسارها من الجسد إلى اللوحة.

إنها قطع وشذرات من جسد عاشق ذابت في العمل الفني، وهذه الرؤية تقترب من رؤية خالق الأثر، والذي أراد أن يقول إن جميع الأساليب الفنية قد بلغت نقطة النهاية، ولكن بلغة حديثة ومعاصرة.

وإضافةً إلى النقاط الإيجابية العديدة في هذه الأعمال الفنية، ثمة نقاط سلبية سيلفها النسيان وسيتم تجاوزها في الأعمال الفنية القادمة. إن ثمة تلويحًا من قبل

الفنانة المجهولة بتقديس العمل الفني، وهو تلويح مكرر، ويضاف إلى ذلك أن هناك إبداعًا ومهارةً في نقل رسالة من المبدع إلى المتلقي، وذلك عبر الخط غير الواضح الذي يشير إلى عدم قدسية الدم المختلط باللوحة.

النقطة المهمة الأخرى التي أتمنى أن تشاهد في أعمال الفنانة المجهولة في المستقبل القريب وفي الأوساط الفنية هي ذلك التوظيف الخلاق لأسلوبَين فنيَّين يضربان جذورهما في الفن الأوروبي الحديث، وكأن اللوحات تعود إلى فنانَين مختلفَين شاركا معًا في معرض مشترك وكان لهما توقيع واحد».

ربما لهذا السبب كانت لهما كراهية شديدة من النقاد، «الفنانة المجهولة»، أنت وأجدادك مجهولون، لقد طلبتُ منهما آلاف المرات أن لا يوقعا لوحاتهما بالحروف اللاتينية، أن يتركا التوقيع، أو أن يوقعا بالحروف الفارسية فذلك أكثر واقعيةً.. ماذا تعني الواقعية إن أصاب صاروخ مرسمك، عليك آنذاك أن تتحدث عن السوريالية، كان لها جسد عاشق.. ارفع قبعتك سيد علي مثل فؤاد البغدادي.. في الأعمال القادمة.. ضغطت الأحزان عليّ وكدت أن أنفجر من البكاء.. أين كريم؟ ليته كان معي لنذهب سوية إلى المقبرة ونبكي عند قبر أختينا.

ثنائيتي

لم يعد الحاج فتاح يذهب إلى روسيا، لقد أوكل أعماله لابنه والد علي. في الماضي، حينما كان النقل يتم على البغال والجمال، كان الحاج فتاح يسافر إلى باكو مرةً كل عامَين. وكان يصاحب قوافله المحملة بالسكر.

كانت قوافله كبيرةً بحيث يمكن رؤيتها من مسافة بعيدة، وكان إسكندر يحدو قوافل السكر من باكو إلى كربلاء والنجف، إلا أن نصف حمول قافلة السكر كان يودع في مخازن الحاج فتاح في منطقة ورامين التي تقع إلى جوار طهران، دون أن يعلم أحد بهذا السر، كان التجار الإيرانيون يذهبون إلى كربلاء والنجف لشراء السكر الذي هو في حقيقة الأمر بضاعة الحاج فتاح، ثم يبيع هؤلاء التجار السكر في طهران وشيراز وأصفهان، وكان الحاج فتاح يبادر ببيع نفس السلعة وبأسعار أرخص من أسعار التجار في الأسواق، وبذلك كان الحاج فتاح يوفر تكلفة حمل نصف البضاعة إلى كربلاء وتكاليف نقلها وإعادتها إلى الأسواق الإيرانية.

لم يعرف أي أحد بهذا السر وكذلك بمكان شراء البضاعة. وكان لسُكر الحاج فتاح شهرةً كبيرةً في طهران، كانوا يسمونه السكر العراقي، لاعتقادهم أنه سلعة عراقية، وكان جميع تجار السكر في العراق يستوردونه من الحاج فتاح.

لقد خطر في بال الحاج فتاح مرات عدة أن يستفسر من إمام جماعة مسجد قندي عن الجانب الشرعي لعمله هذا، وفي كل مرة كان يلغي فكرة طرح السؤال من ذهنه لاعتقاده أن لا إشكال شرعيًا في الأمر، وقد كان إمام الجماعة يكرر من فوق منبره الخشبي وبصوت يكاد يمزق حنجرته: «الناس مسلطون على أموالهم»، وكان

إمام الجماعة ينظر إلى الجالسين حول منبره قائلًا: «العاقل تكفيه الإشارة».

وأخيرًا، في سفرته السابعة وبعد أيام من وصوله كربلاء، رأى الحاج فتاح في الرؤيا أن سيدًا نورانيًا يرتدي دشداشة بيضاء وشالًا أخضر مقطب الحاجبين يسأله: «كيف تتجرأ على زيارة جدي الإمام الحسين عليه السلام؟».

وكان الحاج فتاح يجيب في الرؤيا: «لم أفعل شيئًا يستوجب الحياء والخجل والندم».

وكان السيد النوراني يخاطبه: «وماذا عن باكو ومخزن السكر في ورامين، كربلاء...».

وبينما كان الحاج فتاح غارقًا في رؤياه، أيقظه إسكندر لأداء صلاة الصبح، وجّه إليه الحاج فتاح بعض الكلمات البذيئة ثم شرح له تفاصيل الحلم، استمع إسكندر لجميع كلام الحاج فتاح وكان يبدو كقطة تعرضت لضرب مبرح، وبأمر من الحاج فتاح استرد جميع بضاعة السكر من التجار العرب وأعادها إلى طهران، الأمر الذي أثار شديد استغرابهم.

وهكذا شاعت فضيحة تجارة السكر. لكن التجار المنافسين أشاعوا أن الحاج فتاح أدرك أن سره سيشاع في السوق وقد افتعل حكاية الحلم، وقال آخرون إن الحلم لا اعتبار له ما دام الحاج قد حصل على ما يريد وعزز أوضاعه التجارية.

ومنذ ذلك الحين، وضع الحاج فتاح نقطة النهاية لنشاطه التجاري، وأوكل النشاط التجاري لابنه والد علي.

بعد أعوام عاود السيد النوراني ذو الدشداشة البيضاء والشال الأخضر حضوره في منام الحاج فتاح بابتسامة عريضة وقال للحاج: «عاشت يداك يا فتاح، ولك الآن أن تحصل على ثمرة عملك الحسن».

استيقظ فتاح من حلمه ولكن لا على أثر صوت إسكندر، بل إثر صراخ الخادمة زوجة إسكندر والتي كانت تقيم في الجهة الخلفية من منزل فتاح، كانت تصرخ بسبب حملها الأخير، كانت حبلى بمولودها الذي سيكون أنثى تسمى مهتاب، كان فتاح حائرًا، فما علاقة مولود إسكندر وزوجته بالبشارة التي بشره بها السيد النوراني؟

ما هي علاقة مولود إسكندر به؟ ماذا قال السيد النوراني في الرؤيا، ماذا تعني ولادة طفل لشخص آخر له؟

دارت هذه الأسئلة في ذهن الحاج فتاح دون أن يعثر على إجابة وافية لها في ذهنه الحائر.

***

استيقظ على صوت كنّته، نهض من فراشه وقال في نفسه: «لا يدعونني أغفو إغفاءةً وجيزةً بعد صلاة الصبح»، اتجه إلى رواق المنزل، فتح ذراعَيه ليسمع قرقعة عظام كتفيه، كانت كنّته تصرخ بوجه علي:

- لا تعذبنا أكثر من هذا، ضع الطاقية على رأسك كي أرى إن كانت تناسبك أم لا.

- لن يتغير شكلي كثيرًا، أنا لا أحب هذه الأشياء التي تبدو كملابس مهرج.

- لا علاقة لها بملابس المهرجين، إنها الملابس المطلوبة،

قالت مريم التي كانت منشغلةً بارتدائها فستانها الأزرق مخاطبةً علي: «كان عليك أن تلتحق بفرقة الكشافة».

- لم أختره بنفسي، لقد فرضوه عليّ.

وضع علي مكرهًا الطاقية على رأسه، أدارتها والدته قليلًا كي تكون في المكان المناسب، مسحت ملابس علي كي تزيل الطيات، من تحت ياقة القميص كان يمر شال داكن يتوسط كتفيه، قالت لابنها:

- هذه الملابس لائقة بك، صرت تشبه الرجال الحقيقيين.

- كثيرًا!

حرك علي رأسه قليلًا وخاطب جده على نحو وكأن لا حضور لأمه وأخته في المكان:

- انظر يا جدي العزيز، هذا ما تفعله الأم والأخت العزيزتان، يكاد منظري مرتديًا هذه الملابس المضحكة يصيبني بالغثيان.

- هذه ليست ملابس مضحكةً، لقد تم إعدادها بصعوبة من أجل أن ترتديها، وهذا تكليف من المدرسة.

- أي تكليف هذا؟ و لماذ اختاروني أنا وذلك الولد الغجري لهذا الدور؟ لماذا لم يختاروا كريمًا أو شخصًا آخر.

قالت الأم: «لقد تعلمت أشياء خاطئةً، هل تتوقع أن يرتدي أبناء الحفرة ملابس فرقة الكشّافة، هل تتوقع أن ندفع ثمن هذه الملابس الثمينة كي يرتديها أحد أبناء الحفرة؟».

ارتفع صوت مطرقة الباب، قفز علي متجهًا بسرعة نحو الباب، أمسك بحزام حقيبته وسحبها على الأرض مسرعًا، من خلفه صرخت أمه: «مهلًا، عليك أن تحافظ على الملابس التي ترتديها.. لم تسمح بأن نمرّرك في أول يوم دراسي من تحت المصحف الشريف. لا أعرف من يكون الطارق الذي يجعلك تسرع هكذا».

من باحة الدار ارتفعت قهقه الجد قائلًا: «واحد من أبناء الحفرة يا كنتي الوردة».

وضعت مريم الخمار الأبيض على رأسها، بدت وكأنها نسيَت شيئًا ما فاتجهت إلى غرفة الزاوية، في داخلها ألقت نظرةً على الأطراف، ثم فتحت المخزن ووجدت أكثر من عشرين صندوقًا، وثمة صندوق صغير ذو جرار مخصص للنقود، كان الجد يضع فيه كل يوم مقدارًا غير معلوم من النقود، فقد كان يعتقد أن الحساب يُفقد الأموال البركة.

إنها المبالغ المخصصة لنفقات البيت، يستطيع الأب والأم أخذ ما يحتاجونه دون استئذان الجد، لقد تذكرت مريم أن الجد أبلغها وعليًا أن بإمكانهما أخذ ما يريدان من النقود دون رخصة من أحد، تمامًا مثلما يفعل والداهما، فإنهما بلغا سن الرشد.

أخذت حفنة من القطع النقدية المعدنية والورقية ووضعتها في جيب فستانها. ودّعت جدها وأمها واتجهت نحو المدرسة.

كانت تسير خائفةً، في العام الماضي أخبرتها مديرة مدرسة إيران أن عليها أن تأتي إلى المدرسة في العام القادم دون ربطة وأن ترتب ضفائر شعرها وأن ترتدي

فستانًا أبيض، وقالت إن عليها إطاعة المقرّرات وإن كونها الأولى بين زميلاتها وأكثرهن تفوقًا في الدراسة لن يشفع لها، وقد نبهتها إلى وجود بعض الطالبات اللواتي لا يرتدين الحجاب مع كونهن بنات رجال دين ومن عشيرة الغجر، بالرغم من كون هؤلاء شديدي الغيرة بل لا ينافسهم في غيرتهم أحد على بناتهم، وأضافت المديرة قائلةً لها: «بالمناسبة، والدك وجدك يسافران كل عام إلى روسيا وقد اطلعا على حضارة أهاليها ورقيّهم، لقد رأيت والدتك أكثر من مرة وهي أقل تشددًا في ارتداء الحجاب منك، إنها غير متشددة مثلك في ارتداء الحجاب، وأنت تبدين كقرص الشمس (أزاحت الخمار قليلًا من رأس مريم) كم تبدين جميلة دون هذا الخمار. شعرك، جمالك، شبابك، كل هذه الأشياء الجميلة تتفسخ تحت هذا الخمار».

- نحن لسنا غجريين ولسنا من أبناء الحفرة، ونعرف جيدًا الأشياء السيئة، نحن سكان طهران الأصليين وعشيرة الحاج فتاح تنتمي...

- يا لهذه العبارات النارية... المهم عندي أن تدركي: إما التعليم وإما الحجاب.

سحبت مريم الربطة إلى الأمام بيدها لتغطي رأسها تمامًا بعد أن سحبتها مديرة المدرسة إلى الوراء قليلًا، كانت قد ضفرت جدائلها بأشرطة بيضاء.

حينما مرت من أمام محل درياني أثناء خروجها من البيت، صادفت عليًا وكريمًا، كانا واقفَين أمام صندوق الحساب، وكان السيد درياني يبيع لهما الحلقوم، كان وجهه شديد الاحمرار ويبدو أنه حلق لحيته بشفرة قديمة.

حينما رأى علي مريم ركض نحوها وخاطبها:

- لقد انتهى رصيدك. أما أنا فلا يزال رصيدي من نقود أبي وفيرًا وسيظل وضعي المالي جيّدًا...

- من قال لك إن رصيدي قد انتهى، لستُ بحاجة إليك، لدي ما يكفيني من المال.

سحب علي رأس مريم إليه وقال لها بهدوء:

- إذن، من الذي لعق تلك المصاصات الكثيرة، هل تريدين أن أقول لك من

لعقها؟ إنهنّ فتيات الصف التاسع من مدرسة إيران، هل حسبت نفسك ذكية؟

تظاهرت مريم بأنها فهمت شيئًا ما:

- سأعلم هذا الرجل الأحمق معنى أن يكون فضوليًا.

ثم واصلت طريقها متجهةً نحو المدرسة، لكنها لبثت لحظةً مخاطبةً علي:

- وبالنسبة لك أيها المسكين، فعليك أن تهتم بأخبارك المخزية وهي كثيرة كما تعلم.

- لا خزي ولا عار يخصني.

- مهما فعلت فإنني لم أرتكب عار شراء أشياء لأبناء الحفرة، إنه عار يتخطاك وسوف يصيب العائلة.

مع صوت كريم وهو يلقي السلام، لزمت مريم الصمت، ابتلعت ريقها، ودون رغبة رددت عبارات التحية من باب المجاملة.

في الطريق كانت تفكر باعتبارها الذي فقدته، مرت من جوار العميان السبعة، قال الأول:

- سبعة عميان بدرهم واحد، وليحفظك اللّه أيتها الأخت من الإفلاس.

وقفت مريم مندهشةً من معرفة العميان بكونها بنتًا ونظرت إلى الأعمى، كانت حدقتاه فارغتين تمامًا، أخرجت عدة قطع نقدية من فستانها الأزرق، شكرت اللّه، وأعطتها للمتسول الأول... مرّر الأعمى السكة النقدية على حدقتيه ثم قبلها وقال بصوت مرتعش:

- ليرزقك اللّه.

انتظرت إلى أن جاء دور الأعمى الأخير، وأعطته جميع سكك النقود السوداء. كانت تشبر[١] الأرض بعينها. ضحكت في قرارة نفسها وتخيلت أن عائلة فتاح ستوصل العميان السبعة بعد ثلاثة أيام إلى آخر الشارع.

حينما وصلت المدرسة كان جرس الاصطفاف قد دُق، والتلميذات واقفات

(١) أي تقيس. [المحرر]

في طابور الاصطفاف. ومن بين العشرات، لُمحت اثنتان فقط ترتديان الحجاب، فتيات الصف التاسع اللواتي حصلن على مصاصات الحلوى من مريم فسحن لها مكانًا في الطابور. في هذا الصف المكوّن من خمس عشرة طالبةً، كانت مريم وتلميذة أخرى فقط ترتديان الربطة.

كانت الفتاة المحجبة الأخرى تتعرض للتجريح من قبل بقية الطالبات:

- ألا تشعرين بالحرارة العالية تحت هذا اللحاف؟

- هل أنت وحدك تسكنين تحت هذا اللحاف؟

- ماذا يوجد تحت الحجاب؟

- هل تسمعين صوتنا رغم كل هذا الحاجز بينك وبيننا؟

ثم يبدين تجاهها حركات ويحركن شفاههن دون أن ينطقن بكلمة!! للإيحاء بأنّ عليها أن لا يراها غير محارمها.

كانت مريم تخاف من هذا المشهد، ولكن أحدًا من زميلاتها لم يزعجها لحسن حظها.

كانت الحصة الأولى مخصصةً للأمور الشرعية، وكانت معلمة هذه المادة، وحدها ودون بقية المعلمات، تضع برقعًا على وجهها، كانت تنطق الحروف من مخارجها بشكل سليم، وتغلّظ حرف الحاء حينما توبّخ مريم: «اسكتي يا فتاح»، وهو لقب عائلة مريم، فكانت مريم تخاف بشدة من هذه الحاء الغليظة وتلزم الصمت فورًا.

بعد ساعة من درس الشرعيات بدأ درس النشيد، وكان معلم درس النشيد أرمنيًا تسميه الطالبات «مسيو وارطان»، كان يعزف بآكاردئونه نشيد «البنات الجيّدات اللائقات» ثلاث مرات، وكان يعتني بمظهره ويدهن شعره الأبيض، وكان منشغلًا طوال الوقت بعمله يقفز من مكانه منسجمًا مع نغمات النشيد، وبذلك كان يكسب اهتمام الطالبات ويشوّق الطالبات إلى الاهتمام بالموسيقى، كنّ يؤذينه في بعض الأحيان، ولكنه كان صبورًا يتجاوز إساءة الآخرين ويبدي عدم اهتمام بكلامهن وسلوكهن الجارح. كانت مريم تنهض من مكانها أحيانًا وتقول:

- هل تسمحين لي سيدتي المعلمة بالسؤال، عفوًا سيدي المعلم، لقد نسيت.

ثم تنفجر ضاحكةً مثيرةً ضحك الطالبات معها.

في الساعة الأخيرة حضرت مديرة المدرسة موعزةً إلى الطالبات وللمرة الأخيرة عدم وضع ربطة على رؤوسهن في المدرسة، ثم انفردت بمريم. في الوهلة الأولى داهم الخوف قلب مريم، لكنها أخفت خوفها دون أن تخفي غضبها الذي برز على حاجبَيها المقطبَين، كانت تهيئ نفسها لجواب شاف وحاد، رفعت رأسها بانتظار كلام المديرة.

- عزيزتي مريم، بعد قليل يبدأ درس الرسم، أطلب منك أن لا تحضري الدرس، اذهبي للصف الأول وحاولي أن تعلمي طالبات الصف الأول الرسم، بالمناسبة لقد استأذنت معلمة درس الرسم وأخبرتها بعدم حضورك وقد وافقت على ذلك.

تنفست مريم الصعداء، وقالت لمديرة المدرسة: «سمعًا وطاعةً»، واتجهت نحو الصف الأول.

كريم وعلي كانا متجهَين إلى مدرستهما: ابتدائية الحكيم نظامي، وكان الأول يحمل كيسًا ممتلئًا بالحلقوم، يقدمه بين حين وآخر لعلي لتناول قطعة منه.

- تفضل، خذ أيها الحمار إنه مدفوع الثمن من أموال والدك!

فيضحك علي.

كان جد علي يعطي لدرياني مبلغًا من المال مخصص نصفه لما يشتريه علي ونصفه الآخر لمريم. حيث كانت عائلة فتاح تأبى أن يدخل أبناؤها محل درياني ويدفعوا بأنفسهم ثمن ما يريدون شراءه، وذلك لتمييز أولادها عن سائر أبناء الحي، فيخصصون لهم رصيدًا في محل درياني يمكنهم الشراء بمقداره بل وأكثر قليلًا في بعض الأحيان. وقد كان لمريم رصيد لا في محل درياني فقط، بل في محل كماليات إسلامي ومحلات أخرى كذلك.

حين وصولهما المدرسة، كان كريم قد التهم جميع قطع الحلقوم. جنب بوابة

المدرسة قال علي: «لقد أنهيت الحلقوم كلّه، ارمِ الكيس»، فقال كريم: «كلا، اصبر قليلًا، أريد أن أحرقه خلف هذا القاجاري الوقح».

ذهبا معًا إلى طابور الاصطفاف، وقفا في نهايته، وكان كريم أطول من سائر التلاميذ، حيث كان رأسه يظهر فوق جسده النحيف وكأنه علم. رفع أحد أفراد فرقة الكشافة العلم إلى الأعلى، وردد جميع الطلاب تحت العلم نشيد «يا إيران».

كان علي يقف خلف كريم مباشرةً، أخرج قبعته وأرخى ركبتَيه كي يخفض قامته لئلا يراه أحد، إلا أن المعاون ذا الشارب الكث رآه من على بعد مسافة. ضربه ثلاث ضربات خفيفات بالعصا التي كان يحملها على باطن يده ووقف بعد انتهاء النشيد على المنصة وقال:

- لماذا تخفي نفسك يا علي فتاح، أيها الوقح لماذا لم تحضر النشيد؟ كان عليك أن تقف إلى جوار قاجار.

- عذرًا أستاذ، لقد تأخرنا في المجيء.

قال كريم دون أن ينظر إلى المعاون:

- لا يستطيع أحد الوقوف جنب قاجار لأن هيكله يعادل فيلَين.

انفجر الطلاب ضحكًا، وضحك المعاون هو الآخر، وكان كريم ممسكًا بكيس الحلقوم دون أية مبالاة، لم يستطع قاجار أن يلتفت بسبب رقبته الضخمة، لذا استدار بكامل جسده نحو كريم، نفض جثته الضخمة وقفز نحوه.

- الآن سوف أفهمك ماذا يعني الفيل أيها النحيف.

مسك المعاون قاجار من كتفه وأعاده إلى مكانه في الطابور، وطلب من التلاميذ أن يذهبوا إلى الصف بانتظام واحدًا تلو الآخر لكنه أخرج عليًا وكريمًا من الطابور.

- أنتما تثيران المشاكل منذ اليوم الأول ولا بد من معاقبتكما، سأذيقكما طعم الفلقة.

أخرج قاجار نفسه من الطابور للحظة ليستهزئ بعلي وكريم وليبدي فرحه بالعقاب الذي ينتظرهما.

أمر المعاون كريمًا أن يمد يده إلى الامام، ومد علي يده أيضًا. رفع المعاون عصاه وأنزل ثلاث ضربات موجعة على راحة يد كريم. في بادىء الأمر لم يكن الوجع شديدًا، كان كريم يشعر بحرقة تنتشر في يده وكان عليه أن يضع يده في حوض الماء ليخفف من وجع الضربات، لكنه كان يحرك شفتيه دون أن يصدر أي صوت من فمه كأنما يسب أحدًا ما.

انتبه المعاون لحظةً لحركة شفتَي كريم فوجّه له إهانةً شديدةً قائلًا له: «يا ابن الحفرة».

امتلأت عينا كريم بالدموع لكنه تمالك نفسه ولم يبكِ.

نكّس علي رأسه وصار ينظر إلى قدمَي كريم الحافيتَين، أغمض علي عينَيه وحاول أن يحبس أنفاسه، كان بانتظار ضربة العصا. قال المعاون: «لم يحدث من قبل أن يتعرض طلاب فرقه الكشافة للمعاقبة خصوصًا وإن كان من أبناء عائلة الحاج فتاح».

فتح علي عينَيه ونظر إلى كريم، لم يقدر كريم أن يتماسك عن البكاء بل انخرط في نوبة بكاء حادة إثر التمايز الذي مارسه المعاون بينه وبين علي، أمسك علي بيد كريم ورافقه نحو حوض الماء.

قال كريم مهددًا: «سوف أجعل سروال قاجار فوق رأسه».

– هل كانت الضربات موجعةً؟

– سوف ألقنه درسًا لن ينساه طوال حياته.

– هل تحرقك يدك؟

كان كريم يحدّث نفسه، وبعد لحظة غمس يده في حوض الماء، سمع علي صوتًا صدر من يد كريم يشبه صوت سمكة تقلى بزيت مغلي، اجتازا سويةً الممرات الحديثة التي بنيت في المدرسة، قال كريم: «في الدرس القادم سوف ألتقيه، أقصد هذا الغجري الأحمق الذي بسببه تعرضنا للعقوبة، أقصد بسببه تعرضت للضرب بعصا المعاون».

حينما دخلا الصف كان علي يفرك يدَيه. كان يقربهما من فمه وينفخ فيهما،

نظر كريم بتعجب إلى علي، كان متحيرًا لماذا يتظاهر علي بالألم مع أنه أعفي من العقاب. اتّجها نحو آخر رحلة وجلسا في نهاية الصف. كانت الرحلات من مقاس مخصص لثلاثة أشخاص وكان يشاركهما في رحلتهما مجتبى، وهو طالب صامت ونادرًا ما يتكلم. لا أحد يعرف شيئًا عن حياته وكانوا يسمونه مجتبى صفوي. أمسك مجتبى بيد علي، ثم أمسك بيد كريم وخاطبه قائلًا:

- يبدو أنك تعرضت لضربات أكثر.

من المقاعد الأمامية خاطب قاجار كريمًا:

- يا كريم النحيف، من منكما ضُرب أكثر أنت أم طالب الكشافة؟

لم يجبه كريم.

- عدت الآن إلى صوابك، أليس كذلك؟

وحينما لم يحصل قاجار على جواب من كريم، ضحك بصوت عالٍ ووجّه كلامه إلى علي:

- عليك الآن أن تفهم أن من الخطأ أن يصادق طالب مثلك طالبًا من أبناء الحفرة.

تذكّر علي ما قاله له جدّه: «الصداقة لا تضع حدًا بين من هو من أبناء حي الحفرة ومن هو من خارجها». لكنه ارتأى أن لا يجيب قاجار.

قال قاجار: «لقد ذاقا جزاء أفعالهما. خصوصًا هذا الأحمق كريم ابن الحفرة الذي يتفاخر بكيس الحلقوم، أكيد أنه ابتاع الحلقوم من أموال الحاج فتاح، بالطبع الحاج فتاح هو شخص من أصل ونسب غير معروف».

كسر علي الصمت: «ماذا تقول؟ نحن بلا أصل ونسب؟ هذا كلام مضحك أيها الغجري. من هم أجدادك كي تتطاول بهذا الكلام؟ ألست من أبناء المتسولين الذين يعتاشون على سقط المتاع؟».

- إذهب وسل جدك ماذا يعني قاجار؟ سله حينما كان يذهب إلى روسيا، ماذا كان يتناقل الروس عن مفاخر جدي عباس ميرزا؟ ضحك ساخرًا وأضاف:

«بالطبع لم يكن للحاج فتاح وقت كي يستفسر عن مفاخر أجـدادي، فهو كان منشغلًا طوال الوقت بشراء السكر الذي كان ينقله إلى كربلاء ليخدع به التجار الإيرانيين».

– لا تذكر اسم جدي، ففمك في غاية القذارة.

– عليك أنت أيضًا أن لا تتعرض لأجـدادي، فالجميع يعرف مفاخر عائلة قاجار.

أسرّ محبتي لعلي شيئًا ما، فقال علي بصوت مرتفع جدًا: «نعم الجميع يعرف مفاخركم خصوصًا مطبخ «مهد عليا»».

بصوت منخفض جدًا، وجّه قاجار كلمات بذيئة لمجتبى ولزم الصمت، وكأن شخصًا ما ألقى سطلًا من الماء البارد فوق رأسه.

انتبه علي وكريم للخزي والعار اللذين جعلا قاجار مطأطئ الرأس. ثم توسلا لمجتبى أن يشرح لهما حكاية مطبخ «مهد عليا». مسح مجتبى بيده وجهه الطويل وقال: «مهد عليا هي والدة الملك ناصرالدين شاه، عشقت وهي في سن متأخرة جدًا من العمر، وكانت في حقيقة الأمر تعُشق طبّاخ مطبخ البلاط، فباءت جميع محاولات الملك والبلاط بالفشل لأن مهد عليا كانت مغرمةً بما لا حد له بالطباخ.

وكان من الصعب على البلاط أن يحضر شخصًا ليقرأ خطبة عقد قرانها، لذا اضطر إلى (...) ومع أن القاجاريين معروفون بسلوكهم المشين وانعدام ذرة الحياء عندهم إلاّ أن حكاية مهد عليا هي الأكثر عارًا في تاريخهم».

ضحك كريم فرحًا بالحكاية وقال: «أحسنت يا سيد مجتبى. لقد استمتعت بهذه الحكاية وكأنني قد التهمتُ قدرًا مملوءًا من اللحم الطازج، لقد أخرستَ هذا القاجاري الوسخ، حينما يتعرض أحد للحاج فتاح بكلام سيء كأنه وجّه الإهانة لي. صديقي العزيز مجتبى أنت لست غريبًا عنّا وأكيد أنك تعرف حقيقة أننا مدينون له بكل ما نملك».

وكان يبدو أن عليًا لم يفهم مغزى حكاية السيدة مهد عليا، كان ينظر إلى كريم ومجتبى منشغلَين بالثرثرة.

- لكني لم أفهم ما هو الأمر الفظيع في الحكاية؟

ضحك كريم وخاطب مجتبى: «ما زال علي طفلًا، إنه لا يفهم هذه الأمور»، ثم قال لعلي: «يعني أن مهد عليا صارت زوجةً للطباخ دون أن يتزوجا وبدون حفل زواج، أي جمعتهما علاقة غير شرعية، هل فهمت؟».

هزّ علي رأسه بعلامة السلب وغرق في التفكير، فتح دفتره، ومرةً أخرى قرأ في سره العبارة المرتسمة على الصفحة الأولى «الصداقة لا تميز بين مَن هو مِن محلة الحفرة أو من خارجها».

***

جاء المعاون إلى الصف، رتّب شعر شاربه الكث ثم اتّجه نحو نهاية الصف ونظر إلى علي الذي كان منشغلًا بالكتابة وقال: «مجتبى وكريم، افسحا الطريق لعلي كي ينهض»..

ثم طلب من علي أن يجلس في المقاعد الأمامية إلى جوار قاجار بالضبط قائلًا له: «من الآن وصاعدًا تجلس جنب قاجار، ولن تغير مكانك أبدًا، طالب فرقة الكشافة إلى جوار طالب فرقة الكشافة، وكما يقول المثل: الطيور على أشكالها تقع».

كان الامتعاض باديًا على وجه علي وهو يوافق على الجلوس جنب قاجار. حرّك قاجار جثته الثقيلة ليفسح المكان لعلي، أدار علي وجهه نحو كريم وأشار إلى رأس قاجار استهزاءً ورفضًا.

رتّب المعاون شاربه الكث مرةً أخرى وخاطب عليًا: «ليس من حقك بعد اليوم الجلوس إلى جوار كريم، عائلتك هي من طلبت ذلك».

- عائلتي أنا، من قال ذلك، لا أكاد أن أصدق ذلك.

فكّر المعاون قليلًا وقال: «والدك هو من طلب ذلك».

حينما خرج المعاون من الصف، خاطب علي كريمًا قائلًا: «لم يفلح السيد المعاون في ذكر دليل مقنع»، وخاطب التلاميذ قائلًا: «يقول السيد المعاون إن أبي طلب ذلك، علمًا أن أبي هو الآن في روسيا ولم يعد بعد من سفره».

ضحك كريم وقال:

«ربما أرسل والدك من روسيا برقيةً إلى أريَلِ شارب السيد المعاون».

ضحك جميع التلاميذ.

لم يقل قاجار شيئًا، كان يحدق بوجه علي بحاجبَيه المعقودَين، ثم نكّس رأسه وخفض نظراته وراح يتأمل سروال علي وهو سروال قصير خاص بفرقة الكشافة.

كان يود أن يتحدث مع علي لكنه لم يجرؤ على ذلك.

قال قاجار:

- أتعلم يا علي؟

- ماذا؟

- لا، لا شيء.

قال علي: «لا تتكلم معي أبدًا».

صمت قاجار وانشغل بمطالعة كتاب دراسي.

***

لم تكن المرة الأولى التي تلقي فيها مريم دروسًا في الرسم لطلاب الصف الأول الابتدائي نيابةً عن معلمة مادة الرسم، قامت الطالبات من مكانهن لأداء تحية القيام. داهم الخوف قلب مريم، ماذا سوف تقول للطالبات في أول يوم دراسي؟ كيف ستعلّمهن الطريقة المناسبة للرسم؟ تريثت قليلًا، ونظرت إليهن نظرةً ثاقبةً، كنّ يرتدين جميعًا بدلات كحلية دون ربطات للرأس وهو الزي الإجباري، كان شعرهن مضفورًا ومرتبًا، قالت مريم: «جلوس». فأخذت الطالبات مكانهن على المقاعد، جلست مريم على الكرسي المخصص للمعلمات، تذكرت معلمة مادة الدين، التي كانت تستفسر عن أسماء الطالبات واحدةً تلو الأخرى، ثم سألتهن عن شغل آبائهن ومحل إقامتهن، بدأت مريم نفس العملية وشرعت بذلك من المقاعد الأمامية، كانت تقلد دور معلمة مادة الدين، بصوت صافٍ طلبت من تلميذة تجلس في مقعد أمامي أن تنهض وتذكر اسمها واسم عائلتها بصوت مسموع ثم قالت لها:

«اذكري شغل والدك ومحل إقامتك».

قامت الطالبة من مكانها وكانت متضايقةً من كونها الأولى في هذه المهمة، نظرت إلى المعلمة الشابة «مريم» ثم قالت: «اسمي «زينت»»، وانخرطت في البكاء بصوت عال، خافت مريم في الوهلة الأولى مما حدث، اتجهت نحو زينت ورفعت رأسها بيدها قليلًا، وقد شرعت ثلاث طالبات أخريات بالبكاء، احتارت مريم ماذا عساها أن تفعل كي تسيطر على الأمر، أصاب الدوار رأسها، كانت تقطع الصف ذهابًا وإيابًا كي تعيد الهدوء، طالبات المرحلة الدراسية الأولى كنّ قد ادّخرن بكاءهن لهذا الوقت تحديدًا، شق البكاء طريقه إلى مريم أيضًا، نظرت إلى الطالبات ورأتهن يبكين باستثناء طالبة واحدة كانت جميلةً وجذابةً لها خدّان ممتلئان وشعر بني طويل غير مضفور، كان وجهها يبدو مألوفًا بالنسبة لمريم، لقد استأذنت الطالبة، وافقت مريم على الاستئذان بالكلام.

– عفوًا سيدتي، عليكِ أن تذكري اسمك أولًا، ثم يأتي دورنا.

استحسنت مريم كلام هذه الطفلة الذكية، نظرت إليها، وقالت في نفسها: هل من المعقول أن يكون لهذه الطفلة الذكية الجذابة سبعة أعوام من العمر فحسب؟

ضربت بقوة على الطاولة، مقلدةً معلمة مادة الدين، ثم ابتسمت بلطف وقالت: «أيّتها الطالبات العزيزات، أنا مريم فتاح، حفيدة الحاج فتاح الفخار، والدي تاجر السكّر وبيتنا يقع في بداية زقاق مسجد قندي. أنا مكلفة أن أعلمكم الرسم، ومن حقكم أن تعرّفوا أنفسكم كما فعلت».

مرةً أخرى طلبت من الطالبة التي تجلس في صدر الصف أن تعرّف نفسها، كانت الطالبة قد صمتت، حاولت أن تتجاوز العبرات التي كانت تعصر حنجرتها:

– أنا زينت جواهري، ست مريم، بيتنا يقع في مقربة من بيتكم، هل تذكرين أنك جئت ذات مرة مع والدتك لشراء الجواهر؟

– أنا بنت رجل يعمل عاملًا في خان جدك.

– أنا أيضًا من جيرانكم، أكيد أنك تعرفينني، أنا البنت الصغيرة للميرزا إبراهيم.

- أنا بنت لبّان معمل الطابوق التابع لوالدك، هل تتذكرين حينما جئنا إلى بيتكم في يوم العيد؟ وقد أهدى جدك نسخةً من المصحف الشريف لنا.

- أنا بنت السيد درياني، قال لي والدي أنك اشتريت لجميع زميلاتك في الصف مصاصات حلوى.

ألقت مريم نظرةً معبرةً إلى بنت درياني، وراحت تفكر بخطة تلقّن بها درياني درسًا يجعله يتوقف عن أفعاله البذيئة. لن أشتري منه شيئًا من الآن فصاعدًا، قالت في سرها، ثم بددت هذه الفكرة: في هذه الحال سأكون قد خسرت المعركة أمامه لأنه سوف يتذرع بانتهاء رصيدي لديه، وسوف تعرف أمي بالأمر.

كانت مريم سارحةً في أفكارها فتمتمت قائلةً: إنه لم يقل شيئًا، إنه قال لعلي. إنه لم يقل لشخص غريب...

قامت الطالبات بتقديم أنفسهن واحدةً تلو الأخرى، ثم وصل الدور إلى الطالبة اللبقة الجذابة ذات الشعر البني الجميل، نهضت من مكانها، كانت مريم تحاول في هذه اللحظة أن تتذكر أين رأتها سابقًا دون أن تجدي محاولة الاستذكار. نهضت الطفلة الجميلة من مقعدها، فتحت شفتيها الشبيهتَين ببرعمَين وبابتسامة أضاءت غرفة الصف وبصوت لطيف قالت:

- أنا مهتاب، بنت إسكندر، أمي تعمل...

قطعت مريم كلام مهتاب، لم ترغب أن تعرف الطالبات شيئًا أكثر، ومعلوم أن ذلك لم يكن مهمًا لمهتاب، فطفلة بعمرها يمكنها أن تقول كل ما تعرفه، اندهشت مريم قفزت من مكانها وضمت مهتاب إلى صدرها وقالت بصوت هادئ:

- آه أيتها الجميلة الرائعة، لم أكن أعرف أنك بلغت العام السابع، آه كم تبدين جميلةً ورائعةً.

ابتسمت مهتاب فيما كانت مريم مبهورةً بجمالها، ضمتها مرةً أخرى لصدرها. قالت إحدى الطالبات بصوت منخفض لزميلاتها: ها هي تضمها لصدرها مرةً أخرى، ربما تريد أن ترضعها.

خطر على بال مريم حلٌ يُسهل من مهمتها، أجلست مهتاب على طاولة

مخصصة للمعلمات وطلبت من الطالبات أن يرسمن وجهها، فكرت أن تقوم هي أيضًا برسم مهتاب لكنها قبل أن تباشر الرسم سمعت مهتاب تقول:

– عذرًا يا سيدة مريم وماذا سأفعل أنا؟

ضحكت مريم وأجابتها: «بإمكانك أن ترسمي وجه المعلمة». رفعت مريم وجهها قليلًا، قالت مهتاب: «أي معلمة؟».

– أنا، فبديهي أنني معلمتك في مادة الرسم، أنا مريم فتاح.

ضحكت مهتاب وبدأت الرسم، بعد دقائق صارت الطالبات يتبادلن أقلام التلوين البنية لرسم شعر مهتاب، باستثناء مهتاب التي كانت تنظر بتمعن إلى مريم، لم تكن تعرف ما هو سبب شبه حواجب مريم المقوسة المتشابكة بحاجبَي أخيها علي.

رفعت مهتاب يدها وقالت لمريم إنها انتهت من رسم وجهها، استلمت مريم ورقة الرسم، ونظرت بدقة إليها، نفس الحاجبَين المتشابكَين اللذَين طالما رأتهما في المرآة، ونفس الخدَّين المتوردَين، لكن الشعر كان قصيرًا جدًا، يشبه شعر الأولاد، مررت أصابعها بين جدائل مهتاب البنية اللون وقالت:

– أين شعري إذن؟ أنا أيضًا لدي شعر طويل، هل تريدين أن أرفع الحجاب كي تشاهدي شعري؟

– كلا، ولكن ألم يعجبك رسمي؟

نظرت مريم إلى الرسم مرةً أخرى، شعر شبيه بشعر الأولاد وحاجبان متشابكان وخدان أحمران، ضحكت وقالت في نفسها: «يبدو أن مهتاب رسمت بورترية علي»، سمعت مهتاب ذلك فضحكت وفاحت رائحة ابتسامتها في أرجاء الصف.

– وهل يزعجك هذا الأمر؟

نظرت مريم إلى مهتاب وقالت:

– ذكاؤك يفوق عمرك.

***

حينما رنّ الجرس معلنًا انتهاء الدرس، خرجت مريم من الصف، خطت خطوات رصينةً كما كانت تفعل معلمة مادة الدين، ثم نسيت أنها كانت معلمةً لبعض الوقت، فصارت تركض كبقية الطالبات، اتجهت نحو الطالبات الأكبر سنًا، نحو طالبات المرحلة التاسعة، زميلاتها شاهدنها تركض لاهثةً.

– ماذا حدث أيتها المعلمة؟ لا تخافي. كانت حصة درس الفن، وأنت معلمة وأستاذة جيدة فيه، هل أزعجتك الطالبات؟

ارتجعت مريم أنفاسها، ثم قالت:

– اليوم أدعوكم أيضًا لتناول كل ما ترغبون به.

– لكنك أعطيتنا مصاصات حلوى يوم أمس، فماذا حدث اليوم كي تجددي الدعوة؟ أمس كانت المناسبة بدء العام الدراسي فما هي مناسبة اليوم؟

– لا حاجة للسبب. هل تحتاج الدعوة إلى سبب؟ اعتذر بعضهن عن قبول الدعوة لكن حوالي اثنتَي عشرة طالبةً وافقن على دعوة مريم. كنّ يمشين سويةً ويتمتمن ويضحكن معًا.

– هي حفيدة الحاج فتاح وينبغي أن تدعو زميلاتها. – الجود بالموجود – يا مريم، ربما وقعت عقدًا مع درياني التركي؟ أو عشقتِهِ؟

– أولًا أرجوكن الحفاظ على الوقار حينما تكنّ في الشارع، لا بد من رعاية الآداب، ثانيًا لن نذهب إلى درياني التركي، سوف نمضي نحو عطار في السوق الصغير.

– درياني عنده علك أيضًا...

قالت مريم: «لهذا السبب بالضبط سوف نذهب إلى عطار آخر، وهناك شرط».

– ما هو؟

– لا أحد منكن يتناول العلك إلا حينما أخبركن بالوقت المناسب.

وافقن على شرط مريم. وقفن جنب محل العطار، كان المحل الأول في سوق

إسلامي الصغير المسقف، يقع في الجهة المقابلة لدكان موسى القصاب. كان العطار يجلس أمام الدكة التي يضع عليها الميزان وآلة حساب قديمة ومجرًا للنقود. طلبت مريم جميع العلك الموضوع في علبة زجاجية أسطوانية الشكل، استغرب العطار في الوهلة الأولى، إذ لم يصادف فتاتًا تشتري كل هذه الكمية من العلك، كان يهم بسحب العلبة الزجاجية لكن توقف للحظة وقال بصوت عال:

- عليك أن تسددي الثمن أولًا.

ارتفع صوت موسى القصاب من الجهة الأخرى وكان يرفع ذبيحةً من على ظهر البغل، قائلًا:

- صه أيها الحاج، فما معنى النقود؟

- هل تمزح معي يا موسى أم أنك تهذر؟

- أقولها جادًا. صه، فهذه الأخت هي من عشيرة الحاج فتاح.

قفز العطار، سلّم علبة العلك لمريم وقال لها:

- خذيها يا ابنتي مع العلبة فذلك أسهل لك.

- كم الثمن؟ أرجو أن تضيف سعر العلبة أيضًا.

- ليس مهمًا، سوف يسدد جدك ثمنها.

أخرجت مريم عملةً ورقيةً جديدةً من فئة الخمسة ريالات من جيبها ووضعتها على الدكة.

كاد العطار أن يطير من الفرح حينما رأى العملة الورقية.

- إنه مبلغ كبير.

أعاد إليها بقية الحساب وطلب منها أن تبلغ سلامه إلى أهلها وأردف قائلًا: «بالهناء والشفاء»، ثم قطع معها مسافةً رافقها عدة خطوات إلى الخارج.

طأطأ موسى القصاب رأسه كي لا تقع نظراته على نظرات مريم من باب

الاحترام وودعها. أخذت الفتيات العلبة الزجاجية من يد مريم، لكن مريم لم تسمح لهن أن يأخذن شيئًا منها. ثم اتجهن نحو مسجد قندي.

- سوف نتقاسم العلك عند دكان درياني، لا تسألوني عن السبب. القضية مفصّلة.

كانت مريم تتحدث لزميلاتها، لكن درويشًا قطع كلامها حينما ردد بصوت مرتفع عبارة: «ياعلي مدد». كانت لحيته بيضاء تشبه تمامًا ملابسه البيضاء، وكان يحمل كشكولًا فضيًا. فتحن له طريقًا كي يمر لكنه توقف لحظةً، بصق في ساقية الماء، ثم تنحنح وقال وكأنه يحدث نفسه:

- هي شابة، منكسرة القلب، يا ليت انكسر رأسها ولم ينكسر قلبها.

ضحكت الفتيات وضحكت مريم كذلك، عاد الدرويش مصطفى إليهن، اقترب من مريم وشهر الفأس بوجهها. خافت مريم وتراجعت إلى الوراء، وقال: «هناك شابة جرحت مشاعرها وهي تحاول أن تنتقم، من المؤكد أنها ليست المرة الأولى التي يجرحون مشاعرها. يا علي مدد».

قالت الفتيات: «لهذا السبب يسمونه الدرويش المخبّل». حينما بلغن مسجد قندي، اجتمعن حول مريم، وقفت مريم أمام دكان درياني مباشرةً. أمسكت بزجاجة العلك على نحو يتيح لدرياني رؤيتها، فتحت غطاء الزجاجة وأعطت للفتيات مقدارًا من العلك. كان درياني يقف جنب باب دكانه، يمسح بيده على وجهه الخشن ويلعن الشيطان باستمرار. رأى الفتيات وقد حصلت كل واحدة منهن على قطعة من العلك بحجم نصف جوزة، رأى الزجاجة تفرغ من العلك ورأى الفتيات يتشكرن مريم ويودعنها. لم يتحمل درياني المشهد وقال:

- السيدة مريم، عاشت يدك! - ضرب يدًا بيد - اللعنة عليّ وعلى طيبتي، أنا أيضًا أبيع العلك، ربما حدث سوء تفاهم بيننا وأتمنى أن لا تكوني غاضبةً عليّ.

أدارت مريم رأسها وقالت مستهزئةً:

- لقد انتهى رصيدي من نقود أبي لديك ولم أرغب في أذاك.

- ما هذا الكلام؟ أي رصيد؟ إن رصيدك مفتوح دائمًا. نحن نعترف بالجميل لأبيك ولجدك، أي نقود؟ أي رصيد؟

قطع صوت علي كلام درياني وهو يلقي التحية، التفتت مريم فرأت كلًا من علي وكريم ومهتاب، أعطت مريم حصتها من العلك لمهتاب، فتحت مهتاب فمها الشبيه باللؤلؤة فرحةً بقطعة العلك، وتشكرت مريم:

- شكرًا سيدتي المعلمة.

قال علي: وماذا عن حصتي وحصة كريم أيّتها المعلمة؟

- عذرًا، كان الحفل مخصصًا للإناث.

ألقى علي نظرةً على زجاجة العلك:

- ما هذه؟

- كانت أيضًا مخصصةً لحفل الإناث وعليّ أن أتلفها كي لا تراها أمي.

ضحك كريم وأخذ الزجاجة من يد مريم.

- سأقوم بإتلافها بنفسي يا مريم.

ودّع كريم ومهتاب عليًا ومريم واتجها نحو محلة الحفرة، وشق علي ومريم طريقهما نحو البيت، أما درياني فقد دخل دكانه وهو يتأوه.

ثنائيته

كنت قد كتبت أن ثنائيته تعني ثنائيتي، أولًا لا يمكن لي أن أكون في مرتبة الثاني، ثانيًا أن أكون بديلًا أو ثانيًا، فذلك كذب، وهذا ما لا أرتضيه، إن جميع أهل الحي يدركون جيدًا أنني كنت على الدوام إنسانًا حقيقيًا.

وأود أن أضيف أن الأشياء الحقيقية وغير الكاذبة نادرة للغاية، وأن هناك الكثير من الأشياء المزيفة.

فمثلًا ثمة صديق مزيف، ثمة أديان ومذاهب كثيرة مزيفة، ثمة نساء مزيفات، هذه القصة التي تدونها الآن أيضًا، لها نسخة مزيفة. المرأة المزيفة موجودة أيضًا. وبالطبع.. لا توجد امرأة مزيفة. وكما كان المرحوم درياني حينما كانت تذهب أمي مع الخادمة أم كريم إلى دكانه يقول: «لا أكذب عليكم، نحن لا نملك كل ما تطلبينه، أعذريني يا سيدة. ليس لدينا حاليًا ما تطلبين شراءه، في نهاية الأسبوع ربما استطعنا توفير ما تريدين شراءه، إن شاء الله سوف نوفر طلباتك من السوق».

كنت أحدثكم عن الكذب، لم يخلق الله سبحانه وتعالى شيئًا ليس فيه كذب، ورغم أن الكذب يأخذ طريقه إلى أغلب الأشياء، إلا أن ثمة أشياء نادرة تبقى حقيقيةً ولكنها قليلة، كالبكاء مثلًا، فقد رأيت في حياتي أنواعًا من البكاء، ولكني لم أر قط بكاءً كاذبًا، رأيت بكاء المولود الرضيع، ورأيت البكاء على الموتى، كل بكاء له طابع خاص به، مع ذلك أجزم أن لا وجود لبكاء كاذب، فيقال مثلًا فلان يكذب في قوله، لكن لا أحد يقول أن فلانًا يكذب في ذهابه، يكذب في بكائه، فعبارة كهذه لا تنسجم مع اللغة، فالكذب ممارسة تتم في اللغة وتتبلور من خلال الكلام والقول واللغة.

كنت أحدثكم عن أنواع الكذب التي رأيتها في حياتي. أليس كذلك؟ وربما تطرقت لبكاء المولود، فهو بكاء بلا طعم ولون ورائحة، يشبه طعامًا غير مطبوخ، مثل وجبة مكونة من البطاطس واللحم والرز لكن جميعها نيئة وغير مطهية، مع ذلك يطلق عليها «مرق»، وما أن تهمّ بتناول هذه الوجبة من المرق تصدمك رائحة اللحم غير المقلي جيدًا، والرز الصلب والبطاطس اللزجة، لكنك إن أطبقت وعاء هذه الوجبة ووضعت مقدارًا من الفحم على غطاء الوعاء كي تطبخ هذه الوجبة جيدًا، وإن كنت قد قليت البطاطس وأضفت مقدارًا من الزعفران، ورتبت نارًا هادئة تحت وعاء المرق فإنك ستحصل على مرق ممتاز، هل كنت أحدثكم عن مرق اللحم المفروم، أم عن البكاء؟

آه، دعوني أحدثكم عن المرق الذي يقدم في مراسيم ذكرى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وعن البكاء في هذه المناسبة، فحيثما يتم إطفاء المصابيح وتتأكد أن لا أحد يراك في العتمة، تجهش بالبكاء وكأن أحدًا ما يعصر قلبك ويستخرج الدموع منه. بكاء كهذا له قيمة ومعنى، له مذاق خاص.

الفرق بين بكاء الأطفال الرضع وبكاء كبار العمر في مجالس العزاء هو كالفرق بين المرق المطبوخ والمرق غير المطبوخ.

كنت أحدثكم عن المرق، ففي ذلك اليوم، خرجنا أنا ومريم من المدرسة ووصلنا البيت، كانت أمي قد أعدت مرقًا لنا، وكان بودّي أن أتناول طعامًا آخر، وأن لا أتناول من المرق شيئًا. قلت لأمي: هذا المرق مخصص لمجالس العزاء، فهل حدث شيء لأحدٍ ما؟

ضحكت أمي وقالت:

- ليحفظنا اللّه، أمسك لسانك يا ولدي، لا تحاول أن تختلق الأعذار، ربما تناولت شيئًا في الزقاق وفقدت شهيتك على تناول الغداء. حسنًا أنت لست مرغمًا على تناول الطعام.

ولا أعرف لماذا كنت متحمسًا للعناد والشجار، وما شجعني أكثر هو غياب جدي، وذلك يعني أنني كنت متحررًا من أوامره ونواهيه، أخذت صحن الطعام وخرجت من غرفة الزاوية نحو الباحة، رأيت الخادمة أم كريم جالسةً بجوار الباب

وتناول الطعام في صينية، حينما رأتني أسرعت في ابتلاع اللقمة التي كانت في فمها وقالت:

- قل لي يا بني ما الذي يجعلك تلح في عدم تناول الطعام، هل رأيت شعرةً ساقطةً فيه؟ أقسم باللّه أنني أتفهم أخلاقكم، لذا فإني أربط رأسي بربطتي جيدًا عند الطبخ.

لم أجبها، ذهبت إلى وسط الباحة، وضعت صحن الطعام على رأسي، ووقفت على حافة الحوض، وقد تأججت روح المشاكسة فيّ، قلت لأمي ولمريم الواقفتَين فوق الإيوان:

- سوف أذهب الآن إلى زقاق مسجد قندي وسوف أقول لجميع الجيران إن أمي أعلنت الحداد منذ سفر أبي إلى باكو ولهذا السبب تطبخ لنا كل يوم مرق العزاء، وسوف أطلب من وكيل أبي، أي جدي، أن يطلّق أمي غيابيًا، يا أيها الناس النجدة.. النجدة، أبي في باكو ونحن هنا محكومون بطعام العزاء.

كنت أركض حول الحوض وأصرخ، أمي لم تتماسك نفسها عن الضحك من هذا المشهد، لكنها صرخت فجأة بغضب:

- قف، سوف تسقط في الحوض، أتمنى أن تسقط في نهر الفرات، لا تفضحنا أيها الأرعن، حينما يأتي جدك من معمل الطابوق سأطلب منه أن يوبخك على سلوكك المشين هذا.

تعبت في نهاية الأمر من الشجار والعناد، وخرجت من البيت. منذ الطفولة وأنا ذو مزاج حاد فيما يتعلق بالطعام وما زلت على نفس المنوال، ودائمًا كنت أبكي بعد أن أكون قد ضحكت، كان حزن ما يداهم قلبي كلما ضحكت ويجعلني أجهش بالبكاء.

هل كنت أحدثكم عن الضحك أم عن المرق؟ ربما كنت أتحدث عن البكاء. خرجت من البيت، أغلقت الباب الخشبية دون أن أعرف الجهة التي عليّ أن أقصدها. كنت مفعمًا برغبة التجول في هذا المناخ الخريفي، رأيت علبة العلك على الأرض، من المؤكد أن مهتاب لم تسمح لكريم أن يتلفها، قالت له بنبرة رقيقة: وهل نحن عمال في البلدية كي نجمع هذه الزبل. اتركها هنا!

رفعت العلبة من على الأرض، كنت أهم بمواصلة المشي حينما رأيت درياني، كان واقفًا قرب أكياس الرز والعدس، خلف الدكة، مهمومًا ومنكسرًا.

- مرحبًا سيد درياني.

لم يجبني، كان قد وضع مرفقَيه على الدكة وضم وجهه بين كفَّيه، فكرت للحظة أنه ربما لم يسمعني، فكررت إلقاء التحية عليه.

رفع رأسه، فكانت حدقتاه مبللتَين بالدموع، شقت الدموع طريقًا رفيعًا لها على وجهه وصارت تسيل نحو رقبته الحمراء، أشار إلى العلبة الزجاجية التي كنت أحملها:

- عزيزي علي: هل تعرف ماذا تعني هذه العلبة؟ لماذا تريد أن تسيء لسمعتي، هل حدث سوء تفاهم بيني وبينها (كان يقصد مريم). هل بدرت مني إساءة ما؟ لقد أضرمت النار في قلبي.

ابتلع تتمة الكلمات وأطلق آهةً عميقةً شعرت أنها نبعت من صميم قلبه.

أنزلت آهة درياني علينا المصائب لاحقًا. ربما بسبب ما فعلته مريم مع درياني، ربما سيقولون إن كلامي هذا مجرد هذر لا معنى له على الإطلاق ويخلو من المنطق، مع ذلك أعلن أنا علي حفيد الحاج فتاح، بكامل قواي العقلية وليست هناك أية أسباب تدفعني للكذب، أنني أرى الحقائق مثلما أرى الحوادث، رأيت درياني يتأوه ويتحدث مع نفسه بلهجته التركية، ثم رأيت بأم عيني آهته تخرج من دكانه رويدًا رويدًا وتملأ الفضاء، ثم صارت تتراكم في الجو إلى أن صارت مثل عاصفة أو سيل جارف من القير وضربت الباب الخشبية لمنزل الحاج فتاح، ودخلت من خلال شق في الباب إلى داخل الدار، ودخلت آهة درياني ذات اللهجة التركية دون سلام أو استئذان غرفة الزاوية ثم جميع غرف الدار، وذهبت إلى المكان الذي غالبًا ما تتناول فيه أمي ومريم الطعام، وخلف الوسائد التي يتكئ عليها الجالسون في صالة الضيوف، ومرت الآهة كذلك على جميع السجاد الكاشاني الذي كنا نمتلكه، لكن كانت لدينا سجادة صغيرة توضع جنب باب غرفة الزاوية، لاحظت أن آهة درياني لم تشملها، ربما لأن الخادمة أم كريم كانت تجلس عليها لتناول الغداء، كما لم تلمس آهة درياني اللوحة التي كانت ترسمها مريم، ربما لأن ألوانها لم تكن قد جفّت.

وباستثناء السجادة التي كانت تجلس عليها الخادمة أم كريم ولوحة رسم مريم، فقد عصفت آهة دورياني بكل مكان وزاوية في بيتنا. كنتُ مبهوتًا لهذا المنظر الرهيب حينما خاطبني درياني: «لا مشكلة في الأمر يا علي لماذا أنت حزين؟»، كان صوت درياني مرتجفًا بسبب الحزن الذي خيّم على كل وجوده.

كان في نيتي أن أستفسر منه عن حاله وإن كان على ما يرام حينما رأيت السماسرة ينقضون على أثاث المنزل وينهبون كل شيء فيه باستثناء السجادة التي تجلس عليها الخادمة أم كريم ولوحة رسم مريم، رأيت جنازة أبي، وقد بتر أحد أصابعه، رأيت جنازة أمي، رأيت جنازة جدي، كادت العبرة تخنقني، شعرت أن ألمًا حادًا يكاد يفتت حنجرتي. قلت للجميع كل ما رأيته، قلت لمريم أنها السبب في كل ما حدث لأنها سببت ألمًا كبيرًا لدرياني، لكنها قالت: «لكنك أيضًا غير مبرأ مما حدث أيها اللعين». لم تصدق مريم عينَيها في بادئ الأمر، لكن عينَيها المفتوحتَين الآن ترى من عالم الآخرة. كنت أروي لكم عن الآهة، كنت على موعد في تمام الساعة الخامسة عصرًا.

في عام ١٩٥٤ وأنا ألتقي عصر كل يوم أختي مريم ومهتاب في معهد الفنون المجاور لمتحف اللوفر في باريس، كانت مريم تدرّس أو تدرس (لم أعد أتذكر)، المهم أنها كانت منشغلةً بالفن، وكانتا تريان ليلًا رؤيا «سوق إسلامي» الصغير في خاني آباد في غرفة صغيرة مع مهتاب في القسم الداخلي (سان واريته) المخصص للطلاب والطالبات، وأحيانًا تصلان السوق. أما أنا فقد استأجرت غرفةً صغيرةً في الجهة الأخرى من باريس، كنت وحيدًا ومنعزلًا، كل ما أقوم به هو أن أذهب إلى برج إيفل ثلاث مرات في اليوم الواحد، وأنظر إليه نظرة سائح يحاول أن يشبع عينَيه من منظر هذا الصرح العظيم، كنت أصعد من المدرج الثاني حيث لا وجود لطابور السواح كما عند المصعد الكهربائي، وكنت أصل الطابق الثاني الذي يعادل علوه بناءً من أربعة طوابق، إنها باريس في كل الأحوال وأهاليها الأوربيون.

كنت أمسك بعمود السلم المعدني، وهو عمود ضخم وبارد، ما أن يمسكه المرء حتى تكاد أن تجمد يده من شدة البرد، كأن جميع برد برج إيفل يُختَزَل في هذا العمود ليتسرب منه إلى معصم يدي، هكذا كنت أجس نبض إيفل، في البدء أمسك الأنبوب المعدني بيدي، فكانت درجة الحرارة منخفضةً من جهة وقد أصابتها الحمى من جهة أخرى، كنت مهتمًا بجس نبض إيفل، لأن من يجسّ نبضه

يكون قد جسّ نبض باريس، ومن جس نبض باريس يكون قد جس نبض أوروبا، ومن جسّ نبض أوروبا فيكون قد....

ولكن لماذا يعنيني هذا الأمر؟! فأنا قد فشلت في العثور على وريده كي أضع عليه السبابة، وماذا لو كان إيفل بلا وريد، فهل سيمكن جس نبض أوروبا التي كانت حيويةً إلى حد كبير؟ وبالطبع يمكن جس نبضها لأنه يمكن أن يكون لها وريد.

وهكذا حال جميع العشاق، أي إنهم يضعون أياديهم على إحدى أعمدة البرج ويهتفون بمكان اسم معشوقهم، فكرت في البدء أن أضلل البرج وقلت: برلين، ولم أسمع شيئًا، قلت: لندن، ولم يتناهَ أي صوت إلى مسامعي، روما، لا صوت، واشنطن ونيويورك، بقي الصمت سائدًا، قلتُ سوف أجعله يسلك طريقًا آخر، فقلت بصوت عالٍ: طوكيو، فضحك البرج، صرخت مكة، سمعت صوتًا ضعيفًا. مشهد، ارتفع الصوت.

لم أسيطر على نفسي أكثر فقلت طهران، فجاء صوت مرتفع من العمود المعدني. داهم الشوق كل وجودي، فقلت «ميدان الإعدام»، محلة خاني آباد، آنذاك شعرت أن الشريان يكاد ينفجر إثر دقات النبض القوية، ألصقت أذني على العمود، وصرت أردد بصوت منخفض: مقابل مسجد قندي، بيوت الحفرة، مهتاب، فسارعت دقات نبضه وكأنها تريد أن تعزف سمفونيةً صاخبةً، شعرت كأن مهتاب تقف بجواري، فوق الأرضية الحديدية للطابق الثاني من برج إيفل. توقف الصوت واتجه أحد حراس البرج نحوي، كان يرتدي بدلةً كحليةً تذكرني ببدلة الشرطي عزتي، كنت لا أشعر بالارتياح للشرطة، ولكن هذا الشرطي يبدو مختلفًا، نفخ في يده وقال: «بنجور مسيو، سلام أيها السيد، في هذا الهواء البارد، أراك تلصق وجهك بهذا العمود المعدني البارد وكأنك عاشق». قلت: «ربما»، ولم أعرف ماذا كانت تعني بالفرنسية، ولم أكن متأكدًا إن كان قد فهم معنى «ربما» أم أنه جهل ما أردت أن أعبر عنه، أرجّح مع ذلك أنه قد فهم مقصدي، فالعشاق يفهمون لغة بعضهم البعض. ابتسم في وجهي، وابتسمت في وجهه ولوحنا بأيادينا مغادرين. ثم هبطت من المدرج الثاني.

كنت أحدثكم عن موعدنا اليومي فقد كان في تمام الساعة الخامسة عصرًا، في عام ١٩٥٤، هبطت من برج إيفل، نظرت إليه مرةً أخرى، كان على أحسن حال،

دافئًا إلى حدٍ ما، لوحت له بيدي، كنت أبدو غريبًا بهذه الحركات، فالأوروبيون ليسوا عطوفين، ذهبت إلى حيث موعدي مع مريم ومهتاب، كنت أشعر بالكآبة، اتجهت نحو مقهًى في نهاية شارع ديغول، كان المقهى مثل بقية المقاهي الأخرى، يضم طاولات مخصصة، إما لشخصَين، أو لأربعة أشخاص، لكننا كنا نختار دائمًا طاولةً لشخصَين كي نجلس قرب بعضنا، هذه المرة اخترنا طاولةً موضوعةً على الثيل جنب الرصيف، وهذا ما يتيح للمتأخر منا أن يرانا بسهولة، كانت مريم هي المتأخرة في أغلب الأحيان. ألقيت تحيةً على زوجَين مسنَّين كانا يجلسان حول الطاولة المجاورة وكنت أراهما تقريبًا كل يوم، ابتسما وردّا عليّ تحيتي.

كانا يأتيان يوميًا في الساعة الرابعة عصرًا، كانت المرأة المسنة تطلب فنجانًا من القهوة الفرنسية وتتركه فترةً طويلة على الطاولة إلى أن تبرد القهوة تمامًا.

ثم كانت تطلب من المسيو برنر، صاحب المقهى، إبريقًا من الحليب الساخن لتخلط الحليب بالقهوة، لم يكن الرجل المسن يطلب شيئًا. ربما لم تكن ميزانيته تسمح له بذلك، أو ربما لأنه كان يتلذذ بشرب القهوة بالحليب من فنجان زوجته، لم تكن زوجته وإنما صديقته، فهما لم يتزوجا بعد، طالت فترة خطوبتهما عشرين عامًا.

ما زالا يجلسان كعاشقَين شابَّين مقابل بعضهما، يتبادلان نظرات المحبة ونادرًا ما يتحدثان، كان الرجل يطلق آهةً عميقةً كلما قرّب فنجان زوجته نصف الممتلئ من شفتَيه. هل تحدثت عن الآهة أم كنت أتحدث عن الموعد؟!

كنت قد تأخرت عن الموعد. دعاني المسيو برنر صاحب المقهى الأصلع، حيث قطرات العرق تسيل على صلعته، إلى داخل المقهى:

- تفضل إلى الداخل، يا سيد علي، السيدة جاءت.

بالمناسبة، كان السيد سارتر متواجدًا هنا قبل الغداء، ليشرب فنجان قهوة.

كان جميع أصحاب المقاهي في باريس يقولون الشيء نفسه، وكأن مهمة سارتر كانت تتلخص في تلك الأيام في ارتياد المقاهي.

كنت أرتاد خمسة مقاهٍ في اليوم الواحد، وكان جميع أصحابها يدّعون أن مقهاهم هي المقهى المفضلة لسارتر وأنها مكان تواجده. لذا اعتقدت أن سارتر

يقضي كل نهاره في مقاهي باريس، أو أن أصحاب المقاهي ذوي الرؤوس الصلعاء كانوا يكذبون.

كان برنر ذو الرأس الأصلع الأحمر يتحدث طوال الوقت عن فضائل سارتر فيما يسيل العرق من صلعته الحمراء وينساب نحو رقبته. من المؤسف أنني لم أكن أجيد الفرنسية وإلّا لقلت له: ما شأني وشأن سارتر؟ هل تظنني أتوقع منه أن يأتي ليشرح لي معنى الوجودية؟ ليحدثني عن الوجود والوجدان؟ لقد تعلمت ما أحتاجه من الحكمة والفلسفة من الدرويش مصطفى، ولم يكن أصحاب مقاهي طهران بحاجة للقول: إن هذه المقهى هي محل تواجد الدرويش مصطفى!

اقتادني المسيو برنر نحو الطاولة وقال: تفضل! نظرت إلى الطاولة المخصصة لشخصَين، وقد أضيف لها كرسي لتصلح لثلاثة أشخاص، رأيت مهتاب جالسةً لوحدها، لم تأتِ مريم بعد، ولكن جلّ الخالق فلم يكن كرسي مريم شاغرًا، كان الدرويش مصطفى جالسًا أمامي، كان مرتاح البال وكأنه يتمشى في حي خاني آباد، أمعنت النظر إليه، كانت ملامحه قد تغيرت قليلًا، شعره صار أخضر، كذلك لحيته وشاربه وملابسه، لا أعرف كيف أصف شعره الذي كان أبيض اللون وقد تحول إلى أخضر غامق مثل حفنة من العشب الأخضر وقد رطبه ندى الصباح، كان جلدي يقشعر بمجرد أن أتذكر مظهر الدرويش مصطفى، قال صوت نسوي كان يسعى إلى تقليد صوت الدرويش مصطفى:

– إن ما هو أخضر، هو أخضر بكل تأكيد.

ثم ضحك الصوت النسوي وفاحت رائحة الياسمين في فضاء المقهى. كان صوت مهتاب، كانت تمسك إطار صورة الدرويش مصطفى بأصابعها الطويلة وقد نصبته على كرسي مريم:

– انتهيت من رسم بورترية الدرويش مصطفى اليوم للمشاركة في الامتحان النهائي.

حركت رأسي في إشارة لفهم مقصدها. ثم أعدت نظري نحو مهتاب. كانت ترتدي معطفًا بيجي اللون وربطةً بنيةً طويلةً، كنت منشغلًا بالتفكير في شعرها البني الرازح تحت ربطتها، ترى كيف رتبته اليوم وهل هو مصفوف إلى جهة اليمين

أم جهة اليسار؟ وربما لم يكن مصفوفًا إنما تركته مهتاب على حاله. نبهني صوتها، فرددت استغفارًا سريعًا، سألتني:

- سألتك إن كان جميلًا أم لا؟

أغمضت عينَي لأعيد استذكار شلال شعرها البني وصوتها الذي يعيد الحياة للينابيع. فتحت عينَي وقلت:

- إنها جميلة في جميع الأحوال.

انفرجت شفتاها وفاح عطر الياسمين، ضحكت وقالت:

- في جميع الأحوال؟ حتى حينما يكون باللون الأخضر؟

عدتُ إلى صوابي، كانت مهتاب تقصد بورترية الدرويش مصطفى وكنت أفكر بشعرها الجميل، قلت:

- حتى حينما يكون أخضر...

كان المسيو برنر متجهًا نحونا حاملًا فنجانَين من القهوة على صينية، بحركة استعراضية رفع الفنجان إلى الأعلى ثم قدمه لمهتاب وفقًا للآداب الفيمنسيتية الجديدة التي تنص على تقديم المرأة على الرجل: «قهوة تركية مع الحليب، آنستي»، ثم وضع الفنجان الثاني أمامي مرددًا: «وفنجان من قهوة دارياني سيدي».

وكان يقصد قهوة درياني.

ضحكنا أنا ومهتاب بسبب التسمية التي كان يطلقها المسيو برنر على قهوتي المفضلة.

في الأيام الأولى من ارتيادي هذه المقهى، كان المسيو برنر يسعى ليجعلني زبونًا دائميًا، كان يحاول من أجل ذلك أن يتعلم المعادل الفارسي لبعض الكلمات الفرنسية، وكنت أسايره في ذلك وأجيب على أسئلته بهذا الخصوص، بعد أيام شرعت بإيذائه من خلال إجابته بأجوبه سريعة ومضحكة، سألني ذات مرة ماذا تسمون القهوة التركية، تضايقت من سؤاله، فأجبته القهوة نسميها قهوة، أي نفس التسمية، لكننا نسمي التركي درياني، ضحكت مهتاب وقالت:

– نسمي درياني تركي وليس العكس.

رفعت مهتاب الفنجان وقربته من شفتَيها وكأنها تريد تقبيله، كانت تقرب الفنجان من شفتَيها بنعومة وطمأنينة. كانت ترفع الفنجان وتمسكه على مسافة محددة، أي حوالي نصف شبر، كانت تمسك الفنجان ثابتًا وتقرب شفتيها منه ثم تميل الفنجان بهدوء كي ينسكب مقدار من القهوة على لسانها ثم تضع الفنجان على الطاولة. إنها تمضمض القهوة وكأن جميع لذة الدنيا تكرّست في ذلك الفنجان. لم ترغب بإتمام قهوتها. كانت تشرب القهوة بطمأنينة وهدوء خاصَّين وكنت أستلذ من شربها للقهوة. وكأن عينَيها كانتا ترغبان في تقبيل الفنجان، نظرت إليّ، وكدت أذوب وأتلاشى، وكادت أنفاسي تنحبس وكنت أشعر بسبب نظراتها بأن جبلًا ثقيلًا يطبق على صدري، صرت أتنفس بمشقة ويكاد قلبي أن يطفر من مكانه، تتسارع نبضات قلبي، تتسارع أكثر فأكثر، وكان قلبي ينتظر أن تهدأ أنفاسي، ثم تنفجر نبضاته مدويةً، ولم تكن مهتاب معنيةً بأن شخصًا يكاد أن يفنى بسبب نظراتها. ابتسامة هادئة ثم ضحكة خفيفة ثم تتدلّل وكأنها طفلة صغيرة وتضرب بقدمها الأرض وتقول:

– أريد قهوة من نوع دارياني!

– وأنا أريد قهوة تركية.

تبادلنا فنجانَي القهوة، أخذت فنجاني وقربته من شفتَيها من جديد، فعلت نفس الشيء وقربت فنجانها من فمي، شممته، كانت رائحته كرائحة وردة ياسمين وكانت قد تبرعمت فيه قبل قليل، أردت أن أرتشف منه لكنني لم أستطع دون أن أعرف السبب، لكن مهتاب ارتشفت القهوة كلها وبدفعة واحدة بلا تأن ولا طمأنينة، ثم تأوهت تزامنًا مع تأوه الرجل المسن الجالس حول الطاولة المجاورة، ضحكت مهتاب:

– والآن جاء دور.... أي شيء؟

– دور ماذا؟ لا أعرف.

– دور فال القهوة في مقهى المسيو برنر يقرأه الأستاذ الكبير.

– عاينت صحن الفنجان بدقة لتتأكد من نظافته، ثم قلبت الصحن ووضعته

على فوهة الفنجان، وقالت عليك الآن أن تنوي، وضحكت ضحكة خفيفة وقالت:

- ليس ضروريًا أن تنوي، بالمناسبة يدك غير نظيفة، من المؤكد أنك حضنت العمود الأسطواني لمدرج برج إيفل من جديد، ليت مريم كانت حاضرةً معنا كي تنظف يدك بمنديلها.

ضحكنا، مسحت يدها بمنديل من ورق كان موضوعًا على الطاولة ووضعت إصبع السبابة في الفنجان:

- وبالطبع يجب أن أضع السبابة في الفنجان في نهاية الفال، لكن الأستاذ الأعظم في قراءة الفال لا تعترف بالبداية والنهاية.

وشرعت تنظر إلى الأشكال التي تكونت في فنجان القهوة، فيما كنتُ أنظر إليها. كانت ترتدي ربطةً كان يقع أحد أطرافها على كتفها وطرفها الآخر يتدلى فوق الجانب الأعلى من فستانها البني، بعد أن يلتف حول رقبتها، قالت أشياء لم أفهمها، ثم طلبت مني أن أنظر إلى داخل الفنجان، كانت خطوط القهوة تستقر داخل الفنجان كخرائط جغرافية، رفعت رأسي فرأيت مهتاب ترمقني باهتمام، ثم أخذت الفنجان مني، وصارت تشرح لي الفال دون أن تنظر إلى الفنجان، كنا ننظر إلى بعضنا البعض، قالت:

- من هذا الفنجان، ارتشف شخص ما القهوة، وهو شخص محبوب جدًا، كلا، إنما شرب شخصان القهوة من الفنجان، وسوف يلتقيان مرتَين أخريَين أو ربما ثلاث مرات في المستقبل. إنهما شخصان، كلا، شخص واحد، إنهما شخص واحد وليسا شخصَين. ولكن لِمَ هما الآن بعيدان عن بعضهما البعض إلى هذا الحد، مع أنهما قريبان، لا أعرف الآن ما يدور في ذهنه أو ما يدور في ذهنَيهما، ولكنهما يدركان جيدًا عن ماذا يفكران، وهل يستلزم قراءة سطرَين باللغة العربية كل هذا العناء، هل صعب أن يقال قبلت، لا أعرف يا سيد علي الحاج فتاح لِمَ أنت على هذا النحو.. ولكن هذا... وعلى هذا الحال.

تأوهت، وتأوه الرجل الهرم الجالس إلى جوارنا، قرّبت مهتاب الفنجان مني كي آخذه منها، شعرت أن دفء يدها كان يلهب يدي، سحبت يدي كي لا تلامس يدها فسقط الفنجان على الطاولة لكنه لم ينكسر، ضحكت ونظرتُ إليها، لكنها لم

تضحك، كانت تصوب نظرةً حادةً إليّ، قالت:

- إن كان الحياء هو ما يعيقك، فلا أحد هنا يعرفك، فلماذا؟

- لا أعلم.

- ما زلتَ تختلق الأعذار.

- لا أعلم.

- هل ما زالت الوالدة تخالف؟

- رحمها اللّه.

- مِمَّ تشعر بالخجل؟ هنا نحن لوحدنا، لا أحد يرانا.

- لكن الدرويش حاضر معنا.

ضحكت بمرارة، ووضعت اللوحة على الأرض، وضعت الدرويش مصطفى على الأرض، قال لي الدرويش مصطفى من على الأرض، أو من السماء، أو من ثنايا ثيابه أو شعره أو لحيته الخضراء شيئًا لم يكن من جنس الحروف لأكتبه، شيئًا كرائحة الياسمين، كخضرة الشجر، لا يمكن كتابته.

طأطأت رأسي وصرت أنظر إلى لوحة مهتاب، كانت مهتاب قد نسيت أن ترسم جزءًا من لحية الدرويش مصطفى، أصباغ مختلفة تراكمت على تلك البقعة المنسية، أطلقت مهتاب ضحكةً هادئةً وقالت:

- انظر يا علي! في هذه البقعة تلطخت الألوان.

سألت مستغربًا:

- تلطخت الألوان؟ هل هذا مصطلح ألماني؟

ضحكت ضحكةً خفيفةً:

- لا يا هذا، إنها مفردة من مفردات قاموس كريم، في بدايات ممارستي الرسم، قال لي ذات مرة، إن لوحتك أصبحت ملطخةً.

ابتسمتُ ونظرت إليها، لم أستطع أن أضحك، تكركبت حسب قول كريم،

داهمتني رغبة جامحة في البكاء. وضعت رأسي فوق الطاولة وصرت أجهش بالبكاء، لم أعرف السبب، كنت أروم أن أقول شيئًا.

– تذكره بالخير، آه، أين أنت يا كريم... كنا صغارًا، نعود من المدرسة معًا، كان الدرويش مصطفى يصادفنا أحيانًا، ذات مرة قال لكريم: أيها الفتى، من لا أدب له... دعني من حديث الدرويش، حينما كنت بصحبة كريم لم أكن أجرؤ على النظر إليك.. تعرفين... لقد قتلوا كريمًا...

كنت أرغب أن أجهش بالبكاء، وضعت رأسي على الطاولة وصرت أبكي كالأطفال، نفس الشيء فعلته مهتاب أيضًا، البكاء على الطاولة، لا أعتقد أنني كنت أبكي كريمًا، كم تمنيت ان أعرف سبب بكائي، كانت أنفاس مهتاب الحارة تلمس وجهي، كانت رائحة الياسمين تفوح من أنفاسها، بكينا معًا، نحبنا معًا. كنا ننظر إلى بعضنا البعض ونبكي معًا. كان الرجل المسن الجالس على الطاولة المجاورة ينظر إلينا مندهشًا، لقد انحنت مهتاب على الطاولة، نظرت لقطعة القماش التي كانت تغطي الطاولة، ألوانها الصفراء والبنية كانت تتراءى لي حينذاك وكأنها خليط من الحليب والعسل، رغبت أن ألعقها علّني أذوق طعم الحليب والعسل.

صوت أليف قطع سلسلة أفكاري:

– ماذا حدث؟ ينبغي أن نطلب من المسيو برنر أن يطفئ الأضواء لتباشرا اللطم على الصدر.

رفعت رأسي، كانت أختي مريم، تأخرت حوالي ساعة، يا للطفها وحنانها، مسحت دموعي، وقلت: ذكرى كريم جعلت البكاء يسيطر علينا.

أنا لم أصدق أيضًا. ابتسمت مريم لتلطف الجو وتطرد أجواء الحزن ورددت هي الأخرى:

– ذكرى كريم.

ابتسمنا أنا ومهتاب.

أشارت مريم إلى الرجل والمرأة المسنَّين الجالسَين على الطاولة المجاورة وقالت:

- هكذا، سوف يكون مصيركما.

ثم نظرت إلى وجهي ووجه مهتاب المبللَين بالدموع وقالت: لم أر بكاءً مثل بكائكما... يا للملاحم التي تنتظركما في سن الشيخوخة إذن.

هل كنت أتحدث عن البكاء أم عن كريم؟ وقد كررت هذه العبارة مرارًا في أيام أخرى كنت أتحدث عنهما كليهما. أي سنة شمسية كانت سنة ١٩٥٤؟! كانت سنةً شمسيةً.

إحدى السنوات الشمسية كانت سنة ١٣٢٠ أو ١٣٢١، فغالبًا ما تتوزع السنة الشمسية على عامين ميلاديين. كنت أمنح السائق رخصةً في بعض الأحيان كي يتسنى لي قيادة سيارة الشيفروليت السوداء، كانت السيارة المفضلة بالنسبة لي، لم أتعب أبدًا من قيادتها، كان جدي العزيز هو من اشتراها، وكانت أفضل من جميع السيارات التي كنا نملكها ولونها كان أفضل أيضًا. كلما نويت أن أقودها كنت أرتدي بدلة سوداء مع قميص أبيض ذي ياقة عريضة، كنت أتقصد دائمًا أن أترك الزر القريب من الياقة مفتوحًا ولذلك يصعب على الآخرين تحديد إن كنت ممن يضعون ربطة عنق أم من الذين لا يستعملونها أبدًا. كان لون هذه السيارة يضاعف من تعلقي بها فقد كانت بلون بدلتي السوداء.

كنت على موعد مع كريم، اجتزت محلة العراة واتّجهت نحو بوابة شميران، قطعت شارع شميران، كنت أستبق العربات وأجتازها. لم تكن في الشارع سوى عدّة سيارات. كان موعدي مع كريم في محلة قلهك، أي جنب البستان الذي منحه جدي لإسكندر. هناك وجدت كريمًا منتظرًا، وقد ارتدى قميصًا ذا ياقة عريضة وأكمام قصيرة، وسروالًا أبيض هفهافًا، كأن شيئًا كان في جيبه. كان جيبه منفوخًا. لوح بيده لي حينما رآني، توقفت وفتح باب الشوفرليت، وركب وتبادلنا القبلات.

- أيها اللعين، أراك مرتديًا بدلةً تبدو فيها كسيناتور، كان عليك أن تخبرني كي أرتدي بدلةً مثلك.

نظرت إليه. كان شعر صدره قد ظهر من تحت قميصه. قلت له:

- أراك منشغلًا بالزراعة، فتحت ياقة قميصك. بارك اللّه في محاصيلك.

- أيها الأحمق، الفلاح ينظر دائمًا إلى السماء ويتوقع الخير والبركة دائمًا من السماء، إلى الشمس وهي حبيبتي شمسي[١].

ضحكت وقلت:

- صرت كالقطة، كلما رموها إلى الأعلى نزلت إلى الأرض على رجلَيها.

حينما وصلنا إلى تجريش[٢] قلت له:

- ما رأيك أن نذهب إلى مرقد السيد صالح بن موسى بن جعفر (عليه السلام)[٣].

لكنه قال: دعنا نذهب إلى منتجع دربند، لا أستطيع الذهاب إلى مرقد السيد صالح.

خففت من السرعة إذ كانت سيارة جيب مكشوفة قد ضايقتنا وقد شرع سائقها باستخدام المنبه، من المرآة الجانبية رأيت أن سيارة الجيب كانت تتبعنا، ضاعفت السرعة، ولكن سائق سيارة الجيب كان لا يكف عن استخدام المنبه، أنزل كريم زجاج النافذة الجانبية وأخرج رأسه ثم صرخ:

- ماذا حدث، هل هو عرس أمك كي تستخدم المنبه بشكل متواصل.

لم ينقطع صوت منبه سيارة الجيب، بل أضاف سائقها استخدام المصابيح الأمامية على طريقة الترميش. قال كريم: حاول أن تقف على جانب الطريق كي تمر هذه السيارة ونتخلص من هذا الإزعاج، يبدو وكأن هذا السائق على عجل، ربما يريد أن يتصدق برأس أبيه أو ربما هو على عجل من أمره، كأنه ذاهب إلى المقبرة ليفتش عن قبر عمته.

أوقفت سيارتي على جانب الطريق كي تمر سيارة الجيب، إلا أنها وقفت أمامنا مباشرةً وقطعت علينا الطريق، وقفز شخص منها كان ضخمًا جدًا بحيث إن

(١) كان اسم حبيبة كريم شمسي.
(٢) حي في شمال العاصمة طهران.
(٣) مرقد أحد الأولياء الصالحين.

السيارة اهتزت ما إن نزل منها. حينما نظرت إليه جيدًا كان شخصًا بدينًا ذا حنك نحيف حليق الذقن، إنه قاجار بعينه، مرتديًا فانيلةً خفيفةً، لم يكن الهواء حارًا، إلا أن قاجارًا كان يشعر بالحرارة بسبب ارتشافه الخمرة، هذا ما اتضح لي من خلال ترنحه في المشي، قال كريم: هذا اللعين ثمل.

جاء نحوي وأراد أن يعانقني، تراجعت إلى الوراء، كانت رائحة نتنة تفوح من فمه. اتجه نحو كريم وانحنى من أجل أن يقبل يده، ضحكت من منظره البائس، رأيته يقبل يد كريم، قال قاجار:

- يا صديقي، لقد مات أبي المجنون في الأسبوع الماضي، لا، إنما في الأسبوع الذي سبقه. أعطاكم عمره، أعطاكم وأعطى السيد علي عمره... ثم اشتريت سيارة الجيب هذه، إنها كالأسد، أليس كذلك؟

أشار قاجار إلى سيارته وأضاف: ألم تر؟، أنا أيضًا اشتريت سيارة يا علي. أعرف أن سيارتك الشيفروليت أغلى من سيارتي، مع ذلك فأنا اشتريت سيارتي بثمن غال كثيرًا، لقد دفعت مبلغًا كبيرًا من أجل شرائها. فأنا قاجاري على كل حال، ومنذ أن جاء السيد قوام إلى الحكم، تحسنت ظروفنا. دفعت مبلغًا باهظًا جدًا لشرائها. لها سقف أيضًا. لا أستخدمه في الشتاء حينما يبرد الهواء، أكاد أن أتصبب عرقًا الآن بسبب حرارة الجو، انتظرت إلى اليوم السابع من وفاة والدي واشتريت هذه السيارة بعشرة تومانات، إنه مبلغ كبير، أليس كذلك؟

ثم أشار إلى المقعد الأمامي. على المقعد الأمامي من سيارة قاجار كانت تجلس امرأة ترتدي قبعةً عجيبةً وكان شعرها يرفرف على كتفَيها، كان مظهرها مفتضحًا للغاية بحيث يصعب عليها أن تسير عشرة أمتار بهذا المنظر في المدينة. حينما رأتنا ضحكت وحركت رأسها كي ترينا شعرها أكثر، كانت قد طلت شفتيها بأحمر الشفاه، واستعملت مكياجًا غليظًا على وجهها. كررت ضحكتها.

أمسك كريم قاجار من ياقته وقال له:

- أيها الفيل، هذه الدمية القبيحة المنظر مكانها في شارع اسطنبول مركز البارات. ماذا تعمل هنا؟

انتبه قاجار للحظة إلى نفسه وقال:

– كلا، أقسم باللّه أنها أختي، إنها ليست السيدة مهوش من بائعات الهوى، إنها أختي.

انفجرنا أنا وكريم من الضحك. من داخل سيارة الجيب ضحكت المرأة ضحكةً شبيهةً بضحكة الرجال، أثارت ضحكاتنا شهية قاجار للضحك فقد كان ثملًا وأراد أن يشاركنا مرحنا.

– إنها أختي، جلبتها معي لشميران كي تتفسح قليلًا، بالمناسبة يا كريم، كيف حالها، أقصد كيف حال أختك مهتاب؟ إنها جميلة...

ألقى كريم نظرة على قاجار، ومضى نحوه بهدوء، وما أن رآني أهجم على قاجار حتى أمسك بي وأعادني إلى مكاني. رفع كريم كف يده أمام وجه قاجار وسأله:

– كم عدد أصابع يدي؟

– خمسة يا سيد كريم، خمسة أصابع.

رفع كريم يده إلى الأعلى وكرر سؤاله:

– والآن كم عدد الأصابع؟

– أيضًا خمسة يا سيد كريم.

فجأة وبسرعة الصاعقة هوت يد كريم على وجه قاجار، إذ وجّه صفعةً قويةً، تراجع قاجار إلى الوراء ثم سقط على الأرض فرفعه كريم وسأله عن عدد أصابع يده:

– قل كم عدد الأصابع؟

– تبًا لي، خمسة، كلّ ما تراه أنت صحيحًا، أعتقد أنها خمسة يا سيد كريم.

صفعة محكمة أخرى طبعها كريم على وجه قاجار. نزلت المرأة من السيارة. أمسكتني من كتفي، لا أعرف لماذا كانت تضحك، قالت:

– أقسم عليكم بحياتي لا تضربوه، هذا ما سوف يزعجني، إنه مسكين، والمثل يقول لا حرج على الثمل. التفت كريم وصرخ بوجه المرأة غاضبًا:

- أغلقي فمك الأعوج، سوف ألقنه درسًا لن ينساه.

ثم انهال كريم على قاجار بالضرب. ضربه بحيث تلطّخت فانيلته بدم رأسه ووجهه، تقيأ قاجار وسقط على الأرض. رفعناه أنا وكريم من كتفَيه وأدخلناه في سيارة الجيب، نظر قاجار إلى كريم وقد زالت آثار السكر من رأسه وقال:

- سوف نلتقي، سوف نلتقي في محلة معشوقتك شمسي. سأسلخ جلدك.

أخرجت المرأة منديلًا من حقيبتها وراحت تمسح الدم من وجه قاجار الذي لزم الصمت. قالت مهوش:

- يا للمصيبة، ماذا أستطيع أن أفعل الآن، ما كان عليكما أن تضرباه بهذه القسوة، كيف سأعود بهذه الحال؟ يا لحظي البائس.

قال كريم: هل تتوقعين أن نعيدك إلى البيت؟ كلا، لقد خدعتِ هذا الكلب المخمور وحصلت على مبلغ من المال، كل حمار يصادفك في الطريق يصطحبك معه.

جلسنا مع كريم في داخل السيارة، وذهبنا. كان قاجار يستحق هذا الضرب المبرح، لم يكن يجرؤ أن ينطق بكلام يجرح مشاعر كريم حينما يكون بكامل وعيه، لكن الثمالة شجعته على أن يتجرأ بتحدي كريم في مشاعره، مع ذلك كان يخامرني الشعور أن قاجار معجب بمهتاب ولهذا السبب لم أكن أتقصد الذهاب لرؤيتها.

لم أكن أذهب إلى مهتاب، كانت قد قالت بأنها ترسم اللوحات في القاعة رقم ثلاثة، كنت أراها عصر كل يوم في مقهى مسيو برنر، لم أكن أرغب أن أزورها أثناء انشغال مريم بالعمل في المرسم، ليس حرصًا على عملها، وإنما كنت أخاف من أن أنفرد معها، كنت أخاف أن يكون إثمًا. كنت مواظبًا على حضور مواعيد العصر فذلك كان يتم بحضور مريم، حتى وإن كانت تأتي متأخرةً في أغلب الأحيان. كنت منشغلًا في النهار بزيارة المتاحف، ودور السينما. راجعت شركة سيبوركس مرتَين، وهي الشركة التي تذرعت بها للمجيء إلى باريس، وسيبوركس هي شركة لتصنيع نوع خاص من الآجر لم يستورد إلى طهران، إلا أن استعماله شاع في المباني في باريس وروما وبرلين وميونخ، كان أخف وزنًا وأكبر حجمًا من آجرنا ولونه أبيض.

كانوا يقولون بأننا في إيران نستخدم القشرة الفوقانية من تربة الأرض للصق الآجر وسوف تتضرر الزراعة في المستقبل من جراء ذلك، ماذا كنت أقول؟

التربة السطحية للأرض، تربة الأرض، تربة القمر[1]... لا ينمو فوق تربة القمر سوى أزهار الياسمين... ذهبت إلى مهتاب مرةً واحدةً فقط، حينما شعرت بضيق وكآبة حادة، ذهبت إلى مقربة من مرسمها، لكنني لم أدخل المرسم، جلست القرفصاء عند الباب، وفي عصر نفس اليوم اتجهت نحو مقهى المسيو برنر، وهالني ما رأيت، لقد جلبت مهتاب قصةً مصورةً غير مكتملة وبأصابعها النحيفة الطويلة صارت تقلب صفحاتها، رأيت لوحةً قماشيةً موضوعةً على منصة التصوير أمام جدار أبيض، وخلف الجدار الأبيض يجلس رجل القرفصاء لا تستطيع المرأة الرسامة أن تراه، رجل يجلس القرفصاء، وكانت المرأة الرسامة تلاطف بريشتها الرجل الجالس. ضحكت الرسامة وقالت للرجل: «يجب عليّ أن أسكب جميع ما لديّ من اللون الأسود فوق حاجبَيك». ضحك الرجل وقال: «تريدين بذلك الانتقام من طالبات الصف الأول في المرحلة الابتدائية في مدرسة إيران للبنات اللواتي أرغمن على استعمال اللون البني كي يرسمن شلال الشعر البني». ثم نهض الرجل متجهًا نحو «محلة اللّه» من أجل الاعتراف عند القس (راجع ثلاثيته للاطلاع على مزيد من التفاصيل).

يا إلهي ماذا كنت أقول؟

دون أن ننظر في مرآة السيارة مشهد قاجار ومهوش، اتجهنا نحو تجريش. نظر إليّ كريم وقال:

- ما الذي أثار غضبك، إنها أختي، فما علاقتك بالموضوع؟

ضحكت وقلت: من باب الصداقة.

- قرت عيني، الصداقة مع من؟

ضحكنا سويةً، أوقفت السيارة في ساحة تجريش، انتخبنا قطعًا من قلوب وأكباد وكلى الغنم، قطعها صاحب الدكة السيد ولي بائع الأكباد وسيّخها، ثم

---

(١) تعني مفردة مهتاب الفارسية، القمر بالعربية.

وضع الأسياخ على منقلة الفحم وبدأ يهز مهفته اليدوية، قبل أن تستوي تمامًا رفع البائع الأسياخ من المنقلة ووضعها للحظة بين شرائح الخبز كي ينفذ فيها الدسم ثم أعادها إلى منقلة الفحم. اقتطع كريم قطعة صغيرة من الخبز الدسم والتهمها بسرعة، سألته:

- إنها لذيذة، أليس كذلك؟

- لذيذة للغاية.

أعطيت السيد ولي بائع الأكباد مبلغًا أكثر من المبلغ الذي طلبه، ورجوته أن يراقب بين حين وآخر السيارة إلى أن نعود. قال بلهجة أهل شميران:

- لا داعي للقلق، سوف أحرسها كما يحرس الإنسان الشرف.

ضحكت، لم أعرف إن كان يقصد شرفه أم شرف الآخرين، كان يضع فوطةً على كتفه يستعين بها لقلب الأسياخ. مسح زجاج نوافذ سيارتي، ودّعناه سالكين طريقًا محاذيًا لساقية جعفر آباد متجهين نحو منتجع دربند.

كنا نسلك الطريق الصاعد إلى دربند وكان ذلك في نهاية شهر شهريور من عام ١٣٢١ حسب التقويم الهجري الشمسي. لم يكن في الطريق سوى عدد قليل من الناس من السكان الأصليين للقرى المجاورة، كذلك نفر من أهالي طهران الذين كانت لهم مصايف هناك، كان القرويون يستخدمون البغال لنقل بضائعهم، وكانوا يبادرون بالتحية بمجرد أن تقع نظراتهم علينا.

كان كريم منتشيًا، رأى رجلًا مسنًا ممتطيًا بغلًا وقد ملأ خرجه بالحطب ذخيرةً لفصل الشتاء، ولم يلق الرجل المسن تحيةً علينا لأنه كان مهتمًا بالحمل، حذرًا أن لا تنفرط أكوام الحطب وتتساقط على الأرض.

قال له كريم: أين تحيتك؟

ارتبك الرجل المسن، رفع قبعته القطنية وألقى علينا تحيةً حارةً، ضحك كريم وقال:

- عذرًا أيها السيد، لم أقصد حضرتك فأنت بمثابة أبي، كنت أقصد البغل، فصديقي هذا يفهم لغة البغال.

وأخذ اللجام من الرجل المسن، سحب رأس البغل وقربه مني وخاطبه وقال:

- هيا سلم على السيد بسرعة!

ثم وضع إصبعَيه في منخرَي أنف البغل وضغطهما فنعر نعرةً عالية.

- أحسنت، الآن يمكن اعتبارك بغلًا نموذجيًا. ثم أعاد اللجام للرجل المسن، فضحك الرجل ملء شدقَيه.

- وداعًا أيها السادة، تفضلا إلى منزلي لتناول العشاء إن طاب لكما ذلك، سوف نرحب بكما دائمًا.. إلى اللقاء.

وصلنا إلى مكاننا الذي نرتاده دائمًا في منتجع دربند، طلب كريم أن نواصل سيرنا إلى الأعلى، قلت سوف تتجمد قلوب وأكباد الغنم المشوية من شدة البرد. كان يريد أن نذهب إلى أعلى نقطة بحيث لا يعرفنا فيها أحد.

تسلقنا إلى أعلى نقطة ممكنة حيث آخر مقهًى، لم تعد الطريق تحاذي الساقية إنما كانت تنفصل عنها لتأخذ جهة الجبل وتصل إلى منطقة شيرپلا. كان في المقهى ثلاثة أسرّة خشبية مفروشة بالسجاد وموضوعة في الباحة الواسعة. عادةً ما تضم المقاهي التقليدية هذا النوع من الأسرّة عوضًا عن الكراسي، إذ يستطيع الزبون أن يأخذ قسطًا أكبر من الراحة. وبعد أن اخترنا السرير البعيد عن الطريق، نهض كريم من مكانه واتجه نحو حوض الماء، غسل يدَيه ووجهه وقال بصوت تعمد أن يجعله غليظًا بعض الشيء:

- أيها الفتى! أحضر كأسَين من اللبن الرائب وزجاجتَين من الليمون، وفنجانَين فارغَين دون تأخير. لا تسمح لأي أحد أن يدخل المقهى ويجلس على أي من الأسرّة، كلّها لنا واذهب أنت خارج المقهى.

هزّ صاحب المقهى رأسه مبديًا الطاعة وأحضر لنا بسرعة ما طلبه كريم منه. ثم سدّ باب المقهى حتى النصف. ركض نحو المجمرة وألقى قطعًا من الفحم فيها. قال كريم:

- أيها السيد، ليس فينا مدمن على المخدرات.

هز صاحب المقهى رأسه، وانشغل بعمل آخر. أثار سلوك كريم استغرابي

خصوصًا بمظهره وهو يرتدي قميصًا فتح أزراره العليا، وسروالًا أبيض وجيبه المنفوخ وبشعر لحيته القصير وشاربه الكثيف، قلت له:

- لم تذهب للمقهى التي اعتدنا الذهاب إليها، أغلقت المقهى بوجه الآخرين، هذا المقدار الكثير من اللبن الرائب والخيار. هل أنت على خير؟

قال: على المرء أن يكون سخيًا، خصوصًا حينما تكون نفقاته على حساب الحاج فتاح.

ضحكت. كان كريم في غاية النشوة والسرور، قال بنبرة جادة:

- هل فرحت حينما «خنكتُ» قاجار.

- ماذا تعني بخنكتُ؟

- إنها مفردة من قاموسي الخاص توحي بفعلَين مختلفَين، الخنق والتكفين. لكني أشعر حاليًا ببرد شديد.

- هاك خذ معطفي، هل أنت على ما يرام؟

- شكرًا، لقد أحضرت معي «مدفأة» ولكنها تحوي كميةً بمقدار بول طفل صغير.

نظرت إليه مندهشًا وقلت:

- كان من الأفضل أن نذهب لزيارة ضريح السيد صالح ابن الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام).

- عزيزي علي، لم يكن ذلك ممكنًا، فثمة شيء نجس معي، وهذا لا يليق بمكان طاهر.

- ما هو الشيء النجس الذي تتحدث عنه؟

ضحك وقال: «المدفأة»، وأخرج قنينةً صغيرةً من جيب سرواله كانت تحوي سائلًا أصفر اللون، سكب مقدارًا منه في كأس ومزجه مع عصير الليمون، ثم قدّم لي الكأس وقال:

– تفضل، لقد كلفت هذه الكمية القليلة بطرس اللعين كيلو غرامَين من أفضل أنواع زبيب أروميه، كأنها شاي حلو.

نهضت من مكاني غاضبًا وحزينًا، شعرت أن لساني انعقد، لقد سبق أن حذرني جدي قائلًا إن عيون كريم المتورمة الحمراء والدهون الموجودة تحت جفونه وخدوده الحمراء تدل على أنه مدمن على الخمرة، لكني لم أقبل ذلك وقلت له: كريم لا يفعل ذلك. نظرت إليه. انعقد لساني.

– أحسنت يا كريم، لهذا السبب إذن كنت تصر أن نأتي إلى هذا المكان، أنت كمن ابتلع ماء وجهه وتقيّأ حياءه وكرامته.

خرجت نحو باب المقهى، لكنه قام ومنعني.

– أجلس أرجوك، لا تجعل هذه الخمرة تتحول إلى سمٍ في فمي.

لم أعرف ماذا كان عليّ أن أجيبه، جلستُ على سرير مجاور، وجلس هو على السرير الأولي. وبعد لحظات، أحضر لي نصف الأكباد المشوية مع اللبن وعصير الليمون، لم أكن أعرف أنهم اغتصبوا كريمًا، أشار كريم لهذا الموضوع تلميحًا عدة مرات واعتقدت أن شخصًا يدعى علي كُلابي كان له صلة بالموضوع.

عاد إلى السرير المجاور، أدار ظهره إليّ، وصار يرتشف الخمرة من القنينة جرعةً جرعةً، ثم نهض من مكانه بعد عدة دقائق ورمى القنينة الفارغة بغضب في الساقية، ثم انحنى عند حوض الماء، وغرف بيده ماءً أدخله في فمه، مضمض فمه ثلاث مرات، ثم غسل يدَيه ووجهه، وجلس قبالتي على السرير، تغير صوته وصارت الكلمات ثقيلةً وكأن الدم ينهمر من عينَيه لشدة احمرارها.

– والآن يا علي، هل يطيب لك الحال، لقد تطهرنا من الأنجاس، تمامًا كما نكون في أوقات العمل. على الأقل ظاهرنا طاهر الآن، طاهر حسب الفتاوى الفقهية. مضمضت ثلاث مرات. فإن أخفيت عليك أمري فلن يكون لي أحد في الكون أبوح له أسراري، وقد وعدنا أنفسنا ذات يوم أن ننفض الحزن من أجسادنا وأرواحنا، لكنك فوّت علينا هذه الفرصة، جعلت الحزن يتضاعف.

إن نفض الحزن من الروح هو كنفض البيت من التراب والأوساخ، إن نفض الأحزان لا يعني إزالتها أو التخلص منها، وإنما يعني أنك ترتب أحزانك، فلا يمكن

لأحد أن يمحي أحزانه. لكنك نقلت الأحزان كما تنقل أثاث البيت، أي إنك تسببت بازدياد أحزاني ولم تقللها. فإذا لم تسمع شكوى قلبي فلم يبقَ لي من أبوح له غمي وأحزاني.

ثم وضع رأسه على رجلي وبدأ يبكي بحرقة.

– أنا لا أفرط في الشرب كالكلاب الثملة، صحيح أنهم اعتدوا عليّ واغتصبوني، ولكني أفهم أمورًا شرعيةً كثيرةً، ألم تلاحظ أنني جلست على سرير آخر كي أراعي حرمة المائدة ولا أجلس مع مسلم على مائدة واحدة، فليس من اللائق أن أشاركك، أنا الثمل، وقد أدرت لك ظهري كي لا تلتقي نظراتي حينما أرتشف الخمرة بنظرات إنسان مسلم، وقد حجزت كافة الأسرّة كي لا يسمع إنسان مسلم صوت ارتشافي الخمرة. لا أريد أن يسمع المسلم صوت ارتشاف الخمرة ولا أريد للكافر أن يرى. فماذا تريد مني أيها الفتى أكثر من هذا؟

سرت رغبة بالبكاء إلى أعماقي، لم أعرف السبب، ربما تعاطفًا معه، كان يبدو وكأنه هالك، أكثر من مذنب، مع ذلك لن يصل دعاؤه إلى السماء لمدة أربعين يومًا بسبب ارتشافه الخمرة.. كنت أبكي من أجله فيما كان يواصل حديثه دون انقطاع.

– أيها اللعين، أنت عاشق أيضًا، إن لم يعرف أحد بذلك، فأكيد بأنني أعرف هذا السر.

ضممته إلى صدري وقبلته. كان يبكي.

– لا تسحقني. هل تفوح رائحة الكلب من فمي؟ أليس كذلك؟ فإن أنت أعطيت الكلب قليلًا من الطعام في هذه الدنيا، فسيكون لك ثواب كبير يوم القيامة وتكافأ بحور العين، هذا ما قاله خطيب المسجد. لكن أود أن أسألك يا علي هل رأيتها؟

حركت رأسي ولم أفهم ولم يفهم إن كانت حركة رأسي تأييدًا أو نفيًا.

– ألم ترها؟

أردف كريم متسائلًا.

– جمالها من نوع خاص لا يشبه جمال البشر، كأنها حورية هربت من الجنة، أعتقد أننا لن نحظى بها حتى في الجنة. فامرأة بجمالها سوف تكون من حصة الأنبياء، اسمها جميل أيضًا، اسمها شمسي، لا تحاول أن تبدي عدم اهتمامك بحديثي هذا، فأنت أيضًا عاشق، أمرك مفضوح منذ أعوام، يا للحزن الذي يخيم على قلوب العشاق. اسمع يا علي، وضعي ليس على ما يرام، لا أعرف إن كنتُ أعشق شمسي، أم أنه مجرد هوًى يلفع القلب ويزول.

منذ أن وطأت قدماي زقاق القجريين نسيت الحب ولا أعرف بأي سين يكتبون اسم شمسي.

أيها الحاج أحضر عصيرًا لصديقي العزيز علي.

كنت أبكي وكان يرمقني بعينَيه الحمراوين ويقول:

– لقد صرت ثملًا دون أن تشرب خمرًا، وأصبحت ترقص دون أن يغني لك أحد. لهذا تراني أفديك بروحي. لقد تدهورت أوضاعي بشدة، منذ فترة وأنا لا أستطيع أن أبكي دون أن أشرب الخمر. منذ أن سافرت مهتاب مع مريم، منذ حوالي عامَين أو ثلاثة.. دعنا من هذه الحكاية، ما يهمني أن أقوله لك هو أنك تستطيع أن تبكي متى ما شئت.. هنيئًا لمهتاب وتعسًا لشمسي.

هل كنت أتحدث عن البكاء أم عن كريم أم عن الضحك أم عن مهتاب أم عن مريم، هل كنت أتكلم عن الكذب والسيد درياني أم كنت أتطرق بالحديث عن نفسي أنا. أنا علي... فكنت أنادي يا علي... يا علي مدد.

ثلاثيتي

كان جدي قد أوصى كريمًا منذ ليلة البارحة أن يذهب صباحًا إلى دكان إسماعيل الباجچي ويأتي بما طلبه من الباجة منه. إن جدي كان قد اعتاد حينما يرجع عصرًا من معمل الطابوق أن يرتاد مقهى شمشيري أو مطبخ إسماعيل الباجچي الذي كان يطبخ الكرشة كل يوم عصرًا.

استيقظ كريم فجرًا تزامنًا مع استيقاظ إسكندر وأمه للصلاة، أزاح الغطاء الوسخ والمرقع جانبًا، تثائب بصوت مرتفع مادًا صدره إلى الأمام وباسطًا ذراعَيه وصار ينظر إلى أمّه التي كانت تؤدي صلاة الصبح، وقد أربكها بنظراته فصارت تؤدي الصلاة بسرعة، وبدلًا من أن تربت على ساقَيها في نهاية الصلاة ثلاث مرات، كررتها أكثر من خمس مرات، ومن أجل أن تثير انتباه كريم ومهتاب، قالت بدل الدعاء:

– سوّد اللّه وجهي، يا إلهي، أبناء الحاج فتاح ليسوا بحاجة لأحدٍ من بني البشر، مع ذلك يستيقظون فجر كل يوم ويقيمون الصلاة، ولكن آه من هؤلاء الأبناء الفقراء الحفاة، إنهم لا يصلون.

تأوه إسكندر، وقال وهو يقدم الشاي للجميع إذ اعتاد على تقديم الشاي للضيوف في بيت الحاج فتاح:

– لا تكوني غير شكورة أيتها المرأة، ما دامت عظامهم رخوةً. وبعد أن يشتد عودهم، فإنهم يصلون. قالت الأم: أنا أقول يجب أن يصلوا ما دامت عظامهم رخوةً، فحينما يشتد عودهم فإنهم لن ينحنوا بعد ذلك أبدًا.

تمتم كريم ونهض من مكانه بإكراه. مضى صوب حوض الماء وغسل يدَيه ووجهه، وقد تسبب بيأس أمه التي ظنت أنه سيتوضأ للصلاة.

دخل الغرفة مسرعًا وارتدى ملابسه على عجل، سمعت مهتاب الضجيج الذي أحدثه كريم ففتحت بتثاقل عينَيها وأزاحت الغطاء جانبًا. كان مرقعًا ولكنه كان نظيفًا وناصعًا، حركت رأسها كي ترتب تسريحة شعرها البني وقالت لكريم:

- إلى أين تنوي الذهاب مسرعًا في هذا الصباح الباكر؟

- هذا أمر لا يخصك أيتها الفضولية.

استغفرت الأم بصوت منخفض ووجهت كلامها إلى كريم بلهجة حادة:

- أيها العاق! أختك محقة. إلى أين في هذا الصباح الباكر حيث لا يخرج الكلب من جحره، فإلى أي قبرٍ تذهب؟

- لقد أوصاني الحاج فتاح أن أحضر لهم الباجة من إسماعيل (أبو الشوارب).

غسلت مهتاب وجهها بماء الحوض، كانت تغرف الماء بكلتا يدَيها وتسكبه على وجهها. رفعت رأسها وقالت لكريم:

- لا تذهب اليوم إلى بيتهم بهيئة المستجدي، ضع قدر الباجة عند الباب وعد.

نظر إليها ولم يقل لها شيئًا، هكذا كان يتجاهلها ويتجاهل كلامها. لكنه فكر هذه المرة أن يسمعها كلامًا جارحًا.

- بدل هذا الفضول فكري بالماء الثمين الذي تتلفينه أيتها البغلة الصغيرة.

برفسة قوية، فتح الباب الخشبي وخرج من البيت، قفز إسكندر من مكانه وقال:

- هذا الحمار سوف يحطم الباب، لقد نسيت أن أخبره أن يجلب معه الباجة التي اشتراها لنا الحاج فتاح.

كانت مهتاب تقف أمام المرآة وتمشط شعرها الطويل، قالت:

– لا أريد أن أتناول الإفطار هذا اليوم.

كان كريم يركض لاهثًا، خرج من حي الحفرة، كانت الشمس قد أشرقت للتو، وكان عدة أشخاص يقفون إلى جوار مخبز الخباز علي محمد، امرأة ذات عباءة سوداء ورجال يرتدون عباءات ويعتمرون المناديل والقبعات. نظر كريم إليهم وتأكد أنه لا يعرف أحدًا منهم، ركض نحو سوق إسلامي دون توقف، كان البخار يغشى زجاج نوافذ مطعم الطباخ إسماعيل، كان إسماعيل الطباخ قد غير قليلًا من أثاث مطعمه المخصص للباجة، فقد بدّل ثلاثة أسرّة خشبية ووضع كراسي وطاولات، وذلك استجابة لأوامر البلدية. كان عدد من الناس يجلسون حول الطاولات ويأكلون الباجة، كان على الطاولات قنينة كبيرة للماء، يشرب منها من يشعر بالعطش.

دخل كريم وألقى التحية على إسماعيل (أبو الشارب)، لم يسمع إسماعيل تحية كريم أو ربما تجاهله عن قصد لأنه كان منشغلًا بخدمة ثلاثة من زبائنه الذين كانوا يتجاذبون الحديث مع موسى القصاب متطرقين لموضوع أسباب الغلاء.

– لست أنا من رفع ثمن الباجة، وإنما هذا الصديق الخائن موسى القصاب الذي يجلس قريبًا منكم وقد أخفى رأسه في معلفه كما تخفي النعجة رأسها وهو يلتهم الباجة.

نفخ موسى القصاب العظام الصغيرة والكوارع بيده وقال:

– أقسم عليك يا إسماعيل بهذه الشوارب الكثة أن تتركني وحالي، واللّه سوف أفضح أمرك أمام زبائنك. فإن كنت قد أضفت فلسَين على الثمن، فإنك قد أضفت ثلاثة فلوس.

ردّ إسماعيل أبو الشوارب:

– أنت تنظر للثمن فقط ولا تأخذ الجودة بعين الاعتبار، عليّ أن أحافظ على سمعة المطعم في طهران كلها، ومن أجل ذلك أضطر إلى رمي ثلاثة أو أربعة من رؤوس الخرفان التي تبيعها لي. يهمني أن أقدم وجبةً فاخرةً للزبون.

– صه يا هذا، الرؤوس التي أزودك بها ممتازة جدًا.

استرسل إسماعيل أبو الشوارب في إلقاء اللوم على موسى القصاب:

– لكنك تضع رأس المعزى المريضة بين بقية الرؤوس، ولو أني طبخته في هذا القدر فستفوح رائحته النتنة في أرجاء المطعم.

– صه، أنت تضع ليلًا مقدارًا من الفحم في علبة الصفيح تحت القدر الكبير الذي تضع فيه رأس وكراع وكرش الذبيحة ليطبخ من تلقاء نفسه ودون عناء منك وتنام، ثم تقدمه لخلق اللّه وتنام من جديد حتى الليل، واعلم بأن الشاه قد رمى خبازًا كان يبيع الخبز بسعر غال في التنور قبل أمس.

دس إسماعيل إصبعَين من يده اليمنى في طبقة زيت طفت فوق القدر الكبير، وكان زيتًا أصفر غليظًا، ثم دهن بهما شاربه، كي تنتصب شعرات شاربه ولا تغطي شفتَيه، وخاطب موسى القصاب قائلًا:

– أنا لا أخاف من ذلك، ولنفترض حسب كلامك بأن رضا شاه رمى الخباز في الفرن، لكن علبة الصفيح لا تسع لهيكلي الضخم.

ضحك موسى القصاب، ثم أشار إلى شارب إسماعيل وقال:

– لكن شواربك قابلة للاشتعال جيدًا. فحمة واحدة تكفي لاشتعال شواربك ولا حاجة لعلبة من الفحم.

ضحك جميع الحاضرين بما فيهم كريم. من نهاية المطعم قال زبون كان مسترخيًا على المقعد:

– لكن يقال بأن حكاية حرق الخباز كانت مجرد مسرحية.. رموا لبادًا ملفوفًا في الفرن وأوهموا الناس أنه رمى خبازًا، والعوام كالأنعام أقنعهم الوهم أن الشاه أحرق خبازًا، وانطلت الحيلة علينا جميعًا.

خيم الصمت على المكان ولم ينبس أحد ببنت شفة، بعد هنيهة أراد إسماعيل أن يكسر حاجز الصمت فقال: اللّه أعلم، لعل القضية كذب أصلًا. ثم انتبه إلى كريم الذي كان يصغي للحديث الذي دار في المطعم، وخاطبه:

– ماذا يريد ابن إسكندر من إسماعيل؟

ابتسم كريم وأجاب: جئت لآخذ ما أوصاكم به الحاج فتاح. قال إسماعيل: سمعًا وطاعةً. وأخرج من داخل القدر ثلاثة رؤوس. في تلك اللحظة فتح باب

المطعم ودخل درياني، بعد أن ألقى التحية وطلب من إسماعيل أن يهيئ له إناءً من ماء الباجة.

ألقى إسماعيل نظرةً على درياني، كان يبدو متضايقًا منه، وبصوت منخفض، قلد كلام درياني: إناءً من.. وأضاف، يريد ماءً من دون لحم أو مخ الخروف، ويشترط أن يكون خاليًا من الكراع كي لا يكلفه ثمنًا، ثم يثرد الخبز في ماء الإناء ويدفع مبلغًا يكاد يكون تكلفة الخبز.

ثم غرف من ماء القدر وصبّه في إناء وقدمه لكريم وقال له:

- انتبه، إنه ساخن جدًا، لم يأت العامل الجرو الذي يعمل عندي، من فضلك، ضع هذا الإناء أمام بقال محلتكم، ثم أردف قائلًا وبصوت سمعه كريم جيدًا: إنه محظوظ فليس في دكانه تنور كي يرميه الشاه فيه.

وضع كريم الإناء أمام درياني، كان درياني ينظر بانتباه إلى إسماعيل وهو يكسر جمجمة خروف ويخرج منها المخ واللسان ولحم الوجه ثم يضعها في قدر متوسط الحجم، قال درياني لكريم:

- أيها المشاكس، صرت من آكلي الباجة.

ضحك كريم وأجابه:

- صرنا مشاكسين؟ أعرف ماذا تقول.

أمسك درياني برغيف خبز وصار يقطعه قطعًا ويضعها في الإناء. وهمس قائلًا:

- إنه مشاغب وسليط اللسان.

كان كريم إلى جواره واقفًا جنب الباب وينظر إلى إسماعيل (أبو الشوارب) حينما فتحت الباب، دخل إسكندر وعندما رأى كريمًا خاطبه:

- يا جحش لا تنسَ أن تشتري عشرة أرغفة من الخبز للحاج فتاح.

ثم شرع بإلقاء التحية على إسماعيل (أبو الشوارب) والحديث معه. كان أهالي الحي يطلقون على كلَيهما لقب إسّي. فيقولون إسي (أبو الشوارب)، فيما يطلقون

على إسكندر إسّي الحاج فتاح. أخذ إسكندر القدر المخصص له من إسماعيل، لكنه أعاده إليه قائلًا:

- أضف له كميةً أخرى من ماء الحساء، أما قدر الحاج فتاح فدع ماءه قليلًا.

ثم ودع موسى القصاب ودرياني والباقين وخرج. في نهاية الأمر، سلّم إسماعيل القدر إلى كريم. ودّع كريم الزبائن وأوصاه الجميع أن يبلغ تحياتهم للحاج فتاح. قال الشاب الذي كان يضع طاقيةً من اللبد على رأسه وكان يجلس خلف موسى القصاب بلهجة كردية:

- إذن سوف يأتي الحاج فتاح اليوم متأخرًا إلى معمل الطابوق، وسيكون بإمكاننا أن نبدأ بالعمل متأخرين.. يا إسي (أبو الشوارب) أعطني كراعَين آخرَين.

حينما وصل كريم إلى المخبز، كان طابور الزبائن مزدحمًا كثيرًا. وقف الرجال في طابور والنساء في طابور آخر. وضع كريم القدر جنب باب المخبز ودخل، اعترض بعض الزبائن لأن كريمًا لم يراعِ طابور الانتظار. قال لهم كريم: لماذا كل هذا الاعتراض أيها السادة؟ لا أنوي أن أشتري خبزًا لنفسي وإنما للحاج فتاح، ففتح له الزبائن طريقًا ليدخل.

كان الخباز علي محمد قد غطّى وجهه بمنديل وقد ظهرت لحيته البيضاء من وراء المنديل، وكان شعره الأشيب الذي يتدلى على جبينه يلاطف قطرات العرق، نادى كريم الخباز ثلاث مرات، لكن علي محمد تجاهل نداء كريم، ومن أجل أن يلفت انتباهه، صار كريم يردد ترنيمة بصوت نسوي:

«اختنق ابني الصغير يا علي محمد

لقد خرب التمن بيد الطبّاخ يا علي محمد».

طاب لعدد من الصبية الذين كانوا يقفون في الصف أن يرددوا مع كريم هذه الترنيمة ليتغلبوا على ضجر الانتظار في الصباح الباكر. رددوا مع كريم:

«اختنق ابني الصغير يا علي محمد

لقد خرب التمن بيد الطبّاخ يا علي محمد».

ضحك الخباز، كان واضحًا كيف يضحك وراء المنديل أيضًا، كان نادرًا ما يتحدث، كأنه أبكم. رفع يدَيه وأشار بأصابع يدَيه علامةً على عدد أرغفة الخبز التي

عليه أن يعطيها لكريم، أجاب الخباز كريمًا مؤيدًا إيّاها بتلويحة رأسه، وتساءل كريم في سره: ترى كيف عرف عدد أرغفة الخبز، ربما قد أوصاه الحاج فتاح يوم أمس. أخذ الخبز من علي محمد وهمّ بالذهاب، لكن الخباز طلب منه أن ينتظر لحظةً وأعطاه مبلغًا بسيطًا ربما كان بقية المبلغ الذي استلمه من الحاج فتاح ثمنًا للخبز. لم يستطع كريم أن يتغلب على فضوله فسأل الخباز:

- ما هذه النقود؟

أشار الخباز بسبعة من أصابعه وغمّض عينَيه، لم يفهم كريم شيئًا، لكن أحد الشبان الواقفين في طابور الانتظار قال لكريم: إنه يقصد بحركته هذه أن تعطي النقود للعميان السبعة. حرّك كريم رأسه واتجه نحو زقاق مسجد قندي.

***

استيقظ الحاج فتاح مبكرًا قبل الآخرين وقال لأمي:

- يا كنّتي الوردة، ما عليك اليوم سوى إعداد الشاي، لقد أوصيت بإحضار الإفطار لنا من السوق.

استيقظ علي ومريم، وتوضآ جنب الحوض بماء المغسل ووقفا معًا لأداء صلاة الفجر في الغرفة. نظر إليهما الجد من وراء الباب وشعر بالغبطة. بعد أن أتما أداء الصلاة طلب منهما أن يدعوا لوالدهما. قال علي: أدعو كل يوم أن يعود إلينا من باكو محملًا بالهدايا وأن يجلب لنا في طريق عودته الحلويات من مدينة قزوين، أتمنى أن يعود قبل أن ينتهي رصيد مريم، ثم وجه كلامه لمريم وقال لها بصوت منخفض: هل تظنين أنك الوحيدة مفتشة مركز الشرطة؟ قرصت مريم عليًا من رجله وقالت:

- إنه ثرثار بحيث لا تبتل حبات السكر المكعب في فمه.

ثم اتجهت غاضبةً إلى غرفة الزاوية كي ترتدي البدلة الفيروزجية استعدادًا للذهاب إلى المدرسة وفتحت الجرار. كانت غرفتها أكثر فوضًى من غرفة علي رغم كونها بنتًا، لم تكن تعتني بجمع فراشها وبطانيتها بعد استيقاظها من النوم، وهذا ما كان يزعج أمها، فكانت تطلب من الخادمة أم كريم ان تذهب كل يوم بعد تناول الإفطار لترتيب غرفة مريم، وكانت مريم تتشاجر مع الخادمة عندما ترجع من

المدرسة.

كانت تقول: إن الشيء الذي سنفرشه ليلًا لماذا يُجمع صباحًا؟

وكانت الخادمة تجيبها:

– ابنتي، الأشياء التي تترك دون ترتيب وتنظيم ينام عليها الشيطان ويوسخها.

ارتدت مريم على مضض معطفها الأزرق وألقت ربطتها الفيروزجية على كتفها.

وفي حينها دخلت أمي الغرفة وألقت نظرةً إلى غرفة مريم غير المرتبة وإلى فراشها وبطانيتها المفروشة ولوحتها القماشية وأدوات الرسم المبعثرة على الأرض حيث كانت رائحة الألوان تملأ أركان الغرفة، فردت على تحية مريم دون رغبة وقالت: يجب على البنات أترابك أن يعرفن أعمال البيت وكأنهن ربات بيوت. يجب أن يكنّ فنانات في إدارة بيوتهن. أرادت مريم أن تسترضي أمها فقالت:

– فن الرسم فن رائع، وها أنا أحقق فيه النجاح تلو النجاح.

– تقصدين فن الرسم إذن؟ أقصد الفن الواقعي، الفن الواقعي هو أن تعرفي كيف تحافظين على غرفتك نظيفةً، وأن تنظمي الفراش والشراشف والأغطية بعد استيقاظك من النوم، الفن الحقيقي هو أن لا تقوم الخادمة أم كريم، هذه المرأة العجوز، بعمل كان من المفروض أن تؤديه بنفسك...

لم تدع مريم أمها تواصل كلامها وركضت وقبّلتها وبدأت تترنح أمامها وتغنّت قائلةً: لماذا باب الخزان مفتوح؟ لماذا ذيل الحمار طويل؟ لماذا تعزف بنت كالمرأة الغرامافون؟ فقالت مقاطعةً أمها:

– باللّه عليك يا أمي لا تحاولي أن تخلقي الأسباب لانتقادي في هذا الصباح الباكر. إن الخادمة تأخذ النقود لأجل هذه الأعمال.

قطع صوت مطرقة الباب الخاصة بالرجال صوت مريم. وقد خرجت أمي من الغرفة وكانت منتشيةً وتضحك بهدوء ونزلت من المدرجات. ورأت جدي وهو يطلب من كريم أن يأخذ الباجة والخبز إلى غرفة الزاوية الكبيرة.

فرش كريم المائدة على الأرض بسرعة ووضع عليها الخبز وقدر الباجة. حضر الجميع وجلسوا حول المائدة، آنذاك نهض كريم من مكانه واستأذن من الحاج فتاح للمغادرة، لكن عليًّا أجلسه على المائدة بيده وقال لكريم: إجلس تناول الإفطار معنا ثم نذهب سويةً إلى المدرسة.

ضحك جدي، لكن أمي رمقتني بنظرة حادة، ثم لوحت لي بإشارة تنبيه بنحو لم يرها كريم، ثم رفعت غطاء القدر، كان البخار يتصاعد، وصبّت ماء الباجة في طاس كبيرة، نظر علي إلى الكراعين والعيون التي رفعتها أمه من القدر بواسطة ملعقة كبيرة وقال لجده:

- تصورت أنك أوصيت بحساء الهريسة فإني أتقيأ من الباجة. قالت مريم:

- سلوك علي كسلوك الفتيات.

همس كريم بأذن علي:

- أيها الحمار! أختك على حق، هيا كل ولا تفوّت على نفسك هذا الطعام اللذيذ.

نهض علي من مكانه دون أن يتناول شيئًا من الطعام، أمره جده بالجلوس وقال له:

- صبرًا سوف أحضر لك هريسةً حالًا.

كادت أم علي تنفجر غضبًا من سلوك علي، قالت للحاج فتاح:

- أرجوك أيها العم العزيز أن لا تدلله أكثر، إنه يشبه الفتيات اللواتي يعترضن دائمًا على الطعام، إنه على عكس أخته اللجوجة.

لكن الجد واظب على هدوئه، أخذ إناءً معدنيًا ووضع فيه ثمانِ قطع من الكراعين، عزل عظامها بدقّة، ثم هرس اللحم وطلب من علي أن يهرس بدوره ما تبقى من اللحم بالمدق، وقال له:

- بعد أن تهرس اللحم جيدًا، كُل منه، فسيكون أفضل من هريسة مطعم الحاج محمد، يمكنك أن تضيف ملحًا عليها أو سكرًا، وفقًا لذائقتك. بعد أن ساهم بهرس اللحم الموجود في الإناء المعدني، انفتحت شهية علي على الطعام، وصار

يضع الهريسة لقمةً بعد لقمة في فمه، وذهب كريم مرتَين إلى مطعم إسماعيل (أبو الشوارب) ليجلب مزيدًا من العيون لمريم وأمها، ومزيدًا من الكراعين لعلي، وفي كل مرة ذهب فيها إلى المطعم تناول كريم قطعةً كبيرةً من لسان الخروف على حساب الحاج فتاح.

بعد أن تناولت مريم إفطارها، تضايقت من الحرارة العالية التي جعلتها تتصبب عرقًا، وكي تروّح قليلًا عن نفسها، بدأت تهف وجهها بيدها وسحبت ربطتها إلى الخلف وألقتها على كتفيها وكأنها لم تر كريمًا وقالت: حرقني هذا الحر الشديد، التفتت إليها أمها وحملقت في عينَيها بغضب. عضت مريم شفتَيها وقالت: آه لم انتبه للأمر، ثم أعادت ربطتها على رأسها. التفت الجميع نحو كريم ونظروا إليه ليتأكدوا إن كان قد رأى مريم من دون حجاب أم لا، كان كريم منشغلًا بتناول الإفطار ولم يرفع رأسه للحظة واحدة، ألقى علي نظرةً على الساعة الجدارية، وقال:

- لِمَ لم تنتبه يا كريم؟ لقد تأخرنا.

قال الجد: لا داعي للقلق، تذهبون للمدرسة من أجل تحسين روحكم، فإن كان الغذاء جيّدًا فنصفه من حصة الجسم ونصفه الآخر هو حصة الروح، هذا ما سمعته يوم أمس من مرشد الزورخانه[١]. قام الأطفال وهمس كريم في أذن علي: سوف يتأخر الطالب في فرقة الكشافة، اليوم يعاقبونك ويعاقبون روحك أيضًا. انتفض علي من مكانه، ألقى نظرةً على ملابس كريم، كانت ملابس بسيطةً للغاية، ثم وقف أمام مرآة عمودية في الممر، كبيرة الحجم وتأمل للحظة ملابس فرقة الكشافة وسرواله القصير الكحلي اللون وقبعته، تذكر أنه يجب أن يجلس جنب العضو الآخر في فرقة الكشافة الطالب قاجار. كان يشعر بالضيق بمجرد أن يخطر على باله الجلوس جنب قاجار ذي الهيكل الضخم.

ثم وقف هنيهةً في الإيوان المشرف على الباحة ونظر إلى ماء الحوض، كان الجو هادئًا، الماء لا يتموج، وكانت صور أشجار الرمان مرتسمةً على صحفة الماء، تذكر أنّ عليه أن يجلس بملابس فرقة الكشافة جنب قاجار، فصرخ: أشعر بالحرارة

(١) ومعناها بالعربية «بيت القوة»، وهو المكان الذي يتدرب فيه المصارعون على رياضة المصارعة الشعبية الرائجة في إيران، التي تعتبر من أقدم الرياضات ومن أبرز معالم التراث الشعبي الإيراني. [المحرر]

العالية، ورمى نفسه وهو يرتدي ملابس فرقة الكشافة في الحوض، كان الماء باردًا، خصوصًا وأنه اليوم الثاني من فصل الخريف. سمع الجميع صوت ارتطام علي بماء الحوض، ركضوا إلى الباحة، أمسكت أم علي بيده وسحبته إلى خارج الحوض وقالت:

- لقد جننت! أسأل اللّه أن تسقط في ماء الفرات، أيها اللعين، لقد أتلفت ملابسك، أتلفت النشاء الموجود في ملابسك. ما عسانا فاعلين الآن؟

ضحك علي وهو يرتجف وقال: سوف أرتدي ملابس أخرى، ملابس طبيعيةً وأستريح من ملابس الكشافة.

كان الجد ومريم وكريم يضحكون باستمرار.

قال كريم: يبدو أن إسماعيل (أبو الشوارب) قد وضع لك مخ الحمار بدلًا عن مخ الخروف.

نظرت أم علي بغضب نحو كريم، جعلته يلزم الصمت وكأنه قد ابتلع الكلمات التي لم ترغب أن يهين بها أحد ابنها، خصوصًا وإن كان من أبناء الوادي، حتى وإن كان مصيبًا. جففوا جسد علي بمنشفة كبيرة وألبسوه ملابس أخرى، ثم أرسلوه برفقة كريم إلى المدرسة. حملت مريم حقيبتها وكتبها أيضًا، إلا أن جدّها قال لها أنه سيوصلها إلى المدرسة. ودّعت مريم وجدها الأم وذهبا.

في مطلع زقاق مسجد قندي، قفز درياني من دكانه، وكي يبدو وكأنه قد تجاوز قضية مريم ولوكها العلك يوم أمس، ألقى سلامًا حارًا على الجد، رفع رجال آخرون كانوا متواجدين في الزقاق قبعاتهم للحاج فتاح علامةً على إظهار الأدب والاحترام. أعطى الحاج فتاح مقدارًا من النقوذ لأحد الشبان ليعطيها بدوره للعميان السبعة، فلم يكن بمقدور الحاج فتاح أن يقدمها لهم بنفسه فقد كانت العربة بانتظاره.

كانت عربةً سوداء وذات عجلات متينة ولها مظلة من جلد. أمسك الحاج فتاح يد مريم ثم أعانها على الصعود، صعد بدوره وقال للحوذي:

هل تأخرت كثيرًا؟ إلا أننا غير ملزمين على الذهاب إلى إسكندر، سوف يأتي بنفسه إلى المعمل، نذهب الآن إلى مدرسة إيران، لنوصل الآنسة مريم الوردة وربما

تجاذبنا معها الحديث أيضًا (قالها بصوت خافت). ضحكت مريم وقالت: ظننت يا جدي العزيز أننا سوف نذهب بسيارة الدودج وذلك سوف يجعلني أشعر بالزهو أمام الطالبات والمعلمات ويخفف عني إحراج التأخر.

- ليس مهمًا، حتى لو كانت البغال هي من تجر العربة، فذلك لن يغير من جوهر مريم الناصع. لقد أجزت السائق ليذهب إلى قريته في شميران.

لم تقل مريم شيئًا. استمر الجد بحديثه:

- أريد أن أقول لك شيئًا يا حفيدتي العزيزة، هل تستطيعين أن تحزري عن ماذا أريد أن أحدثك؟

رفعت مريم حاجبَيها المتشابكَين إشارةً للنفي.

- أريد أن أعاتبك من نفسك، أفتّن عليك بنفسك، أحيانًا أود أن أتبادل الحديث معك على انفراد، بخصوص.. في هذا الزمان، بخصوص صباح اليوم، بشأن الملابس والحجاب والعباءة والربطة.

- نعم يا جدي، أنت محق، فقد شعرت صباح اليوم بحرارة عالية.

نكّست مريم رأسها. قال الحاج فتاح:

- ما السبب الذي يدعوك للالتزام بالحجاب؟

- من أجل أن لا يراني غير المحرم. وأقر يا جدي بخطئي، فكريم غير محرم.

شعر الحاج فتاح بالسرور وكأنه اكتشف شيئًا، أمسك يد مريم بيده وقال:

- بارك اللّه فيك. ها هو خطؤك، الحجاب لم يكن للفرار من غير المحرم وإلا فإني أعلم أيضًا بأن غير المحرم ليس عفريتًا فكريم مثلًا، واحد منا، أليس كذلك؟ إن ارتداء الحجاب هو الخضوع للّه تعالى والاستجابة لأوامره، فإن أمر اللّه عبده فعلى العبد أن يمتثل لأوامر ربه، مثلما يستجيب الصديق لكلام صديقه.

قالت مريم: صحيح أن اللّه تعالى أمر النساء بالحجاب، لكن حكمته هو ما قلته أنا وهو الفرار من غير المحرم.

قطع الجد حديث مريم:

– دعي موضوع الحكمة، فإن ذلك أمر يعود للخالق عز وجل، فلو أن أحدًا من أصدقائنا طلب منا شيئًا، فسيكون من اللطف أن نلبي طلبه دون الاستفسار عن قصده، فإن كانت معرفة الحكمة مشروطةً لتنفيذ الأمر، فإننا قد أسدينا خدمةً للحكمة وليس للصديق، وماذا لو أننا لم نفهم قصده وحكمته، فسوف لا نعصي أمره. جنب مدرسة إيران، أرادت مريم أن تنزل من العربة، لكنها تأملت لحظةً ورجعت، انحنت وقبّلت خدَّي جدها، وقبّل جدّها خدَّيها الحمراوتَين أيضًا. كانت عيونهما مبللةً بالدموع.

لم تبتعد مريم خطوةً وإذا بالشرطي عزتي الأعزب، بقبعته المضحكة، يقفز أمام العربة. وقفت مريم باستغراب، رأت عزتي يستعد استعدادًا عسكريًا أمام الحاج فتاح وكأن جدها صاحب مرتبة عسكرية رفيعة. قال عزتي:

– عذرًا سيدي! في الحقيقة أنا مكلف بإبلاغكم أن ارتداء البنات الحجاب ممنوع. لقد أمروني أن أقف عند باب المدرسة وأن أخبر الطالبات بهذه الأوامر. لكنني طوال المدة الماضية لم أجرؤ على إبلاغ حفيدتكم بهذه الأوامر، كنت أنتظر عودة ابنكم الموقر من السفر لأفاتحه بالأمر، لكنني اغتنمت الآن الفرصة، لأحيط حضرتكم علمًا بالموضوع. وعلى الأصناف أن يحضروا مع نسائهم في المجالس التي تنظمها البلدية، واليوم جاء دور الفتيات الأميرات..

أشار الحاج فتاح لحفيدته أن تواصل مسيرها نحو المدرسة، ثم أشار بيده بأني سأدفع مبلغًا هديةً لعزتي: عليّ أن أسدد ثمن كوب شاي الأعزب كي يكف عن الكلام. هذا الصعلوك يختلق حكايةً طويلةً عريضةً من أجل قرشَين أسودَين، فيما مضى كان أكثر وضوحًا مما هو عليه الآن، كان يأتي مباشرةً إلى المعمل وأحيانًا إلى المنزل، فأعطيه قرشَين ثم ينصرف.

في ساحة المدرسة، استفسرت الطالبات من مريم إن كان الشرطي عزتي قد قال شيئًا لها، أم لا؟ لم تجبهن، كانت تتحاشى الكذب. كانت تكتفي برفع رأسها إلى الأعلى لتوحي بالنفي. كانت دائخةً.

في درس الرياضيات وجهت لها المعلمة عدة أسئلة تتعلق بمادة الرياضيات، ولم تجب مريم. كانت شاردة الذهن، فنفد صبر المعلمة وقالت:

– يا مريم الحاج فتاح، اثنان زائد اثنان يساوي أربعة، يبدو أن حواسك مشتتة اليوم، اذهبي إلى الطابق الأسفل واغسلي وجهك ويدَيك في دورة المياة المخصصة للمعلمات علّك تعودين إلى وعيك.

قالت مريم في سرها: المعلمة على حق، ربما يعود السبب إلى الإفراط بتناول كمية كبيرة من الباجة، إنها أكلة ثقيلة. كانت تشعر بدوار شديد، ذهبت إلى الطابق الأسفل، وغسلت وجهها بالماء. كانت تشعر أنها تتنفس بصعوبة، خرجت إلى ساحة المدرسة، كانت الساحة فارغةً. استنشقت هواءً نقيًا، ولم يؤثر ذلك كثيرًا على حالها المتردية، ذهبت إلى المسقاة وأخذت كوبًا من الشاي من «فرّاشة» المدرسة التي كانوا يسمونها بي بي..

– تعالي إليّ يا مريم لأراك، لقد أصبحت بلغميةً صفراويةً، أي أصابتك البرودة والحرارة معًا، أصابتك نوبة برد...

لم تفهم مريم شيئًا من كلام بي بي. اكتفت بهز رأسها. كانت بي بي مختلة العقل مليحةً سمينةً.

– اشربي الشاي يا مريم، إنه فاكهة الجنة، ليس له قشرة أو نواة وهو أفضل من جميع أعشاب العطارين لأنه فاكهة الجنة. وقد كتب اللّه من شربه دخل الجنة، هل ما زالت الخادمة أم كريم تقيم معكم، إنها امرأة حقيقية، صادقة، في السنوات الماضية كانت تأتي عندي، حينما كنت شابةً كان الجميع يزورني، بما فيهم إسكندر، لم يكن قد تزوج بعد، ولكن لا تبوحي بهذا السر لأحد، إذ سوف يتم طردي من المدرسة آنداك. قالت لي المديرة إنها سوف ترسلني موثوقة اليدَين إلى مركز الشرطة إن أنا أفشيت هذا السر لأحد، ثم في باحة المركز سوف يتم تعذيبي في دار تأديب الأكابر، وهو مكان لا يليق بنا إنما يليق بالنساء الوضيعات. لقد اشترطت السيدة المديرة أن لا أتطرق لهذه المواضيع، فلو أنني أفشيت الأسرار التي أعرفها فإن نصف أصحاب المناصب سوف يجدون أنفسهم في دار التأديب، لا اعتبار للمناصب التي يشغلونها، الرجال كلهم من صنف واحد.

خرجت المديرة من مكتبها وصرخت:

– عن ماذا تتحدثين يا بي بي.

– لا شيء مهم، سيدتي! يشهد اللّه أنني كنت أعد مزايا الشاي وفوائده، ثم ابتسمت وقالت: مريم الحاج فتاح ليست على ما يرام، يبدو أنها قد تعرضت لبرد شديد، إنها تشعر بضيق النفس وتتصبب عرقًا.

خاطبت المديرة مريم:

– ماذا تفعلين هنا، من المفروض أن تكوني حاضرةً في قاعة الدرس؟

شرحت مريم للمديرة سوء حالها وأخبرتها أن معلمة الرياضيات هي من طلبت منها أن تذهب إلى دورة المياه لتغسل وجهها ويدَيها بأمل أن يساعد ذلك في تحسن حالها.

عادت مريم إلى قاعة الدرس، وقد راعت معلمة الرياضيات حالتها الصحية التي لم تكن على ما يرام.

لم يكن برنامج الساعة الثانية محددًا، لذا تم تخصيصه للنشيد. يدخل الرجل الأرمني إلى قاعة الدرس ليردد عدة مرات "دور مي فا"، ثم يطلب من الطالبات أن يرددن معه الأناشيد. كان المعلم ينتظر أن تقوم مريم من مكانها كالعادة وتقول: "من إذنك سيدتي المعلمة" لتثير ضحك الطالبات، كان المعلم طاعنًا في السن ولهذا لم يعترض أحد على تواجده بين الفتيات. كان ينتظر أن تقول مريم شيئًا. لم يطق المسيو وارطان صبرًا وقال:

– يا مدام فتاح، الآنسة فتاح، لم تقولي اليوم "أتسمحين لي يا سيدتي المعلمة"؟

ضحكت الطالبات وضحك الرجل العجوز الأرمني، لكن مريم لم تستطع أن تطلق ضحكةً ولو خفيفةً. كانت مشوشة الذهن، تمر صور ومشاهد غريبة من أمام ناظرَيها: «ثمة مجلس مخصص للنساء مقام في بيتنا، هل كان أبي قد سافر، أم لا؟ لم أعد أتذكر، كانت مائدة الليلة الخامسة من الشهر وكانت أمي قد دعت الجميع كالمعتاد، وقد أعدت كل الأشياء اللازمة للحفل قبل يومَين من موعده بمساعدة الخادمة أم كريم وإسكندر. ساهمت في مساعدة أمي في إعداد الحلويات والكرزات، كذلك ساعدتها في ترتيب المكان وبسط السجاد والمائدة

الكبيرة. حضر جميع المدعوين إلى الحفل، وكنا قد طلبنا من إسكندر أن يغادر المكان، إذ ليس من اللائق أن يكون متواجدًا بين هذا الحشد من النساء. طلبنا من بي بي مستخدمة المدرسة أن تساعدنا وأن تتولى إعداد الشاي، جلست قريبًا من السماور. اعترضت عدة من النساء على مجيء بي بي وقلن كأن السماء قد أمطرت الأتراك. ألم تكن نسوة يساعدنكم سوى هذه العاهرة. كانت أم قاجار وكأنها زوجة الأمير، وهي أم ذلك الطالب العضو في فرقة الكشافة الذي يجلس إلى جوار علي في الصف الدراسي، هي التي اعترضت على حضور بي بي، يقال إنها كانت تعطي باستمرار مقدارًا من المال لرجل يقرأ الطالع كي يزودها بالمقابل بتعاويذ لطرد الجن من منزلها، وقبل فترة قررت أن تخلع عباءتها، وبذلك شدّت ربطةً على رأسها!

فجأة انتبهت مريم أنها كانت تردد كلمات مع الطالبات غير مفهومة، كان المعلم مسيو وارطان قد انتبه إلى ذلك أيضًا، لكنه لم يكترث بذلك.

«ما الذي جعلني أتذكر الضيافة؟ في ذلك اليوم، جاءت النساء مرتديات العباءات السود، كن يخلعن عباءاتهن في غرفة الزاوية، وينزعن ربطاتهن أيضًا، ثم يرتبن هندامهن أمام المرآة الكبيرة المنصوبة هناك. بعضهن يخرجن محفظةً صغيرةً من حقائبهن تحتوي على مكحلة وأدوات تجميل صغيرة الحجم ويضعن لمسات سريعة من المكياج على وجوههن بسرية وحذر لئلا يراهن أحد. بالنسبة لزوجات وبنات أصدقاء جدي وأبي فقد كن من شريحة لا علاقة لها بعوائل القصابين والبقالين، كن يخرجن مناديلهن الخاصة بالبكاء من حقائب يدوية مطرّزة بالذهب، ثم يدخلن إلى الغرفة ذات المصاريع الخمسة، وبذريعة البحث عن مكان للجلوس يلقين نظرةً على جميع الحضور، ليلفتن الانتباه إلى ثيابهن الفخمة التي اشترينها من خارج البلاد. من بين الضيوف، كانت هناك امرأة عجوز، لم تنبس ببنت شفة، كانت قرويةً، وذلك ما يتضح من خلال عباءتها الموردة، أي من ذلك النوع من العباءة التي لا تجد أحدًا من عائلتي مستعدًا لأداء حتى صلاة القضاء بها. كانت قد أزاحت برقعها وتتفرس وجوه الآخرين. وكانت شاذةً بين تلك النساء اللاتي أتين بعباءات سوداء. كنت قد قلت لأمي مئات المرات يجب أن يكون الضيوف من شريحة واحدة. جاءت وجلست في بداية مدخل الغرفة ذات المصاريع الخمسة، لم تلقِ التحية على أحد، نظرت بملامح باردة إلى جميع النساء وكأنها ترى لأول مرة في حياتها نساءً بلا حجاب. كنت أهم بتسليم صينية الشاي للخادمة فتعثرت برجلها.

فقد كانت تجلس في مكان غير مناسب. نظرت إليها وطلبت منها العذر، مددت يدي إليها وقلت:

اخلعي عباءتك من فضلك، ليس هنا من هو غير محرم، وسوف أحتفظ بها لك في الغرفة المجاورة.

صرختْ فجأةً: لا. ثم رجعت إلى الوراء قليلًا. قلت في سري: إلى جهنم وبئس المصير، مثل هذه التصرفات المتعصبة هي التي تجعل أمثال زوجة قاجار تستهزىء بكم. من كانت هذه المرأة المزعجة؟ فهي ليست من الأقارب وليست من المعارف، فمن تكون يا ترى؟».

الآنسة مريم فتاح، أنت تهذرين وحواسك مشتتة!

التفتت مريم، كان الرجل المسن يردد الأناشيد برغبة جامحة وذوق منقطع النظير، وكان هذر مريم قد أربك أداءه بعض الشيء. رفعت مريم يدها إلى الأعلى علامةً على الاعتذار وابتسمت. أسرعت الطالبات بإثارة الضجيج اعتراضًا على سلوك مريم. قال الرجل المسن: لا بأس، يحدث أحيانًا أن نفقد انتباهنا.

«لكن حقًا، من كانت تلك المرأة، ما الذي ذكرني بها، لم تكن امرأة قاجار التي استعملت سبعة ألوان من الماكياج على وجهها، فامرأة قاجار متقدمة في السن، ولم تكن زوجة الحاج محتشم فإنها لم تكن عجوزًا لهذا الحد. جميع النساء خلعن الحجاب باستثنائها، فمن تكون؟».

فجأةً قفزت مريم من مكانها، ثم عادت إلى وعيها وجلست بهدوء على المقعد وابتسمت للرجل العجوز الأرمني ثانيةً، لقد فرحت لأنها توصلت في تلك اللحظة إلى هوية المرأة التي أصرت على عدم خلع العباءة.

«الآن قد فهمت، إنها أم الشرطي الأعزب، إن الذنب هو ذنب جدي الذي يدعو كل من هبّ ودبّ، نساء عائلة المباشر والميرزا وأخت موسى القصاب، دون أن يحسب حساب حضور نساء من هذه العوائل إلى جوار عائلة السيد الميرزا إبراهيم صاحب معمل الطابوق وعائلة إمام المسجد، وحتى امرأة قاجار.

كان يقول إنهم غرباء في هذه المدينة وليس لهذه المرأة العجوز من أحد سوى ابنها الوحيد الأعزب، ولهذا السبب ارتأيت أن أدعوها.

تفرست أم الشرطي الأعزب إلى وجوه الحاضرين وكأنها كانت تنوي أن تفترسهم بنظراتها، كانت تفتح بين حين وآخر يدها وتعض على اللحمة بين السبابة والإبهام مبديةً استغفارها من منظر النساء المبرجات، أي إنها كانت تقول: إلهي التوبة. وفي نهاية المجلس، ذهبت وجلست إلى جوار امرأة قاجار التي أثقلت وجهها بمكياج متعدد الألوان وكانت تجلس منفردةً لوحدها، ربما كانت تنوي أن تنصحها، لكن مهما كان هناك من اختلاف في منظرَيهما، فقد كانتا متشابهتَين من ناحية أخرى، فالأولى مُفْرطَة في تبرجها، والأخرى مُفَرِّطَة في تعصبها، ومن المضحك أنهما صارا يتجاذبان الحديث بألفة. قالت الأولى: ما زال ابني أعزبًا، وقد طلبت من قارئ الفال أن يكتب له تعويذةً، فردت زوجة قاجار: ثمة جن في بيتنا، أتمنى للجن ولقارئ الفال الموت، فلم تنفع تعاويذه قط».

عادت مريم إلى وعيها، كانت السيدة بي بي تضرب بمطرقة كبيرة بعض الشيء على صفيحة معدنية معلنةً انتهاء الدرس.

تهيأ المسيو وارطان للخروج بعد أن خرجت جميع الطالبات.

«الآن فهمت لماذا صرت أستعيد ذكرى الضيافة، إنه بسبب الشرطي عزتي الأعزب، لقد أفسد علينا الصباح. صدق المثل القائل إن باب الحداد مكسورة.

فبدل أن يهتم بحال أمه ويسعى ليجعلها آدميةً مثل باقي البشر، يأتي إلى الحاج فتاح ليقدم النصح لحفيدته، لو كان إنسانًا سويًا لاهتم بأمه قبل كل شيء».

كانت مريم تشعر بالرضى والسرور، بعد أن استطاعت حل أمور غامضة كانت تشغل بالها، وبما أن الدرس الثالث لطلاب الصف الأول سيكون اليوم كما الأمس شاغرًا فإنه سوف يخصص للرسم، وعلى مريم أن تمارس كالأمس دور معلمة مادة الرسم. سرح خيالها بجدائل مهتاب البنية، لم تعرف لماذا كلما خطرت مهتاب على بالها، ارتسمت صورة علي أيضًا في ذهنها، ربما كان ذلك يعود للرسم الذي أنجزته مهتاب في اليوم الماضي، أي حينما رسمت وجه مريم وقد بدا شبيهًا بعلي، اتجهت إلى دورة المياه المخصصة للمعلمات وغسلت للمرة الثانية وجهها.

***

من الباب الخشبية للبيت، خرج علي الذي تخلص من السروال القصير الكحلي

اللون والقبعة المقنعة، برفقة كريم، قاصدَين الذهاب إلى المدرسة، ألقى كريم نظرةً إلى شعر علي المبتل وقال: أيها الحمار، يبدو كأنك أكلت مخ الحمار وكراعين الفرس، لماذا رميت نفسك في الحوض!

كي لا أجلس إلى جوار قاجار، لم أعد الآن من فرقة الكشافة.

هزّ كريم رأسه بعلامة الفهم. حينما مرّا من أمام محل درياني، وافق علي على شراء كيس من الحلقوم استجابةً لكريم الذي ألح في طلبه، قال له علي:

يا كريم، كيف تستطيع معدتك أن تهضم كل هذا الطعام وقد فرغنا قبل قليل من وجبة طعام ثقيلة؟

قال كريم الذي أخذ حفنة من الحلقوم بيده ودسها في فمه «هكذا»، في طريقهما إلى المدرسة، مرّا من أمام مطعم الباججي إسماعيل (أبو الشوارب)، مكث كريم وقال لعلي إنه سوف يلحق به بسرعة ودخل المطعم، كان الباججي إسماعيل (أبو الشوارب) منشغلًا بغسل القدور والصحون، قال كريم: أريد قطعةً من لسان الخروف على حساب الحاج فتاح. صرخ الباججي إسماعيل (أبو الشوارب) من بين البخار المتصاعد من القدور: بعد وجبة دسمة لا بد من لقمة أدسم.

أسرع كريم خطاه وهو يبتلع لقمةً كبيرةً من لحمة لسان الخروف، أثار منظره ضحك علي، قال كريم: أنت لا تحب لحمة اللسان، أقصد أنك لم تحبها.

ضحك علي ضحكةً سرعان ما اختفت من ملامح وجهه، فقد كان خائفًا من أن يصل إلى المدرسة متأخرًا مثل يوم أمس، كما أنه لم يرتدِ اليوم بدلة فرقة الكشافة وهذا ما قد يعرضه للعقوبة المضاعفة.

أسرع علي من خطاه وقال بلهجة حادة: أسرع يا هذا وإلا سوف نتأخر كيوم أمس، رأى العميان السبعة وقد قطعوا شوطًا كبيرًا في السير، أعطاهم ما يملك من قطع النقود من فئة الفلوس، وخاطبهم: اعذروني لا أستطيع أن أنتظر كي أعطيها لكم واحدًا تلو الآخر. فأجابوه بصوت واحد:

ليرزقك الخالق.

ثم بدؤوا يغيرون مواقعهم، بدأت الدكاكين تفتح أبوابها للزبائن، كان أصحاب المحلات يلقون التحية على علي ويطلبون منه أن يبلغ سلامهم وتحياتهم إلى جده الحاج فتاح. وكان يجيب بسرعة على سلامهم، في نهاية الأمر وصل كل من كريم وعلي متأخرَين عشر دقائق إلى مدرسة الحكيم نظامي.

كانت فرقة الكشافة قد قرأت نشيد العلم، وكان التلاميذ يتجهون إلى صفوف الدراسة على شكل طوابير منتظمة، ركض كريم وعلي ليلتحقا بنهاية طابور طلاب الصف السادس، أرخى كريم ساقَيه قليلًا كي يقلل من طوله لئلا يراه المعاون، كان علي أقصر من كريم. حينما مرّا من أمام باب القاعة رآهما المعاون بشواربه الكثة وجاء نحوهما. خافا كثيرًا. ضرب يده بعصاه وقال لعلي: في البدء ظننتك تأخرت، لكنني فهمت الآن أنك لم ترتدِ اليوم بدلة الكشافة أيضًا، وهذا ما كنت أظنه قد أخّرك.

لم يقل علي شيئًا تجنبًا للكذب، لكن كريمًا سارع وقال:

– وقعت بعض بقع الزيت على بدلته، فاضطر لغسلها وإلا ما كنا نتأخر اليوم.

لم يعر المعاون أهميةً لكريم، أمرهما أن يجلسا في مقاعدهما في الصف. بفرح كبير، جلس علي في نهاية الصف على المقعد الذي يتقاسمه مع مجتبى وكريم. جلس بينهما، حينما جلس جميع الطلاب واستقر الهدوء بعض الشيء، التفت قاجار إلى علي وقال: إن مكانك هنا إلى جواري يا علي.

أجابه كريم نيابةً عن علي: نعم إن مكانه في الأمام لو كان قد ارتدى بدلة الكشافة، لكن الطيور على أشكالها تقع وأشار إلى مجتبى وعلي وإلى نفسه أيضًا، والغربان أيضًا تقع على أشكالها وأشار بيده إلى مقعد قاجار.

- ماذا قلت، الغربان؟

- كلا وإنما قصدت الفيلة.

ضحك الطلاب، ولم يستطع قاجار أن يرد على كريم فلزم الصمت للحظات، لكنه تذمر من ضحكات الطلاب، فصار يتحدث عن مفاخر أجداده وبطولاتهم، قال:

– نحن عشيرة استطعنا أن نصل إلى السلطة بالنصر، ولسنا مثل هؤلاء الجدد الذين صيروا أبناء الوادي بشرًا، يجري في عروقنا الدم الملوكي ونعرف كيف نعيش كالملوك، فحينما يقال أن فلانًا أمير من أبناء الملوك فالمقصود هو والدي على سبيل المثال، أي إن أبي...

قاطعه علي:

- ولكنكم لا تستطيعون رغم كل ذلك، أن تعيشوا بسعادة ولو ليوم واحد.

- لا نستطيع؟! إذن ماذا عن كل نساء الحرم والخدّامات والحفلات والمهرجين و...

- رغم كل الأشياء التي قلتها، ولكنكم لا تستطيعون الظفر بالهناء ولو ليوم واحد فقط.

سأل قاجار مستغربًا:

– ماذا تقصد؟ لماذا لا نستطيع أن ندرك السعادة، وما هو معنى السعادة إذن؟

هزّ علي رأسه وقال ببراءة:

– أنا أيضًا لا أعرف، لكن جدي قال ذلك لأحد أصدقائه، وقال أيضًا إن هؤلاء عشيرة قاجار لا يستطيعون أن يعيشوا بسعادة ليوم واحد رغم كل ما يملكون.

لاذ كريم وقاجار وجميع الطلاب بالصمت، أذهلهم ما قاله علي، لم يفهم أحد ماذا كان يقصده علي، الوحيد الذي كسر أجواء الصمت هو مجتبى رغم كونه من أهل الصمت والهدوء:

– بالطبع ليست الحياة محصورةً بالترف، لكن الحاج فتاح على صواب، إن عشيرة قاجار لا يتذكرون يومًا واحدًا كان حافلًا بالسعادة لهم.

عمت الفوضى بين الطلاب الذين راحوا يتهامسون مستفسرين عن معنى كلام علي ومجتبى. كريم لم يفهم بدوره شيئًا من الأمر، لكن عليًا ومجتبى تبادلا الابتسامات وكأنهما يدركان أمرًا لا يستطيعان البوح به.

قال قاجار الذي يروق له أن يعدد مفاخر عشيرته كلما وقع في إحراج:

- لا يشعرون بالسعادة والترف الحقيقي؟ ما هذا الكلام الفارغ؟ هل عرفتم لماذا يتشابه أفراد عشيرة قاجار؟ ليس ذلك بسبب الوراثة فقط وإنما يعود الشبه لأننا نملك ذوقًا متشابهًا. جميع أفراد عشيرة قاجار يحبون نوعًا خاصًا من النساء. القاجاري الأصيل يبدو مثل نار على علم حتى من على بعد مسافة طويلة، فهو ذو جسم ضخم وممتلئ، والأهم هو الحنك، مسك حنكه بإصبعَي يده وأضاف، الحنك النحيف هو من ملامح القاجاري الأصيل، حنكنا النحيف يشبه حنك الإنجليز.

تضايق الطلاب من تفاخر قاجار بعشيرته.

قال كريم لعلي ولمجتبى الذي كان يشغل نفسه بالمطالعة:

- انظر كيف سأحرجه.

وخاطب قاجار قائلًا:

- هل حقًا يشبه حنككم حنك الإنجليز؟

هز قاجار رأسه مؤيدًا وأشار إلى حنكه النحيف. قال كريم بلهجة كأنه حل معضلةً فلسفيةً:

- إذن، هذا هو السبب، لقد فهمت الآن، وطالما قلت في سري إن من المستبعد أن تكون كل هذه الذرية هي من صلب جدكم المخنث الملك محمد خان القاجاري، إذن إنها فعلة الإنجليز.

في البدء أدرك أحد الطلاب مغزى كلام كريم وصار يضحك بصوت عال، ثم انفجر باقي الطلاب بالضحك استهزاءً بقاجار. لم يحتمل قاجار هذه الإهانة فنهض من مكانه وهجم على كريم، إلا أن عددًا من الطلاب حالوا بينه وبين كريم وأعادوه إلى مكانه فقال:

- يا كريم إن للمزاح حدودًا عليك أن لا تتجاوزها.

كان الصوت يخرج بصعوبة من حنجرته، وقد خنقته العبرة، ومن أجل أن لا يرى أحد من الطلاب دموعه خرج من قاعة الدرس، كان الطلاب يمتدحون كريمًا

ويضحكون بصوت مرتفع. أغلق مجتبى كتابه ونهض وضرب بقوة على الطاولة، ساد الصمت المكان. بصوت كان يرتعش من شدة الغضب، خاطب مجتبى كريمًا:

– يا كريم، ما فعلته كان منافيًا للأدب ويجب أن تعتذر من قاجار.

ثم وجه كلامه لعلي:

– كفّ عن الضحك يا علي، ما قاله كريم لا يستدعي الضحك إطلاقًا، وإنما يدعو إلى البكاء، عليكم أن لا تعبثوا بماء وجه الناس.

كان علي يساير الآخرين في الضحك أكثر مما كان مقتنعًا به، حاول أن يؤيد كريمًا فقال:

– لكن كريمًا لم يقل شيئًا سيئًا.

وقال كريم مدافعًا عن نفسه:

– يا سيد مجتبى، أنت أيضًا ذكرت يوم أمس أشياء عن تاريخ عشيرة قاجار وقضية طبّاخ القصر.

سكت مجتبى وأطرق برأسه إلى الأرض وقال:

– نعم أنت محق يا كريم ولكنني أعترف أنني كنت مخطئًا، مع ذلك فما ذكرته كان حقيقةً ولم يكن القصد إهانة قاجار.

في هذه اللحظات، دخل المعاون الصف وطرق بعصاه الباب بقوة وقد سكت الجميع، أشار بالعصا إلى كريم الذي نهض على الفور من مكانه وخرج من القاعة، ثم أشار إلى علي الذي صار يتلفت يمنةً ويسرةً على أمل أن يكون المقصود شخصًا آخر، ولكنه أفهم عليًا بحركة العصا أن عليه أن يجلس إلى جوار قاجار. خرج المعاون وعاد قاجار وجلس على المقعد الذي يشاركه فيه علي.

خيم الصمت على قاعة الدرس، كسر مجتبى أجواء الصمت واعتذر عن نفسه ونيابةً عن كريم وعلي لقاجار وذكر لقاجار أنه هو أيضًا كان مخطئًا حينما وشى بكريم لدى المراقب. كان علي مشتت الذهن وكلما كان الجرس يرن معلنًا فترة الاستراحة يتجه إلى غرفة المعاون دون جدوى إذ كانت بابها مغلقةً.

في الساعة الأخيرة، لم يعد كريم إلى قاعة الدرس، الأمر الذي ضاعف من قلق الطلاب. كان قاجار قلقًا أيضًا إذ كان يشعر بالذنب للعقوبة التي يتعرض لها كريم. أراد قاجار أن يتغلب على قلقه فقال: يا علي... أنظر يا علي...

- ماذا تريد؟

- لا أريد شيئًا.

- إذن لا تقل يا علي، يا علي.

سكت قاجار وشغل نفسه بقراءة الكتاب، لكنه لم يطق صبرًا فكان يريد أن يتكلم مع علي وقال:

- أتعرف يا علي أن والدي الأمير سيذهب مع أمي إلى ضيافة البلدية.

- لا، ليست لدي أية فكرة عن هذه الضيافة، فماذا تعني ضيافة البلدية؟

- على النساء أن يذهبن سافرات إلى البلدية، وهذا ما يثير الخوف فيّ.

- تخاف؟ ممّ تخاف؟ فمن المعروف عن أمك أنها خلعت عباءتها من قبل.

- لا، ليس هذا ما يثير خوفي، إن ما يخيفني هو الحديث عن وجود جن في البيت، أرجوك أن لا تذيع هذا السر، أنا خائف من بقائي وحيدًا في البيت، الخادمة وحدها ستكون موجودةً معي في البيت، وهي خادمة مسنة، ماذا عساها أن تفعل لو هاجمني الجن؟

ضحك علي وقال لقاجار إنه لا يؤمن بهذه الأمور.

قال: أخبرني جدي أن هذه الأحاديث ليست إلا خرافات.

رن جرس انتهاء الدوام وخرج جميع الطلاب من المدرسة مسرعين راكضين، باستثناء علي ومجتبى اللذَين وقفا إلى جوار باب غرفة المعاون، بعد لحظات خرج كريم من غرفة المعاون برفقة الفرّاش الذي كان يساعده على السير، كان يترنح في سيره، ركض مجتبى وعلي وأمسكاه من إبطَيه وكان لا يجيد التكلم فأشار بيده أن يصطحباه إلى حوض الماء، خلع كالتَيه ووضع قدمَيه المتلاشيتَين داخل الحوض. سمع علي أزيز قدميه وسأله:

– هل ضربك كثيرًا؟

– ضربني إلى حدٍ فقدت فيه كل الطاقة التي كسبتها من وجبة الباجة الدسمة. فقدت الباجة والكراعين التي كانت في بدني.

ضحكوا جميعًا، ضحك علي ومجتبى وكريم ونقل علي لمجتبى ما قال جدّه بشأن الغذاء الجيّد، وخرجوا من المدرسة وقد أمسك كل من علي ومجتبى إبطَي كريم ليسهل عليه السير. توقف كريم للحظة وكأنه تذكر البلاء الذي نزل عليه اليوم وقال:

– بالمناسبة لن أنسى أنني وعدت نفسي أن ألقن قاجار درسًا لن ينساه طوال حياته.

حاول مجتبى أن يهدىء من روع كريم فقال له:

– لا تنسَ أنك جرحت مشاعره بألفاظ غير مؤدبة، كان من حقه أن يشي بك لدى المعاون.

صرخ كريم:

– عليه اللعنة، كان يستحق ذلك.

قاطعه علي:

– لا أعتقد أنه سيء جدًا، إنه إنسان مثلنا.

– أيها الحمار! ماذا تقول، أين حواسك؟ هل يمكن اعتبار هذا الفيل آدميًا؟

– نعم، إنه إنسان على كل حال.. طبعًا يخرج عن آدميته أحيانًا، ولكنه شقي، يستحق الترحّم، انظر كم هو خائف، قال لي إنه يخاف من الجن، خصوصًا عصر اليوم حيث يتركه والداه.

لم يمهل كريم لعلي فرصةً لتكملة كلامه:

– كلنا نعلم أنه يخاف من الجن، ليس هذا بالأمر الجديد، وفي كل الأحوال سوف ألقنه درسًا لن ينساه، ولو أنكما تعرضتما للفلقة التي تعرضت لها لما كنتما تعفيانه.

حاول الدرويش مصطفى أن يجتازهم بعد أن قطع خطوات سائرًا خلفهم وكان كريم لا يزال يصرخ ويعربد، لم يغير منذ فترة شيئًا من مظهره، بملابسه ولحيته البيضاء وكشكوله الفضي. قال بصوت مسموع: «يا علي مدد»، فأثار انتباههم، تنحى كل من علي ومجتبى عن طريقه وسلّما عليه فيما بقي كريم يسير في منتصف الطريق وأشار بيده للدرويش أن يمضي من جواره، استجاب الدرويش ومضى، لكنه بعد عدة خطوات وقف في مكانه وحينما اقترب كريم منه، صار يتمعن في عينَي كريم، نكّس علي ومجتبى رأسهما من باب الأدب والاحترام، لكن كريمًا صار يتفرس في وجه الدرويش فقال له الدرويش: من لا أدب له فهو بلا أدب، ومن النادر أن يطول عمر من لا أدب له، يا علي مدد. أراد الدرويش أن يواصل سيره، لكن كريمًا قال له:

أغرب عني. أنت فرح، لا غم لك.

التفت الدرويش مرةً أخرى إلى كريم وأطال النظر في عينَيه ولم يقل شيئًا، فتساءل كريم في نفسه: كيف عرف الدرويش بإساءتي للأدب اليوم بالمدرسة؟ ثم تذكر الخباز محمد علي الذي عرف عدد أقراص الرغيف من تلقاء نفسه. ثم قال في نفسه: يبدو أن القوم اليوم ليسوا على ما يرام، ثم ألقى نظرةً على الدرويش الذي بدا له شبيهًا بالخباز، كان الدرويش قد ابتعد خطوات عديدةً عنهم.

رافق مجتبى وعلي كريمًا إلى بيته، عند باب الدار خاطب كريم عليًا:

– قلت إنه يخاف من الجن... قلت إن والدَيه ليسا في البيت اليوم.

– نعم قلت، وماذا في الأمر؟

– أيها الغبي أنت لا تفهم حتى بمستوى الحمار، سوف آتي عصر اليوم إليك فانتظرني، وودّع مجتبى وقال له:

– لم تكن هناك ضرورة أن تبعد طريقك وترافقني إلى الحفرة. كان بإمكاني أن أوصل نفسي إلى البيت من دون مساعدتك.

ضحك مجتبى ضحكةً خفيفةً وغادر مع علي حي الحفرة من أسفل الطريق حتى أعلاه ونصح عليًا أن يهدّئ كريمًا وتوادعا حينما بلغا زقاق مسجد قندي.

وصل علي البيت في نفس لحظة وصول مريم.

***

حتى عودة الأولاد من المدرسة، كانت أمي مضطرةً أن تفتح الباب لمرتَين أو ثلاث مرات. كلّما طرقت مطرقة الباب الخاصة بالنساء كانت الخادمة تذهب وترجع راكضةً وتقول: أظن أن لها شغلًا معك يا سيدتي. ها هي السيدة فخر السادات، أو ابنة السيد الميرزا إبراهيم، أو والدة السيد پرويز المونث (تعني المهندس). تذهب أمي وتفتح الباب ثم تطلب من الزائر أن يدخل البيت، ودائمًا يرجح الضيف أن يبقى في البهو على أمل زيارة أخرى.

– الهدف من هذه الزيارة السريعة، هو أن تتفضلوا علينا بتعيين موعد نزوركم فيه دون أن نزاحمكم.

– تفضلوا وتعالوا نحن نرحب بكم دائمًا، أهلًا بكم في كل وقت، وبيتنا المتواضع مشرعة لكم أبوابه متى ما شئتم. مطبخنا معد لضيافتكم.

– شكرًا بودنا أن نزوركم في وقت تكون مريم موجودةً.

– مريم؟؟ تحاول أمي أن تسترجع هدوءها وتستعيد توازنها. تبتلع ريقها ثم تقول: لكن أين رأيتم مريم؟

حينذاك تقول السيدة فخر التجار، أو ابنة السيد الميرزا إبراهيم، أو والدة المهندس پرويز: أصبحت مريم معلمة مادة الرسم في الصف الدراسي الذي يضم بنتنا (أو حفيدتنا) وقد ذكرت لنا بنتنا أنها تشبه حور العين وكانت مريم قد طلبت من الطالبات أن يرسمن زميلةً لهن أجلستها مريم على الطاولة.

كانت أم علي تقطع كلامهن:

– أولًا، إن والد مريم لم يعد من السفر بعد، ثانيًا، حتى وإن عاد والدها فنحن نرفض زواجها حاليًا.

– الآن هو الوقت المناسب، إذ إنها برعمة، وغدًا سوف يكون الأمر متأخرًا.

– كما قلت لكم، لم نقرر أن نزوجها.

كانت أمي تختم الحديث بقبلة تطبعها على خدّ الضيفة ثم تعيد مزلاج الباب إلى مكانه بعد أن تكون قد أغلقت الباب.

***

كانت مريم تعود من المدرسة عصرًا مع علي. كانا يأكلان شيئًا قليلًا في المدرسة وفي البيت كانت الخادمة تضع لهما غذاءً على حدة. لم تكن مريم قد انتهت من تناول الطعام حينما دخلت أمي وقد وضعت يدَيها على خاصرتها وخاطبتها بالقول:

– الآنسة العزيزة لم تكمل الإعدادية ومع ذلك تتفضل بتقديم دروس في الرسم لطلاب المرحلة الأولى الابتدائية، وهي نفس الآنسة ذات الغرفة المنظمة وذات الأخلاق الرفيعة التي تقوم بتعليم بنات الناس دروسًا في الرسم والفن الواقعي!؟

نهضت مريم من مكانها دون أن تعرف السبب الذي جعل أمها تتهجم عليها. نهضت من مكانها وحاولت أن تخفف من حدة غضب والدتها وصارت تصفق بيدَيها وتقول مازحةً:

– دائمًا ثمة ذريعة للتهجم. لماذا باب الصندوق مفتوح؟ لماذا تستعمل بنت الجيران جهاز الغرامافون؟

لكن الأم لا زالت مكدرة الحال، وحينما رأت مريم أن المزاح لا يجدي نفعًا قالت: ما هي الذريعة؟ هل حلت النوبة لذرائع العصر؟ أتوسل إليك يا أمي أن تكفي عن اللوم، لم أذهب من تلقاء نفسي وإنما استجابةً للسيدة المديرة التي طلبت مني أن أعلّم طالبات الصف الأول الرسم ولا إشكال في ذلك.

حينما لم تستطع الأم الإتيان ببرهان لردّها قالت لها بامتعاض:

– مع ذلك عليك أن لا تكرري ذلك في المرة القادمة. فلا تذهبي للصفوف الأخرى واكتفي بالمشاركة في صفك، أي الصف التاسع.

نظرت مريم بحزن لأمها وفكّرت قليلًا بشغف:

– هل سمعت أن ليس ابنك العزيز وحده من سقط في حوض الماء، وإنما هناك شخص آخر سقط أيضًا.

استفسر كل من علي وأمه عن ذلك الشخص، فأجابت مريم:

- ألم تخبركما الخادمة أم كريم بسقوط مهتاب بنت العم إسكندر والخادمة في حوض الماء، رأيتها تعطس، سألت مهتاب الحلوة التي كانت تضع المنديل أمام وجهها عندما كانت تعطس، ماذا حدث؟ ضحكت وقالت وأنا أرى خدَّيها الحمراوتَين: أفلتّ من يد أمي ووقعت في الحوض! إنها كانت صادقةً في قولها لأنني لمست شعرها بيدي فكان شعرها البُني الطويل لا يزال مبللًا. وهي الآن في السابعة من عمرها.

هناك شعر علي ولأول مرة أن قلبه ازداد خفقانًا، اضطرب لبعض الشيء وقد شعرت أمه بأنه ليس على ما يرام، قالت موجهةً كلامها لعلي ومريم: حسنًا لنترك هذا الكلام الفارغ، عليكما أن تهتما بواجبكما الدراسي. إلا أن عليًا لم يتراجع، جلس وتمتم مرددًا اسم مهتاب واهتزت أعماق قلبه. ثم تمتم ثانية واهتزت أعماق قلبه من جديد. كان مسرورًا لوجود شيء في قلبه يبعث إلى أن يهتز لذكراه. والآن هو بدوره له شيء، سرٌ أو شخص يتعلق به. وكلّما فكر لم يدرك سبب سقوط مهتاب في الحوض لأنه هو أيضًا كان قد وقع ذلك اليوم في الحوض. لقد ظل ينتظر صوت مطرقة الباب ويأتي أخو صاحبة سرّه (مهتاب)، والآن فكل ما يطلب كريم منه يجب أن يفعله.

***

عند الغروب، كان هناك من يطرق الباب على المطرقة الخاصة بالرجال، هرع علي نحو الباب وفتحها متوقعًا أن يرى كريمًا، لكنه رأى جده والعم إسكندر يقفان وراء الباب ومعهما رجل غريب هو مالك البغال، خاطب الجد إسكندر: أدخل البغال وأفرغ الحمل.

استجاب إسكندر لأمر الجد وأدخل الحمارَين إلى الممرّ وأفرغ كيس الرمان وصناديق العنب من على ظهر البغال.

في باحة الدار، جنب حوض الماء تحديدًا، وقف الجد مخاطبًا أمي ومريم، محاولًا تبرير شراء هذه الكمية الكبيرة من الفواكه، قال: ثمة مثل قديم يقول: «گله النار والهليمة الأنكور». ومعنى هذا المثل أن على من تناول وجبةً دسمةً مثل الباجة

عليه بالرمان، فالمقصود من النار هو الرمان، ومن تناول الهريسة فعليه بالأنكور وهو العنب.

ضحكت أم علي ولاطفت الجد بالقول: ربما لم يعرف قائل المثل أننا لم نتناول الهريسة، لذا فلم كل هذا العنب؟

ابتسمت مريم ولاطفت جدها هي الأخرى: استشهدت يا جدي بمثل عربي لكن لا وجود لحرف الگاف في لغة العرب. ضحك الجد واتجه نحو الممر، أعطى أربعةً من النقود الورقية لصاحب البغال الذي أخذها وقبّلها ووضعها على جيبه، وحينما أراد أن يتجه نحو الباحة وقع نظره على حفيده علي الذي كان يساعد إسكندر وكريمًا في ترتيب الفواكه ونقلها إلى السرداب. أراد للحظة أن يقول شيئًا لعلي لكنه تندّم: ليس من اللائق أن أمنعه من مساعدة صديقه ووالد صديقه وربما كان سلوك علي يعبّر عن إحدى معاني الصداقة، وهكذا يتدفق دم الشهامة في جسد علي، نزل الجد إلى السرداب ورأى كريمًا يلف حبلًا حول يد عليٍ وربما كانا يتمازحان، لم يعرف الجد سبب ذلك. انتخب الجد أربع رمانات وأعطاها لعلي وكريم وقال:

– خذاها واعصراها جيّدًا ومصّاها.

بعد أن تشكرا الجد، خرج كل من علي وكريم من السرداب وتركا إسكندر وحيدًا يواصل ترتيب وتنظيم حمول الرمان والعنب.

***

كان كريم يعصر إحدى الرمانات بيده حينما خاطب عليًا:

– إذن، قلت إن والدَي قاجار سيخرجان من البيت؟ نعم؟

كان علي قد حملق بمكان بعيد وبدل أن يجيبه قال: حينما سقطت مهتاب في حوض الماء هل أصيبت بالزكام؟

– كيف عرفت ذلك؟

– لم أكن على اطلاع بذلك بادئ الأمر، علمت أن والدتك لحقتها صباح اليوم لتضع لقمة من الطعام في فمها، لكنها هربت وسقطت في الحوض.

عاود علي السؤال: هل أصيبت بالزكام؟

– لا، فهي مقاومة للغاية، لم يصِبها البرد! وهي في أتم الصحة. لكن آه من الدرويش مصطفى، ها هو مرةً أخرى.

نظر علي إلى الأمام ولاحظ أن الدرويش مصطفى يقترب منهما أكثر فأكثر. كان يردد «يا علي مدد» ويمشي بلحيته البيضاء وملابسه البيضاء وكشكوله الفضي. وصل إليهما ووجّه الطبر نحو علي. استراح بال كريم وعرف بأن الدرويش لا شغل له معه. حملق الدرويش بعينَي علي وحرّك الطبر وقال:

– القلب هو البنيان الوحيد الذي يزداد استحكامًا كلّما اهتز. يجب أن نعصر القلب مثلما نعصر الرمانة كي نحصل على العصير، ولا شك في أن عصيره لذيذ.

هزّ كريم رأسه مؤيدًا. نظر الدرويش مصطفى إلى علي ثانيةً ومسح على رأسه وقال: «تبرّكًا»، ثم مسحها على شعره ولحيته البيضاء، وقال:

– تقبّل اللّه...، فإن العاشق الذي لم يغتسل بعد، هو عاشق حقيقي، وأنفاسه متبركة أيضًا. يا علي مدد.

ذهب الدرويش مصطفى، لكن صوته بقي يرن في أذنَي علي: «القلب هو البناء الوحيد الذي يزداد استحكامًا كلما اهتزّ. فقلب الإنسان يجب أن يعصر كي يجري عصيره، وإن عصيره لذيذ قطعًا.. والعاشق الذي لم يغتسل لحد الآن، فهو عاشق حتمًا، وأنفاسه متبركة أيضًا». إنه لا يعرف ماذا تعني كلمة الغسل. وإنه كان قد سمع كلمة التبرك من أمه وجده، إلا أنه لا يدرك مغزاها. فكّر وقال بهدوء: مهتاب. فاهتز قلبه من جديد. ثم صرخ: إذن هذا هو معنى الحب. كان كريم منشغلًا بعصر الرمانة الرابعة حينما انتبه إلى علي فخاطبه: أيها الحمار ما بك تصرخ، كنت واقفًا كالمجانين سارح الذهن، ثم صرخت كمن أخبر بأن سفينته غرقت.

انتبه علي إلى حاله، نظر إلى كريم، لم يساوره الشك بمحبة كريم له ولكنه كان مطمئنًا أن كريمًا لا يفهم معنى الحب. حينما فرغ كريم من مصّ عصير آخر رمانة قال:

- لقد قضينا على الرمانات الأربع، والآن علينا أن نتطرق لأصل الموضوع، عليك أولًا أن لا تعير أهميةً للدرويش مصطفى، فهو يرفع الإنسان مرةً إلى العرش الأعلى وفي مرة أخرى يرميه في الحضيض، لا اعتبار لسلوكه أبدًا. إن أصل الموضوع هو أن تتبعني وأن تنفّذ برحابة صدر كل ما أطلبه منك.

وافق علي بتعجب واستغراب ورافق كريمًا في مهمة مجهولة. دلف كريم في شارع يتلو زقاق مسجد قندي وكان يعرف بشارع مختاري. في هذا الشارع يقع بيت كبير يعود لقوام السلطنة، وقد ابتاع عدد من أمراء السلالة القاجارية بيوتًا في نفس الشارع اقتداءً به.

اتّجه كريم نحو إحدى البيوت، كان الجو معتمًا، وثمة مصابيح زيتية تضيء واجهات بعض البيوت. أخرج كريم حبلًا كان يحتفظ به في جيبه وربط أحد رأسَيه بمطرقة الباب المخصص للرجال وأعطى الرأس الثاني لعلي. كان علي يسير مسرعًا ويتبع كريمًا في كل خطوة يطلبها منه. اتجها نحو باب البيت، شابك علي يدَيه وصعد كريم عليهما وتسلق شجرةً ضخمةً وعندما صعدها أمسك بيد علي وساعده على الصعود إلى أعلى الشجرة.

استفسر كريم إن كان هناك حارس أو خادم في البيت؟ أجاب علي: لا. وأراد أن يتكلم، لكن كريمًا قال:

- صه، لا ترفع صوتك.

سحب كريم الحبل إلى الوراء ثم تركه يعود إلى وضعه الأول، فارتفعت مطرقة الباب ثم هبطت لتحدث رنينًا مدويًا في عتمة ذلك المساء. من وراء الباب ارتفع صوت طفولي يستفسر عن هوية الطارق.

قال كريم ببهجة: إنه هو، الفيل الأحمق.

ثم كرر سحب الحبل ففتح قاجار الباب وقد بدا القلق واضحًا على ملامح وجهه حتى في تلك العتمة، وزاد من قلقه أنه لم يشاهد أحدًا فدخل البيت وأغلق الباب. وقف قاجار وراء الباب مترقبًا أن يعاود الطارق فعلته وحينما هوت مطرقة الباب خرج قاجار مسرعًا متوقعًا أن يمسك هذه المرة الطارق لكنه لم ير أحدًا أمامه

فأصابه الذعر فدخل البيت مسرعًا وأغلق الباب.

حينما عاود كريم سحب الحبل، سيطر الغضب على علي، نزل من الشجرة:

– كفى، إن كنت تنوي أن تخيفه فقد فعلت ذلك، حرام عليك أن تؤذيه إلى هذا الحد.

– أيها الحمار، أنت أيضًا جبان، وتبدو كالبنات. كانا منشغلَين بالشجار حينما دلف إلى الزقاق حارس المياه وقد وضع فانوسًا على عصا مسحاته، وما أن اقترب من علي حتى خاطبه:

– يا بن السيد هل الخزانة بحاجة للماء.

قال علي مذعورًا:

– نعم، ولكم جزيل الشكر.

فتح حارس المياه بمسحاته الساقية المؤدية إلى خزان الماء حتى خرجت كمية من المياه العكرة، بعد ذاك جعل الماء النقي يصب في الخزان وقال:

– يجب ان أذهب إلى بيت قوام السلطنة، فخزانهم أيضًا بحاجة لأن يملأ بالماء. أرجوك أن تطلب من خادم البيت أن يسد الساقية حينما يمتلأ الخزان بالماء. فأنا منشغل طوال الليلة بالكثير من الأعمال التي يتعين عليّ ان أنجزها.

وجّه الماء نحو مجرى الخزان وذهب، نزل كريم من فوق الشجرة وقال:

– اللعنة، لقد أفسد علينا مخططنا، لقد داس بقدمَيه على خطتي لتدمير قاجار، لو لم يأت كنت الآن قد حطمت قاجار.

لم يتفوه علي بكلمة، لقد طاب له أن أفسد حارس المياه خطة كريم، أمسك بيد كريم وطلب منه أن يعودا إلى منزلَيهما. كان كريم يكرر كلامه بسرعة: لقد داس بكلتا قدمَيه خطتي. حينما بلغا رأس الزقاق خطرت فكرة على بال كريم، طلب من علي أن ينتظره للحظات فقط إلى أن يعود. فكّر علي بأن كريمًا رجع كي يفك الحبل ويأتي به، لكن كريمًا قال له بعد أيام: لقد حطمت قاجار في تلك الليلة، بل أشدّ من التحطيم بمئة مرة. فكنت مضطرًا لأتبّول. حينما كنت أكرر بأن حارس المياه

داس على خطتي كنت أقصد أنه بال على خطتي وقد خطرت فكرت التبوّل في خزان مياه بيت قاجار على بالي فتبوّلت في خزانهم كي يغسلوا نجاساتهم ببولي.

ثلاثيته

كل شيء يمر، فالحياة هي ممر أساسًا.. مفردة ممر لها تواجد كبير في خارطة المدينة، ممر بامنار، ممر خان نايب، ممر قلي، ممر المستوفي، ممر العيّار صالح، ممر نهر كريم. الممر الأخير لا حقيقة له، إنه من اختراعنا، كان كريم يقف في السوق الصغير وقد اضطر أن يبول، قال لنا انظروا إلى الجهة الأخرى ليخدعنا، ثم خلع سرواله بسرعة وتبول إلى جوار موقف بائعي اللبن، ثم قال: آه لقد تخلصت من نهر من البول. منذ ذلك الحين صرنا نطلق على هذا المكان ممر نهر كريم، سمعت أن الناس تناقلوا هذه الحكاية وربما لم يكونوا يعرفون القصة لكنهم صاروا يطلقون على المكان اسم ممر نهر كريم. ربما سوف يبرهن الباحثون في المستقبل القريب أن نهرًا كان يجري في هذا المكان في الماضي وكان يعرف بنهر كريم. فثمة أناس لا شغل لهم غير البحث في التاريخ واستخراج حكايات وقصص منه، وكأنهم لا يعلمون أن كل شيء يمر ويمضي.

في العام ألف وثلاثمئة وعشرين من التقويم الهجري الشمسي، في ممر قلي، أنا وكريم. قال لي كريم: لنذهب معًا، نحن أشقياء ولا نقبل أن يتهمونا بالجبن إن لم نذهب. ولربما يريدون أن يمتحنونني ثم يرضون بخطبتي من أختهم. كان إخوة عشيقته شمسي قد دعوه للمبارزة، التفوا حولنا عندما وصلنا عندهم. كانوا خمسةً على الأقل، قاماتهم أعلام يزيد وأشكالهم تشبه الشمر.

كان أحدهم يبدو مدمنًا على المخدرات وكان يلفظ السين سيّنًا، قال:

– يا كريم النحيف، أيها الحشرة السوداء، أليس لك أخت؟ فكيف تتعدى على أخوات الآخرين؟

لم أفهم شيئًا، أمسكت ياقة ذلك الرجل المدمن ولم أفهم بعدها ماذا حدث. كل ما أذكره أن شيئًا ما ضرب رأسي، شيئًا يشبه عصًا أو دبّوسًا، ورأيت الرجل المدمن يدور ويدور وكريم يصرخ بأعلى صوته ولكني لم أفهم شيئًا.

حينما فتحت عينَي كنت أرتجف من البرد. كان الماء ينهمر دون انقطاع على جبيني. كنت ممدًا تحت برميل مملوء بالماء في شارع مولوي، كان برميل الماء مخصصًا لعابري السبيل حيث يملؤونه بالماء البارد وكانت كف حديدية ذهبية منصوبة على غطائه وقد ذكرتني بأيام محرم. لا أعرف أي إنسان لا مروءة له ألقاني تحت حنفية مفتوحة لبرميل ماء.. في أيام محرم قطعوا الماء.. لكنني ممدد الآن تحت برميل يتدفق منه الماء على جبيني ووجهي.

فتحت عينَي ونهضت من مكاني وأغلقت حنفية الماء. إلى جوار ساقية الماء في الجهة الأخرى من الشارع رأيت كريمًا يرتدي فانيلةً وقد خلع قميصه ليغسله في الساقية دون أن يعتني بنظرات المارة. اتجهت نحوه، كان رأسي يكاد ينفجر من الألم والبرد. قال كريم إنه هو من وضعني تحت حنفية الماء كي أعود إلى الوعي إذ كنت في غيبوبة تعرضت لها إثر تلك الضربة القاسية. أطلت النظر إلى وجه كريم، كان سالمًا، يبدو أنه لم يتعرض للضرب، وكان واضحًا أن جسده سالم أيضًا. كل رأس ينظر إلى رأس صديقه. هذه هي الخطوة الأولى في طقوس الفتوة.. الخروف الأسود، الخروف البني، الخروف الأحمر (راجع أحاديتي)، أدرت رأسه بيدي، كانت تفوح منه رائحة عفنة، غمس رأسه في الماء وأخرجه. كان لا زال يفوح برائحة كريهة، رائحة البول. كدت أن أصاب بالغثيان بسببها. تقيّأت في الساقية، قال كريم: يبدو أن هؤلاء أبناء سيئات الصيت لم يذهبوا إلى المرافق الصحية منذ أسبوع، وإلا كيف استطاعوا أن يصبّوا عليّ كل هذه الكمية من البول. كل واحد تبوّل بمقدار طست غسل الملابس. من أين أتوا بهذا البول؟ فإنهم قد حبسوا بولهم من قبل، إنها لم تكن مثانةً، بل سنام بعير، كنت قد سمعت أن للبنت، أعني شمسي، أخًا مدمنًا للمخدرات، صحيح، كان لها أخ مدمن وأنت رأيته وهو الذي أخذتما بياقة بعضكما البعض، لقد أخبروني عن أخيها المدمن بالمخدرات ولم يذكروا إخوتها الخمسة الآخرين، يا أبناء العاهرات. بالطبع لم يترشح البول عليك قط، تركوك هناك مطروحًا على الأرض. كما لم يضربوني ضربًا مبرحًا، لكنهم أخذوا يتبوّلون عليّ كثيرًا واحدًا تلو الآخر حسب الترتيب. أنت لم تكن جنبي حينما تفاخرت البنت

بأخيها وقالت إذا سمع أخي بذلك. فقلت تبوّلت في أذن أخيك. كنت أقصد ذلك المدمن، لا ستة إخوان. شيء رهيب. على كل حال فالأوضاع ليست على ما يرام. الكل لهم إخوة زوجة وأنا لي إخوة زوجة. أولاد الزانية.

داعبت بيدي شعره المبلّل الذي كان يفوح برائحة نتنة. كنت أقشعرّ من رائحته العفنة، لكنني كنت أستمتع بالصداقة التي تجمعني وإياه، حتى وإن كانت تفوح منه هذه الرائحة الكريهة، إنه صديق نادر، ليس في الصداقة الحقيقية رائحة طيبة وأخرى كريهة، داهمني البكاء، ثم ضحكت وقلت: هل تذكر خزان مياه قاجار، نظر إليّ وضحك، لكن نهرًا من الدموع انهمر من عينَيه، ثمّ عانقني وبكى وقال:

- عزيزي علي، للصداقة حدود، ربما من الأفضل أن نضع حدًا لصداقتنا. فقد تعرضت إلى كثير من الأذى بسبب وفائك وصداقتك لي.

حركت رأسي نافيًا وقلت بهدوء:

- الصداقة هي الشيء الوحيد الذي لا حد له، فضحك وسط البكاء، ضحك وقال:

- أنت محق، المرأة المحصنة هي الوحيدة التي لها حدودها في كلّ شيء حتى في صداقتها.

في ممر قلي ذاته، قتلوا كريمًا، الإخوان الستة ذاتهم هم من قتلوا كريمًا بالقامات مع قاجار، آه يا إلهي! ماذا أقول؟ ماذا كان يقول قاجار يومها: يا كريم إن مصير الجلد يعود للدبّاغ. في ممر قلي، أهل شمسي، محلّة الدبّاغين (راجع ثنائيته).

الممر ليس حكرًا على طهران وحدها، في كل مكان في العالم ثمة ممر، ربما لا يطلق عليه اسم ممر وإنما اسم آخر، ثمة ممرات كثيرة في باريس، ممر العشاق على سبيل المثال هو الاسم الذي كانت مريم تطلقه على مقهى المسيو برنر، مقهى في مطلع شارعَين، طاولاته تنصب على أعشاب لم تر النور، نمت على الرصيف، وعشاقه يستمتعون بمشهد العاشقَين المسنَّين، وعندما لم يرتد العاشقان المسنان هذا المقهى ظل هذا الاسم «ممر العشاق» باقيًا على هذا المقهى.

ثمة ممر في باريس، كان يحلو لي أن أطلق عليه اسم «ممر اللّه» وكان يقع جنب شارع مسوّر بسياج من ورود الياسمين، تقع فيه كنيسة صغيرة تخلو من التزيينات والزخرفة، جدرانها مكسوة بحجارة رمادية نهرية، أحجار منحوتة بالفؤوس، مرصوصة بلا شقوق، فقد ملأ الإسمنت الفاصلة التي تفصل حجارةً عن أخرى، لها واجهة قوسية وبوابتها سياجية حديدية ترى من خلالها كل شيء في الداخل، لها منارة صغيرة، تكاد أن تتخيلها مدخنةً في بادىء الأمر لولا الناقوس الذي يشير إلى أنها منارة صغيرة. تتراوح مساحة البناء بين مئتَي إلى ثلاثمئة متر وطول واجهتها حوالي ثمانية أمتار. ماذا أقول؟ وكأنها إرث وميراث جدي وأريد أن أصفها للسمسار ليبيعها لي. حينما كنت أخرج كل صباح من غرفتي التي أستأجرتها في باريس، وأمرّ من جوارها، كنت أسمع في أغلب الأحيان عزفًا موسيقيًا يصدر من هذه الكنيسة بصوت رجولي يردد ابتهالات لم أكن أفهم معناها، كان صوت الآلات الموسيقية يدخل من أذني اليمنى ليخرج من أذني اليسرى ماضيًا نحو المارة الذين كانوا يمرون من (ممر اللّه) ويطربون لحدّ الرقص أحيانًا، أما ابتهالات ذلك القس فقد كانت تدخل من هذه الأذن ولا تخرج من الأخرى، بل تبقى في رأسي ولا تخرج أبدًا، وبذلك تتراكم في رأسي دون أن تؤثر في أحد غيري، فهي تبقى حبيسةً في جمجمة رأسي. صوت حقيقي يترك أثرًا حادًا في روحي دون أن أعير أية أهمية للمعنى. أليست هناك أصوات كثيرة نسمعها في مجالس العزاء في أيام محرم الحرام دون أن ندرك كنه معانيها، ليست كلها مفهومةً، مثلًا صوت الدرويش مصطفى.

كنت أتكلم عن (ممر اللّه) في باريس. كان صوت القس يتراكم يومًا بعد يوم في أعماقي، كان يضغط بقوة على جمجمة رأسي حتى صرت أتخيل قرقعة عظامها، وكدت أتهيأ لانفجار رأسي إثره. أحيانًا أتخيل أن رأسي قد انفجر حقًا، كيف يمكن أن أفكر برأس قد تهشم إثر ذلك الصوت المعنوي العميق. لقد جننت وتجرأت على دخول الكنيسة بعد أن دفعت البوابة السياجية، تجاوزت الباحة الصغيرة، أحمد اللّه وأشكره أنها كانت بلا قبر، فإنهم يدفنون موتاهم داخل الكنيسة، ربما لأن اللّه سبحانه كان يعين موتاهم أكثر من أحيائهم. اتجهت نحو مكان الابتهالات، بوابة صغيرة ترغمك على الانحناء، لا أعرف ماذا يحدث ويدور في الداخل، لم أحنِ رأسي، لكنني أثنيت قدمَي كي لا يرتطم رأسي بسقف الباب.

رأيت مقاعد خشبيةً بنية اللون، ثلاث شمعادنات كبيرة، صليبًا في الأعلى

لا يزال المسيح مصلوبًا عليه، ويتحمل العناء والعذاب من أجلنا، دون أن نعيره أهميةً، تذكرت الآية الكريمة: {وما صلبوه وما قتلوه}، لكنني جئت لملاقاة القس، ذلك الذي يسحرني كل يوم بصوته الحميمي، لا أحد في القاعة، المقاعد شاغرة والشمع المذاب قد غطى جزءًا كبيرًا من الشمعدانات. أردت أن أتقدم وأركع وأدعو بهدوء، ركعت لكنني لم أتمكن من الدعاء، ضغطت على نفسي كثيرًا دون جدوى، أردت أن أدعو لمهتاب وأن أطلب من اللّه تعالى الرحمة لأمي وأبي، ولكنني لم أستطع. ربما لأنني لم أراع مقرراتهم وشروطهم في الدعاء. نهضت وخرجت من الباب الصغيرة.. التفت يمينًا ويسارًا، لم يكن هناك أحد يراقبني، وضعت يدي اليمنى على صدري، انحنيت قليلًا وقلت «يا علي مدد» ودخلت مجددًا إلى مكان العبادة. كنت أتخيل نفسي سائرًا فوق الغيوم، تقربت من محراب العبادة. سيطر على أعماقي البكاء، صرت أبكي كطفل صغير، دائمًا كنت أقيم علاقةً وثيقة بإله الأمكنة الحقيقية، البسيطة والمتواضعة مثل الحسينيات والكنائس والجبال وحتى المحلات البسيطة، على خلاف إله الأمكنة المليئة بالزخرفة، الإله الذي يتحايل على القرويين البسطاء وبنظري أنه ليس إلهًا، إنه يبعث على حيرة الغرباء ويتحايل عليهم بهذه الجدران المليئة بالقاشاني الفيروزجي. إن الإله في هذا المكان هو الإله ذاته في مسجد قندي، وهذا الشبه في المكان هو الذي منحني طمأنينةً عظيمةً وأعاد إليّ ذكريات مسجد قندي وإمام المسجد والدرويش مصطفى وموسى القصاب والخباز علي محمد وكريم، كان قلبي يتمنى أن يهبهم اللّه كل ما أملك وكل ما تمنوا أن يحصلوا عليه، أن يحقق أماني جميع أولئك الذين ثبّتوا قدمَيّ على طريق الفتوة والنبل، جميع أصحاب المعرفة، أن يحقق أماني جميع الناس بما فيهم الشرطي عزتي والذال محمد وقاجار أيضًا.

لقد توطدت علاقتي بذلك المكان حتى صرت أرتاده كل يوم، ظهيرة كل يوم، أشتري نسخة من صحيفة اللوموند كسائر الفرنسيين وأتجه نحو الكنيسة، كنت آلف هذه الصحيفة بسبب شكل حروفها وقطعها الجميل، كانت تصلح لاستعمالها أثناء الصلاة في الكنيسة كمصلاة لي إذ كانت تناسب حجم جسدي. ولكن لماذا كان عليّ أن أبتاعها كل يوم، ربما كباقي الفرنسيين الذين يشترونها دون أن يقرؤوها، يضعونها على الطاولة كي تقرأها مهتاب لهم في مقهى مسيو برنر الأصلع.

كنت أشتري صحيفة اللوموند كل يوم ظهرًا كسائر المارّين الفرنسيين وأذهب

إلى الكنيسة لأن محرابها باتجاه الشرق ويختلف بدرجات قليلة عن القبلة، كاد يكون مطابقًا من حيث الشبه بمسجد قندي، لكن لا وجود للصف الأول من الذين عادةً ما كانوا من رجال مسنين يؤدون الصلاة في الصف الأول، ويحجزون مكانهم حتى حينما يذهبون إلى بيوتهم إذ يتركون سجادات صلاتهم هناك.

في هذه الكنيسة الحميمية، يحقّ للمرء أن يختار أي مكان أو ركن يشاء، يحق للمرء في هذه الكنيسة أن يؤدي الصلاة بعيدًا عن لغط رجال الصف الأول واهتمامهم المفرط بحجز مكان في مقدمة المصلين. هنا يمكنك أن تفرش سجادتك والتي هي نسخة من صحيفة اللوموند وأن تؤدي الصلاة وتجمع الصحيفة كي تفرشها في الساعة الرابعة عصرًا، في مقهى المسيو برنر.

وأن أقيم صلاة الظهر والعصر في هذه الكنيسة، ذلك ما كان يملأ أعماقي بسكينة وطمأنينة لم أكن أنعم بهما إلا في مسجد قندي. تكاد هذه الكنيسة تكون نسخةً مشابهةً له لولا هذه الغرفة الصغيرة التي تشبه المثلث، ربما لا يستقيم وصفها بالغرفة وإنما مثلث من جدران خشبية ترتفع إلى الأعلى دون أن تبلغ السقف، وباب خشبية صغيرة، لم أكن أعرف في بادئ الأمر سر هذه الغرفة ومعنى وجودها في هذا المكان، وبعد أن سألت عدة أشخاص علمت أنها غرفة الاعتراف، يرتادها الناس ظهر كل يوم أحد وفي صباحَي أيام السبت والأربعاء. كانوا يدخلون فردًا فردًا ويغلقون باب الغرفة كي لا يسمع أحد آخر اعترافهم.

كان على المرء الذي ينوي الاعتراف أن يجلس على كرسي خشبي غير مريح على الإطلاق، ربما كان المرء يفضل الجلوس على الأرض ثانيًا قدمَيه، على الجلوس فوق هذا الكرسي المزعج. على الشخص المعترف أن ينظر باستمرار إلى الشمعة الموقدة أمامه مباشرة. الجدار الجانبي كان مشيدًا جهة المحراب، وثمة نافذة صغيرة ينظر منها القس لينطق بكلمات محددة وعلى المعترف أن يجيب بمئات الكلمات التي اختارها من بين آلاف المفردات التي تدور في ذهنه. بهدوء يستمع القس إلى اعترافاتك ثم يحاول أن يربط بين اعترافاتك في المرة السابقة واعترافاتك الجديدة، ثم يرمي إليك قصاصة يكون قد حدد فيها المبلغ الذي يتعين عليك تسديده تكفيرًا عن ذنوبك، ثم يمد يده لتقبل الخاتم ذا فص اللؤلؤ.

كنت في حيرة من أمر القس، إذ إن حضوره في هذا المكان الحميم يربك

الأجواء ويملؤه بجو خانق، كنت أحاول ان أجد جوابًا شافيًا لوجود هذه البرجوازية العلنية والإله التاجر في هذه الكنيسة الصغيرة البسيطة الجميلة، لكن دائمًا دون جدوى...!

ذات يوم قرّرت أن أدخل غرفة الاعتراف، كلا، من الأدق أن أقول إن الصدفة هي التي جرتني إلى غرفة الاعتراف، وأنتم على معرفة تامة بالصدفة وعواقبها، مثل تلك الصدفة التي جعلتني أقف وراء جدار مرسم مهتاب على أمل ان أراها لكنني لم أجرأ على ذلك.

لم أكن اقصد أن أتابع مهتاب، قالت لي إنها تواصل الرسم في المرسم رقم ثلاثة، كنت أراها عصر كل يوم في مقهى المسيو برنر فقط، لم أكن أرغب أن أسبب لها الإحراج بسبب حضوري في مكان دراستها، ليس من أجل دراستها وعملها، بل حرصًا عليها. كنت أخشى أن يعد حضوري إلى جنبها ذنبًا. كنت ألتقيها عصرًا في مقهى المسيو برنر بحضور مريم وإن كانت تتأخر أغلب الأحيان. كنت أقضي كل صباح بارتياد دور السينما وصالات المسارح، ذات مرة داهم الشوق قلبي، اتجهت نحو مرسمها، اقتربت منه جدًا، لكنني عدلت عن فكرتي ولم أدخل المرسم، بقيت ماكثًا خلف الباب، جلست القرفصاء للحظات هناك ثم غادرت المكان، عصر ذلك اليوم التقيت مهتاب، أخرجت إحدى مسودات لوحاتها، بأصابعها الطويلة، كانت تقلب الصفحات لتشرح لي تفاصيل هذه اللوحة، امرأة ترسم شجرةً فوق مسند ثلاثي، أمام جدار أبيض، وخلف الجدار يقبع رجل جلس القرفصاء، لاطفت المرأة الرسامة بريشتها الرجل الجالس القرفصاء. قام الرجل واتجه نحو المرأة الرسامة فضحكت وقالت: سوف أصرف كل اللون الأسود لحواجبك. ضحك الرجل وقال: انتقامًا للأقلام الملونة البنية لطالبات المرحلة الابتدائية لمدرسة إيران للبنات اللاتي كن مضطرات لرسم الشلال، ثم قام وذهب إلى (ممر اللّه) ليعترف لدى القس. ماذا كنت أقول؟

كنت أحدثكم عن ممر اللّه، ذات يوم وطأت قدمي الغرفة المثلثة الشكل. حدث ذلك حينما اتجهت نحو الكنيسة، عبرت السياج الحديدي وتلمست أحجار البناية الرمادية المنحوتة بالفؤوس، ثم وضعت يدي اليسرى على قلبي وقلت «يا علي مدد» وانحنيت كي أدخل من الباب القصيرة متجهًا نحو محراب العبادة، افترشت صحيفة اللوموند وأقمت صلاةً من ركعتَين، ثم دخلت في غرفة الاعتراف

لدى القس.

جثوت على الأرض وصرت أحدق بنور الشمعة المتوهجة أمامي. كنت خائفًا لنفسي من نفسي في نفسي، حاولت أن أخاف للّه من اللّه وفي اللّه، حاولت وازداد الخوف في قلبي، قال القس بصوته الذي يشبه رنين الناقوس:

– وأما من جاءك يسعى، وهو يخشى، فأنت عنه تلهى.

أصاب الدوار رأسي، لماذا تحدث معي هذا القس باللغة العربية، لماذا اختار آيةً من القرآن الكريم، كنت أعرف أن المعترفين يرددون عبارةً يلقنها لهم القس:

Mea culpa ,mea culpa – mea maxima culpa –

أردت أن أخبره أنني لا أجيد الفرنسية، لكن إجادته للغة العربية جعلتني أتراجع عن فكرتي، قلت من وحي ربي وليس إثر تلقينه لي، وبلهجة اقتربت من لهجته:

– يا رب! فكيف بي وأنا عبدك الضعيف الذليل الحقير المسكين المستكين.

أردت أن أخبره أنني لستُ مسيحيًا، ليترك الحديث عن السيد المسيح، أن لا يقول لي عليكم بالرأفة كي يرحمكم المسيح، صوته الشبيه برنين الناقوس قطع سلسلة أفكاري، قال بالعربية الفصيحة، لا بالفرنسية:

– قال رسول اللّه عليه وآله السلام: ارحم تُرحم!

شككت للحظة ربما لا أقيم الآن في فرنسا وإنما في مسجد قندي بمحلتنا في طهران أو في المملكة السعودية، لكني في ممر اللّه في باريس ويمكن أن يكون ممر اللّه في كل مكان، لم أستطع أن أجيبه، شعرتُ بالحزن يعصر قلبي، كنت بحاجة لإنسان أحدثه عن نفسي، أن أقول له إنني مضيت نحو مرسم مهتاب وجلست القرفصاء كحيوان جريح لساعات خلف الباب. بحاجة لشخص أقول له كم أنني ساذج ومسكين مثل فاكهة غير ناضجة يجب قطفها بقوة وليس كفاكهة ناضجة تسقط من تلقاء نفسها. صرت أمعن النظر بوهج الشمعة وشرعت بالاعتراف من بدء الحكاية إلى نهايتها: من أوليتي، من سنة ألف وثلاثمائة واثنَي عشر شمسية، في شارع يمكن اجتيازه بثلاث قفزات حتى "يا علي مدد" أي الفصل «أنا-ه» الفصل الأخير، قلت له كل شيء من دون تصنع وتكلف وبلهجتي الأصلية. كنت أجهش

بالبكاء، من المؤكد أنني ذكرت له قضية اختفائي وراء المرسم رقم ثلاثة ومسألة قاجار وحكاية الشرطي عزتي والذال محمد وما حذفته الرقابة في راوية «أنا-هٔ».

كان القس يصغي لكلامي، وحينما أنهيت اعترافي المطول قال بصوته الأجهش:

- الرجل الصادق يقول كلامًا صادقًا حتمًا، الرجل الصالح يعمل عملًا صالحًا حتمًا، يا علي مدد.

عاودت النظر إلى القس كي أتأكد من هويته أو ربما كي أتأكد من عقلي وصوابي، كنت أرى من خلال النافذة الصغيرة عباءته ومعطفه الأبيض، كان وجهه وجه الدرويش مصطفى، لكنه قصّر لحيته وشعره، بعد حين انتبهت أن صوت القس هو نفس صوت الدرويش مصطفى، هادئ ورنان. أدخل يده من النافذة، رأيت خاتم العقيق وقد تم نحت عبارة على إطار الخاتم: «محمد (ص) اللهم صلّ على محمد وآل محمد»...

ثم أردف الدرويش مصطفى أو ذلك القس الفرنسي بلهجة فرنسية قائلًا:

- حضرتك تعلم أفضل مني، أننا نحصل على المال مقابل أعمال الناس. نحصل على بعض الفرانكات مقابل ذنوب الآخرين وأفعالهم المخالفة للدين، وقد استمعت لجميع اعترافاتك فمد يدك. مددت يدي من النافذة الصغيرة متوقعًا أن يضع قصاصةً كتب فيها المبلغ الذي عليّ تسديده له. كانت حرارة يدي قد ارتفعت وكأنني كنت قد وضعت جمرةً فيها.

قبّل القس يدي وملأها بنقود من فئة الفرانك والسانت وطلب مني العذر لأنه لا يملك في صندوق الإعانة سوى النقود التي زودني بها، قال:

- حضرتك تشبه الأطفال.

لم أفهم وجه تشبيهه لي بالأطفال. إن كان يقصد جهلهم وسذاجتهم أو براءتهم، أو ربما قصد كلتا الوجهتَين. أمسكت بالنقود بقوة كي لا تسقط على الأرض، حينما خرجت من غرفة الاعتراف سمعت صوت الدرويش مصطفى ممتزجًا بعزف الموسيقى:

- هذه هي العدالة.

وأراني العدل، كان يمسك به بكلتا يدَيه وكأنه ماء يخشى أن ينساب على الأرض، ولو قطرةً واحدة منه، جعلني أرى العدالة، قال إنها شيء مألوف، مهيب، عَطِر، لين، خشن، جميل، صغير، عظيم، شيء مرغوب، شيء مخيف، شيء لا يمكن كتابته، قال:

- هذه هي العدالة، إن كانوا يأخذون مالًا من المذنب بسبب ذنوبه، فعليهم أن يعطوا المحسن ما أخذوه من المال من الشخص المذنب، «يا علي مدد»!

حاولت أن أفهم شيئًا مما يحدث ويدور ولكن دون جدوى، تراجعت وابتعدت عن المحراب، انحنيت وخرجت من الباب القصيرة، فتحت باب السياج الحديدي وخرجت من الكنيسة، صرت أنظر مرةً أخرى إلى الأحجار الرصاصية الكبيرة، إلى الآثار التي تركتها الفؤوس فوق جسد الحجارة، إلى ناقوس الكنيسة الذي يبدو وكأنه منصوب فوق مدخنة، لم أكن أعرف ماذا أفعل بهذه النقود التي أعطاها القس لي.

رأيت شارعًا مسيجًا بسور من أشجار الشمشاد وفي نهايته يجلس سبعة عميان هم نفس العميان السبعة الذين كتبت عنهم في أحاديتي، لقد وصلوا الآن إلى باريس، مسكت بالنقود بقوة واتجهت نحوهم، كنت أضرب الأرض بقدمَي بقوة، وفي كل خطوة كنتُ أردد: ارحم تُرحم! وصلت إليهم، أخيرًا، أو كلّا، هم وصلوا إليّ، منذ عام ألف وثلاثمائة واثنَي عشر حسب التقويم الهجري الشمسي إلى العام ألف وتسعمائة وأربع وخمسين ميلادي مرّت أعوام كثيرة. من شارع في حي خاني آباد بطهران إلى شارع محاط بأشجار الشمشاد في قلب باريس.

افترشوا أرضية رصيف مرصوف بالطابوق، يتشابهون في كل شيء كحالهم قبل عدة أعوام، ملابسهم مندرسة ذات لون واحد، رصاصي غامق بسراويل عريضة سوداء اهترأت إثر جلوسهم الدائم على الأرض، تأوه الأول باللغة الفرنسية:

- لا كتب اللّه لكم الذل أيها الباريسيون، سبعة عميان بقطعة نقدية واحدة.

ضحكت حينما سمعت الأعمى الأول يستجدي باللغة الفرنسية، أدار الأعمى الأول رأسه نحوي وكأنه ينظر إليّ بلطف، ضحك هو الآخر، أعطيته قطعةً نقديةً، فقال:

– يا عابر ممر اللّه، أرأيت كيف كان اللّه في عونك. فليرزقك اللّه ويبارك لك.

نهض الأخير من مكانه وتقدم ليحتل المكان الأول في طابور العميان السبعة وقال باللغة الفرنسية:

– سبعة عميان بقطعة نقدية واحدة.

ثم أدار رأسه نحوي وقال بالفارسية:

– أرأيت أنك لم تقع في شباك اللؤماء ولم يقتلك الأجانب.

أعطيته مقدارًا من النقود.

قال: ليضاعف اللّه من رزقه لك.

كان العميان السبعة يتقدمون خطوةً فخطوةً، يقولون شيئًا ويأخذون شيئًا وكنت أردد بصوت خافت: «ارحم تُرحم!».

– أرأيت كيف أنك مستغنٍ عن الآخرين، جازاك اللّه.

– أرأيت كيف أن الغربة لم تقتلك، جازاك اللّه.

– أرأيت كيف لم تته ولم تضع.

– أرأيت كيف لم تفتقر، جازاك اللّه.

– أرأيت كيف نجوت من الذل، جازاك اللّه.

كان المارّة الفرنسيون في ممر اللّه ينظرون إليّ وإلى العميان السبعة باستغراب ويستمتعون بأدائهم الجميل، ثمة مارّة فرنسيون كانوا ينتظرون أن أنتهي من إعطاء النقود للعميان السبعة ليعطوهم بدورهم قطعًا نقديةً، كان هناك زوجان فرنسيان شابان يلتقطان صورًا للعميان السبعة من زوايا مختلفة بكاميرا كانون. ذات لحظة تقدمت البنت الشابة وبصعوبة وجلست على الأرض متربعةً ليلتقط صديقها لها صورةً مع طابور العميان من زاوية صعبة، كان بعض المارة يمرون من جوار طابور العميان السبعة دون أي اكتراث.

حدثان فرنسيان في حوالي الخامسة عشر والسادسة من العمر الْتحقا بطابور العميان وجلسا على الأرض إلى جوارهم وبدآ يتبادلان المكان بينهما وقد اجتازا حوالي عشرين مترًا خلال دقيقة أو دقيقتَين حتى وصلا إلى مقربة من الكنيسة وبعد ذلك نهضا وتعانقا وصرخا نحن صرنا الأوائل، نحن صرنا الأوائل.

التقط الزوجان المصوران صورًا لهذَين الحدثَين أيضًا.

وأخيرًا، فقد أعطيت جميع النقود التي حصلت عليها من القس مصطفى للعميان السبعة. كنت أشعر بالبهجة من فرحة المارّة ومن مساعدة العميان السبعة. رجعت كزمن الطفولة وابتهجت وأنا أضحك وأقيس المسافة التي اجتازها العميان السبعة، فقد وصلوا إلى الكنيسة بمسافة أربعين قدمًا كبيرًا. أردت أن أعرف هل أنهم وصلوا في الوقت المعين أم لا؟ أسير وأقيس الفترة الزمنية التي استغرقوها في رحلتهم من حي خاني آباد بطهران إلى شارع لي برتي في باريس، ذلك الشارع الذي زرعوا على جانبَيه أشجار الشمشاد، منذ عام ألف وثلاثمائة واثنَي عشر هجري شمسي إلى العام ١٩٥٤ ميلادي، كنت أهمُ بحساب السرعة وعدد الخطوات حينما صرخ أحدهم:

– دع الحساب جانبًا! الحساب يفقد الصواب. ضحكت، لم أر أن العميان السبعة يمزحون، قال أحدهم في مخيلتي:

– صحيح أننا عميان، لكننا بشر، أي حيوانات ضاحكة، نحن نضحك لأنك أعطيتنا نقودًا كسبتها من الرزق الحلال، جازاك الله.

اعتزم النفر الأخير الذي سمع عبارة «جازاك الله» النهوض ليأتي إلى الأمام، فقال الأعمى الأول: أجلس، لأنني لم أعطه نقودًا. فضحكت ثانية وصرت أفكر بعبارة «الإنسان حيوان ضاحك» فأجبت بصوت أحد العميان السبعة:

– الإنسان حيوان ضاحك. البعض يقول إن الإنسان حيوان ناطق وهذا كلام غير صحيح، هل تعتقد أن حشرات النمل لا تحادث بعضها الآخر؟ ألم تلاحظ كيف تقف نملتان لساعتَين أو أكثر دون أن يتحركا؟ إنها تتحاور مع بعضها البعض لكنها لا تضحك. الضحك هو ما يميز الإنسان عن الحيوان، لو كان الإنسان إنسانًا لضحك على كل شيء.. إنما الحياة الدنيا لهو ولعب، علينا أن نضحك على كل شيء، حتى

على ذهاب العميان السبعة لباريس للاستجداء هناك.

ضحكت للحظة، لكنّ قلقًا غامضًا داهم قلبي، ربما لأنني كنت مصممًا على معرفة سرعة سيرهم من حي خاني آباد إلى هنا، فإن كانوا يقطعون أربعين قدمًا في اليوم الواحد فذلك يعني...

قطع أحد العميان مخليتي وقال:

- ألم نطلب منك أن تنسى محاسبة سرعة تحركنا، نقرّ لك أننا تأخرنا كثيرًا فقد كان ذلك دون إرادتنا، لقد مكثنا في ألبانيا ستة أعوام، هل تعرف السبب؟ إن الناس هناك في فقر مدقع، يصعب عليهم توفير قطعة خبز يملؤون بها بطونهم. فقد بقينا ستة أعوام في ألبانيا.

أدهشني جوابه، فكّرت مليًّا:

- وهل تنوون التطواف حول العالم.

- أكيد، فذلك أفضل من التطواف حول أنفسنا.

- كيف تجتازون خليج بيسكاي والمحيط الأطلسي؟

هز أحد العميان رأسه، ضحك ووضع يديه حول حدقتَيه الفارغتَين ونظر إليّ كما ينظر العاقل إلى السفيه وقال:

- هل سمعت بحكاية جلال الدين المولوي وشمس التبريزي، لقد سار شمس على الماء وأذهل المولوي بذلك. وذات يوم أراد شمس أن يصطحب المولوي معه، فقال له انظر على الدوام إلى كتفَيَّ ولا تزغ نظرك إلى شيء آخر، وكرر على الدوام: يا شمس! هكذا فعل المولوي ونجح في السير على الماء، فأنصت المولوي لما يقوله شمس فسمع أنه كان يردد هامسًا يا علي مدد، أما الدرويش مصطفى فهو إن كان غير قادر على السير فوق الماء فهو قادر على السير فوق الغيوم، ألم تر شعره ولحيته وملابسه البيضاء. لا زلت غير منتبه.

حركت رأسي، أي رأيت ذلك كأنني كنت دائخًا. كان فمي فاغرًا. قلت:

- أفهم من كلامك أنكم قادرون على السير فوق الماء.

ضحك الأعمى وقال:

- صحيح أننا عميان يا فتى عائلة الحاج فتاح ولكن لسنا بخرسان، فثمة ذِكر نردده حين الضرورة.

صار فمي فاغرًا من شدة الدهشة، كذلك المارّة الفرنسيون في ممر اللّه، فقد قال هذا الأعمى كلامًا يصعب تصديقه، أدار الزوجان الفرنسيان عدسة الكاميرا نحو الأفواه الفاغرة من الدهشة والتقطا صورًا لها.

دوى في الفضاء صوت الدرويش مصطفى:

- الذي ينبغي أن يلتقط الصور، فمن المؤكد أنه سيلتقط الصور، ياعلي مدد.

الحياة هي ممر العميان السبعة، لهذا فهي تمرّ، وربما هنا يكمن سر تجوالهم، لا أعلم، لكن أغلب الممرات هي من ابتكاري الشخصي، وربما لا. ربما كانت الممرات موجودةً قبل أن أولد. ماذا قلت؟ قلت إن الحياة هي ممر للعبور، ممر اللّه، ممر العميان السبعة، ممر الجلد الذي يأخذ طريقه إلى الدباغ، أو أخذ طريقه.

رباعيتي

كانت صبيحة يوم الأربعاء، حينما طرق الشرطي عزتي الباب، مرتديًا طاقيته الزرقاء، طرق الباب بقوة ولمرات متتالية، لم يستطع أحد أن يتوقع من يكون الطارق وما الذي يدفعه إلى أن يطرق الباب بقوة في هذا الوقت المبكر من الصباح. جدي الذي كان يتمشى حينها في الباحة ويرتب أغصان شجرة الرمان بيدَيه رغم البرد، قال في نفسه: ما الخبر وكأنه على عجالة؟

كانت أمي ما تزال جالسةً على سجادة الصلاة، رفعت رأسها وقالت بتهكم لجدي: «لعلك أوصيت كريمًا أن يأتي بالباجة لنا. لقد سئمناها. يا له من ولد مشاغب، ما الذي يدعوه للطرق على هذا النحو؟».

اتجه جدي نحو الباب بتعجب مخفيًا يدَيه في عباءته البنية تفاديًا للبرد.

لم يكن قد أوصى كريمًا ابن حي الحفرة أن يأتي بالباجة ولم يكن هناك أحد يجرؤ على طرق باب الحاج فتاح على هذه الشاكلة في مثل هذا الوقت المبكر من الصباح، فتح الباب فرأى الشرطي عزتي ممسكًا طاقيته الزرقاء المثيرة للسخرية بيده اليسرى وبيده اليمنى حبلًا، عندما رأى جدي أحنى رأسه وأدى التحية. بعدها وكعلامة للأسف، حرك رأسه لليمين واليسار. رأى علي كل ذلك وهو جالس في نهاية الممر بشكل لم يره عزتي.

ما أن وقعت عينا علي على يد الشرطي عزتي اليمنى ورأى الحبل، تأوّه من أعماقه، عقد حاجبَيه المتصلَين ببعض ومشى بتثاقل نحو المجاز في غرفة الزاوية. هناك كانت تجلس أمه ومريم حول مائدة الإفطار وتنتظران الخبر، قال متمتمًا:

– يا كريم الأرعن! نسيت أن تفك الحبل من باب بيت قاجار! تبًا لك. جعلت هذا الأحمق الأعزب يأتي لمنزلنا.

كانت الأم محدقةً بعلي.

– ماذا حصل يا علي؟ من كان هناك؟

ردّ علي بهدوء وضجر.

– من؟ هو الشرطي عزتي.

– حسنًا وماذا يريد في هذا الوقت من الصباح الباكر؟

– سنعرف فيما بعد.

لكن مريم ألقت نظرةً على علي الذي كان يتململ ويتقدم ببطء نحو المائدة وقطعت كلامه بحيوية قائلةً:

– ما بك؟ وكأنك في مأتم؟ هذه قضية لا تعنيك وملفها طويل عريض، فقد قال عزتي بالأمس أن ثمة تغييرات طرأت على مجتمع اليوم قد تشمل العباءة والحجاب والربطة وأمورًا من هذ القبيل. لا تقلقوا، هذا الأحمق أتى لكي يقبض ثمن شايه. أفهمت لماذا يقولون ثمة مفتشة للشرطة اسمها مريم؟.

لم يهدأ علي، كأنه يعتقد أن الحبل الملفوف بيد عزتي هو سبب مجيئه، وأمي لم يرتَحْ لها بال أيضًا. النساء يشممن رائحة المصائب بسرعة أكثر، لقد شعرت أمي بما حدث. ولكنها لم تستطع أن تتأكد من الأمر. خطرت لها للحظة فكرة واقشعر جلدها: «ربما يكون هذا الزائر غير المنتظر من نفس طراز زائري الأمس غير المتوقعين أيضًا.

علي ومريم ما زالا طفلَين ولم يشعرا بما حدث، الحمد للّه أنهما لم يشعرا، إن لم يكن عزتي أحمقًا فما الذي دفعه إلى المجيء فجرًا، في هذا البرد الذي لا يدع الكلب يخرج من جحره، إن شاء اللّه سوف يقلع الجد ضرس طمعه. انظر إلى أين وصل بنا العار، عزتي ابن القروية...».

عندما فتح جدي الباب رأى الشرطي عزتي ممسكًا طاقيته الزرقاء بيد وحبلًا

مطويًا في اليد الأخرى. أحنى الشرطي عزتي رأسه على كتفه عندما رأى جدي وقال:

- مرحبًا يا سيد فتاح. في الحقيقة، كان عليّ أن لا أضايقكم فجرًا، قلت لسيادة الضابط دعني أذهب ظهرًا كي لا أزعجه كثيرًا، لكنه أمرني أن أزوركم في هذا الوقت.

أومأ جدي برأسه وطلب من الشرطي أن يكمل حديثه.

- في الواقع.. هل هذا الحبل لكم؟

أخذ جدي الحبل من يد الشرطي. ونظر إليه بتمعن، كان الحبل بالنسبة له مألوفًا. تذكر أن كريمًا كان يربط يدَي علي بهذا الحبل، عصر يوم أمس.

ربما يوجد مع أشياء قديمة في مخزن البيت.

هز الشرطي عزتي رأسه.

- في الحقيقة، إن هذا الحبل حبلكم. ودرياني رآه أمس بأيدي الأولاد، وفي صبيحة هذا اليوم وقبل بزوغ الشمس، قبل نصف ساعة، جاء الأمير قاجار إلى مركز الشرطة، فهو يسكن في شارع السيد قوام السلطنة، في الواقع، ابنه يدرس مع حفيدكم، يوم أمس غروبًا كان شخص أحمق يرافق حفيدكم وقد أزعج بنحو ما عائلة قاجار، طبعًا هذه المسألة ليست مهمةً أصلًا، فالأولاد ما زالوا في مرحلة الطفولة، لكن الأمور تطورت حينما ربطوا الحبل بمغلاق الباب وفعلوا أشياء أخرى، وتلك أيضًا ليست هامةً، وقالوا لحارس الماء أن يوجه الماء إلى خزان أسرة قاجار الذي كان مملوءًا بالماء وتسببوا بخرابه، وهذا ليس هامًا أيضًا، وقد قلت لذلك الأمير إن عائلة فتاح لا تؤذي حتى نملةً وأن ثمة من سيصلح لهم ما خرب من العمال، فليرسل السيد صباحًا بنائين لكي يصلحوا ما تخرّب. وفي حقيقة الأمر، لم تكن هذه الأمور هي الغرض من مجيئي.

حرّك جدي رأسه بأسف وقال:

- أبوه ليس موجودًا، مع ذلك لا بد من توبيخهما لئلا يزعجا أحدًا بعد الآن..

حرّك الشرطي عزتي طاقيته، وقاطع جدي:

- اللّه يعلم، لم يكن هذا قصدي، كما أسلفت لحضرتكم، فهما طفلان بدرت منهما تصرفات طفولية. ولم يرتكبا جريمةً «لا سمح اللّه». فنحن نرى كل يوم مئات المرات ما هو أسوأ من ذلك. لقد أتيت لموضوع آخر، بخصوص قولك إن أباه ليس موجودًا.

نكس جدي رأسه وتحدّث مع نفسه: «ما الذي أتى به صباحًا في مثل هذا الوقت، الأطفال أخطؤوا، ثم ماذا؟ هو نفسه يقول إنه لم يأت من أجل ذلك، ربما أتى من أجل البلاغ. ربما أتى هذا المعتوه من أجل ثمن شايه ولكن الموضوع لا يستحق كل هذا اللف والدوران».

فجأة شعر عزتي أن الحاج فتاح اكتشف الموضوع فسبقه بلباقة:

- لا يا سيدي ما هذا الكلام؟ اللّه يعلم أنها لم تكن فعلة جماعة الحكومة ولم يعرف من نقلها. في الحقيقة، فإني حتى الآن لم أنقل خبرًا سيئًا لأحد. الواقع أن العسكري الضابط هو الذي طلب مني أن أخبركم أن الجنازة في قزوين بجانب معسكر القزاق. في الحقيقة إن أحدًا لا يعرف شيئًا حتى الآن.

صباح اليوم، عندما سمع الضابط الخبر أمر أن يرصفوا قوالب ثلج حول الجثة وأن يعطوها لأحد من أصحاب مواقف السيارات لكي يأتي بها. قال ليرسلوه ويستلموا مبلغ الحمولة في طهران.

في الحقيقة، لقد فُقِدت كافة شاحنات السكر البلجيكي التي كانوا يجلبونها من روسيا وإلا لأتوا بالجنازة بتلك الشاحنات.

والشيء العجيب هو أن الشاحنات كانت كثيرةً وأن الشاحنات الخمسة عشر كانت من ماركة «جيمس» وكانت جميعها جديدات! أعتقد أن عملية القتل نفسها كانت من أجل تلك الشاحنات. اللّه أعلم، ولكن السيد الضابط ولكي يُطمئن صاحب موقف السيارات كتب في تلغرافه له أن قيمة الشاحنة بالنسبة لبيت فتاح كثمن علبة شخّاطة.

انتبه الشرطي عزتي لنفسه. كان الباب مغلقًا. والعباءة البنية ملقاة بجانب الباب الخشبية. حرّك عزتي رأسه ليعلن عن أسفه. انحنى وحمل العباءة البنّية وعلقها على الباب. وضع طاقيته الزرقاء المضحكة على رأسه وقال لدرياني الذي

أسرع ليعرف ما الخبر:

– في الحقيقة، إن نقل خبر سيء أمر صعب. ولكن ما الحيلة؟ وأقسم باللّه بأن له الحق في ذلك.

لم يكن جدي قد فكر حتى الآن بالشيخوخة. لم يكن قد عرف الشيخوخة ولكن الممر ذا العشرة أقدام أفهمه ما معنى الشيخوخة..

لم يكن يستطيع أن يحافظ على استقامة ظهره. كان يرى باحة الدار من داخل الممر وهي تقترب وتبتعد مثل أرجوحة. أشجار الرمان كانت تقع على الأرض وتنتصب من جديد. كان يرى بأم عينه مياه الحوض وهي تتلاطم، الأسماك بدورها كانت تبكي بمرارة وبكثرة بحيث كانت تعوّض بدموعها المياه التي كانت تنسكب على الأرض.

بعد ذلك، نظر إلى الأمام، كان بلاط الممر ينخسف. كان ينخسف في أعماق الأرض، لا ذراع أو ذراعان، بل إلى ما لا نهاية. وكأنه كان يقف على مدخنة معمل الطابوق، وينظر من ذلك الارتفاع للأرض التي كانت تبتعد. أصبح الناس بحجم النمل. كان يرى السهول والصحاري من مكانه. كان بإمكانه أن يشاهد الشاحنات الخمسة عشر من نوع جيمس المحملة بالسكر البلجيكي آتيةً به من باكو، وبين كل تلك الشاحنات كان يبحث عن ابنه... في الحقيقة إن الضابط عندما سمع الخبر اليوم فجرًا أمر أن يلفوا الجثة بالثلج وأن يعطوها لأحد أصحاب مواقف السيارات كي يجلبها..

تخيل أن إحدى البلاطات فلتت من تحت قدمَيه... ووقع من أعلى المدخنة إلى الأسفل. نظر إلى أرضية الممر المرصوفة بالبلاط فكانت تبتعد وتبتعد. وكأنه بقي أشهرًا معلقًا في الهواء قبل أن يصل إلى الأرض وتتكسر عظامه، أراد أن يتكئ على الجدران ولكنه لم يستطع، ترنّح وأمسك بالجدار قبل أن يهوي على الأرض. وفي سبيل اجتياز الممر ذي العشرة أقدام، وقع أكثر من مرة على الأرض. كانت عظامه قد تهشّمت. لم يستطع أن يقف مستوي القامة. كأنه يحمل جبلًا على عاتقه. أصابه العجز والضعف. ولم يعد يستطيع أن يتخيّل وجه ابنه.

«فعلة أي ابن زنًا كانت؟ فعلة أي لئيم كانت؟ لم يكن قد آذى حتى نملةً.

كانت له يد مقتدرة ولكن لم تكن له يد ضاربة. كان كريمًا يساعد الآخرين. من رأى منه سوءًا؟ يا إلهي هل تمتحنني؟ أنا لست بيعقوب.. ولست زكريا. أنا لست سيد الشهداء.. أنا فتاح. ألا تعرفني؟ أنا من لا يستطيع أن يحرك جثته والآن علي أن أحمل جثة ولدي.

لا يمتحن العباد المتهالكون الضعفاء. أنا لا أستطيع أن أحمل هذا العبء. إن حمل مصيبة كهذه بحاجة إلى شباب.. كان إنسانًا طاهرًا.. لم يرتكب أي إثم.. لم يكن مثلي.. لم يغش في معاملاته... يحيى كان طاهرًا أيضًا، علي الأكبر كان طاهرًا أيضًا.. ولكن أنا فتاح».

- يا جدي! أين عباءتك؟

انتبه فتاح إلى نفسه. نظر إلى مريم. وجنات متوردة ووجه بشوش ينتظر ابتسامةً كي يضحك. نظر إليها مرةً أخرى، إنه يرى الآن طفلةً يتيمةً تقف إلى جانب طفل يتيم آخر وأرملةً تجلس جنب السماور ولكن أولئك لم يفقدوا أملهم بعد، كان لديهم أمل. كان لهم محام وملتجأ ومدافع...

الشخص الذي يجب أن يكون منتصب القامة.

الملجأ والمحامي والمدافع يجب أن لا يكون محني الظهر، أولئك كانوا ينادون ملجأهم وحاميهم بالجد.

- يا جدي... يا حضرة الجد. أين عباءتكم؟

انتبه لنفسه، نظر إلى مريم. لم يعرف ماذا يقول.

- عند الباب. انتظري. سآتي بها.

عاد وذهب إلى الممر من داخل الباحة. فتح الباب. حمل عباءته البنّية التي كانت معلقةً على الباب ثم سدّ الباب مسرعًا قبل أن يراه الناس الذين قد تجمعوا حول الشرطي عزتي ليشرح لهم ما وقع.

كان الجد محتارًا حيال ما سيقوله للأطفال. كان يعرف أن الجنازة ستصل غدًا ولكنه لم يكن يعرف كيف ومن أين يجب أن يبدأ.

ارتفع صوت مريم مرةً أخرى.

- هل أخذوا عباءتك يا جدي؟

- لا يا ابنتي، ها هي.

أخذت مريم يد الجد وأوصلته إلى غرفة الزاوية وأجلسته أمام المائدة...

وابتدأت تقلد صوت عزتي بصوتها الأنثوي.

- في الحقيقة، إني لست من محبي العصريين. ولكن أمي تحب حياة اليوم وحياة الغد أيضًا. تحضر في المجالس النسائية. في الحقيقة، يا حاج فتاح أعطني ثمن الشاي لكي أذهب...

كان علي يريد أن يضحك ولكنه ابتلع ضحكته عندما تذكر الحبل وقالت أمه لمريم:

- يكفي.. من غير اللائق لفتاة مثلك أن تقلد أحدًا، ستصبح هذه عادةً يصعب عليك التخلص منها.

وقالت في نفسها: خاصةً إذا قلدت شخصًا أعزبًا ومعتوهًا جاء ليطلب يدها. لقد شاهد البنت يوم أمس وجاء اليوم ليخطبها. وكيف؟ بهذه العجلة.

لم يضحك الجد. كان يرغب بذلك ولكنه لم يستطع. مريم التي كان حديثها قد قطع، ألقت نظرة على الجد وقالت:

- وماذا قال؟ هل مسألة الحكم جدية؟

حرّك الجد رأسه وتأمل قليلًا وقال لمريم:

- نعم يا ابنتي! لا تذهبي اليوم إلى المدرسة. ابقي بجانب أمك يا عزيزتي. هي ستهتم بك. لن تدعك اليوم تخرجين... إذا احتاجت شيئًا سترسل الخادمة لتجلبه. قالت مريم: عندي دروس في المدرسة. قال الجد: أعلم ولكن لا تخرجي.

اطمأنت أمي وتأكدت أن تخميناتها صحيحة. ألقت نظرةً على الجد وقالت بهدوء:

- نعم.. فهمت...

نظر الجد لعلي آخر مرة. إنه كان قد ارتشف شايه بسرعة وذهب ليرتدي ملابس المدرسة ولكن الجد بادره بالقول:

- يا عزيزي علي، أنت ستأتي معي ولا تنسَ أن تحمل ذلك الحبل من أمام الباب، وتضعه في القبو.

تأوّه علي. ولكن باله ارتاح قليلًا. وتأكد أن الشرطي أتى إلى منزلهم بشأن أمر البارحة وسبّ في سره قاجار بدل أن يسبّ كريمًا: وراء كل مشكلة تقف أنت. وراء المشاكل الصغيرة والكبيرة يا قاجار! أيّها الفيل.

كان علي والجد يتجهان نحو الممر وكانت الأم ومريم تجمعان المائدة. كان علي يعتقد أن الجد يريد أن يعاقبه. كانت مريم تظن أن قضية الحكم جدية. وكانت أم علي تتصور أن الشرطي قد أتى لخطبة ابنتها ولذلك طلب منها الجد أن تبقى في المنزل، ولكن فتاح حاول جاهدًا أن يحافظ على استقامة قامته.

أخذ الجد بيد علي وخرجا من المنزل، تفرق الرجال الذين كانوا قد تجمعوا أمام محل درياني بسرعة. لم يكن هناك من يقوى على مقابلة شخصية الحاج فتاح الصارمة.

كان فتاح يمسك بيد علي وينقل خطواته بهمة. كان يعرف أن عليًا هو الوريث الوحيد للعائلة. كان يجب عليه أن يعلّم عليًا الأشياء التي علّمها والده من قبل. كانا يتجهان نحو سيارة الدودج السوداء اللون التي كانت تقف بانتظارهم بجانب الشارع. عندما رأى موسى القصاب فتاحًا تقدم بضعة خطوات ووضع يده على صدره. أراد أن يقول شيئًا لكنه لم يستطع. أتى من خلفه درياني ووقف أمام فتاح وخدش وجه فتاح بلحيته التي لم يكن قد حلقها جيدًا وقال بصوت متهرج:

- يا حاج فتاح، يعني هل صحيح ما حدث؟ أنا لا أكاد أصدّق، إنه لم يؤذِ حتى نملةً.

قطع الجد حديث درياني ولكي يبتلع غصته صاح بعلي.

- يا علي. اذهب واجلس في السيارة وأغلق الباب.

عم الصمت الجميع. كان علي يظن أن هذا الحزن بسببه. كان يظن أيضًا أن درياني يتحدث عنه. كرر في نفسه كلمات درياني:

«يا حاج فتاح، هل ذلك صحيح؟ أنا لا أكاد أصدّق... إنه لم يؤذِ حتى نملةً. أؤذي نملةً أو لا أؤذي، ليس لأحد شأن بذلك، ثم أن قاجار ليس نملةً.. إنه فيل... لا أصدّق... لا تصدق ماذا؟ إلى الجحيم.. سحقًا لكم أيّها الفضولية».

أوصى الجد درياني بأ ن لا يطلع أحدًا على الموضوع حتى المغرب وخاصةً أمي ومريم. ذهب وجلس على الكرسي الأمامي ثم أومأ إلى علي الذي كان يقف منتظرًا بأن يجلس على الكرسي الخلفي. لم يسمح علي للسائق أن يغلق الباب وراء الجد، بل أغلقه هو بنفسه قبل أن يصعد. عندما ركب السائق ابتدأ الحديث:

- يا سيدي أنا علمت بالأمر. واللّه لم يكن يؤذي حتى...

قطع الجد كلام السائق:

- كنت قد ذهبت إلى شميران؟ هل كانت السفرة ممتعةً وهل والداك بخير؟ الجو هناك أكثر برودةً. أليس كذلك؟

فهم السائق أنه يجب أن لا يتحدث عن الموضوع.. وأدار سكان السيارة كي يذهبوا إلى الحفرة باتجاه منزل إسكندر. إسكندر وأم كريم وكريم ومهتاب، كان أربعتهم يقفون أمام الحفرة، عندما رأوا سيارة الدودج تقدموا قليلًا، كان إسكندر يقف واضعًا يده على صدره. نظر علي إلى مهتاب، لم تكن ككل مرة، فقد اختفت البسمة التي كانت ترتسم دائمًا على شفتَيها. اشتم علي عطر الياسمين من فمها فلم يجده، نظر إلى مهتاب مرةً أخرى، ما أن التقى ناظراهما حتى نكست رأسها وشرعت بالبكاء.. كان علي في حيرة من أمره، هل كانت تبكي لأجل أخيها كريم، أم لأجله هو؟ إننا لم نرتكب عملًا شنيعًا لهذه الدرجة. كيف شاع الخبر؟

كان يخاف أن يوبّخ الجد كريمًا. لم يكن من عادة جده أن يضرب أحدًا. ربما هو منزعج بشأن موضوع الأمس فيصفعه على وجهه. نظر إلى الجد بخوف. رآه يعانق إسكندر وينتحب. لم يكن علي يعرف ماذا حصل. أصابه الدوار. أوصاهم الجد أن لا يشرحوا أي شيء لمريم وأمها حتى يعود عصرًا من معمل الطابوق.

كان علي ينظر بدهشة للجميع وكان إسكندر يعانق جده ويبكي بشدة، كانت أم كريم قد أخفت رأس مهتاب تحت بعباءتها الموردة وكان كريم يبكي كقطة ضربوها وقد نكّس رأسه. وكان عدة أفراد يومئون بأيديهم من الجانب الآخر من الشارع للحاج فتاح. لقد تاه عقل علي. وعرف أن موضوع قاجار لا يمكن أن يكون له كل هذا التأثير. ولكنه لم يستطع أن يخمن السبب.

وأخيرًا ركب الجد السيارة، وطلب من السائق أن يتجه نحو معمل الطابوق. التفت علي إلى الوراء فرأى كريمًا يركض وراء السيارة وقد بللت الدموع وجنتَيه. وكأنه كان يريد أن يقول شيئًا، بيد أن مهتاب كانت تقف ساكتةً بجانب أبيها إسكندر وأمها.

ركض كريم خلف سيارة الدودج دون أن يهتم للغبار الذي كان يرتفع من أطراف عجلاتها، ركض حتى مسجد قندي. قال علي في نفسه «من المؤكد أنه يريد أن يعتذر» ولكن السيارة خففت من سرعتها قرب المسجد. توقف كريم ولم يتقدم. كان جدي قد أشار للسائق أن يتوقف. فتح الجد الباب، ارتجل من السيارة ونادى موسى القصاب. كان موسى ما زال يقف متكئًا على جدار المسجد واضعًا يده على صدره. عندما سمع صوت الحاج فتاح ركض باتجاه السيارة.

- نعم يا سيدي. أرجوك يا حاج أن لا تعتبرني غريبًا في مثل هذه الظروف... أنا أقدّر قيمة العشرة التي جمعتنا سنوات طوال..

التقت نظرات موسى بنظرات علي الذي كان جالسًا على الكرسي الخلفي للسيارة، فشرع موسى بالنحيب.

قال علي مع نفسه «ذاك كان وضع إسكندر والآن ها هو كبير شقاوات حارتنا... ألا يخجل من شاربَيه؟».

رأى الجد صورة علي في بؤبؤ عيني موسى، بلع غصّته. كان مضطرًا أن يتكلم بخشونة كي لا يداهمه البكاء.

- يا موسى... اختر لي عشر نعاج وخرفان، اذهب بنفسك للسوق واخترها. سيكون ذبحها بعاتقك. ضعها اليوم في الحضيرة أو في مربط بمعمل الطابوق وخذ

ثمنها من الميرزا. لا تذهب إلى منزلنا... وكرر مع نفسه: سوف نقيم مآتم لمصيبة الإمام الحسين تستمرعشرة أيام.

قال السائق:

– لا تؤاخذني يا سيدي ولكن الجمعة هي أول أيام الشهر، غدًا هو الخميس...

نظر الجد مرةً أخرى وقال:

– مع ذلك، سننصب وليمةً للإمام الحسين من الغد ولكن ليس عشر ليال وإنما إحدى عشرة ليلةً وربما ليلة الغرباء أي الليلة الحادية عشر من محرم، أي ليلة أسارى أهل البيت وربما اثنتي عشرة ليلةً، سيكون مجلس عزاء الرجال في المسجد ومجلس عزاء النساء في البيت.

قال موسى القصاب عدة مرات «سمعًا وطاعةً» ووقف حتى ابتعدت السيارة. عاد مرةً أخرى واتكأ على جدار المسجد. لم يتحمل فتح دكانه، هو ليس درياني على أي حال، فإن والد علي كان صديق الطفولة، وقد أدت عشيرة فتاح له الكثير من الخدمات ووقفت معه كثيرًا. ولن ينسى هو ذلك. لم يكن قد تزوج بعد عندما وقف ابن فتاح إلى جانبه في تلك المشاجرة. وكان موسى لا يتذكرها جيّدًا، كان حينها ذا عشرين عامًا. شرب الخمرة في حانة إسحاق اليهودي وخرج بعدها مترنحًا ويصرخ في حارة عولادجان، كان يسب ويشتم بحيث خرج جميع شقاوات الحارة والتفوا حوله على شكل حلقة، كل واحد كان يقول له شيئًا ويدفعه إلى الجانب الآخر من الدائرة.

– هل تعربد هنا بين الطرشان؟

– مرجلة في الغربة؟

– هل أتيت إلى حارة الطرشان؟

– تمشي منحنيًا وكأنك راكب بعيرًا!

– هل أصبحت شقاوةً يا فرخ؟

– استحلفك بحق هذا الشارب أسمعنا صرخة هل من مبارز.

- العربدة وحدها لا تكفي. تعال اضربني ضربةً قاضيةً.

بدؤوا يدفعونه يمينًا وشمالًا لكي يطير السكر من رأسه ويشعر بعدها بألم الضرب بشكل مناسب.

- يجب أن نوشمه بعلامة في وجهه. حتى إذا أتى مرةً أخرى يكون مميزًا؟

- نوشمه بعلامة محلة «عولادجان» بضربة سكين تبدأ من نهاية الحاجب الأيسر... أنتم لا تعرفون، أعطوني تلك السكينة ذات القبضة السوداء...

لا يتذكر بعدها ما حصل ولكن بما أن وجهه لم يحمل علامة محلة عولادجان، فمن المفترض أن ابن الحاج فتاح وصل في الوقت المناسب، كان قد وقف إلى جانب موسى. يتشاجر مع شقاوات حارة عولادجان. إنهم لم يتراجعوا أو يخافوا من قوة ساعد ابن فتاح ولكنهم قالوا:

- لقد أعجبتنا هذه المبادرة. أتيت لنجدة ابن حارتك. لا تظن أننا تركناه من أجل أبيك فتاح، رغم أننا نكنّ له الاحترام. ولكن ليس من أجله... وإنما من أجلك أنت لأنك شهم. سنعتبر أنفسنا الليلة طرشانًا. هل سمعتم بأحد يعربد هنا في هذه الحارة؟

قال الجميع بصوت واحد:

- لا، في هذه الحارة؟.. لم نسمع ربما أتى الصوت من الحارات المجاورة.

- انسوا الموضوع إذن.

وبعد ذلك فقد ساعدوا ابن الحاج فتاح ليرتبوا ملابس موسى وليضعوه في العربة وأعاده إلى الحارة. رجع موسى إلى وعيه في العربة حينما كان يقول له ابن فتاح:

- يا موسى القصاب ابن يحيى! لم يكن بقي سوى لحظة حتى يقتلوك كما تذبح الشاة وينشر خبرك في صحيفة «وقايع اتفاقية».

***

لم يتكلم الجد، ورغم أنه كان ينظر إلى الأمام، لكن كأنه لم ير شيئًا. كان شارد البال.

كان السائق يتجه بهدوء نحو معمل الطابوق. كان يقود السيارة بحذر متحاشيًا مطبات الطريق. كان يقود «الدودج» وكأنه يمرر طبقًا زجاجيًا لا سيارةً فوق الحفر، كان أولاد ضواحي المدن الذاهبين بملابسهم المندرسة إلى العمل يشيرون بأصابعهم نحو «الدودج». كانت هذه عادتهم اليومية.. في الشارع كان هناك بعض الشاحنات وعربات حمل الآجر متجهةً نحو المدينة. هذه الشاحنات كانت قد أخذت حمولتها قبل بزوغ الشمس وهي متجهة بها نحو أماكن العمل. كان العمال يجهزون الطابوق في مجموعات من خمسة أكوام يضعونها إلى جانب الشارع. يأتي صباحًا عاملان أو ثلاثة ليسلّموهم الآجر. كان الشارع ترابيًا. ولكن بسبب السيارات الثقيلة التي تتردد عليه كان معبدًا نوعًا ما. يبتدئ من بوابة خاني آباد ثم يلتف إلى اليسار، يتجاوز محمد آباد وحسين آباد وقبل بوابة غار تترآى من بعيد مداخن معامل الطابوق التي كانت متناثرةً على جانبَي الطريق. من بعيد كانت تبدو كأنبوب النارجيلة ولكن عظمتها تتضح عندما تقترب منها، فلو احتضن عشرة رجال بأيديهم هذه المدخنة فلا تكفي أيديهم لاحتضانها.

كانت المدخنة عاليةً جدًا، يبلغ ارتفاعها حوالي سبعين مترًا. متى ما كان علي يريد أن يرى أعلاها يستلقي على ظهره ليراها، حتى تؤذي الشمس عينَيه. لمعمل طابوق الحاج فتاح ثلاث مداخن. اثنتان متساويتان في الارتفاع وهما أكبر من سائر المداخن. فكلما كانت المدخنة أطول وأعلا كان الهواء يتنقل فيها أكثر وأفضل وبالتالي يكون الطابوق أجود.

كانت سيارات الشحن تحدث حفرًا في الشارع في الأيام التي تلي أيام المطر، وقعت سيارة الدودج في إحدى هذه الحفر.

أعاد الصوت المفاجئ الحاج فتاح إلى وعيه.

- لقد حطمت نابض السكان.

- آسف سيدي. لم أتمكن من تحاشيها.

قال الحاج فتاح للسائق وكأنه لم يفقد ابنه:

- احفظ عنوان المكان جيدًا. فهو يقع قبل أول مئذنة لمعمل طابوق السيد الميرزا إبراهيم.

عندما نصل معمل الطابوق اطلب من الميرزا أن يجمع بعض فضلات الآجر وأن يحملها في عربة ويأتي بها إلى هنا كي يردموا هذه الحفرة. لقد كانت حفرةً عميقةً لم أرها من قبل.

– لا يا سيدي.. لم تكن من قبل. فقد أوجدتها الشاحنات الكبيرة.

كان علي يحاول أن يدخل جو الحوار وأن يكسر هذا السكوت المطبق.

– يا جدي أنا سوف آتي مع عربة العمال عندما يأتون لردم الحفرة.

– لا ضرورة لذلك... إنها ليست مسرحًا، أو مأتمًا، ستوسخ نفسك.

– أنا أريد أن أركب البغال. بعد أن نخلي الحمولة في الحفرة ستكون العربة خفيفةً، عندها أفك أحد البغلين منها وأركبه وأعود عليه.

– أي عمل هذا؟ ركوب البغال لا يليق بك. سوف أوصيهم أن يجهزوا لك فرسًا.

– فرس أبي؟

نعم، فرس أبيك.

سكت الجد بعدها... كرر في نفسه أكثر من مرة كلمة «أبيك» وخنقته العبرة...

يكفي أنني سوف أدخل السرور على قلب يتيم.. يا إلهي.. يعني أن عليًا صار يتيمًا؟. يا للمأساة، شاب في أحلى أيام عمره، في فترة تفتح زهرة عمره ينزل تحت التراب البارد! يا لغدر الدنيا. ولكن البهجة كانت قد شقت طريقها إلى قلب علي، إن جده ليس غاضبًا جدًا من فعلته بالأمس. قلل السائق من سرعته والتف نحو بوابة معمل الطابوق الكبيرة.

كان الجد قد أحضر قبل سنوات بنّاءً أصفهانيًّا بنى بوابةً جديدةً ومن نفس الآجر الباهت الذي ينتجونه في معامل طابوق الحاج فتاح، وقد نصبوا في أعلى البوابة نقشًا حجريًا فيروزجيًا كتب فيه «للحق، معمل طابوق الحاج فتاح».

وبأسلوب إيحائي لا يفهمه إلا الجد نفسه كتب بدل «معمل طابوق»، «فرن الفردوس تأسس سنة ١٢٧٥»، وتحتها عبارة موحية «تأسيس نقابة الخزّافين سنة ١٢٩٠».

كان فتاح يرأس نقابة الخزّافين وقد شيّد هذا المعمل قبل الآخرين بخمسة عشر عامًا، أي في الأيام التي كان يجلب فيها السكر من الروس.

فيما بعد، نشبت خلافات حول مناطق استخراج طين الطّفال[1] بين أصحاب معامل الطابوق، لذلك أسس النقابة بنفسه، كان في النقابة عدد من رواد الصنعة يعيّنون حدود مناطق استخراج الطّفال.

مثلًا منطقة استخراج طفال السيد الميرزا إبراهيم محلة باقر آباد في ورامين، والحاج باقر خلف جبل كهريزك، والحاج فتاح أطراف معمله، والشخص الفلاني منطقة شهريار. كان رواد الصنعة يوصلون أوامر الحكومة للأعضاء. مثلًا، البلدية قالت ليس من حق أحد بعد الآن أن يأخذ التراب من مقلع «باغ جالي» في خاني آباد أو من أي من مقالع بوابة غار أو المقالع التي تقع داخل حدود المدينة. كما كانوا يحلون مشاكل الأعضاء بالتراضي.

ادفعوا عن كل قمين[2] أو معمل طابوق خمسة تومانات وعن كل مدخنة عشرة تومانات لكي نرصف الطريق حتى لا نفقد الزبائن. ولكن بعدها اعترض البعض بأن مداخنهم قصيرة ومداخن رئيس النقابة (فتاح) مرتفعة وطويلة، أو أن السيد الميرزا إبراهيم أوصل ثلاثة قمائن بمدخنة واحدة.

لكن الحاج فتاح ولكي لا يثير أي كلام، رمم الشارع على حسابه الخاص دون أن يطلب أي مال من الآخرين، مما دفع بالآخرين إلى الاعتذار ودفع المتوجب عليهم.

أدار السائق السيارة ودخل المعمل من البوابة. كان الميرزا وبقية العمال يقفون

---

(١) الطَّفْلُ: مادة طينية صفراء إذا أضيف إليها الماء تكوّنت منها طينة تقبل التشكّل، ومن مثلها تصنع الأواني الفَخّارية. [المحرر]

(٢) وهو الموضع الذى يُرصُّ فيه اللِبن ويُحرق ليصير آجرًا. [المحرر]

بجانب المكتب بانتظار دخول الحاج فتاح، كان الميرزا يأتي من المدينة ولكن بما أنه يأتي في الصباح الباكر فإنه لم يكن قد سمع الخبر، كما سلّم باقي العمال على فتاح بلهجات مختلفة، أصفهانية، تركية، بوشهرية أهوازية، يزدية وذهب كل واحد إلى عمله. ردّ فتاح على سلام الميرزا وقال له:

– كلّف أحدًا ما أن يملأ عربةً بفضلات الطابوق ويذهب إلى حفرة في وسط الطريق كي يردمها. خذ عنوانها من السائق... أسرع، اليوم يجب أن ترسل بنّاءً وعاملًا للمدينة. موضوعها طويل... اليوم لدينا الكثير مما يجب فعله.

أومأ الميرزا برأسه وركض باتجاه غرف الطين والإسطبلات. كان هناك دار استراحة صغيرة وباحة كبيرة وإسطبل لثلاثة أو أربعة خيول وبغل وحمار. وإسطبل آخر للغنم ولكنه كان خاليًا عدا بقرة كانت توفر الحليب لمنزل فتاح.

كان العمال يصنعون أقفاصًا لدجاجهم في الساحة لكي يأوي الدجاج إليها في الليل.... كان العمال أنفسهم يعيشون في حجر الطين، كان رحمان وشخص آخر أو شخصان آخران من العمال يعيشون مع زوجاتهم وأطفالهم في غرف مستقلة.

كان الباقون ينامون في غرف كبيرة مع بعضهم البعض، لأنهم كانوا عمالًا موسميين. كان بناء آجري خارج الباحة مبنيًا بآجر أبيض يشبه ريش الدجاج. ذلك البناء كان مكتب معمل طابوق الفردوس. كان الحاج فتاح والميرزا والزبائن يجلسون في المكتب. وكان السيد رحمان فرّاش وحارس المعمل. لقد نفد صبر علي. لم يكن يرغب في دخول الإسطبل واستماع أصوات البقر والخيل والبغال والدجاج. خرج من المربط. كان السيد رحمان قد سئم أخلاق الحاج فتاح وخرج من المكتب، إذ شاهد عليًا يخرج من المربط، فقال:

– إلى أين يا سيدي الصغير؟

ردّ علي بتحية وقال:

– أريد أن أرى ما هو عملي في معامل طابوق جدي؟

– أنت؟! أنت السيد الصغير، أنت الآمر والناهي هنا.... كل العمال يعملون وفقا لأوامرك. هل فهمت؟

- لا!

- إذن مزاجك اليوم ليس على ما يرام، ومزاج جدك الحاج فتاح كذلك. لا أعرف ماذا حصل لكما اليوم، حقًا أليس لديك اليوم دوام مدرسي؟

- نعم ولكن جدي قال لا تذهب.

طأطأ السيد رحمان برأسه ثم نظر إلى السماء، قال وكأنه يكلم أحدًا ما:

- ألم يقل لماذا؟ كلاكما متعكرا المزاج وشاردا الذهن. لماذا أتى بالصبي إلى هنا؟

نكّس رأسه وأمسك بيد علي...

- إلى أين تذهب بي يا سيد رحمان؟

- ألم تقل إنك تشعر بالملل... وكان الحاج فتاح يشعر بالملل أيضًا. لذلك خرجت، أنا سوف أريك كل مكان في «المعمل» لكي تعرف ما هو عملك فيه. فيا ليت الشباب يعود يومًا.

لقد أمسكت بيد أبيك هكذا وأريته كل مكان هنا... حينها كنت شابًا ونشيطًا. إن شاء اللّه نسمع خبر عودته عن قريب.

راق ذلك لعلي، يدًا بيد السيد رحمان الخشنة، مرّا بجانب المباني الأخرى والغرف الطينية.

كانت رياح الخريف تثير زوبعةً من التراب. مرّا بساقية الماء ومن ثم ذهبا إلى البئر. كان هناك عاملان من الأكراد يديران عجلة البئر وكان دلوان من الجلد البلغاري مربوطَين بطرفَي الحبل.

كلما كانا يرفعان الدلو المملوء ينزل الدلو الفارغ وعندما يفرغان الدلو المملوء يكون الدلو الفارغ قد امتلأ. تمنى السيد رحمان للعاملَين الكرديَّين يومًا سعيدًا، فيما نظر علي لساعدَي العاملَين المفتولَي العضلات. لم يستطع أن يخمن إن كان يستطيع أن يعمل مثلهما، أم لا. تقدم للأمام، أخذ الدلو من يد مسعود العامل الكردي وتفحص وزنه وتأكّد بأنه لا يستطيع أن يملأه ماءً وأن يسحبه للأعلى.

– ها؟ ثقيل يا ابن السيد؟ إذن قل للسيد أن يزيد أجورنا.

نظر محمود، العامل الثاني لمسعود وقال:

– القناعة كنز لا يفنى..

أومأ السيد رحمان برأسه مؤيدًا ذلك وقال:

– أحسنت يا محمود القانع. ثم نظر إلى السماء وصمت هنيهةً ثم زم شفتَيه. أراد أن يقول شيئًا.

أخذ بيد علي، واتجه نحو المكان الذي كانوا يحفرون فيه نفقًا، كانوا قد حفروا حفرةً على شكل هلال بواسطة الفؤوس. كان هناك ستة عمال أصفهانيون يحفرون بهدوء في الحفرة. كان معمل طابوق الحاج فتاح قد بني على أرض جيدة. ورغم أن الطبقة العليا لم تكن صالحةً لصنع الطابوق، ولكن بالمقابل فإن الطبقة السفلى لا تصل للماء، إلا بعد عشرة أمتار وكان فيها تراب يتصف بالجودة.

كان العمال الأصفهانيون يحفرون نفقًا ويفتحون ممرًا بعرض ثلاثة إلى أربعة أمتار وبعمق سبعة إلى ثمانية أمتار وينزلون عددًا من البغال ويملؤون الخرجان التي فوق ظهورها بالتراب لكي يستخدم فيما بعد لصناعة الآجر.

لم يكن علي يرى شيئًا في الظلام. في ذلك الجو المغبر والخانق لم يكن قادرًا على العمل مثل الأصفهانيين الذين كانوا يبذلون قصارى جهودهم أثناء العمل باستثناء رجل يكبرهم سنًا يجلس على اللبن. كان ذا شعر طويل حنطي اللون ويثرثر معه السيد رحمان. قال علي في نفسه: «على الأقل أستطيع أن أعمل بقدر هذا الرجل الهرم». سأل السيد رحمان ما هي وظيفة الرجل العجوز ولماذا لا يعمل مع الآخرين.

قال السيد رحمان:

– اسمه عبد اللّه الفضولي، اسمٌ على مسمّى، لأن له أذنَين حادتّين ويأخذ معاشًا أكثر من باقي العمال.

– من أجل أن يجلس فوق اللبن؟

– لا، من أجل أذنَيه الحادتَين. عمله هو أن يجلس من الصباح إلى المساء على التراب إلى أن يسمع خشخشةً. عندها يعرف أن النفق على وشك الانهيار فيخبر العمال لكي يخرجوا حتى اليوم الثاني حيث يذهبون إلى النفق التالي. نظر علي إلى عبد اللّه الفضولي مرةً أخرى، إلى شعره الحنطي. كان يضع على رأسه قبعةً من اللباد. تمنى لو أنه أزاح القبعة لكي يتسنى له رؤية أذنَي عبد اللّه الفضولي. وكأن عبد اللّه نفسه شعر بذلك، فرفع القبعة، دهش علي، أذناه لم تكن كبيرتَين بل ربما كانتا حتى أصغر من أذن عادية. نفث عبد اللّه الفضولي نفسًا من الدخان ينم عن رضاه.

– اسمع، ليس السمع بالأذن فقط. يجب أن تستمع بكل شيء، بالعين، بالأذن، بالرأس، بالفم، بالقدم، باليد....

حرّك السيد رحمان رأسه بسرعة وقال: أحسنت... أحسنت...

اندهش علي حقًا. ولكن لم يكن يرغب أن يقف هناك ليستمع إلى بقية كلام الفضولي. كان يتكلم دون توقف:

– بالعين، باليد، بالمسحاة، بالمعول، بالفكر، بالرأس، بالمعرفة، بكل شيء. يجب أن تسمع وأن تستمع لكل شيء لديه ما يقوله، ولكن ليس كل شيء يمكن أن يُسمع بهاتَين الأذنَين، مثلًا أراد الحاج فتاح عبر صمته أن يقول اتركوني لوحدي. أو أنت الآن تريد أن تقول بيدك التي تمسك يد السيد رحمان هيا نذهب.

دهش علي في نفسه وقال: من المحتمل لو أنني كبرت وامتلكت سواعد ضخمةً أن أعمل مكان مسعود ومحمود، أن أدير عجلة البئر وأن أحمل التراب على البغال من النفق. ولكن من المستحيل أن أقبل أن أكون ولو للحظة واحدة محل عبد اللّه هذا.

أخذ علي بيد السيد رحمان وخرج به من النفق. لم تكن عيناه قد اعتادتا على الضوء بعد، لكنه وبجهد مضاعف استطاع أن يرى عجلة البئر وساقية الماء والعاملَين الكرديَّين اللذَين يشتغلان بلا انقطاع والمبنى الآجري والمربط الذي كان بعيدًا جدًا منهما.

ربت السيد رحمان على كتف علي وقال:

هيا سيدي الصغير. هل اكتفيت من النظر. هذا عن أذنَي عبد اللّه الفضولي

والآن تفتحت عيناك ورأيت ماذا يدور في معمل طابوق الفردوس ولكنك لم تر كل شيء بعد. هيا بنا الآن إلى مكان قوالب اللبن.

اقتفيا خطى أحد البغال. كانت البغال تعرف طريقها. هناك تراكم الأكياس، توضع على ظهورها، تُملأ بالتراب ثم تأتي البغال بعدها لوحدها تمر بساقية الماء نحو مكان قوالب اللبن. في ذلك اليوم كانوا يصنعون ثلاث أو أربع وجبات من اللبن. رغم أنها كانت أوائل الخريف ولكن بما أن الشمس لم تكن قويةً بما فيه الكفاية فإنها كانت الأيام الأخيرة لقولبة اللبن. كانوا يمزجون الطفال قرب ساقية الماء على شكل تلال ثم يفتحون دائرةً في وسطه، يمررون الماء في الفتحة تلك ثم يردمون تلك الفتحة بالتراب نفسه مرةً أخرى فوق الماء الذي في الوسط وفي تلك الأثناء يديرون بعض التراب على الماء بمساحيهم ويهشمون الأحجار بها وكان هناك عدد من الأطفال من أتراب علي يمشون فوق ذلك الطين ويركلونه بأقدامهم لبضع ساعات لكي يمتزج جيدًا. أما الخليط الناتج، فينقله العمال على العربات إلى حيث مكان عمال آخرين يتولّون عملية الصب في القوالب. فيقومون بصب الطين الناتج في قوالب ثنائية ثم يساوون سطح القوالب بصفيحة خاصة، وبعد أن يتماسك ما فيها تحت الشمس يخرجونه ويقومون بقلبه على الأرض. كان عمال آخرون يحملون هذا اللبن المخزون وينقلونه إلى القمائن. عندها يبتدأ عمل الفرّانة الذين يشعلون الفرن لأيام عدة. وتزامنًا مع عمل الفرّانة يبدأ عمل فريقَين من العمال، حيث الفريق الأول يفرز الطابوق الأبيض، والفريق الثاني يفرز الطابوق الأحمر.

بعد أن يبرد الطابوق يخرجه هؤلاء العمال من القمين. نظر السيد رحمان إلى علي. استنشق دخانًا من غليونه الصغير وسرح لحيته بيده وقال:

- هكذا أيضًا جعلت أباك يتفرج على زوايا هذا القمين وأطلعته على كافة خفايا العمل هنا... ليحفظه اللّه... متى يعود؟ عادةً كان يجب أن يكون قد عاد في مثل هذا الوقت من السنة... تلك السنين كان عمره كعمرك الآن. يا سيدي الصغير... هؤلاء الأكراد الذين كانوا يديرون عجلة البئر. كانوا آنذاك يدوسون الطين كهؤلاء الأطفال...

نظر علي إلى الأطفال من أترابه، كانوا يدوسون الطين بأقدامهم وكانت نهايات سراويلهم العريضة مرفوعةً إلى الأعلى وكانوا يقفزون مع بعضهم البعض ويغنون بفرح.

- ستصبح طينًا... ستصبح طينًا... ستصبح طينًا.

لم يفهم علي ما يقولون... لم يرغب بالاقتراب منهم... تراجع للخلف قليلًا حتى لا يتطاير عليه بعض الطين. أشار الأطفال إلى علي وتمتموا بصوت واطئ ببضع كلمات وضحكوا، لم يكن واضحًا ماذا قالوا. لم يسأم علي منهم.

وضحك هو أيضًا.. شيئًا فشيئًا تجمع الأطفال حول الطين وهم يضحكون، ضحكة السيد رحمان كانت تشبه صوت فورة الغليون، وبينما كان يضحك أشار لأحد العمال الأقوياء وقال:

- يا نعمت كيف حالك، ما الخبر؟ تقدم. تعال إلى هنا. اجلب مسحاةً للسيد. ثم التفت لعلي وقال:

- هذا نعمت راكب الثيران. ذات مرة امتطى ثورًا وحشيًا في ورامين. نعمت هذا كان يجلس في مقهًى فرأى الناس يفرّون وكان الثور الوحشي هائجًا ويرفس بأقدامه وينطح بقرنَيه ولم يكن هناك من يجرؤ على أن يقف أمامه. أكمل شرب الشاي ثم نهض. وخطى ثلاث أو أربع خطوات وقفز فوق ظهر الثور وأمسك بقرنَيه كاللجام وألقى بوزنه عليه حتى جثا على الأرض في النهاية. لذلك سموا نعمت هذا بنعمت راكب الثيران.

نظر إليه علي. وكان ذا جسم ضخم ومنكبَين متباعدَين، وشارب قصير. ولكن عينَيه لم تكونا متناسبتَين مع جسمه. كأنك وضعت على ذلك الجسم الضخم عينَي طفل بريء. تقدم نعمت وقال بصوته الأجش لعلي:

- أنا بالخدمة يا سيدي. مرحبًا، تفضل! خذ المسحاة واسكب الطين في الملبن!

أخذ علي المسحاة وهو خائف ومتردد. أمسك مقبضها بكلتا يدَيه وأدخلها في الخليط الطيني الذي أمامه ولكنه كان ثقيلًا ولزجًا. أخرج المسحاة وأدخلها وحمل مقدارًا أقل من الطين. ضحك الأطفال بهدوء. كان علي يضحك بهدوء أيضًا. لم يكن يفهم لماذا طلب منه نعمت أن يفعل ذلك.

- ولكن هذا ليس بأمر سيء. فمن الواضح أنه أقوى مني بكثير.

في النهاية خرج علي حذرًا من أن تفلت المسحاة من يده، عندها قال نعمت لعلي:

– ما شاء اللّه عليك يا سيدي! أعطني المسحاة الآن. انظر جيدًا، أنت بكلتا يدَيك وأنا بيد واحدة.

أمسك نعمت بمقبض المسحاة بأصابع أربع من اليد اليمنى ودون أن يستخدم يده الثانية. أدخل المسحاة في وسط الطين اللزج وحمل المسحاة المملوءة بالطين بيد واحدة. كانت يده ترتعش. رفع المسحاة في الهواء أكثر وثبتها هناك قليلًا. كان علي ينظر لساعد نعمت الذي بدى عليه عرق كغصن الشجرة وتصوّر في مخيلته أن ساعد نعمت ربما يكون أضخم من فخذ كريم. وكانت اليد اليمنى لنعمت في مستوًى واحد مع المسحاة. ولا زال علي مندهشًا من قوة ساعد نعمت وإذا بالسيد رحمان يقول له:

– أحسنت يا نعمت! أسألك يا سيدي الصغير، ألا تستحق مثل هذه القدرة الصلوات؟

قبل أن يرجع علي إلى وعيه، ردد الأطفال الذين يمردون الطين والذين يصنعون اللبن الصلوات على النبي وآله بصوت مرتفع، وأفرغ نعمت ما في المسحاة بيد واحدة في الملبن. وقف علي مندهشًا. رفع السيد رحمان رأسه نحو السماء:

– وأخيرًا هل عرف هذا السيد الصغير ما هو عمله في معامل الطابوق هذه؟
أومأ علي برأسه ليبين أنه فهم. لم يكلم أحدًا. عاد الجميع إلى عملهم بهدوء. ذهب علي نحو اللبنات الملقاة تحت الشمس. كل زوج إلى جوار آلاف الأزواج من اللبنات المرصوفة على الأرض المسطحة.

أصبح لون اللبنات الأخيرة كلون تربة القمين، عديمة اللون وشفافة، فيما كان لون الطابوق الذي خرج لتوه من القالب بنيًّا نوعًا ما، مثل الكاكاو الذي سوف يجلبه لهم أبوه من باكو. كانت أم كريم تسمي الكاكاو، قرقروت كفرستان.

اللبن الذي خرج قالبه لتوه يميل لونه إلى البني. لم تجففه الشمس بعد، وكان بعض العمال ينقلون اللبن المتبقي منذ الأمس إلى المخزن.

يكدسونه واحدًا على اليمين والآخر على اليسار. الكل يعمل كما تعمل الساعة بنظم. عجلة البئر تدور وتُملأ الساقية بالماء. التراب الذي أُخرج من عمق النفق يُقلب من الأكياس التي فوق ظهور البغال بجانب الساقية. يُخلط مما فيها ليخرج لبن رطب يؤخذ فيما بعد للمخزن ليدخل القمين في النهاية.. كان القمين يُشعل بالقش والشجيرات. ويضيفون له فحمًا من فوق أيضًا. كان اللبن يتحول إلى طابوق أحمر وأبلق يشبه ريش الدجاج... وكان علي يكبر.

ولكنه لا يزال لا يعرف ما عمله في قمين طابوق الفردوس التابع لجده.

حمل عودًا من على الأرض وكتب به على لبنة، علي، ونظر إلى اللبنة التي كانت بجانبها. كلتا اللبنتَين خرجتا من نفس القالب.

وكأن إحداهما تحتضن الأخرى، كان قد كتب على الأولى علي، ونظر إلى الثانية، لم يكن بها رائحة تراب أو رطوبة. كانت تعطي رائحة ورد الياسمين، ارتجف في أعماقه، أراد أن يكتب على الأخرى مهتاب، ولكنه رأى ظل السيد رحمان وكأنه كان يشعل غليونه، قال في نفسه: أكتب الحرف الأول من اسمها لكي لا يكتشف السيد رحمان الموضوع. قال في نفسه: حرف الميم هو أول حرف من اسم مهتاب، مع ماذا؟ مهتاب لوحدها ليس لها طعم... (م) مهتاب و(ع) علي وكتب على اللبنة بالعود «مع»، نظر إلى الأرض المستوية التي كانت مملوءةً بأزواج اللبن المستلقية تحت الشمس، وكأن كل زوج ليس له علاقة بالأزواج الأخرى، وفي نفس الوقت كأن ليس هناك زوج وحيد. لم يكن علي يرى في تلك الأثناء غير لبنتَيه. لبنتا علي ومهتاب. علي و(مع). من بعيد كان يرى لبنةً مكتوب عليها، إسكندر، وأم كريم، وأخرى جدي وجدتي التي لم أرها، وأخرى أمي وأبي. كان يود لو يعرف أين لبنة مريم. لم يستطع أن يقرأ اسم ذلك الرجل الجزائري العجيب الغريب. كيف يستطيع طفل في الابتدائية أن... (يجب أن تتذكروا بأن هذا القسم يتعلق بفصوله هو).

أتى السيد رحمان بعلي معه وكان قد مسك غليونه بيده اليمنى ووضعه على فمه وربت على كتف علي بيده اليسرى.

- أحسنت سيدي الصغير. كتبت على هذه اللبنة. أنا أستطيع أن أقرأ القرآن فقط... كتبت علي ولكن لا أستطيع أن أقرأ ما كتبت على الأخرى...

ولكن أين ستذهب لبنة علي هذه؟ أمال علي رأسه على كتفه وقال:

– لا أعرف.

– أحسنت... تبقى لبنة علي هذه هنا لتجف. تحت الشمس ربما ليوم أو يومَين. الآن بدايات الخريف وآخر أيام التلبين. سيصفونها بعد ذلك في المخزن. انظر المخزن هناك. وفيما بعد إذا ما أرادوا أن يشعلوا القمين يخرجون اللبن على شكل مجاميع ويضعونه فيه.

– ما هو القمين؟

– أحسنت!! القمين هو الفرن نفسه: يرصفون اللبن في القمين من الأسفل، أي في الفرن، هل أنت منتبه لما أقول؟ كلما يكون اللبن في القسم التحتاني، يكون الآجر (الطابوق) أفضل. هل أنت منتبه لما أقول؟ اللبن الأسفل يصبح أبيض ويشبه ريش الدجاج واللبن الوسطي لونة أبلق عادي واللبن الفوقاني لونه أبلق أحمر ينكسر بأدنى ضربة وهو لبن رديء. يشعلون القمين بالحطب والتبن والشوك، ثم يسكبون الفحم بين الآجرات من الأعلى. يتعلق الأمر فيما إذا كان القمين كبيرًا أو صغيرًا، فيجب أن يحافظوا على حرارة القمين من يوم إلى يومَين من الأسفل بتلك الأشواك. تتعرض بعض اللبنات للحرارة من جهة واحدة ويكون لونها أبيض من تلك الجهة فحسب، ويسمى اللبن (البهمني)، لكن العمال المتصدين لإخراج اللبن يقلبونها عدة مرات وبسرعة كي تتعرض جميع جهاتها للحرارة، ثم تُترك لتبرد، ليوم، أو يومَين. يتعلق الأمر ببرودة وحرارة الجو وكبر وصغر القمين. فإنه يتراوح بين ثلاثين إلى أربعين يومًا. ثم إنهم يخرجونها حسب طلب الزبائن من الآجرات الفوقانية حتى التحتانية. تبقى الآجرات بعد ثلاثين أو أربعين يومًا من إخراجها حارةً. حينما يرصفون اللبن يجب أن يكون القمين مشتعلًا كي لا تلتصق اللبنات ببعضها. يوجد شخص جنب القمين وينبغي أن تراه أيضًا. هو من مخرجي الآجر ومعروف جدًّا. اسمه حسن الجهنمي. تركي من أهالي مدينة نمين في أردبيل، هو من جهة روسي ومن جهة تركي. يقضي كل وقته مرتديًا فانيلةً، سواء في الصيف أو في الشتاء. يقولون إن نار جهنم لا تحرقه. إنه يخرج الآجر بيده مباشرةً، فهو الذي يخرج لبنة علي هذه من القمين...

– متى؟

– أحسنت سيدي الصغير. أنا قد قلت لك ستبقى هنا يومًا لتجف وستبقى أيضًا فترة في المخزن... شهرًا أو شهرَين، اللّه أعلم. فلو افترضنا أنهم يرصفونها في القمين حينما تجف ويشغلون القمين. فإنها تبقى يومًا أو يومَين في القمين المشتعل إن كان في القمين الكبير وستستغرق أربعين يومًا حتى تبرد.

– شهرًا أو شهرَين؟!

– أحسنت، شهرًا أو شهرَين وربما أكثر، ثم يخرجها حسن الجهنمي ذلك. ويقسمها حسب مكانها في القمين إلى أحمر وفاتح وناصع. حسب تقليبها، بهمني وعادي حسب قالبها، مربع كبير، ختايي، نصف دائري، هلالي، منصوري حسب طلب الزبون.

قطع صوت الميرزا حديث السيد رحمان:

– يكفي يا سيد... يكفي... يكفي. السيد فتاح لديه ألف عمل وأنت واقف هنا تثرثر؟؟

لم يكمل السيد رحمان حديثه وذهب إلى المبنى الحديث، مكتب قمين الفردوس، في الطريق قلب غليونه وحرّكه في الهواء. كان الميرزا يجري أمامه ووصل قبله إلى فتاح. نظر فتاح نظرةً حادةً إلى السيد رحمان وقال:

– أين أنت؟ هل يجب أن أبعث لك الشرطة لكي تأتي؟ أرسل الشباب ليرصفوا خمسمائة طابوقة بلقاء ناصعة في عربة السيد تقي. لا تنس أن تضع عشرين طابوقةً زيادةً أكثر من المطلوب.

– عشرون؟ لماذا؟

– إذا كان هناك طابوقة مكسورة، أو مثلومة فيها، أو إذا كسرت واحدة أو اثنتان أثناء النقل، أن لا نكون مدينين لهم.

– أعرف كل هذا. ولكننا دائمًا نضع عشر طابوقات زيادةً لكل خمسمائة طابوقة.

نظر الجد إلى السيد رحمان ومسح وجهه بيده وقال: من الآن فصاعدًا أضف

عشرين طابوقةً على كل خمسمائة.

– إلى المدينة؟!

– يجب أن تذهب إلى زقاق قوام السلطنة وتأخذ معك بناءً وعاملًا. هناك منزل يعود لشخص يدعى قاجار. تذهبون لترميم خزان مائه. لقد خرب محل حنفيته.

– يا سيدي، إني أتجاسر ولكن، ما شأننا به؟

الميرزا يخبرك بذلك. وكأن فتاح تذكر شيئًا، فقال للسيد رحمان:

– أين علي؟

– يا سيدي، كان علي جالسًا جنب اللبن، أخذته وأريته كل أرجاء القمين. تذكرت فترة طفولة ابنك.. فترة الشباب. متى يعود ابنك؟

لم يقل فتاح شيئًا وتأوّه. لم يطق جو الغرفة الخانق ونهض. وقد قام الميرزا الذي كان جالسًا خلف طاولته احترامًا له. كان الميرزا يكتب فاتورة العربة. وضع السيد رحمان غليونه في كيسه وعلّق كيسه بسرواله. كان ينتظر كي ينهي الميرزا عمله ويسأله عن سبب ذهابه للمدينة: أليس كذلك؟ نخسر أفضل من أن ندان... أسرع يجب أن تذهب إلى المدينة بنفس هذه العربة.

خرج فتاح من المبنى الحديث.. نظر حواليه. كان كل شيء عاديًّا في القمين. كان فتاح يعرف أن الجميع سيطلعون على الأمر في الساعات القليلة القادمة ريثما تعود العربة من المدينة. سيسمع السيد رحمان الخبر – حتى في شارع قوام – ويعود بسرعة ويجمع العمال ويخبر الجميع. ثم نظرات العمال المندهشة.. ومن ثم رويدًا رويدًا يصدقون الخبر. معانقة فتاح من قبل البعض من كبار السن من بينهم مثل عبد اللّه الفضولي والسيد رحمان نفسه.

نظر حواليه. أحدهم ينقل القش والحطب إلى القمين على البغل. اثنان أو ثلاثة واقفون قرب المدخنة بلا عمل. عجلة البئر كانت تعمل كالساعة بدقة.

البغال التي كانت تحمل التراب من النفق تشير إلى أن الأصفهانيين منشغلون هناك، كان عمال التلبين يحاولون أن يصبوا القوالب كي تجف. الشمس لمّا تغرب

بعد. كانوا قد رصفوا اللبن بانتظام على الأرض المسطحة. كان علي جالسًا على طابوقة ويخط بعود على الأرض. بين الفينة والأخرى كان ينحني على اللبنة التي بجانبه ويشمها. كان شغوفًا برائحة الياسمين.

- لم أكن أسمع أن الأطفال يتوحمون (يشتهون كما تشتهي المرأة الحبلى) أيضًا. ما سمعته من الناس أن رائحة الطين لا يحبها إلا المرأة الحبلى.

رجع علي لوعيه وقفز من مكانه وسلم على فتاح ثم حمل اللبنة من فوق الأرض بكلتا يدَيه.

- ولكن يا جدي شمها، فهي لا تعطي رائحة الطين. إنما تفوح بعطر الياسمين، أليس كذلك؟

- أعتقد أنك محق يا بني، ألم تشعر بالملل؟

- لا يا جدي، لقد أراني السيد رحمان كل مكان في القمين. ذهب بي إلى النفق والبئر ومكان التلبين والقمين... وكان ينظر إلى السماء ويتكلم مع شخص ما.

نعم عرّفني إلى كافة العمال المعروفين، كأنني كنت في مسرحية...

- جميع العمال المعروفين؟ هل رأيت نعمت راكب الثيران؟

- نعم يا جدي رأيته. كنت أريد أن أعرف ما هي وظيفتي في هذا القمين؟ وعرفت.

- عرفت؟ سلمت يداك. قل لي الآن ما هي وظيفتك؟

- أنا علي فتاح، حفيد الحاج فتاح، أنا الآن في قمين الفردوس.

كاد الحاج فتاح أن يضحك ولكنه لم يضحك. ضرب بيده على ظهر علي.

- بارك اللّه بك يا حفيد الحاج فتاح. أنت حفيدي. ومن الآن فصاعدًا أنت من يقوم بكل شيء في قمين الفردوس. ولكن لا تظن أنك من يقوم بكل شيء هنا. لا أنت ولا أي من أولئك ذوي الألقاب المعروفين.

- لقد فهمت. أنت يا جدّي تشبه خيط المسبحة.

– لا أنا لست مثل خيط المسبحة. خيط المسبحة هو لطف اللّه الذي يظهر كل يوم بشكل ما. يومًا عندما يوحي في أذن عبد اللّه ليقول للأصفهانيين أن يهربوا من النفق، ويومًا يكون في يد حسن الذي لا تحرقه جهنم ويقلب الطابوق على المجاميع. كل يوم يظهر بشكل جديد.. ويومًا في القناعة التي طرحها محمود.

– أتعني عامل البئر الكردي؟

– نعم ذلك العامل الكردي. لو لم يكن هناك شخص طيب. طيب للغاية بين الجماعة لأنفضت تلك الجماعة بسرعة. الذئاب تقتل بعضها البعض. إذن خيط المسبحة هو ذلك الشخص الطيب... هو ذلك العمل الطيّب. تفهم؟

أومأ علي برأسه. كان قد فرح لأنه فهم شيئًا!

مسك يد جده وقال:

– أنت مشهور أكثر من الجميع.

ثم صمت برهة وسأل بتعجب:

– ولكن كيف سمعت كلمة القانع يا جدي؟

الجد الذي بدى وكأنه نسي موت ولده كان يستمتع أيّما استمتاع بتبادل أطراف الحديث مع حفيده. ضحك وقال:

– لم تكن أذنا عبد اللّه حادتَين فحسب... سكت لحظة ثم غير الموضوع وقال: الآن جاء دورك لكي تركب الحصان. سآمرهم أن يسرجوا لك الحصان ويأتوا به.

– طيّب؟ حرك علي رأسه رضًى وتبسّم.

– جيّد، سلمت يداك، واضح أنه جيّد... يخيفون ابن الناس ويخربون حنفية خزان مائهم، وغدًا بدل أن يُضربوا بالعصي يسرجون لهم الحصان ليركبوا. واضح أن الأمر جيّد.

ضحك علي من الصميم وقال وهو يضحك:

– أنا آسف. رغم أني لست المقصر. ولكني لن أقول أني لم أكن المقصر.

– الصداقة لا تعرف ابن الحفرة وغير ابن الحفرة. ولا تعرف أيضًا المقصر أو غير المقصر.

انحنى الجد هذه المرة وقبّل وجنة علي. رتب حاجبَي علي المتشابكَين وقال:

– أحسنت يا فتى عائلة فتاح وعشيرته.

ركض علي نحو نعمت راكب الثيران ليذهب معه إلى الإسطبل. كان الحاج فتاح ينظر إليه من الوراء.

الآمر والناهي في قمين الفردوس هو الولد اليتيم الذي فقد أباه، لا يوجد فاصل بين الفرح والحزن. تسلل الحزن بسرعة إلى نفس الحاج فتاح. لم يكن يعرف السبب.

ولكنه كان يرغب أن يهدم القمين كلّه. أن يساوي المداخن بالأرض ويردم سقف الأنفاق. ربما كان يريد أن ينتقم لابنه من القمين. كان الغضب قد ملأ وجوده. انحنى ورفع اللبنة التي كانت أمامه. وكان يهم أن يضربها بالأرض فرأى الكتابة التي فوقها، كانت كلمة علي.

– يا علي أنت المعين

قبّل اللبنة وأعادها إلى الأرض بهدوء ولكن ليس إلى مكانها بجانب اللبنة الموجودة جنبها وإنما أبعد بقليل (راجع: فصله الحادي عشر).

***

لم يكن قد حان وقت الظهر بعد، لأن العمال ما زالوا منشغلين بالعمل ولم يتوقفوا لتناول طعام الغداء. لم يكن قد حان وقت الظهر عندما أتى نعمت مصطحبًا الفرس. كان نعمت ما زال يحمل الفِرْجَون[١] ذا الأسنان الحديدية بيده، وكان يفرجن جلد الفرس وهو يمشي. قال علي في نفسه: إذن فإن الفرس تحرك رأسها من أجل الفرجون الحديدي.

وضع نعمت اللجام بيد علي وقال:

---

(١) آلة من حديد لها أسنان تُنظّف بها الدواب. [المحرر]

- تفضل يا سيدي الصغير. منذ أن ذهب والدك إلى باكو لم يركبها أحد، وذلك يعني أن الحاج فتاح يعزك كثيرًا، هيا يا سيدي خذ اللجام.

- أدخل علي قدمه في الركاب بصعوبة ولكن في الاتجاه المعاكس وحينما أراد أن يجلس انتبه أنه أخطأ الاتجاه. ضحك نعمت وأخرج قدم علي من الركاب.

- كنت أتصور أنك لا تعرف... ولكن والدك كان فارسًا جيدًا... متى يعود؟

حرّك علي رأسه للأعلى، رفعه نعمت بسهولة وأجلسه على السرج. أدخل قدمَيه في الركاب وأعطاه سلسلةً ناعمةً وقال:

- كان والدك يضرب الفرس بهذه السلسلة. هي أفضل من السوط الجلدي.

أمسك علي اللجام بيد وعروة السرج بالأخرى وانطلق!

أخذ علي السلسلة. ضرب بمهمازه بهدوء على خاصرتَي الفرس وقال: هيا، ولكن الفرس لم تتحرك من مكانها. أخذ نعمت اللجام من علي وضرب على كاهل الفرس.

عرفت الفرس جيدًا أن راكبها ليس فارسًا.

تحركت الفرس بهدوء، برخاوة وراحة. كانت تعدو ويُسمع صوت سنابكها. حينما ابتعدت عدة أقدام، رمى نعمت صخرةً نحوها، لكنها كانت لا تزال تمشي بهدوء. كان علي يمسح على شعر رقبتها بلطف. كان قد حان وقت الظهر وكان العمال قد كفوا أيديهم عن العمل مع صوت الأذان واتجهوا نحو غرفة الاستراحة. شاهدوا نعمت وهو واقف يصرخ كي تعدو الفرس أكثر. ركض عدد من الأطفال الذين يسحقون الطين وراء الفرس وحاولوا أن يفزّزوها لتنفر. قال عبد اللّه الفضولي للأصفهانيين الذين كانوا معه:

- هل تعلمون لماذا لا تمشي الفرس بسرعة؟ لأنه لا يضربها. يجب أن يضرب الفارس فرسه بحيث يصل صوت صفير السلسلة إلى هنا...

أما محمود، عامل البئر الكردي، وحينما كان يفرك يدَيه ذواتا الثفنات ويخرج حسكة خشب دولاب البئر من إحداهما فقد قال لسائر الأفراد:

– إنه لا يضرب الفرس.. وهذه هي الرحمة.

أومأ عبد اللّه الفضولي برأسه وقال:

– الرحمة... صدقت...

وأوضح نعمت راكب الثيران للملبّنين الترك قائلًا: نعم، الرحمة، ابن السيد قلبه رحيم جدًا.

وأخيرًا استطاع الأطفال الذين يسحقون الطين أن ينفروا الفرس.

وجرت الفرس بضعة أقدام. ولكنها ارتخت بعد قليل في عدوها. رأى علي عدة أشخاص يحملون قدور طعامهم من فوق القمين المشتعل. كان يريد أن يرى حسن الجهنمي من بينهم ولكن لم يستطع. لم يذهب باتجاههم. أدار اللجام نحو العمال. والآن لم يعد يرى المداخن والقمائن وفي المقابل كان يرى العمال وقد تجمعوا حول المبنى الحديث للمكتب وبدل أن يذهبوا إلى دار الاستراحة كانوا يستمعون من بعيد بفضول صهيل الفرس الذي كان يخفت. التصق علي بعروة السرج رغم أن الفرس كانت تخبب بخطوات موزونة. ولكنه كان خائفًا قليلًا وغارقًا في الفكر.

كان يفكر بانسجام مع وقع اختباب الفرس.

بي، تي، كو/ بي، تي، كو/ ربما حصل/ شيء/ ما/ لذلك أتى بي جدي إلى هنا أصلًا/ الجد ماذا حصل؟/ بين هؤلاء/ ربما في المكتب/ / بي، تي، كو/ بي، تي، كو/ لماذا أتى بي إلى هنا ربما حصل شيء ما/ لذلك فجدي حزين هكذا/ الفرس كانت تريد أن تقفز من على ساقية صغيرة/ بي، تي، كو/ بي، تي، كو/ هل كان أبي يعطي فرسه هذه لأحد/ أم لا؟/ بي تي كو/ بي تي كو/ ربما حصل شيء لأبي. نفد صبر الجد الذي كان يراقبه من خلال شباك المكتب وخرج. قطع صوته سلسلة أفكار علي:

– تعال إلى هنا يا علي...

ذهب علي نحو المكتب

سرت همهمة بين العمال..

– يريد السيد أن يقول له أيّ ركوب خيل هذا؟ إنه يتنافى من كونك حفيدي.

– ركوب الخيل هذا كحث البغال على السير! إنه اختباب.

– عندما تتفوه بهيًا لهذه الفرس، فإنها تعدو كالريح، عندما تضربها بالسوط...

أسكتهم صوت محمود:

– الرحمة.

أخذ الجد لجام الفرس من يد علي، ولاطف شعر رقبتها بيده وقال لعلي:

– أنت تؤذي الحيوان أكثر بهذه الطريقة، يجب أن تجري به...

جلب صوت العربة انتباه الجد... كان السيد رحمان والميرزا قد عادا قبل أن يصلا المدينة. كانا قد سمعا الخبر من إسكندر الذي كان يأتي إلى القمين... نظر الحاج فتاح، فشاهد السيد رحمان، كان يتكلم من بعيد بصوت عال. لم يستطع الجد أن يتحمل. أراد أن يركض ويمنعه ولكن لم يستطع. كان يود لو يبعد عليًا. ولكنه لن ينجح.

اتجه علي نحو عربة السيد رحمان دون إرادة. لقد امتزج حب الاطلاع الطفولي لديه مع تردّده.

لم يطق فتاح صبرًا. كان ممسكًا بلجام الفرس. لم يكن يعرف ما عساه أن يفعل. وبقفزة واحدة غير منتظرة من شخص بعمره، قفز فوق ظهر الفرس. وبضربة قوية بالمدوسة الحديدية ضرب على جنبَيها فظنت أن ابن السيد عاد من باكو وقد لبس حذائه ذا المهماز. قال (هيا) وهز اللجام وضرب بالسلسلة على كاهلها بحيث سمع عبد اللّه الفضولي من بين العمال صفير صوتها. لم يكن يعرف أيستمع إلى نواح وضجيج السيد رحمان وإسكندر؟ أو ينظر إلى انطلاقة الحاج فتاح؟

كان علي مبهوتًا. وقد تبخر كل الغموض لديه بعد سماعه أول جملة من السيد رحمان. كان وكأنه يعرف هذه الواقعة. قفز السيد رحمان على الأرض واحتضن عليًا. لكن العمال ناحوا بهدوء أولًا ثم بصوت عال دون خجل وكانت دموعهم تنهمل كالمطر على أرض القمين. كان الأطفال الذين يمردون الطين قد ظلوا مذهولين ينظرون إلى بعضهم البعض. جلس نعمت على الأرض. كان الميرزا

وإسكندر يتحدثان مع بعضهما قرب البوابة. الكل كان يتحدث عن (السيد) وكم هو يكتم أحزانه.

كان نعمت راكب الثيران يقول: إن لم يصرخ السيد، سوف تحتسر الغصه في حلقه ولا سمح اللّه سيموت.

- ماذا تحمّل السيد من غصة؟

- إنها مصيبة.

كان إسكندر قد أنهى بكاءه. وكان يتكلم مع العمال كأصحاب العزاء بصلابة.

- قلت للميرزا أيضًا سيعطل القمين من يوم غد وستأتون جميعكم إلى المدينة. إلى بيت السيد فتاح للمساعدة. سوف تأتي جميع المواكب في شهر محرم للتسلية. هناك أعمال كثيرة.

قال عمال الأنفاق الأصفهانيون بهدوء:

- يجب أن ننهي عمل النفق غدًا.

- حسنا، ليبقى عبد اللّه والأصفهانيون. لديكم عمل حتى الظهر، لا أكثر. أليس كذلك؟ تعالوا بعد الظهر.

كان السيد رحمان ممسكًا برأس علي ويبكي بلا انقطاع. كان يصرخ بصوت مرتفع دون أن يكترث بالآخرين:

- سيدي الصغير أعرف أن الحاج فتاح أكثرنا هيبةً وسمعةً وشهرةً، إن الذي يكتم مصيبة الابن عن الحفيد...

نظر علي إلى فتاح... فصوّبت كافة النظرات نحو السهل.. كان فتاح منطلقًا كالريح في منطقة تنأى عن كافة المداخن. أصبح كحبة الدخن، لا يرى من بعيد. ولا يمكن مشاهدة شيء سوى الغبار المثار من حوافر الفرس في السهل.

قال عبد اللّه الفضولي:

- هل تسمعون صوت صفير السلسلة؟

كان فتاح منطلقًا كسرعة الريح. يضرب بالسلسلة على كاهل الفرس وقد دبّ الألم في كعب رجله لضربه إياها بالمهماز. بعثرت الرياح شعر رقبة الفرس وقد بلّل العرق جلدها وجسد فتاح. طيّرت الرياح قبعة فتاح من فوق رأسه ولكنه لم يكترث بذلك. كان يجري بسرعة بحيث إنه لم يفكر بأي شيء، بل بعلي الذي عرف كل شيء الآن. بالجنازة التي ستصل غدًا من قزوين. بقوالب الثلج.

«أوضح لحضرتكم أن الجنازة الآن في قزوين. قرب مقر القراق. في الحقيقة إنه لا أحد يعرف شيئًا. عندما سمع الضابط بالخبر اليوم صباحًا أمر بأن توضع حولها قوالب الثلج وأن تسلم لأحد أصحاب مواقف السيارات لكي يأتي بها إلى هنا...».

كان لا يرغب بالعودة، كان يودّ أن يذهب إلى نهاية السهل إلى ما بعد جبال كهريزك إلى نهر «بيبي سلطان». إلى نهاية العالم.

***

كان الجميع يقفون على أقدامهم، ساعةً وربما ساعتَين. وأخيرًا عادت الفرس وهي تعرج في مشيها وكان فتاح ملقًى على السرج كالجنازة. كانت قدماه معلقتَين بدواستَي الفرس. كان قد وقع برأسه على رقبة الفرس وكانت يداه متدليتَين من طرفَي شعر رقبتها الأبيض وكان يترنح، لكن الفرس لم تلقه على الأرض. لقد احمر الجلد الأبيض لكاهل الفرس بسبب ضربات السلسلة. عندما عادت الفرس شاهد الجميع أن الدم كان ينزف من منخريها وكان لسانها قد تدلى من فمها، ويتصاعد البخار من فمها أيضًا. رغم أن الجو لم يكن باردًا وكان الحيوان ينتظر. ركض العمال واحتضن نعمت السيد فتاح. خرج صوت ضعيف من حنجرة الرجل العجوز:

- اتركوني... دعوني أذهب.

عندما وضع نعمت السيد فتاح على الأرض، نفد صبر الفرس وشرعت تصهل. لم يكن صهيلًا إنما صوت أشبه بالأنين. أنين إنسان ينشرون أعضائه بمنشار مكلول.

جثت الفرس بركبتَيها الأماميتَين على الأرض وأرادت أن تقاوم لكنها لم تستطع. ارتجفت قليلًا ثم سقطت على الأرض ومسحت مخطمها بالتراب ثانيةً. أرادت أن تصهل لكنها لم تتمكن ولم تستطع أن تنهض ثانيةً من على الأرض.

رباعيته

كلما كان درياني يسأل بلهجته التركية: «متى سيعود والدك من روسيا؟»، أجبته: «عندما يزهر الخيزران». وأتى فصل أزهار الخيزران أخيرًا ولم يأتِ أبي. تفتحت أزهار القصب وصُنع منه الناي الذي يشكو من الغربة والوحدة والفراق. ذلك الناي الذي جعل النساء والرجال يئنّون، لقد أزهر الخيزران. عندما يزهر الخيزران يتغيّر صوته ويصبح أكثر حزنًا ونحابة. «أهلًا يا علي» لقد أزهر الخيزران ولم يأتِ أبوك!

كنت أسرح في عالم خاص، كنت أمني نفسي بأن يأتي والدي من باكو وتنصب له نشرات الزينة في بداية زقاق مسجد قندي ويقول الجميع: هلا رأيت يا علي؟ فقد عاد أبوك أخيرًا. ويخرش درياني بوجنته الحمراء، بلحيته غير المحلوقة وجهي ويقول لي: يا شيطان، ويقول بلهجة تركية: قل لأبيك عندما يبيع البضائع للتجار من أسرة أمين الضرب، ليتذكر الجيران.

كنت فرحًا بأن يأتي أبي وينصبوا له أقواس الزينة. لا تظنن أنهم لم ينصبوا له. نعم نصبوا له أقواس زينة أكبر مما كنت أتخيلها. لا بأوراق الشمشاد المقطوفة من بستاننا في محلة قلهك، بل بأطوال القماش السوداء التي اشتُريت من السيد الميرزا حسين البزاز، لا تظنن أنهم لم يضموني إلى صدورهم، بلى ضموني إلى صدورهم أكثر، ولكن هذه المرة لا بابتسامة بل بعيون باكية. لا تظنن أنه لم يكلّمني أحد، إنما كلموني ولكن لم يباركني أحد. لم يتمنَّ أَحد أن يكون مثلي. ولا ينبغي لأم كريم أن تبخّر الحرمل لدفع حسد الحسّاد.

عند العودة جلست في الكرسي الأمامي للسيارة. وضع العمال جدي في

الكرسي الخلفي. لم يتفوه السائق بكلمة طوال الطريق. قطع الطريق بسرعة. دخلنا شارع خاني آباد عند الغروب، حيث وقت إشعال الكسبة مصابيح دكاكينهم ليحصلوا على رزقهم.

من المألوف أن يغلق صنّاع الصفيح والمداخن محالهم في مثل هذا الوقت فحسب، ولكن القصاب والكبابي كانا قد أغلقا محالهم أيضًا. وكأنهم نثروا الشارع بتراب الأموات. محل البزاز هو الوحيد الذي لم يكن مقفلًا وقد علمت فيما بعد أنه كان يهيئ قطع القماش الأسود لأقواس العزاء. درياني كان قد فتح محله أيضًا. عندما وصلنا زقاق مسجد قندي دهشت ودهش السائق كذلك. كان الوضع كليلة الثالث عشر من محرم حيث يموج الزقاق بجموع المعزين. كل شخص منشغل بعمل. كان شخص يهيئ الشربت، الثاني يغطي الجدران بالأقمشة السوداء، وواحد يتشاجر مع درياني كي يغلق محله ذا البوابتَين، وكان درياني يقول إنه لا يجوز تعطيل احتياجات الناس.

الآخر كان يكنس الزقاق ويرش الأرض بالماء. كانوا قد نصبوا أمام موكب محبي الإمام الحسين الشمعدانات الكبيرة.

وقد نصبوا من بداية الشارع إلى نهايته قناديل محمولةً على قواعد حديدية.

ماذا كنت تقول؟ ها؟ جنازة الأب، كل هذا، نتيجة لآهات درياني، حيث ذكرت هذا الأمر سابقًا (راجع ثنائيته). في عالم الطفولة ذاك، كنت أنتظر حادثةً كهذه، ولكن لم يصدق أحد ما أقول، ألم أقل لمريم؟ ألم أقل للجميع في المنزل؟ المنزل؟ قد تحول إلى دار مأتم. وقد بُحّ صوت أمي. لم تستطع أن تتكلم، كانت أم كريم تسقيها باستمرار محلبي اللوز وشربت حبّ السفرجل.

- يا سيدة، أنت صاحبة المأتم، يجب أن تكوني متماسكةً أمام الضيوف المعزين. غدًا يجب أن تخدمي الضيوف. أقسم أن النواح والعويل بهذا الشكل مُضِر لك، أقسم بالقرآن أن الله يغضب لذلك.

عندما رأتني أمي احتضنتني بقوة، لم تستطع أن تقول أي شيء. كانت تخرج من حنجرتها أصواتًا غير مفهومة. كانت تحتضنني وتشمني وتقبلني. لم يأت الجد إلى غرفة الزاوية أبدًا. وكأنه كان يخجل من أمي.

نكّس رأسه ودخل غرفة مريم. أخذت مريم ريشة الرسم وصبغت لوحتها القماشية باللون الأسود، الأسود الحالك. كانت تبدو عصبيةً. لم أتحمل. اختبأت في المخزن وأدخلت رأسي بين الأغطية والدواشك. ونمت بالطبع. كنت أود لو أني أكتب بأني رأيت أبي في الرؤيا. لو كنت أنت مكاني لكتبت. ولكني لست أنت. أنا هو، لماذا أكذب؟ لم أحلم أبدًا. كنت متعبًا بحيث أني استغرقت بسرعة في النوم ولم أفق إلا صباحًا. حينما استيقظت صباحًا من منامي كان لحافي مبتلًا من الدموع. عندها فقط عرفت أنه يجب أن لا أنتظر أبي بعد اليوم.

عندما نهضت صباحًا أتت إلي الخادمة أم كريم بثياب سوداء. وألبستني إياها. ثيابي كانت مهترئةً من أعلى الكتف وكأنها كانت مائلةً على جسمي. كانت نفس ثياب مأتم عزاء الإمام الحسين إلا أنها قد قصرت قليلًا. عندما خرجت من المخزن كانت هناك همهمة في غرفة الزاوية. كانوا قد وضعوا المخدات والأوسدة في أطراف الغرفة. كان كل الأقرباء مجتمعين هناك، والخالات وبنات الخالات، وكان أبي يرحمه اللّه الابن الوحيد، لذلك لم يكن عندي أعمام وعمات. كان هناك أناس لم أعرفهم من قبل. أناس من أولئك الذين لم أكن آراهم سوى مرة واحدة في السنة. كانوا يزوروننا في الأعياد وعندما يذهب الأهل لزيارتهم لم يصطحبوني معهم، وكان هناك امرأة أو امرأتان من الأقرباء ممن رفعن حجابهن، جئن محجبات احترامًا لأمي التي كانت من أهل الحجاب وتكريمًا لجدي. وقد ربطن ربطاتهن على رؤوسهن.

كنت أنتظر أن أرى مدى بشاعة ثيابي السوداء من خلال نظراتهن. ولكن لم ينظر إليّ أحد. كنّ منشغلات بالحديث.

نكّست رأسي وخرجت من الغرفة. كانت الغرفة الخماسية الأبواء مملوءةً بالناس. وكان هناك حشد من الرجال الأقرباء توزعوا على الأطراف، الكبار منهم كانوا قد استرخوا على الموبليات والمسابح بأيديهم تدار، كان إسكندر جالسًا وأمامه كيس من التبغ. كان يلف التبغ والسجائر للشيوخ وكبار السن من الضيوف ويضعها في نفّاضات فضية.

كان جدي يقف وحيدًا إلى جانب الباب. عندما رآني تقدم واحتضنني وقال: يجب أن تكون متماسكًا اليوم. أعين الضيوف متجهة نحونا أنا وأنت. ليس هناك

حرج على أمك ومريم. أما نحن فيجب أن نكون متماسكَين.

نادى إسكندر. وبعد عدة دقائق جاء إسكندر إلى جوار الحوض يحمل صينية فيها جبنة غازي وقدح من الشاي وخبز ودعاني للأكل، ثم وضع الصينية على الأرض أمامي. كنت أرى كريمًا من بعيد وهو يخفي نفسه في منعطف الممر. كان يخاف أن يتقدم. وأخيرًا تقدّم ووضع يدَيه النحيفتَين على رقبتي ولم يستطع أن يتكلم. في مثل هذه الظروف كان يضعف. أشار أخيرًا إلى الصينية وقال: يا عزيزي علي كل طعامك، ستشعر بالخوار. لديك عمل كثير اليوم... يجب أن تبقى واقفًا طوال النهار.

لا أذكر إن كنت تناولت الفطور أم لا. ولكن بعد ساعة أو ساعتَين جاء الميرزا إلى بيتنا راكضًا في تلك الزحمة. دعا جدي ليذهب معه إلى خارج الغرفة ذات المصاريع الخمسة. وتمتم بشيء في أذنه... وبدا وكأن الجد قد غضب فقال بصوت حاسم:

- الضابط يهذي ويسخر بأجداده. يجب أن يشيع من أمام مسجد قندي.

وشيعت الجنازة من أمام مسجد قندي. سيارتنا وعربتنا وسيارة الفورد التابعة لزوج خالتي وشاحنة صغيرة كانت قد أتت بالجنازة. وكانوا قد استأجروا عربةً سوداء فاخرةً خاصةً لنقل الجنائز، يقال إنها عربة البلاط وإن جنازة ناصر الدين شاه نقلت بها. كانت تلك العربة السوداء تتقدم الحشود.

كان دورياني - ربما طمعًا برؤية العربة السوداء - قد أقفل دكانه وسار بضع خطوات خلف الجنازة. كان الشرطي عزتي قد أغلق شارع خاني آباد وفتح الطريق أمام حشود المشيعين الكثيرين. لم أكن قد رأيت أناسًا بهذه الكثرة من قبل.

كان موسى القصاب وعدد من شقاوات الحارة يحملون التابوت وكان نعمت راكب الثيران واثنان من العمال يمشون وراء التابوت كي يمكن استبدالهم بالذين يحملون مقدمة التابوت عند الحاجة.

من الأطفال كان كريم ومجتبى بجانبي والبقية مع آبائهم. عرفت فيما بعد أن طلاب صفّي وطالبات صفّ مريم في المدرسة قد عطلوا ذلك اليوم حتى يتمكنوا من المشاركة في التشييع وكان المعاون والمدير من بين المشيعين أيضًا.

كان الدرويش مصطفى يمشي بين المشيعين الذين كان جدّي يتقدّمهم ويقول بكل خطوة يخطوها بصوت منخفض «يا علي مدد». وفي الخطوة التي تليها يقول بصوت مرتفع «لا إله إلا اللّه». عندما مررنا بجانب مخبز الخباز علي محمد، تقدم الدرويش مصطفى وقال شيئًا في أذن جدي ثم قال جدي مسمعًا الجميع..

- بولاية علي.. إن روحه ستتعذب، افتحوا المخبز، الخبز ضروري للناس... عاشت يد الخبّاز... إن شاء اللّه سوف نعوّضه في الأفراح.

كان الشارع مليئًا بالناس، كانت قافلة السيارات والعربات تقف جنب مسجد قندي. كان يأتي أناس من مختلف الشرائح والطبقات يقبلونني ويواسونني، لم أكن أعرف أكثرهم، ويبقى بلل قبلاتهم مطبوعًا على وجنتي فقط. رأيت قاجار أيضًا مع أبيه الأمير. كانا يقفان بجانب شارع مختاري، بدا لي أنهما أرادا أن يقولا شيئًا لجدي. مشيا بضع خطوات مع الجموع ولكن جدي لم يرهما، لذلك عادا مرةً أخرى إلى الخلف. أما أنا فلم أعرهما أي اهتمام وتصرفت وكأني لم أرهما أساسًا.

العميان السبعة عندما وصلوا إلى نهاية الشارع ومن خلال سؤالهم الناس عرفوا أنه سيتم تشييع جنازة ابن الحاج فتاح. قاموا سبعتهم ووقفوا بجانب الطريق. عندما وصلنا إليهم سلموا على جدي وأمسك كل منهم بيد الأمامي ومشوا مع حشود المشيّعين. حاول جدي أن يقنعهم بأن يبقوا جالسين هناك. ومن رأى سبعة عميان يمشون مثلما نمشي. ردّ أولهم:

- في كل خطوة نخطوها نحصل على حسنات أكثر بمئات المرات. تخيل أننا جلسنا وقمنا. فالطابور هو نفس الطابور.

ولكن جدي لم يهدأ روعه. أوصى الميرزا أن يعدّ خطواتهم ويعطي لكل واحد منهم عن كل خطوة مبلغًا من المال.

قال الدرويش مصطفى:

- أكيد أن الضرير يرى أفضل من البصير، لماذا؟ لأن عينَيه منشغلتان بعملهما، لا بعمل الآخرين، يا علي مدد...

في نهاية شارع خاني آباد شكر جدي الناس وقال: بما أن الطريق إلى مقبرة

عشيرة فتاح في حديقة طوطي بمدينة الري طويل فإن التشييع يكفي إلى هنا. سنكمل نحن الطريق بالعربة أو بنفس شاحنة صاحب موقف السيارات القزويني.

أوصل الدرويش مصطفى وموسى القصاب وإسماعيل الباججي ونعمت وباقي عمال القمين وإسكندر وآخرون كثيرون الجنازة إلى المقبرة فوق أكتافهم وأيديهم ولكن بعض الناس عادوا احترامًا لكلام جدي. أعطى جدي كيسًا من النقود للميرزا كي يعطي لكل من العميان السبعة حقه بإزاء خمسمائة وإحدى وثلاثين خطوةً خطوها.

ألم تلتفت لنفسك؟ ماذا تفعل؟ لماذا تحسب هذه الأعداد؟ تضرب خمسمائة وإحدى وثلاثين بالعدد سبعة؟ أو أنك تقول لا ينبغي أن يعطي العميان هذه النقود. فإنك تقول هذه النقود سبعة أضعاف ما يكسبونه كل يوم. لماذا كل هذا الحساب؟

واللّه إن عمل الكتابة هذا عمل مقرف. لنفترض أن هناك رزقًا أكثر بقليل للعميان السبعة هل سيقطع ذلك عنك رزقك؟ ماذا كنت أقول؟

جنب حديقة طوطي في مدينة ري أدخلوا الجثة إلى المغسل. دخل جدي وآخرون مع الجنازة. ولكن موسى القصاب والسيد رحمان وآخرون من الأقرباء بقوا إلى جانبي ومنعوني من الدخول. كنت أود أن أرى جثمان أبي للمرة الأخيرة، خاصةً وأن موت أبي كان غامضًا ولكنهم لم يسمحوا لي بدخول المغسل. كان السيد رحمان يتصور إنني ما زلت طفلًا وحاول أن يخدعني بكلمتَين.

– سيدي الصغير هل ترى كل هذا العدد من الناس الذين أتوا لتشييع جنازة والدك، لم نر تشييعًا كهذا من قبل. سوف يصبح هذا التشييع مشهورًا.

وضع نعمت راكب الثيران يده الثقيلة على كتفي وقال ظانًا أنه يواسيني:

– من الآن فصاعدًا الفرس لك وسأفرجنها لك كل يوم.

ركع موسى القصاب أمامي وطوق وجهي بكفَّيه وقال:

– لا تهتم يا علي العزيز. أنا وجميع قصابي طهران في خدمتك. سنهتم بك. لوالدك حق في رقابنا. كان شهمًا ووفيًا ومتواضعًا ومخلصًا...

قطع السيد رحمان حديث موسى القصاب قائلًا:

- أحسنت.. لقد كان طيّبًا للغاية. ولن نتركك وحدك؛ أفهمت؟

حركت رأسي بعلامة الإيجاب. ولكني لم أفهم ما كانوا يقولون.

بعد أن غسّلوا الجنازة، خرج كريم أولًا، أوصل نفسه إلي بسرعة وقال متمتمًا في أذني:

- يا علي العزيز.. جنازة والدك سليمة... سليمة تمامًا.

حركت رأسي... وهل كان من المفترض أن لا تكونِ كذلك؟

- رحمه اللّه، بما أنه كان يمارس الرياضة فإن جسمه ضخم وصدره مليء بالشعر كغابة.

رمقته بنظرة فهم منها أنه تفوه بكلمات سخيفة. بلع بقية حديثه وتلعثم..

- لقد أردت أن أقول إن جنازة أبيك لم تكن سليمة تمامًا. كان أحد أصابعه مبتورًا.

- لم يكن موجودًا؟

- لا، كانوا قد قطعوه. الأصبع الكبير بجانب الإبهام...

- السبابة؟

- نعم. كانوا قد قطعوا سبابته اليمنى.

قال مجتبى الذي كان قد خرج لتوه من المغسل:

- ليس هناك ما يقال. ولكن كريمًا على حق. أبوك قتلته الحكومة.

لم أملك جوابًا.

فيما بعد في إحدى الليالي وبعد أن ارتشف موسى القصاب خمرته، أسرّ لنديمه كريم وهو باكٍ معلومات لم يكن يعرفها بخصوص والد علي، وذلك في بستان قلهك:

– ليتني كنت حاضرًا يومها... أولاد العاهرة! كانوا يريدون تعذيبه. ضربوه بالساطور كي يتألم بشدة. كانوا قد قالوا له بأنهم سوف يقطعونه جزءًا جزءًا. وقد بدؤوا من الأصابع. أقسم بروحك يا كريم إنها مؤلمة. كم تألم! يقطعون الإصبع. إني قصاب وأعرف ذلك. لقد قطعوه بالساطور. فقد وضعوا الإصبع على خشبة لأنه مقطوع بشكل جيد. الحمد اللّه أن كان الساطور حادًّا مصقولًا، وإلا لكانت الحالة أسوأ بكثير. قالوا له إذا لم تعطنا الشاحنات فسوف نعذبك. ولكي يجعلوه يرضخ لهم بدؤوا من الإصبع. ولكن المرحوم لم يرضخ لهم فسمموه بالزرنيخ وهو نوع من أنواع السموم. يا كريم! هل يشرب علي الخمر؟ لو كان يشرب، لكان نديمًا مثاليًا، ولكنه لا يشرب الخمر، ولم يكن أبوه يشرب الخمر أيضًا. رحمه اللّه.

أتتذكر يا كريم تشييع جنازة والد علي، أنت كنت ما تزال طفلًا ولكن كنا موجودين. كانوا قد قطعوا إصبعه... يا ليتني كنت حاضرًا لأنقذه من أولاد الزنى... كانوا يريدون أن يعذّبوه ويقطّعوه بالساطور. هل قلت لك هذا من قبل؟

متى؟ سحقًا.. لقد بدأت أكرر الكلام. يسيطر علي دوار داخل رأسي.

ولكن في يوم ما في المدرسة كنا نجلس على الرحلة الأخيرة، قال لي مجتبى:

– يا علي والدك قتلته الحكومة. لن أقول شيئًا جديدًا إذا قلت ذلك، فالأمر واضح، إنها فعلة الحكومة، رحمه اللّه. كان ذلك واضحًا من إصبعه، أتمنى أن ينتقم له أحد ما.

كان عزتي موجودًا في كل أيام الفاتحة، يسبق الجميع، ويغادر آخرهم وكأنه مكلف بمهمة ما. كان يقف أحيانًا عند باب مسجد قندي وقبعته بيده يرشد الضيوف، خاصةً الحكوميين منهم. يرشدهم بكل احترام للداخل. وحينما جاء حضرة الأشرف قوام السلطنة ودخل المسجد طلب عزتي من الحضور أن يصلوا على النبي احتفاءً به وكأنه كان صاحب المأتم. كان يربط شريطًا أسود على ساعده فوق بدلته الزرقاء المثيرة للسخرية. قال لجدي في مراسيم العزاء:

– يريد البعض ممن نعرفهم جيدًا أن ينشروا إشاعةً لا أساس لها من الصحة بأن السيد قد قتلته الحكومة، يعلم اللّه أنها كذب محض.. في الحقيقة لا ينبغي أن أقول هذا، لأنه تقرير سرّي شاهدته في مركز الشرطة أمام الضابط. كان قد كتب

في الحقيقة إن السيد اشترى من أحد اليهود في باكو خاتم برليان. البرليان جوهرة ثمينة. كان اللصوص يريدون أن يسرقوا الجوهرة. وعندما فعلوا فعلتهم بالسيد لم يخرج الخاتم من إصبعه. لذلك وقبل أن تصل قوات القزاق قطع هؤلاء الأشرار إصبعه.

وإلا ماذا سيفعل القزاق بالشاحنات الخمس عشرة. وحتى لو كانوا بحاجة للشاحنات فلماذا يقتلون السيد؟ كانوا سيستعيرونها منه ثم يعيدونها إليه بعد ذلك.

ولكن قاجار كان قد ألّف شيئًا آخر حول هذه الحكاية أو حكايات أخرى. ضربته مرةً بنية القتل. رأيناه أنا وكريم في منتجع دربند، كان قد أشاع أن عمل الحكومة ولله الحمد ليس اعتباطًا، صحيح أن بهلوي ليس من القاجاريين ولكنه يمثل الحكومة. أولاد فتاح هؤلاء رتّبوا أكذوبةً بأن الحكومة قتلت أباهم، ولماذا تقتل الحكومة شخصًا؟

يقولون من أجل الشاحنات الخمس عشرة! لم تكن الشاحنات خمس عشرة وإنما خمس أو ست شاحنات وربما أقل. وفضلًا عن ذلك فإنهم باعوا الشاحنات للدولة بأنفسهم بثمن جيد. ولكن ابن فتاح، أي والد علي هذا، تراجع عن إعطائها فيما بعد واشتكى بأنه قد غبن ونكث عهده، ولكن الحكومة كما تعلم ليست مثلنا، إنها صارمة، وهي ملزمة بإجراء الصفقة.

كان في قزوين آنذاك. اللّه أعلم لماذا؟ حسب ما قال القدماء فإنه لم يكن من أصحاب زواج المتعة وما شابه ذلك من الأمور، المهم أنه كان في قزوين لسبب ما. طلبت الحكومة منه أن يفي بوعده وأن يأتي معهم ليوقع العقد. كان يظن أن بإمكانه مثل أبيه الحاج فتاح اللف والدوران وقضية سكر باكو وكربلاء... سمعت أنت بذلك أليس كذلك؟ تنكل عن الصفقة وأقسم باللّه بأن لا يحضر لتوقيع الوثائق. وأعمال الحكومة، كما تعلم طبعًا، محسوبة ودقيقة. القزاق لا يعنيهم هذا الكلام، ومهما كان فقد ذاقوا زاد الحكومة القاجارية وملحها. دعنا الآن من الزاد والملح. القزاق قالوا إن لم تأتِ معنا فلا إشكال في ذلك، لا شغل لنا معه، إن ما نحتاجه هو البصمة للعقد. فقطعوا إصبعه وأخذوه، ولكن موته ليس له أية علاقة بالحكومة أو بهذه القضية. لقد سقط لسبب آخر، ربما مرض، جلطة، طاعون، سم

حية أو ما شابه.

في عام ١٩٥٤ في مقهى المسيو برنر نقلت رواية قاجار لمهتاب. كنا نجلس نحن الاثنَين على طاولة لثلاثة أفراد. تنفست نفسًا عميقًا بحيث ابتسم الرجل الجالس على الطاولة المجاورة. قالت مهتاب:

- أنت العاقل والبالغ، لماذا تصدق مثل هذه الأكاذيب؟ وقع الأمر وكان مهمًا في حينها، ولكنه الآن قد انتهى وراح لحال سبيله. هل تعرف كم من السنين مرت على هذه القضية؟

لم تكن مهتاب تعرف كيف كان قاجار قد أشاع هذه الحكاية وإلا لما تكلمت هكذا. كان هذا الكلام قد أشيع بحيث أن درياني وبعد قضايا سنة ١٣٢٠ شمسية قال لزبون كان ينوي شراء منزلنا:

- أقسم أن لا علاقة لي بهذا الموضوع، ولكن كل أفراد عائلة الحاج فتاح عنيدون ومغرورون. فالسعر الذي عيّنوه لا يتغيّر. ما زالوا يظنون أن لهم الأبهة والكبرياء السابقَين. لقد عم الجفاف والقحط الآن وقد شمل الجميع. لقد وبختني أمهم عن طريق الخادمة، يا درياني! لماذا لم ترسل لنا سكرًا بيد عاملك؟ لا، لم أرسل لهم. كان عندي سكر، لكني لم أعطهم. إنهم لم يكونوا يعطونني سابقًا وأنا اليوم لا أعطيهم.

ابنتهم تدرس الآن في الخارج، هي التي أهانتني أمام الناس كثيرًا. لقد تأصل الغرور في أفراد هذه العائلة. باع أبوهم الشاحنات. كانت شاحنةً واحدةً أو شاحنتَين واسترجعها علي فيما بعد ومع ذلك ما زالوا غير راضين (راجع سباعيته).

قلت شاحنةً أو شاحنتَين، لا، فهي خمس عشرة شاحنةً، كما يقول هؤلاء، مثل إشاعة الغراب حيث أصبح عدد الغربان عن طريق الإشاعة أربعين غرابًا. بعد عقد الصفقة ترتفع الأسعار ويندم والدهم ولكن بعد فوات الأوان. يقال إنه شعر بالغضب. غضب إلى درجة أنه قطع بالسكينة إصبعه الذي بصم به على العقد. إنه عنيد ولكن موته، لا أعرف ربما أصيب بالقنقرية، أو الحمى الخبيثة أو تسمم أو....

كان جدي يقول:

- إن اللّه لا يعفو عن الكذاب، كان لوالدك طمغة يضعها في سبابته ولم يكن يصم... كان سيد مجتبى يقول شيئًا آخر. فيما بعد عندما عاد من النجف، سكن في سرداب في «شهرري» لم يكن قد جمع حوله أناسًا أو نظّم مجموعةً جهاديةً بعد، كان يقول لي ولكريم:

لا أدري هل أن كريمًا يعلم؟.. ولكن أنت يا علي، أنت ذقت ظلم الحكومة البهلوية. كانت تلك حكومة الأب والآن حكومة الابن. لا تؤاخذني لم يختلف شيء بين هذَين الظالمَين. إسقاط الحاكم الظالم واجب، ليس من أجل دم أبيك فقط وإنما من أجل كل الناس. واجب...

ولكن الدرويش مصطفى اختلى بي في تلك الأيام، بصق في الساقية وجعل صوته جهوريًا وقال:

عندما تنضج التفاحة فإنها تسقط بالتأكيد، إما أن تسقطها الريح أو أن شخصًا يهز هذه الشجرة. والدك شأنه شأن تلك التفاحة. لقد بلغ مرحلةً متقدمةً في السمو والأخلاق ومات. ربما ستسألني وماذا عن إصبعه؟ أقول لك بالطبع عندما تقع التفاحة على الأرض فإنها تصاب بخدوش. أكيد لو بقيت سالمةً لكان ذلك أفضل. لكن المشتري وهو اللّه كان يحب أن يشتريه وهو مخدوش على هذه الحالة.

منذ ذلك اليوم لم آكل التفاح وكنت أصاب بالتقيؤ حينما أرى التفاح، قالت لي مريم:

أنت لا تأكل التفاح لأنك سمعت أن سيدنا آدم طرد من الجنة بعد ما أكل تفاحةً. لا، يا مسكين، أولًا لم تكن تفاحةً، بل كان قمحًا، ثانيًا والآن وقد أخرجونا من الجنة ولا نستطيع أن نفعل شيئًا فمن الحيف أن لا نأكل التفاح. إلا أن الوحيد الذي عرف بذلك هي مهتاب. أي إنني فضحت أمري بعد خمسين عامًا. سنة سبعة وستين. لم أكن آكل التفاح في الخمسين عام هذه. كانت مهتاب في شقتها المشتركة مع مريم. لم أرها خلال هذه السنين بأنها تضع نموذجًا أمامها حين ترسم. لقد كانت قد وضعت تفاحةً حمراء على المنضدة. وقد رسمت على اللوحة القماشية وجهًا خافتًا لامرأة في بريق التفاحة.

قلت:

لم أكن قد رأيتك من قبل تستخدمين نموذجًا في الرسم.

ضحكت وقالت: «حسنًا، ألا يعجبك هذا. إذن سوف أتوقف عن الرسم».

ورفعت التفاحة الحمراء من على الطاولة... مسحتها بربطتها وأعطتني إياها. كنت أريد أن أبتلع التفاحة من ناحية ولم أكن أستطع أن أمسكها من ناحية أخرى. أخرجت مهتاب من الشك وتحدثت لها عن موضوع الدرويش مصطفى، رفعت يدها وأوشكت أن تضربني وقالت بطريقة جميلة:

هل جننت، أنت إنسان عاقل ومن المفروض أن لا تفكر بهذه الطريقة.

ورسمت بفرشاتها خطًا أصغر على وجهي واستمرت قائلةً:

- لقد حدث شيء.

لنفترض أنه كان هامًا. ولكنه انتهى. هل تعلم قبل كم سنة حصل ذلك؟ حينها عرفت لماذا لم يشرب جدي الماء بالثلج أبدًا بعد حادثة أبي.

- فهمت من حديث مهتاب:

عندما كان يرى جدّي الثلج في العصير أو اللبن كان يصاب بحالة من الغثيان وأحيانًا كان يغادر المائدة ويجلس جنب الحوض، ويتمشى في الباحة حتى نرفع الثلج وكانت أمي تقول:

يحتمل أن الجد لا يشرب الماء مع الثلج لأنه يريد أن يشارك أبا عبد اللّه الحسين بعطشه في عاشوراء. ولم تكن أمي غير صائبة في رأيها كثيرًا، فجدي وحتى قبل أن يشرب الماء الفاتر كان يلعن يزيدًا ويسلم على الإمام الحسين لدقيقتَين أو ثلاثة دقائق.

ولكن بعد خمسين عامًا عرفت من كلام مهتاب أن عدم شرب جدي للماء الذي فيه ثلج كان له سبب آخر وهو شاحنة صاحب موقف السيارات القزويني وحديث عزتي الذي كتبته أنت في الفصل السابق (راجع رباعيتي).

في الحقيقة إني لم آت بأي خبر مشؤم لأحد حتى الآن. في الحقيقة أن

الضابط هو المقصر. فقد طلب مني، أن أخبركم أن الجنازة الآن في قزوين. في مقر القزاق. في الحقيقة، إن أحدًا لم يعرف ماذا حصل. عندما سمع الضابط اليوم فجرًا بالخبر أمر أن يضعوا حول الجنازة قوالب ثلج وأن يعطوها لأحد أصحاب مواقف السيارات ليأتي بها إلى هنا. ماذا كنت أقول؟! قضية إصبع أبي المقطوع. وكما يقول عزتي: في الحقيقة، إن الحقيقة شيء آخر. أي من وجهة نظري أن الموضوع شيء آخر. الموضوع يرتبط بمقر القزاق. ولكن ليس بالصورة التي قالها الآخرون لأن لها علاقةً بالفرس أيضًا. لقد شرح جدي قضية الفرس يومًا في الاجتماع الشهري لصنف الخرّافين في قمين الفردوس. كنت في السادسة أو السابعة من عمري آنذاك، قد ذهبت لتويّ للمدرسة ووقفت في زاوية معهم.

كان أبي في باكو وكان السيد رحمان قد أخرج الفرس كي يداويها السيد كني البيطري. لم تكن الفرس قد أكلت شيئًا ليومَين أو ثلاث أيام. كنا قلقين عليها. كسر الطبيب البيطري عشر بيضات وطرح صفارها خارجًا ومزج بياضها في إناء حتى أصبحت له رغوة. ثم أطعم الفرس منه. أكلت الفرس البياض لكن حالها لم يتحسن، حاولت أن تصهل لكنها لم تستطع. لذلك طلب البيطري من السيد رحمان أن يجبر الفرس على العدو وعندما تعبت أتى بها السيد رحمان للبيطري. كانت الفرس تلهث، داعب البيطري مخطم الفرس، فتحت الفرس فمها لتصهل صهيلًا مخنوقًا. أدخل البيطري العجوز يده حتى المعصم في فم الفرس وأخرج باحتياط عظم ضلع خروف من جوفها.

- قلت لكم مائة مرة أخرجوا العلف والقش بأيديكم من الكيس وألقوه في المعلف حتى لا تدخل أي من هذه الزوائد في حلق الفرس. كي لا تجلبونا من منطقة كن..

ثم صب كاسة زيت الخروع في حلق الفرس. شربت الفرس زيت الخروع هزت رأسها إلى اليمين واليسار. يبدو أنها اشمأزت منه. صهلت الفرس معلنةً رضاها. أعطى جدي للبيطري مبلغًا من النقود في الحال يعادل عملة أشرفي واحدة.

في الاجتماع الشهري لنقابة الخرّافين يجتمع الحاضرون حول طاولة إلى جنب المبنى الآجري.

كان الكل مبهوتين، إما من كرم جدي في إعطاء أجرة البيطري أو من مهارة البيطري السيد كني أو من تناسق قوام الفرس. كان جدي يتكلم للآخرين قائلًا:

عملة أشرفي واحدة ليست بالشيء الكثير، لو استوجب الأمر لدفعت مائة أشرفي. هذه الفرس أصيلة. أصيلة جدًا تنتمي لعنصرَين أصيلَين. أم الفرس فرس عربية أصيلة اشتريتها من كربلاء. اشتريتها من هناك عندما كانت مهرةً من شخص بدوي، لم تكن تستطيع أن تمشي. أي عندما كانت تقف كانت قوائمها ترتجف. تخيل كيف أتيت بها من كربلاء من السوق الذي يقع خلف بين الحرمَين إلى هنا، وقد اشتريت من السوق بغلًا ووضعت المهر على ظهر البغل وربطت قوائمها بحبل على شكل (×) من تحت بطن البغل وأتيت بها هكذا من كربلاء إلى طهران. كانت معاناةً حقيقيةً ولكن بعد أن كبرت الفرس عرفت أنها كانت تستحق كل ذلك العناء. عربية أصيلة ذات قوائم طويلة، صدر بارز ورأس أملس ورقبة طويلة وشعر رقبة أبيض متطاير.

كبرت الفرس وحان موعد لقاحها ولكن كيف أجد الحصان الكفوء لها؟ أتى اثنان أو ثلاثة من مسيّسي الخيول إلى القمين ومعهم خيولهم لتلقيح الفرس ولكني لم أوافق. كان اقتراحهم جيدًا. البطن الأول لي والبطن الثاني في السنة التي تليها لهم والحصان نفسه سيكون لي فيما بعد أيضًا. أي كنت سأحصل على حصان ومهر ولكني لم أقبل. كنت أريد أن تتلاقح مع حصان أصيل. جاء أحد أصحاب المواشي من مدينة آشتيان وأتى بحصان عربي أصيل ولكني لم أوافق أيضًا. هل سمعت قضية المأمون والأمين، ابني هارون الرشيد؟ كان الميرزا إبراهيم يقول في مسجد السوق: كانت أم المأمون إيرانيةً وأبوه عربيًا. أي كان هجينًا لذلك فقد كان من جهة الذكاء واللياقة والتحايل أكثر من الأمين مائة مرة.

الحصان العربي الأصيل كان من نفس عنصر الفرس، لذلك لم أوافق كنت أريد حصانًا من عنصر آخر. مرت سنة أو سنتان من زمان لقاحها ولم أجد الحصان المناسب. عندما كان يحل الربيع كانت هذه الفرس العربية تحك نفسها بالجدار وتصهل. لم أكن أخرجها في الربيع عندما كان يحين وقت لقاحها كي لا يلقحها حصان. كان الإسطبل في الربيع يمتلئ بالرائحة. رائحة أنوثة الفرس. مضت السنون حتى حان عام ألف وثلاثمائة وست أو سبع. اليوم الرابع من شهر أرديبهشت يوم

تتويج ملككم. إلى هنا كانت قصة أم الفرس ومن الآن تبدأ قصة والدها وهي قصة معبّرة أكثر. كان أبوها حصان القزاق وكان القزاق حينها متواجدين في طهران ولم يرسلوهم بعد للمحافظات. وبما أن ملككم نفسه كان قزاقًا فإن القزاق كانوا يقومون باستعراضات أمامه في سنة تتويجه. كان ضباطهم خيالةً والبقية مشاةً.

كان لأحد الضباط المرموقين وذوي الرتب العالية (أظن أنه كان قائدًا) حصان، أي والد هذه الفرس. وكان حينها فصل اللقاح وكانت فرس تسير أمامه، ألقى الحصان فارسه بكل زينته وأبهته أرضًا وقفز من أمام ملككم القزاق. حاول بعضهم اللحاق به ولكن لم يلحقوا حتى بغباره.

سمعنا بذلك فيما بعد، يعدو الحصان ويدخل طريق حسين آباد ويدخل ها هنا حيث تجلسون، عندما دخل من البوابة غلق والد علي باب الإسطبل.

كان الحصان قد شم رائحة الفرس، يقال إنه يشم الرائحة من بعد فرسخَين. كان الحصان قد شم الرائحة فدخل القمين وذهب مباشرةً إلى الإسطبل. فتح والد علي الباب وبلمح البصر بدأ الاثنان باللقاح.

وجاء السيد رحمان هذا وأخبرني «أنت جالس هنا وابنك جعل الفرس العربية تتلقح». سألت رحمان ماذا تعني تتلقح (سيدي الصغير عندما تكبر تعرف كل شيء). كبرت ولم أفهم. ماذا كنت أقول «تتلقح». وكان جدي يتحدث. ذهبت فرأيت حصان القزاق يلقحها. مع أني كنت أريد في البداية أن أوبخ ابني ولكني قبّلت جبهته. ما أروع جسده! أتحدث عن الحصان. خيول القزاق كانت مجرية العنصر ذات قوام رائع وكانت فرسي عربيةً، فكانا من عنصرَين بعيدَين عن بعضهما، نفس حكاية المأمون وهارون الرشيد و زوجته الإيرانية، كانا يلهثان. كنت أظن أن سقف الإسطبل سيقع. تمت العملية على أحسن وجه، أخرجنا الحصان، كان قد أصبح مطيعًا وهادئًا يمشي باسترخاء.

فتحنا الباب وأخرجناه بهدوء. وصل القزاق الذين كانوا يتبعونه وأخذوه ولا أدري هل علموا بما حصل، أم لا؟ الخلاصة، أنه بعد اثنَي عشر شهرًا أصبحت الفرس المأمون الذي كنت أنتظره. هذه الفرس البيضاء التي رأيتموها. لها جثة قوية بحول اللّه. وقد ماتت أمها الفرس العربية عند وضعها للحمل.

المهم ملككم القزاق طيّع الجميع، وطيّع حصانه باللقاح فرسنا. وإذا كانت إطاعة الناس للملك وبالًا عليهم فإننا على الأقل استفدنا من إطاعة فرسنا للحصان.

ضحك جميع الخرّافين ولكني لم أضحك (ربما لأنني عرفت بعد سنين العلاقة بين القزاق ومقتل أبي). كانت علاقتهم بالفرس. هذه الفرس التي قتلها جدي ولو بغير قصد في القمين بعد يوم من مقتل أبي.

أبي، حصان القزاق وقميننا، اللقاح، الفرس، شاحناتنا ومعسكر القزاق في قزوين، أبي، جدي، الفرس... لا تقل لا يوجد ربط بينها. ماذا تقول؟ لا توجد علاقة؟ حسنًا ليكن. ولكن هناك صلة أكيدة.

***

خماسيتي

الخميس ظهرًا. من الصباح وحتى الظهر في مقبرة حديقة طوطي. رائحة التراب والكافور والحلوى. أما التمر ليس له رائحة.

وقفت سيارة الدودج لفتاح في بداية الزقاق. فتح السائق باب السيارة ونزل منها علي والحاج فتاح. كان العمال قد أتوا قبل ذلك ووقفوا ينتظرون متعبين مرهقين قرب مسجد قندي. فتحوا الباب الخشبي مرتدين ملابسهم الملطخة بالتراب. إسكندر الذي كان يريد أن يُري الميرزا ورحمان والسائق والبقية أنه خادم المنزل، فتح الباب ووقف جانبًا ويده على صدره ليدخل فتاح. وما إن دخل الحاج فتاح حتى ارتفع صوت أمي وهي تقول لمريم:

يا مريم! ماذا فعلوا له؟ أتوا ولم يأتوا به!

لم يكترث بهم فتاح. في وسط الممر حرّك الباب الخشبي. كان ذلك الباب الخشبي يؤدي إلى باحة أخرى بها غرفتان. تلك الباحة والتي كان إسكندر وأسرته يعيشون فيها إلى ما قبل عدة سنين، أي حتى السنة الثالثة من عمر مهتاب.

وكان جميع أهل المنزل يسمونها بالباحة الخلفية، والتي بقيت مهجورةً لسنين. هزّ فتاح الباب وتصاعد الغبار منه. قال لإسكندر:

يا إسكندر! نظفوا المكان جيدًا ورشوه بالماء، سيبقى العمال هنا وسنطبخ الطعام ها هنا أيضًا. الطباخون والقدور والحطب و...

اطلبوا من الميرزا أن يوفر لكم ما ينقصكم. أرسلوا طعام النساء على الأطباق

من هنا ويجب أن يشكل العمال سلسلةً من فوق السطح ليوصلوا طعام الرجال للمسجد يدًا بيد.

عضّ إسكندر شفتَيه وقال:

-عفوًا سيدي ولكن بإمكاننا أن نقلع عدة طابوقات من الجدار لنوصل الباحة بالمسجد.

هزّ العمال الذين يفكرون بصعوبة العمل رؤوسهم مؤيدين كلامه. هزّ السيد رحمان رأسه أيضًا وقال بهدوء «أحسنت». ولكن جدي ودون أن يهتم بإسكندر والسيد رحمان والعمال، قال:

من فوق السقف كما قلت... سيقولون فيما بعد خرب جدار المسجد وهو بيت اللّه من أجل ولده. قال لإسكندر أن يضع ستارة في نهاية الممر ليفصل محل استقرار النساء عن الرجال. ضم رأس علي إلى صدره ودخل باحة البيت.

***

كانت أم كريم تقف في الساحة قرب الحوض متأزرةً بعباتها.

رأى جدي أمي تجلس جنب مريم مع واحدة أو اثنتَين من نساء الأقارب في الأيوان. لم يرغب جدي بالذهاب إلى غرفة الزاوية ولم يقو على محادثة أمي. جلس على مدرج إحدى الغرف وحيدًا. رأى عليًا وهو جالس جلسة القرقصاء في إحدى الزوايا ومريم التي كانت تبكي دائمًا وتضع رأس أمي في حضنها ومهتاب التي كانت جالسةً إلى جانبهما وبيدها كأس من نقيع حبة السفرجل.

رأى أم كريم التي كانت تنحني بين الحين والآخر قرب الحوض وتبكي ثم ترفع رأسها مرةً أخرى.

كانت تنوح:

– يا للّه بكائي هنا وفي كل مكان، لماذا خيّم الحزن على قلوبنا.

كل الناس جلسوا للنواح

والكل يئن وينوح ويبكي ويولول

– وا ويلاه ووا ويلاه ووا ويلاه

لم يكن جدي يعرف ماذا تفعل أم كريم جنب الحوض. نظر وإذا بها كانت قد وضعت السماور الروسي الكبير على حافة الحوض.

وقد فتحت حنفيته وكانت تغسل إحدى السجادات الطويلة التي توضع أمام الباب بمشقة تحت الماء الجاري من السماور بالصابون المراغي. نادرًا ما كان جدي يتكلم معها. تذكر أنها كانت المرضعة لولده عندما كانت شابةً. قال ولها:

قواك اللّه... ماذا تفعلين؟

خفف اللّه عنكم الغم.. لا شيء... اعذرني إن أسأت الأدب. لقد نجست حفيدة أخيكم بنت السيدة عشرت السجادة وأنا أشطفها بالماء الكر لكي تتطهر.

سلمت يداك. الثواب بهذه الأعمال. ولكن يا أم كريم لماذا بماء السماور؟!

– لأنني بهذه الطريقة أطهرها بسكب الماء مرةً واحدةً.

– مرةً واحدةً؟ ثلاث مرات. هذا ليس ماء كرًّا يا أم كريم.

لا يا سيد! مرةً واحدةً. هكذا علّمنا الشيخ علي أكبرالعالم. قال لنا: الماء الجاري يطهر بمرة واحدة لأنه ماء كرّ.

الماء الجاري يعني ماء الساقية، ماء، ماء القناة، لكن ليس ماء حنفية السماور الذي يجري بمقدار بول طفل في الثانية من عمره.

-لا يا سيد، الشيخ علي أكبر هو الذي قال هكذا. الماء الذي يجري من حنفية السماور ماء كر. وحكمه حكم الماء الجاري. قال جدي: هذه خدعة فقهية. قالت: ليس هناك إشكال. وإذا لم تكن راضيًا حسنًا سأشطفها ثلاث مرات. كانت أم كريم تتحدث دون انقطاع لذلك لم تنتبه للجد الذي كان يتمتم:

سحقًا للشيخ علي أكبر، يعلم الناس خدعةً فقهيةً بدل أن يعلمهم دين اللّه ورسوله كي لا يدانون في تلك الدنيا. قام بعدها وخرج من الباحة، ذهب لكي يدعو واعضًا وقارئًا مرموقَين لمجلس المساء.

ذهبت مهتاب إلى جنب الحوض واحتضنت السماور الروسي الكبير بيديها

الصغيرتين ولكنها لم تستطع أن ترفعه. ذهب علي لمساعدتها. كلاهما أمسكا بعروتَي السماور ووضعاه على الأرض. نظرا إلى بعضهما البعض وترقرقت الدموع في عينَيهما ولم يقولا شيئًا. عاد علي وجلس على الدرج. تركت مهتاب السماور وقالت بهدوء في إذن أمها.

السيد كان على حق. هل أصبّ الماء عليها بالمشربة؟

***

لم يهدأ الميرزا أبدًا. كان عليه توفير كل مستلزمات مجلس المساء. كانت عربة جدي والحوذي تحت تصرفه، كان يتحرك دومًا من هذا الشارع لذاك الشارع، من هذا الممر لذاك الممر، من هذا السوق لذاك السوق. من بيت آية اللّه هذا إلى بيت حجة الإسلام ذاك، من بيت القارئ هذا إلى بيت الواعظ ذاك... كان الميرزا يعرف كيف يحدث كل شخص بلسانه.

– قال السيد أن ترسلوا ستمائة كيلوغرام من الرزّ الصدري. ليس لدينا فرصة. تفضلوا وأرسلوها أنتم لمنزل السيد نفسه في زقاق مسجد قندي. لدينا عمال من أجل تفريغ الحمولة. ليكن الرز جيّد الطبخ وعطرًا. بارك اللّه بكم... في أمان اللّه.

أزعجتكم ولكن أود أن أقول أطال اللّه عمركم. لقد توفي ابن الحاج فتاح. رزقكم اللّه طول العمر. سيقام مجلس عزاء في مسجد قندي مساءً. الغرض هو إعلامكم بذلك وإلا لما يرضى السيد بإزعاجكم. وبالطبع، فإن حضور الآيات العظام سيبعث إلى البركة في المائدة ومواساة أصحاب العزاء. لا تنسونا عند الدعاء.

أنا بخدمتك أيها السيد المرشد، لا، لا، ما هذا القصد. أنا أكبر سنًا من أن آتي وأخلع ثيابي وأنزل الزورخانه. عندما كنت شابًا أيضًا لم يكن لي هذا الشرف والقدرة لكي أتحسر عليه الآن. أنا أنقل خبرًا سيئًا يا سيدنا المرشد. آسف، لقد أصيب الحاج فتاح بمصيبة، البلاء والمصيبة يا أيها المرشد، لقد وقع القمر في العقرب، النحوسة الأكيدة، لقد مات ابن الحاج فتاح. فإن أرتأيت صلاحًا أن تدعو أعضاء الزورخانه للمجلس الذي يبدأ من هذه الليلة في مسجد قندي.

أود أن أبلغكم. ربما سمعتم أنتم أيضًا، لقد توفي ابن الحاج فتاح وسيقام مأتمه مساءً في مسجد قندي. بالإضافة إلى أن هذه الأيام تزامنت مع شهر

محرم الحرام لذلك يرغب الحاج بأن تشرفونا لقراءة المراثي. سيأتي أناس كثيرون من المواكب المختلفة... نعم... أعرف أنت منشغل جدًّا ولديك مواعيد كثيرة ومجالس أخرى. ولكن السيد طلب أن تتبنّوا قراءة القرآن والمراثي. يرغب أن تأتي لتمتعنا بصوتك الجوهري ونفسك الزكية، نعم أرجو أن تلبّي طلب السيد، فإننا نعتمد أولًا على اللّه وعليك ثانيًا. لا تؤذينا. هل تريد أن نذهب ونأتي بالشيخ علي أكبر؟!

المكان الأخير الذي ذهب إليه الميرزا، كان هو دكان موسى القصاب. حيث كان موسى قد جلس فوق كرسي. كان يقف أمامه العطار العجوز ويسأله عن مراسيم الدفن. لم يكن موسى على ما يرام. كان ممسكًا رأسه بكلتا يدَيه ويجيب بهدوء على أسئلة العطار. عندما سمع صوت العربة، قفز من مكانه. ظن أن الحاج فتاح نفسه قد أتى. عندما تقدم، رأى الميرزا. نزل الميرزا من العربة. تصافحا وتعانقا.

أعانك اللّه يا سيد موسى. نود أن نشكرك لما عملت صباحًا، أتعبناك. الحاج نفسه شكرك كثيرًا وشكرك بشكل خاص. على أي حال، كنت تحمل جنازة ولده. أزعجتك لأن الحاج فتاح طلب أن تذبح ثلاثة خرفان وتقطع لحمها وتأتي بها جاهزةً إلى البيت وأن تأتي بالرابع والخامس وتذبحهما قرب المسجد أمام أقدام موكب محبي الإمام الحسين؛ سلمت يمينك، لا تنس المساء وأحضر عائلتك معك. أغلق موسى المحل. وضع سكينًا ومبردًا وشنكل التعليق في كيس واتجه نحو الإسطبل، خرج من السوق الصغير، أثناء مشيه كانت الآلات الحادة في الكيس ترتطم ببعضها البعض وكان يسمع صوت ارتطام السلاسل بالأكتاف والصنج في مسيرة موكب العزاء.

عندما كان يمر أمام مسجد قندي، شاهد باب البيت مفتوحًا وكان العمال يترددون بين البيت والمسجد وينصبون قماش العزاء وينظفون باحة المسجد ويرشونها بالماء تجهيزًا للمساء. اجتاز محل السمسار. عبر الشارع واتجه نحو الطريق المفضية إلى منحدر الحفرة. كان إسطبل فتاح يقع في حقيقة الأمر في منزل إسكندر وكان باب الإسطبل يفتح في منزل إسكندر. كانوا يفصلون الخيول عن العربة ويدخلونها في الإسطبل ليلًا، أما العربة فتربط بعمود أمام باب بيت إسكندر.

وفضلًا عن خيول العربة، كان الحاج فتاح قد سمح بأن يربط بغل الميرزا

محمد حسين البزاز وحمار شخص آخر في الإسطبل أيضًا. أحيانًا، عندما كان فتاح يشتري بعض الخراف للنذور أو لمراسيم عزاء شهر محرم يضعها هناك أيضًا. كان موسى قد اشترى يوم أمس عشرين خروفًا سمينًا وأخذها للإسطبل. فقد طلب منه الحاج فتاح أن يشتري عشرة أو خمسة عشر خروفًا لكنه تنبأ بأنها قليلة فاشترى أكثر من ذلك.

عندما وصل موسى إلى منزل إسكندر، رفع حجرًا من الأرض وطرق الباب عدة مرات. كانت أم كريم ومهتاب في منزل فتاح وكان إسكندر يهيء المسجد وأخيرًا فتح كريم الباب. ألقى نظرةً على موسى القصاب وكيسه وقال:

سلام يا سيد موسى. أتيت للذبح؟ تفضل للداخل يا سيد موسى القصاب.

كان موسى يود أن يمسك عنق كريم ويعصره حتى يفهمه أن عليه أن لا يذكر لقب من هو أكبر منه سنًا، همّ أن يمسك عنقه ولكن مزاجه لم يكن على ما يرام، فتمتم قائلًا:

أيها النحيف، يا صاحب الرأس الكبير.

ذهب موسى إلى الحوض، غسل وجهه. انتظر على باب الإسطبل.

جلب كريم مفتاحًا من البيت وفتح الباب بصعوبة.

- قال موسى: اسكب الزيت فيه يا نحيف.

لم يجبه كريم. فتح الباب ودخل موسى القصاب وكأن الخراف كانت تعرف موسى فالتصقت بالجدار الخلفي. أخفت رؤوسها بين أجساد بعضها البعض. كانت الخراف تثغي ثغاءً متواصلًا.

كانت الخراف في ذلك المكان المظلم الرطب تسعى لأن تلتصق أكثر بالجدار الخلفي وكان بغل الميرزا محمد حسين البزاز يحرك نفسه باستمرار كي لا يدخل أحد الخراف تحت بطنه، التفت موسى لكريم وقال:

ماذا حدث؟ لماذا تحدق بي هكذا؟ اذهب وآتي ببعض العمال من منزل السيد فتاح لكي ينقلوا الذبائح، فأنت لا تستطيع أن تفعل شيئا يا نحيف.

انزعج كريم ولكنه لم يقل شيئًا. التفت موسى للخراف واتجه نحو أضخمها.

كانت نعجةً على ما يبدو وقفز نحوها. وتذكر ابن فتاح كيف دافع عنه في الوقت المناسب عندما كان مرميًا على الأرض، كيف أخذ بيده وكيف...، وقفز نحو النعجة الكبيرة وأمسك برقبتها من الخلف لم يكن يعرف لماذا ولكنه لم يخرج السكين التي في الكيس وإنما أخرج سكينًا من جيبه. فتحها وكانت تلمع في الإسطبل، أمسك النعجة من الصوف الذي بين أذنَيها ورفع رأسها للأعلى. فرّت النعجة من بين يدَي موسى. شرع موسى بالسب والشتم ثم نهض وصرخ وهجم على الخراف شاهرًا سكينه. فرت الخراف جميعها. خرج واحد. أو اثنان من باب الإسطبل المفتوح وبقي البغل في مكانه لأنه كان مربوطًا بالوتد وحدق بغباء بموسى. ذهب موسى للبغل ولف يده حول رقبته ولوى عنقه كما ينحر البعير. كان البغل ينتفض ولكن بلا جدوى. رفع موسى السكين بهدوء وأراد أن يهوي بها على وريد البغل. عندها سمع من يقول له:

ماذا تفعل يا سيد موسى؟... أترك البغل... إنه ليس لنا. إنه بغل البزاز.

التفت لكريم، لم يستطع كريم أن يتكلم من الخوف. كان موسى يترنّح. أعاد السكين إلى غلافه. وكان يبدو ثملًا، فإن لم تكن أيام محرم الحرام لكنت تتصور أنه شرب الخمر ولكن موسى وسائر السكّيرين لا يشربون الخمر لشهرَي محرم وصفر ويتوبون من السكر. بعد قليل عندما التقط موسى أنفاسه وهدأ روعه قال:

ألم يكن من المفروض أنك ذهبت لتجلب عمالًا؟ هل يوجد عندكم شاي في البيت أم لا يا أيها الولد النحيف؟ و بدأ يتمتم وكأنه وصيفة ضربها صاحبها وقال: اجلب معك إناءً كبيرًا أو قدرًا. لقد أمر السيد فتاح أن أعطيكم الكبد والقلب والباجة.

***

قبل الغروب، كان فتاح يقف أمام مسجد قندي ويده على صدره ينحني باحترام أمام كل من يأتي ويرحّب بقدومه، كان المعزون يقولون:

اللّه يعطيكم الصبر. إن شاء اللّه، جعله اللّه آخر أحزانكم، لقد كان شهمًا، لقد كان بالفعل زهرةً.. زهرةً تزهو بين الأدغال، الزهرة لا يمهلها هذا الزمن. كان رجلًا بمعنى الكلمة.

– كان خادمًا لأبي عبد اللّه الحسين، ليس اعتباطًا أن يعقد مأتمه في اليوم الأول من محرم. وكان فتاح يجيب:

إن شاء اللّه نخدمكم بالأفراح، نخدمكم في عرس أولادكم، تفضلتم علينا بحضوركم، فديتك نفسي. ألم تر ما حلّ بي. هذه ليست مصيبةً مقارنةً بمصاب سيدنا الحسين، وهذا هو مجلس مأتم الإمام الحسين.

كان فتاح واقفًا طوال الوقت، وفي الفترة التي لم يأت فيها ضيوف كان يبكي. لم يصل الضيوف المهمين بعد. لم يكن قد حان وقت الغروب. والمفروض أن يأتي الضيوف لأداء الصلاة ليبدأ بعدها المجلس حتى العشاء قبل أن يحين وقت الأذان.

عرّج درويش مصطفى من أول الزقاق متجهًا نحو المسجد. درياني الذي كان يقف أمام محله ويراقب مقدم الضيوف، قام أمام الدرويش وسلم عليه وسأله عن أحواله متلعثمًا وكأنه يخاف منه، نظر له الدرويش وحرك طبره وقال له:

وعليك السلام، جواب السلام واجب ولكن الرد عليك ليس بواجب. يا علي مدد.

كان درياني لا يحب الدرويش مصطفى، انزعج وجلس. ألقى الدرويش مصطفى نظرةً على المسجد، كان فتاح يقف جنب الباب وعلي في ممر المسجد، لم يكن الضيوف قد وصلوا بعد، وقد وقف أقرباء فتاح من بعده وبعد علي على شكل طابور، بوصفهم مضيفين وأصحاب عزاء وكانوا يرحبون بكل قادم، كان البعض منشغلًا بإشعال المصابيح ذات القاعدة والمصابيح الجماعية وكان البعض الآخر يخرجون أطباق الحلوى من الباب الخشبي ويدخلونها المسجد. ذهب الدرويش مصطفى للحاج فتاح واحتضنه بقوة وبكى بصمت وقال:

أيها الحاج فتاح هذا امتحان. أكيد إنه امتحان، كن قويًا، يا علي مدد.

ثم ذهب نحو علي الذي كان متكئًا على الجدار وكان قميصه قد تلطّخ بالتراب. نفض الدرويش التراب من قميص علي الذي كان يزرّ من جهة واحدة وقال له:

يا علي! يجب أن تنفض الحزن هكذا بسهولة. يا علي مدد. جلس ثم وضع كشكوله وفأسه على الأرض، ثم وضع إصبعَيه على ناصية علي وفتحهما على

حاجبَيه المتشابكَين وحدق علي بعيني الدرويش وطأطأ برأسه. أي فهمت قصدك. وقف الدرويش وأدار نظره. لم يكترث بباقي أفراد الطابور وسائر المضيفين. كان الشرطي عزتي واقفًا في مكان أبعد بقليل، مقابل طابور فتاح وباقي المضيفين وقد وضع قبعته الزرقاء تحت أبطه وربط حول ساعده شريطًا أسود. نظر إليه الدرويش نظرةً حادةً. ذهب الدرويش بثيابه البيضاء وقامته الطويلة نحو عزتي. وجّه فأسه نحوه ولم ينطق بشيء. قال عزتي وهو خائف:

ماذا حدث يا درويش، لماذا تفعل هكذا؟

ولكن الدرويش ودون أن يعير اهتمامًا لصوت عزتي، ضربه بهدوء بالفأس على كتفه ودفعه. حاول عزتي أن يمتنع من الحركة فلم يجد شيئًا، فقد أخرجه الدرويش من المسجد.

فمن يخدم الحكومة لا صلاة له ومن لا صلاة له، لا مكان له في المسجد قطعًا. يا علي مدد.

***

خرج الشرطي عزتي منزعجًا من المسجد. ألقى نظرةً حوله وذهب إلى محل درياني ذي الواجهتَين. نظر لدرياني وقال بحزم:

أعطني قنينة ليمونادة.

كشّر درياني عن أنيابه مستهزئًا به وقال:

أتريدها مجانًا؟ أليس كذلك؟ فأنت لا تدفع ثمنها يا شرطي.

لا تسخر مني فمزاجي متعكر.

سمعًا وطاعةً، لكن أقسمك بالله، أنت تتطفل دومًا، فلماذا أنت؟

أظن أنك قد ربطت الشريط الأسود على ساعدك وأصبحت صاحب عزاء فتاح الحقيقي؟

ما شأني وعزاء فتاح، يا ذا الوجهَين.

إذن لك شأن بطعامه.

ألم أقل لا تسخر منّي، لا مزاج لي.

أخذ قنينة الليمونادة من يد درياني وبجرعة واحدة، أفرغ نصفها وتنفس نفسًا عميقًا وانفرجت أساريره.

الضابط قد أمرني وإلا فلا دخل لي بالأمر.

إذن أنت منزعج من هذا الأمر. على أي حال، لن تطول العملية أكثر من ساعة أو ساعتَين وفي النهاية سيقدمون طعام العشاء.

نظر عزتي نظرة عاقل إلى سفيه وقال:

لا أنا غير منزعج من ذلك ولكن الواقع أن الضابط أراد أكثر من مرة أن يعتقل الدرويش مصطفى هذا. ولكن في كل مرة يحدث مانع وكأنهم يخافون من فأسه أو من أمر غير متوقع. لو أمرني الضابط سألقي عليه القبض وأقدمه مكتوف الأيدي بلمح البصر. الرجل المجنون...

ضحك درياني وأعاد قنينة الليمونادة الفارغة!

إذن، تحرّش بك وغيّر حديثه بسرعة. هجم عليك أنت أيضًا. كان الدرويش منزعجًا اليوم. تكلم معي بسوء أيضًا. أنا أجبته ورددتُ له الصاع صاعَين.

لا تهتم هو هكذا. لا تشغل بالك به، إنه خطير... اتركه لمن هو أقوى منا وإلا حلت عليك لعنته أو ربما يسحرك. عندها لا سمح اللّه يسوّد لك حظك.

أثناء وقوفنا، انتبه جدي إلى أن الميرزا وعدة أشخاص آخرين يقفون في الجهة الثانية للشارع وراء مشعل الموكب ذي العشرين شمعةً ولا يتقدمون. أرسل عليًّا لينادي الميرزا.

بعد قليل أتى الميرزا وعدد من عمال القمين الأصفهانيين، وقبل ذلك كان إسكندر قد قال لفتاح إن العمال الأصفهانيين سيتأخرون وأنهم لا يستطيعون ترك النفق دون أن يكملوه. سينتهون حتى الظهر ويأتون بعد ذلك للمساعدة. نظر فتاح للميرزا. كانت نظرات الميرزا موجهةً نحو الأرض رغم أنه كان دائم الكلام ويتكلم بسرعة دائمًا ولكنه كان يقف الآن صامتًا. نظر فتاح للأصفهانيين، كانوا يقفون بثياب

متربة. ولم ينطق أي منهم بمفردة واحدة. كانت دموعهم تنساب بهدوء، تكلم فتاح في النهاية قائلًا:

ما بكم؟ أصبحتم كإناء أسخن من الحساء الذي فيه. أكثر حزنًا من صاحب المأتم؟ أصبحتم كمرضعة أرحم من الأم بطفلها؟ على الأقل لو نفضتم ثيابكم من التراب؟ يا ميرزا؟

هل خرست؟ قل شيئًا. لقد فجعتني.

تقدم الميرزا واحتضن فتاح. استسلم له فتاح دون رغبة وقال في نفسه «بالأمس قبلني واحتضنني... ماذا حصل له؟»

ارتفع صوت بكاء العمال الأصفهانيين، وقف فتاح مبهوتًا ثم صاح:

واللّه إنه لسيء. ليس حسنًا أن تسيل دموع الرجل هكذا. تكلم يا أيها الميرزا... فجّرت قلبي.

وأخيرًا كسر الميرزا جدار الصمت:

يا سيد فتاح! يبدو أن اللّه قد غضب علينا وحلّ دهر البلاء.

لقد فارق عبد اللّه الفضولي الحياة اليوم أيضًا.

من؟ عبد اللّه الفضولي؟!

نعم يا سيد، لم يمهله البكاء أن يتكلم. حوالي الظهر كان يجلس على طاولته ويردد أمام الشباب: ألا تسمعون صوت بكاء الحاج فتاح وقد ملأ الدنيا. وكان الشباب يردّون بالنفي. يعاود السؤال بعد أن يبتلع عبرته: إن صوت بكاء الحاج فتاح يملأ الدنيا ولا يدعني أسمع شيئًا آخر. اعتقد الشباب أنه ليس على ما يرام وأوشك على أن يفقد عقله، لكنهم فجأةً انتبهوا إلى تشقق سقف النفق، وقد انهار فوق رأس عبد اللّه الذي كان شارد الذهن وقد بقي جثمانه لساعات تحت الأنقاض. نظر فتاح إلى السماء المنقبضة عند الغروب. كان يسعى أن لا تتساقط دموعه على الأرض. وتردد صدى كلمات الدرويش في مسامعه «يا فتاح، إنه امتحان آخر! امتحان آخر يا فتاح، كن قويًا، يا علي مدد».

حينها ردد فتاح مدمدمًا:

- «يا علي مدد. إنا للّه وإنا إليه راجعون»

العمال الأصفهانيون بكوا بحرقة وكأنهم فقدوا أباهم.

يا سيد فتاح! من أجلنا حصل ما حصل...

أحنى فتاح رأسه. كان يريد أن يكون قويًا. قال للميرزا:

اذهب بسرعة للخطيب وقل له إن المجلس مخصص اليوم لمصيبة أبي عبد اللّه الحسين وأن لا يتطرق إلى أي موضوع آخر، فمصيبتنا لا تعد شيئا مقارنةً مع مصيبة سيدنا الإمام الحسين (عليه السلام). هذه امتحانات... إذا كان يرغب أن يقول شيئًا في الدعاء فليبدأ باسم عبد اللّه، فهو الأكبر سنًا من ابني، إنه عزاء لعبد اللّه وولدي وإن اللّه تعالى يعلم أنه لا فرق بينهما بالنسبة لي.

***

كان فتاح يحمل غم العالم على عاتقه ولكنه ما زال واقفًا على قدمَيه. كان مواظبًا أن يرحب بالضيوف ببشاشة. كان يعرف أن واجب المضيّف حسن الخلق والبشاشة. لا يحب أن يظن أحد ما أنه لا يعرف أصول الضيافة. وحينما لم يأت ضيف كان بين الحين والآخر يردد في نفسه «من المؤكد أني إن شكوت في مصيبة ولدي فإنه يدل على عدم شكري للّه. لم أتحمل كما يجب. من المؤكد أني رأيت مصيبتي أصعب من مصائب الباقين، الحق أنه الحق. بمصيبة عبد اللّه، أراد اللّه أن يريني أن بعض المصائب تستوجب الشكر. هناك مصائب أشد. عاد فتاح لوعيه على صوت عزتي وهو يقول «يا اللّه».

قال فتاح في نفسه «ما لهذا الولد الأعزب؟. لم هذه الضوضاء؟»

وصلت سيارة فورد سوداء اللون. تشبه سيارة زوجة خالة علي. ولكنها أفخم منها بعض الشيء، ترجّل السائق وفتح الباب. تقدم عزتي وقبّل يد الضيف، حضرة أشرف قوام السلطنة. قيل إنه عاد للتو من سفرته إلى الخارج. كان فتاح ينظر مبهوتًا، لم يكن له أي علاقة بهؤلاء. راجع ذاكرته «ربما ابتاع الطابوق منا قديمًا... ربما أعطيناه شيئًا في أزمة السكّر، ما كانت وظيفة قوام آنذاك؟ لا...» تقدم قوام

وتخلص من عزتي. نقل عصاه لليد اليسرى وشد بقوة على يد فتاح بيده اليمنى وقال بلحن رسمي:

أعطاكم اللّه الصبر يا حاج... قطف اللّه الزهور. لم تر طهران عشيرة بشهامة عشيرة فتاح. وعشيرة فتاح لم تر شهمًا مثل هذا الشهم. لا تظن أن أهل السياسة لا يفهمون هذه الأمور...

ضرب قوام السلطنة الأرض بعصاه وتقدم. خلع حذاءه عند السجادة القريبة من الباب، انحنى عزتي بسرعة وحمل حذاء قوام السلطنة. وقف الناس احترامًا وفسحوا الطريق أمام قوام السلطنة الذي ذهب إلى مقدمة المجلس وجلس إلى جوار المنبر قرب الدرويش مصطفى. صاح عزتي الذي لا يزال ممسكًا بحذاء قوام دون أن يعير اهتمامًا للخطيب.

إحتفاءً بمقدم حضرة قوام السلطنة صلوا على النبي. لم يستجب لعزتي إلا واحد من الحاضرين.

ألقى قوام نظرة حادةً على عزتي جعلته يلزم الصمت، ثم حيى الدرويش وسأله عن أحواله. أحنى رأسه وكأنه يستمع للخطيب. جلبوا له قهوةً. حمل الفنجان الصغير وقدمه للدرويش ولكن الدرويش هزّ رأسه شاكرًا وأرجع يده. شرب حضرة قوام السلطنة القهوة بطمأنينة. بعد لحظات دخل فتاح وجلس احترامًا لقوام بينه بين الدرويش. حاول الأخير أن ينهض احترامًا له ولكن فتاح طلب منه الجلوس.

هل توافقون أن أوصي لسيادتكم كرسيًا يأتون به من منزلنا؟

لا يا حاج، سلمت يداك، الحمد للّه تحسنت قدمي، إنه روماتيزم مزمن بقي ملازمًا لي وهو ذكرى أيام ذلك اللعين.

تقصد السيد ضياء؟

نعم يا حاج. أساسًا، أنا أعجبت بولدكم منذ ذلك الحين.

ابني؟...

نعم يا حاج... يرحمه اللّه. لم أستطع أبدًا أن أرد له الجميل. كنت دائمًا أقول

في نفسي: سأرد جميله بعد عودته من باكو هذه المرة، لكن اللّه لم يشأ وأنت تعرف أني دائم السفر...

عندما كنت في سجن السيد ضياء...

يرحمه اللّه كان شابًا حينها... على الأقل قبل عشر سنوات.

نعم يا حاج.. قبل عشر سنوات. عندما كنت في السجن كنت الوحيد الذي لم يوقع الورقة.... كان يريد اللعين أن يجهز عليّ. أرسل مأموري الأمن ليقطعوا المياه على مخزن مياهنا. كان العمال يجلبونه بالعربة ولكن ماء الساقية كان من البلدية والبلدية تحت أمر الحكومة وأمر ذاك اللعين، وكان الأمر أصعب جدًا على الأهل والعائلة. فكانت زوجتي على العكس مني تواظب على الماء والغسل والطهارة والتقوى.

لقد تناهى الخبر إلى مسامع ولدكم. رغم أنه لم يكن يعرفني ولكنه أقدم على عمل شهم، أتى هو وعدد من عماله وقام بالواجب مع مأموري الدولة، يرحمه اللّه. قال إن ذلك اللعين أسوء من الشمر.

يرحمه اللّه... لم يخبرني بذلك يا سيد أشرف؟

لهذا... لم أقل مجاملةً، إنما أقول بكل صدق: إن طهران لم تر شهمًا مثله.

***

قام فتاح من جنب قوام وعاد ووقف مرةً أخرى، في بداية طابور المضيفين بباب المسجد، كان حريصًا على أن يعامل المعزين باحترام حتى وإن كان أحد عماله.

من هناك، من المكان الذي كان يقف فيه، كان أحيانًا يطل على المجلس وينظر إلى المصابيح الغازية هل إنها تحترق دون أن تبعث دخانًا. وهل إن السيد رحمان يوصل الحلوى إلى كل مكان في المجلس. وكان بين الحين والآخر يسحب عليًا جانبًا ويقول له:

عزيزي علي. قل للسيد رحمان أن يقدم القهوة لذلك العامل الجالس قرب المصباح في الزاوية والحلوى أيضًا (وكأن أحدًا لم يره).

كان إسكندر يتردّد على الدوام بين البيت والمسجد. ويرتب الأمور.

كان فتاح يقف في طابور المضيفين وحينما كان إسكندر يمر من جنبه يسأله عن الأوضاع وكيف تسير الأمور. فيما كان إسكندر يطل على الساحة الخلفية بين الفينة والأخرى ليرى أين وصل الطبخ، ليوعز بعد ذلك للمدّاح كي ينهي المجلس في الوقت المناسب. كان يذهب أحيانًا إلى نهاية الممر وينادي زوجته من وراء الستار ويسأل عن أي نواقص محتملة ويطلب من ابنته الصغيرة أن تأتي له بطبق حلوى من القبو للرجال. كان يدور دائمًا ويشرف على كل مكان. ذهب أخيرًا إلى الباحة الخلفية. نظر إلى النار التي تحت القدر وإلى الفحم المتوهج الموضوع فوق غطاء القدر ليطهى الرز بشكل أفضل. نظر إلى كريم كان يجلس أمام كومة عظام أخرجت من الحساء.

كان فتاح قد طلب أن تخرج العظام من الحساء لأنه ليس من أصول الضيافة أن تبقى العظام في الحساء. كان كريم يخرج مخ تلك العظام ويجمعه في إناء وضعه أمامه. لو كان فتاح موجودًا لمنع كريمًا من فعل ذلك ولقال: «دع شيئًا للكلاب. لا تأكل حصة الحيوانات والدواب». أراد إسكندر أن يقول شيئًا لكريم ولكنه لم يستطع من فرط التعب. شعر كريم بذلك وقال لأبيه:

لا أخرجه لنفسي، بل لعلي، أخاف أن لا يأكل هذا المساء أيضًا كما فعل ظهرًا. إنه سينهار. هدأ إسكندر وجلس على حافة الأيوان. حدق في القدور. كان يسمع صوت القارئ بصعوبة، حيث كان يقول: «عادتنا أن نبدأ في اليوم الأول بمجلس حضرة العباس قمر بني هاشم. ذهب إلى نهر العلقمي، كان العسكر مختفيًا خلف إحدى التلال، اتجه العباس نحو الماء ودخله وانحنى، أخذ قبضة ماء بيده. تحدث إلى الماء وتراءت له شفتا أخيه الجافتَين وعطش أهل الحرم وعويل الأطفال: الماء الماء. خاطب العباس الماء، هل من الإنصاف أن يشرب منك الطير والدواب ويبقى الحسين عطشانًا؟ وسكب الماء من يده..» فجأة تذكر إسكندر شيئًا ما وقفز من مكانه ونادى ابنه كريمًا:

يا كريم، إجرِ بسرعة، قل لمهتاب أن تأتي بكرسي من الغرفة ذات المصاريع الخمسة.

بعد لحظات، أخرج كريم وأبوه إسكندر الكرسي من المنزل ووضعاه أمام باب المسجد. قال إسكندر لفتاح:

يا سيد! لو سمحت، قف لحظات جانبًا لكي أضع الكرسي هنا. كنت أود أن أجلس في الباحة الخلفية وسمعت صوت المداح وهو يتحدث عن حضرة العباس. فجأةً تذكرت أنك واقف منذ الظهيرة. قبّل فتاح رأس إسكندر وقال:

قال عليه السلام لا يقاس أحد بنا أهل البيت ولكن الأخوّة هي الأخوّة والشهامة هي الشهامة. لو كان هناك ثواب فإنه في أعمال كهذه يا إسكندر.

***

في نهاية المجلس، ردد القارئ الدعاء وسأل اللّه الرحمة لروحَي عبد اللّه الأصفهاني وابن الحاج فتاح وقال: إلهي! سدد ديوننا وشاف مرضانا واقض حوائجنا في هذه الليلة العزيزة. اجعل المغفرة من نصيبنا عاجلًا.

في هذه الليلة اجعل أرواح فقيدَي هذا الجمع عبد اللّه الأصفهاني وابن الحاج فتاح ضيفَين على مائدة سيدهم أبي عبد اللّه الحسين.

قال الضيوف آمين.

وتحركوا كي يجلسوا في أماكنهم الأولى بعد أن غيروا نظام جلوسهم عند اللطم. نزل القارئ من الدرجة الثانية للمنبر الخشبي وصلى الناس على النبي بصوت واحد.

كان المكان يغص بالناس، حتى في الباحة، وكان الجميع ينتظر موائد الطعام ولكن الدرويش مصطفى قام ووقف قرب المنبر.

لا تدع الشك يتسرب إلى قلبك. إن موكب محبي الحسين يختص بمحبي الحسين.

لماذا؟ لأن العابد يعبد اللّه. لو لم تفهم العلاقة بين العبودية، اعرف أنك لم تعرف شيئًا، بل أنك عديم الفهم. محب الحسين بكاؤه للحسين. أخاطبك أيّها العامل الأصفهاني تعلم من فتاح، لو أحس أنه يرغب بالبكاء لولده فإنه يربط بكائه بكربلاء. وتلك هي الطريقة. هكذا تصبح دموعكم مقدسةً وعيونكم أضرحةً. بإمكانك أن تكون دخيلًا عند عين كهذه قطعًا. يا علي مدد.

جلس بعد ذلك قرب المنبر وتحمحم ونظر للناس ورأى الميرزا والسيد رحمان

يدخلان الأطباق الأولى من الطعام. بعد انتهائه مباشرةً من كلامه، شكر اللّه بصوت واطئ وقال لقوام:

أهل السياسة يظنون أنهم يرون البعيد، طبعًا يرون ولكن ليس البعيد جدًا. لو كانوا يرون البعيد، البعيد جدًا. لتغيرت أعمالهم، كان أمير المؤمنين روحي فداه من أهل السياسة ولكنه كان يرى البعيد، البعيد جدًا. شيئًا ببعد القيامة وقِدَمِها... يا علي مدد.

تأمل قوام الذي كان يهم أن يحمل طعامه من الطبق. حدق بالدرويش مصطفى. كان ذكيًا بما فيه الكفاية ليعي معنى كلام الدرويش مصطفى... لم يأت مؤرخ من جميع المؤرخين ليتحرى هل أن قوام تعجّب من رؤيته إستالين أكثر من تعجبه من رؤية الدرويش مصطفى!

***

كان فتاح قد وقف جنب الباب، جلب إسكندر الطعام له ولكن فتاح لم يأكل وقال ما دام هناك ضيف ينتظر الطعام فإنه لن يأكل. عندما انتهى إطعام الضيوف حان دور المضيفين، أولئك الذين كانوا يشكلون سلسلةً بشريةً لتوصيل الطعام. وكان عمال القمين قد أخذوا بأنفسهم طعامهم وجلس كل واحد يأكل في زاوية وكان هناك عدة أشخاص شكلوا طابورًا أمام منزل فتاح لكي يأخذوا الطعام بأوانيهم. في حين كان درياني وعزتي يتحدّثان مع بعض ويتبادلان أطراف الحديث. فيما أمسك كل واحد منهم طبق طعامه بيده. كانا يأكلان الطعام معًا. كان هناك كثير من الجيران أتوا ليأخذوا الطعام. شعر فتاح بارتياح من رؤية الناس الذين أتوا لأخذ الطعام والضيوف الذين يتناولون الغذاء ونسي للحظات موت ولده. نظر لعلي الذي كان يتناول لقمات من يد كريم ويأكلها. كان كريم ممسكًا بالإناء النحاسي ويطعم عليًا من مخ العظام الذي فيه. بعد كل لقمة يطعمها لعلي كان يلتهم لقمتَين. كان فتاح يضحك في داخله ويراهما كلَيهما. فجأةً ظهر عزتي أمام فتاح وبيده صحن طعام وقال له بفم مملوء:

قاجار! الأمير!

نظر فتاح. كان رجل ذو كرش كبير يقف أمام الباب. كان ذا وجه سنط يخلو من الشعر كالكوسج. تلوح عدة شعيرات نشأت تحت حنكه النحيف. ظن فتاح أنه أحد

الضيوف الذين وصلوا متأخرين. تقدم ومد يده ومد قاجار يده بتثاقل أيضًا.

قال فتاح بترحيب:

تفضلوا للداخل، شرفتمونا، أسعدتمونا، تفضلوا. السيد أشرف قوام السلطنة موجود أيضًا في الداخل...

حرك قاجار رأسه وقال بجفاف وجدية.

أتيت لموضوع آخر. كنت قد أوصيت ضابط المركز ليقول لكم إن هؤلاء الأطفال، وأشار بيده لعلي وكريم اللذَين كانا ينظران إليه بتعجب، أظن أنهما ملآ المخزن بمياه إضافية... أنتم أعرف إذا لم تصلحوه سأتابع الموضوع بطرق أخرى!

توترت أعصاب فتاح وبرزت أوردة رقبته. كان يريد أن يصرخ: «يا عديم الإحساس! ألا ترى كل هؤلاء الناس! ألا ترى المصائب التي وقعت علينا من السماء! ألا ترى»

ولكن تردد صوت الدرويش مصطفى في مسامعه «يا فتاح إنه امتحان حتمًا. امتحان، كن قويًا. يا علي مدد»

ابتلع غضبه ونظر لقاجار. لم يستطع أن ينظر إليه. نظر إلى الأرض وقال بلطف كأنه يخاطب شخصًا مجهولًا:

أنا آسف وأعتذر عن تصرف الأطفال. بالأمس أرسلت بناءً ولكن أغلب الظن أنهم نسوا بسبب هذه المصيبة.

ليأتوا بسرعة.

قال قاجار هذه الكلمات وعاد أدراجه ماشيًا نحو منزله حاملًا فانوسًا بيده.

كان فتاح منحني الظهر. فاستوى بصعوبه ونادى السيد رحمان.

أسرع واذهب وخذ معك بناءً وعامل طين ووسائل البناء فورًا إلى العنوان الذي أعطيتك إياه بالأمس.

منزل قاجار؟! زقاق قوام؟!

نعم منزل قاجار.

في هذه الساعة من الليل؟

نعم في هذه الساعة من الليل. وقل للميرزا ليبعث عربةً ذات خزان ماء لنفس العنوان! ليعوض نقص مياه خزانهم.

ماء خزانهم.. ماء الساقية؟ كيف نعوضه في هذه الساعة من الليل.

عوّضوه بماء صالح للشرب والاستعمال وفي هذه الساعة من الليل.

قال السيد رحمان سمعًا وطاعةً وابتعد لأنه عرف أن أوامر السيد وتوصياته سوف لن يكون لها نهاية. ولكن فتاح الذي تسلط على أعصابه وأصبح «قويًا» ناداه قائلًا:

يا سيد رحمان! خذ معك لهم طعامًا أيضًا. طعامًا لحوالي عشرة أشخاص أو عشرين شخصًا.

***

كان ينبغي أن ينتهي المجلس في الخميس وكان ينتهي أيضًا. وكان الضيوف يخرجون أفواجًا و يودعون الحاج فتاح وبقية المضيفين. وفتاح يشكرهم على حضورهم ويوضح لهم أن المجلس سيبقى لعشرة أيام مقبلة. لليلة الحادي عشر من محرم. كان قوام قد غادر قبل الجميع. خرج المعارف والأهل أيضًا شيئًا فشيئًا من باب المسجد. أمسك إسكندر والميرزا بأبطَي الحاج فتاح لكي يوصلاه للمنزل. كان ينبغي أن ينتهي المجلس في الخميس... وكان ينتهي أيضًا...

لو أن الحاج فتاح لم ير الدرويش مصطفى. عندما رأى أحدهما الآخر قبّل بعضهما البعض. وتذكر فتاح شيئًا. أمسك بيد الدرويش وقال:

يا درويش. أنا خادم لإخلاصك. ولكن استحلفك بالله ما كان سبب موعضتك؟

هل رأيت الناس؟ كانوا يجلسون إلى نهاية ذلك الجدار وكانوا بانتظار الطعام.

أحيانًا، يجب أن لا ترى الجدار فحسب وإنما ترى ما وراء الجدار أيضًا. لو لم

أكن أرى ذلك لكان عامل ضخم ضحية لدغة حيوان. اذهب واسأله بنفسك.. يا علي مدد.

قال الدرويش هذا وابتعد في الظلام بثيابه البيضاء التي تشع في عتمة الليل. احتار الحاج فتاح «خلف الجدار، عامل ضخم ومسكين ضحيةً للدغة حيوان صغير، اذهب وأسأله».

سأل إسكندر:

عامل مسكين وضخم؟! هل كان نعمت راكب الثيران موجودًا الليلة؟

نعم يا سيدي هو في الباحة الخلفية. كان يوصل الطعام للسطح بسبب قامته الطويلة. لقد كان هناك.

- خلف الجدار. عامل مسكين وضخم. ضحية لدغة حيوان صغير. اذهب واسأله.

سأل مرةً أخرى:

أما يزال هناك؟

نعم يا سيدي! أكيد هناك.

رفع فتاح ساعدَيه من على أكتاف الميرزا وإسكندر وذهب بخطوات كبيرة نحو البيت والتف وسط الممر نحو الباحة الخلفية. كان علي وكريم يقفان جانبًا. كان كريم يسأل نعمت راكب الثيران:

هل تستطيع أن تحمل قدرًا ذا عشرة أرطال بيد واحدة؟

مسح نعمت شعره بيده ورد بخجل:

أقسم بأنني لا أعرف كيف أجيب! ماذا أقول؟ اللّه يعرف... ربما...

اقترب فتاح... سكت الجميع. قام نعمت من مكانه وفسح كريم الطريق من هول المفاجأة وسلم دون أن يسمع الجواب... وسأل فتاح:

يا نعمت! ألم تر الليلة أي حيوان أو حشرة؟

لا يا سيدي أنا هنا من أول المساء (وأشار للدرج).

من هناك كنت أوصل الطعام للسطح.

نظر الجميع للدرج. كانت هناك أفعى سوداء صغيرة ملتوية قرب الدرج. تقدم كريم متعجبًا. تبخترت الأفعى والتفت حول نفسها ورفعت رأسها. صرخ فتاح:

ابتعد يا صبي! لو لدغتك لأصبحت رمادًا.

تراجع كريم. كان إسكندر والميرزا والعمال واقفين خائفين دون أن يتحركوا.

قال إسكندر:

هذا الدرويش على حق. كانت هذه الأفعى هنا منذ أول الليل يا سيدي. لقد حمانا اللّه ولم تلدغ أحدًا.

وأما فتاح، فقد حمد اللّه وقال:

يا علي مدد

تقدم للأمام ولكن الميرزا مسكه.

لا ياسيدي لماذا أنت؟ أسرع يا نعمت وأفعل شيئًا.

تطلع نعمت للعمال وصرخ.

أعطوني المسحاة كي أقطع رقبتها بضربة واحدة...

أخذ المسحاة وتقدم للأمام. تحركت الأفعى مرةً أخرى. رفعت رأسها رمت بنفسها نحو نعمت وتبخترت، فتراجع نعمت خطوةً إلى الوراء. هدأت الأفعى من جديد. قال إسكندر:

لا، اصبر يا نعمت!... يا سيد ربما توجد لها أنثى؟

قال نعمت:

لتكن لها أنثى، وما لي أنا؟

إذا كانت لها أنثى فإنها ستلدغ بعد موتها كل من تراه ونحن نعيش في منزل،

لا في القمائن، سوف تنتقم أنثاها من النساء والأطفال.

- نظر فتاح وقال:

أنت محق يا إسكندر.

قال العامل الكردي بهدوء من بين العمال:

الرحمة! لو كانت تريد أن تلدغ، لفعلت ذلك حتى الآن...

حرّك فتاح رأسه ونظر للسماء ثم قال لإسكندر:

ائتني بقطعة خبز وقليل من الملح.

أخذ قطعة الخبز والملح من يد إسكندر. تقدم للأمام بهدوء، خيم الصمت على المكان وحبس الجميع أنفاسهم. تقدم فتاح للأمام. أراد علي أن يمسك بيد جده ولكن إسكندر منعه من ذلك، وصل فتاح إلى بُعد خطوتَين من الأفعى. جثى على قدمَيه على الأرض رفعت الأفعى رأسها ووضعت ذيلها على الأرض ونهضت نحو الحاج فتاح لكنه لم يتحرك. التفت الأفعى بحركاتها المرعبة حول الحاج فتاح. ونهضت أمام الحاج فتاح ورفعت رأسها. كانت أفعًى ضخمةً. قربت رأسها من وجه فتاح وفحّت وأخرجت لسانها ذا الشقَّين وحدقت بعينَيه ولكنه لم يتحرك. بقيا على هذه الحالة لدقائق. أخفضت الأفعى رأسها في نهاية الأمر بهدوء وسكنت. لم يصدر أي صوت من أي شخص وكأن الأفعى غطت في النوم.

مدّ فتاح يده نحو رأس الأفعى. لم تتحرك الأفعى. مسح فتاح قطعة خبز بفمها. فتحت الأفعى فمها، كان فكّاها مفصولَين عن البعض. فتحت فمها بحجم راحة اليد. رش فتاح قطعة الخبز بالملح ووضعها على الأرض ثم قال بعدها بصوت هادىء:

أيتها الأفعى بحق هذا الخبز والملح لا تؤذي أحدًا...

تحركت الأفعى وفحّت وانسابت بسرعة بعد أن تموج جسدها واختفت في الظلام...

صلى العمال والميرزا وإسكندر وكريم وعلي على محمد وآله بصوت مرتفع.

خماسيته

لم يكن إسكندر على ما أظن موجودًا في قضية الأفعى. ولكن أنت كتبت هكذا. طبعًا الموضوع يختلف. لا أتذكر الصحيح من الخطأ. فذلك بعهدة الراوي. طبعًا أصل حكاية الأفعى والخبز والملح صحيح.

ولكني لا أتذكر إن كان إسكندر موجودًا، أم لا؟

فإسكندر هو نفسه يقول إنه لم يكن موجودًا ولم يكن كذابًا، ربما كذب لمصلحة ما؟! وبما أنك كتبتَ أن إسكندر كان موجودًا، إذن كان موجودًا حتمًا.

لقد وقف جدي كل الليالي العشر - كما كتبت - أمام المسجد على رجلَيه، يتنقل من هنا إلى هناك، لئلا يشعر أحد الناس بنقص أو وضع غير مناسب. حسنًا، وانقضى المجلس كما يجب أن ينقضي ذائع الصيت طبعًا. أصبح مجلسًا ذائع الصيت لأنه لم يكن مخصصًا لنا وإنما للإمام الحسين عليه السلام. ولم يقم مأتم، باستثناء مأتم المرحوم تختي(١) الذي أقيم بعد سنوات في نفس المسجد، بعظمة مأتم والدي. أنت كتبت الآن عن يومه الأول في حين ازدحم المأتم أكثر في اليوم الثاني، لأن البعض ممن لم يسمعوا، سمعوا بعدها وأتوا. وفي يوم غد واحترامًا لجدي، أقفلوا السوق الكبير يومًا واحدًا.لم يذهب الخزّافون أسبوعًا كاملًا لعملهم.

في النهاية وبإلحاح من جدي نفسه وافقوا أن يذهبوا إلى العمل من جديد وقد أقفل أهالي سوق خاني آباد دكاكينهم لمدة ثلاثة أيام، سوى دكان درياني ومخبز الخباز علي محمد.

وفي الليلة التالية كان الواعظ يطلب باستمرار من الناس أن يخرجوا من المسجد. وكما يقال فإنه لم يكن مكانًا لمحط قدم. ربما امتلأ المسجد وفرغ عشر مرات، مع ذلك كان هناك أناس لم يروا جدي ولم يقدّموا له التعزية. انتقل الخبر بسرعة بين الناس وجاء الجميع. لقد جاء جميع الخزّافين مع عوائلهم وأقاربهم وكل التجار خصوصًا تجار السكر وفخر التجار وأنصاره وأعوانه وأعضاء الزورخانه في طهران وعلي آباد وقم وورامين. مواكب بني فاطمة وعشاق الحسين وشباب بني هاشم ومواكب ضرّابي السلاسل الأتراك المقيمين في طهران. بالإضافة إلى أن أعضاء موكبنا، أي موكب محبي الحسين كانوا هم المضيفون وأما عدد القدور التي كانت تنصب لطبخ الطعام، فحدث ولا حرج.

كانت الباحة الخلفية مملوءةً بالقدور وأكياس كبيرة من الفحم وأكياس من الرز وعلب من الزيت وشناكل تعليق الخراف المذبوحة ومجاميع من الطهاة.

ماذا كنت أقول؟ هو رجل، رجل، كنت أتحدث عن جدي. لا تظن أن جدي جلس على كرسي إسكندر أبدًا. وقف عشر ليال كاملة على قدمَيه. بالمناسبة أنا لم أر جدي يتحدث بالعربية. أتحدث عن ذلك الحديث الذي كتبته «لا يقاس أحد بنا أهل البيت»، حسنًا بما أنك كتبته فإنه قاله حتمًا...

ذلك الرجل. أتحدث عن جدي، ذلك الرجل لم يجلس على كرسي. قال إن جلوسي يدل على عدم احترام الضيوف، عندما سمع الرجل خبر وفاة عبد اللّه أراد أن يصرخ ولكنه كظم غيظه. قال إن جلوسي يدل على عدم احترام الضيوف، تناول الرجل طعامه آخر الناس. وفي الليلة الثانية عندما حصل نقص في الطعام لم يأكل أبدًا. قال إن تناولي للطعام يدل على عدم احترام الضيوف. كان الرجل يقف حتى نهاية المجلس واضعًا يده على صدره جنب الباب. قالوا له تفضل يا سيد واجلس في داخل الغرفة. قال إنها قلة احترام للضيف. ألم يستطع الرجل أن يوبخ قاجار؟ ألا يمتلك القوة؟ ألم يكن يمتلك الجرأة؟ ألم يكن لديه من يضرب حامل الفوانيس القاجاري ويفعل به ما يفعل. كان يستطيع ولكنه لم يفعل. قال هو بمثابة ضيف. لو لم احترمه كأني لم احترم الضيف...

وقف الرجل عشر ليال على قدمَيه. كان عجوزًا، خارت قواه وسقط في فراش المرض وأتى لعيادته الطبيب السيد فندقي الذي كان قد عاد لتوه من الخارج

وكان من أقاربنا البعيدين، أتى لعيادته وبعد فحص وتمحيص قال إنه مصاب بعرق النساء.

لقد عاد له ألم الظهر وقال للجد أنت تعرف أنك مصاب بألم الظهر فلماذا وقفت على قدمَيك؟ ولعشر ليال. أجابه جدي بابتسامة. قال الطبيب فندقي: أنا حضرت بنفسي خمس ليال. لم أشاهدك تجلس لحظةً. وقد وضعوا لك الكرسي... الآن عليك بالاستراحة المطلقة ولشهر كامل. يجب أن لا تتحرك من مكانك. ابتسم جدي مرةً أخرى...

لم يمر أسبوع حتى أتى رفاق جدي في الزورخانه ليعزوه وسمعوا حينها خبر

مجيء الطبيب فندقي. ذهبوا بسرعة وجاؤوا بطبيب الأعشاب. كان طبيب الأعشاب يعتمر بعمامة بيضاء حليبية وسكرية اللون ويضع عباءةً قذرةً على كتفه وعلى خلاف الطبيب فندقي فإنه لم يكن يحمل، لا سماعةً ولا حقيبةً أو دفتر. وقد أكد هو أيضًا بأن الألم يعود للظهر. التفت إلى رفاق جدي وقال للمرشد:

«قد انكسر ظهره. ليس مزاحًا إذ إنه فقد ابنه في ريعان شبابه. أي شخص آخر كان مكانه، واللّه كان ظهره ينكسر»(١).

أما ذلك الأجنبي شارب الخمر الذي قال إن السبب هو وقوفه على قدمَية فكلامه ترهات، فقد استهزأ بنفسه. إذا كان السبب هو وقوفه على قدمَيه فلماذا لم يمرض قبل وفاة ابنه؟ فقد هزّ المرشد والرياضيون رؤوسهم لتأييده. كان يقف من قبل أيضًا، أساسًا أنتم لا تدبّون في النهار. أنتم تقفون طوال النهار. لماذا لا يؤلمكم ظهركم؟ حرك الجميع رؤوسهم بعلامة الإعجاب بفراسة وذكاء طبيب الأعشاب. لم يكن جدي مهتمًا بما يدور حوله. كان مستلقيًا في فراشه ويسبّح. لم يكن ينام على سريره المعدني. كان يقول بما أن الضيف حيثما يأتي يجلس على الأرض فإن النوم على السرير سيكون قلة احترام للضيف.

قال طبيب الأعشاب عند ذهابه شيئًا ما في أذن المرشد. اختلى المرشد بإسكندر – لقد عاد إسكندر وعائلته بعد وفاة والدي مرةً أخرى للباحة الخلفية وعاشوا معنا – وأسرّ له بأشياء لم أفهمها ولكن في النهاية اقتنع إسكندر وقال:

كل شخص يحتاج إلى فقرات الظهر الجيدة والسليمة.

***

كان إسكندر وعائلته قد سكنوا في الباحة الخلفية وكان كريم يأتي صباحًا ويبقى معي حتى المساء. كنا نجلس في الأيوان. كنت أحاول أن لا أفكر بشيء وهو لم يكن يتكلم كثيرًا. كان كريم المسكين يجلب لي الطعام والمكسّرات. يأتي بالطعام باستمرار ويقول دائمًا:

كل الطعام، ألا تتذكر المرشد؟ كان قد قال لجدك في الزورخانه: الطعام نصفه يصل للجسد والنصف الثاني يذهب للروح. في الحقيقة، يا حمار، أنت الذي قلت هذا الكلام، قبل وفاة أبيك، قبل يومَين عندما أكلنا الباجة. لقد دبّ الضعف في روحك الآن، فعليك أن تأكل الطعام.

وحتى العصر، عندما كان مجتبى يعود من المدرسة ليزورنا، لم نتكلم كثيرًا. كنا نتكلم حول هذه الأمور فقط. عندما كان يأتينا مجتبى عصرًا، كان كريم يبدأ بالحديث. إنه لم يتحدث وإنما كان يؤيد كلام مجتبى. كان مجتبى يتحدث قليلًا عن أحداث المدرسة. وكان يواسيني قليلًا أيضًا. كما كان يتحدث بأدب. لم يكن يقول «أبوك» وإنما «أبوكم».

عزيزي علي يجب أن تكون قويًا، يحتمل أن لا تكون روح والدكم راضيةً من جلوسك هذا وحزنك. بدل الحزن والغم، فكّر ماذا يجب أن تفعل لكي تدخل السرورإلى روحه. إلا أنني لم أكن مستعدًا للقيام بأي عمل. وكان كريم يهز رأسه تأييدًا لكلام مجتبى بدلًا منّي وكان يقول: إن ما يقوله مجتبى صحيح. كان يتحدث بأدب أمام مجتبى بصعوبة ويقول: يجب عليك أن تأكل الغذاء. واضح، أي إنسان أحمق يفهم هذا. هكذا ترضى روح أبيك عنك.

إلاّ أنني لم أكن مستعدًا للقيام بأي عمل حتى الأكل وكان جدي طريح الفراش ويسبّح طوال النهار. كان قد انهار من آلام الظهر. ومريم لم تكن تتكلم معي. حبست نفسها في غرفتها وما أن يدخل شخص غرفتها تمسح دموعها وتشغل نفسها بلوحتها. لوحة سوداء كانت قد سوّدت كل مكان فيها. كانت تذهب إلى نهاية الغرفة وتنظر إلى اللوحة من بعيد. كانت اللوحة سوداء بأسرها وبلون واحد.

ولكنها كانت تضيق عينَيها وتحدق باللوحة وكأن نقطةً في اللوحة لم تعجبها. لا أعرف كيف كانت ترى تلك النقطة من تلك المسافة. كانت تتقدم بوساس عجيب وليس بالفرشاة وإنما بميل الكحل، تطلي تلك النقطة. لم تكن قد أعدت اللون، بل استخدمت مكحلة أمي بدل اللون الأسود. انتهت من اللوحة أخيرًا، أو ربما انتهى ما في المكحلة من كحل. بعد انتهاء مراسم أربعين أبي، أصبحت لوحةً سوداء، سوداء تخطف البصر. ذهبت ودفنتها تحت إحدى شجرتَي الرمان في الحديقة. في تلك السنة وفي الربيع، جفت شجرة الرمان تلك. ولكن بالمقابل نمت الشجرة الأخرى وقوى جذعها لأننا دفنا تحتها أفعًى مطبوخةً. الأفعى بها قوة شديدة تضاعف قطر جذع الشجرة. كبرت تلك الشجرة بدل الشجرة التي ماتت. طبعًا كان الآخرون يقولون شيئًا آخر. عندما حان وقت قطاف رمان تلك الشجرة السليمة التي دفنًا الأفعى تحتها، كان كل الرمان أسود. كان قشر الرمانة طبيعيًّا وسليمًا وخفيفًا وكانت الرمانة رفيعة العنق وحمراء اللون ولكن عندما تكسرها ترى أن كل حباتها سوداء. كانت مريم تقول إن ذلك بسبب اللوحة السوداء التي دفنتها تحتها وذلك ردًا على ما كنت أقوله أن تلك الشجرة هي التي دفنا تحتها الأفعى.

وكانت تقول إن الشجرة التي جفت وذبلت لم تتحمل القوة الكامنة في الأفعى فاحترقت. أحيانًا، كنت أشك أيضًا ربما كانت مريم على حق؟ على أي حال، فإن حكاية طبخ الأفعى لطيفة (راجع: خماسيته)

نحن الآن في خماسيته! ماذا أقول؟!

ولكن أمي كانت تجلس طوال النهار على سجادة الصلاة وتتحدث مع اللّه. تتحدث بسرعة، كانت تصرخ أحيانًا وكأنها تتشاجر معه نعوذ باللّه.

وهكذا كان اللّه يعيش معنا في القدم ومن الطبيعي أنه يحصل أحيانًا بعض المشاجرات. ماذا أقول؟ ربما كنت أكفر؟!

وكانت مهتاب هناك أيضًا. كنا نرى بعضنا البعض كل يوم. كل يوم بذريعة ما لم تكن مهتاب تخرج كثيرًا من الباحة الخلفية. كان مزاجها متعكرًا. كنت أعرف أنها تسرّح شعرها صباحًا. بالضبط بعد أن تجمع أم كريم سفرة الفطور ويطرق الميرزا الباب ليستمع في ذلك اليوم إلى أوامر جدي وإرشاداته بشأن القمين ويخرج

إسكندر، كنت أختلق ذريعةً كل يوم بعيدًا عن أنظار أمي لأساعد أم كريم في نقل الأواني للحوض في الباحة الخلفية. أثناء تلك المساعدات رأيت الشلال البني في الحوض، حوض الباحة الخلفية.

كانت مهتاب تسرّح شعرها وراء شباك غرفتها وكانت تسريحتها تنعكس في الحوض. وربما لذلك سميت شعرها الشلال البني. ربما لو كنت قد رأيت شعرها في الباحة لقلت الصفصاف الباكي البني. لا تظن بي سوءًا! العاشق الذي لم يحتلم بعد فهو عاشق حتمًا ونفسه بركة... يا علي مدد!

في اليوم الأول الذي وقع فيه الشلال البني في الحوض وقع إناء زجاجي لشرب

الماء وفي اليوم الثاني وقع أبريق صيني وانكسر، وفي اليوم الثالث انكسر إناء بلوري خاص بالجبنة، وفي اليوم الرابع انكسر فنجان نفيس ذو نقوش ورسوم كثيرة عائد لأمي.

وفي اليوم الذي تلاه لم يقع شيء ولكن انكسر شيء آخر. انكسر قلبي، لأن أمي بدل أن تجلس على السجادة أتت للباحة الخلفية وقالت:

ماذا تفعل هنا يا علي؟ إذا كنت نشطًا هكذا بحيث تأتي لمساعدة أم كريم اذهب إلى المدرسة إذن.

ولكن مهتاب كانت منزعجةً. لم تنزعج لأن أمي أتت. كان كريم يظن أن انزعاجها بسبب الطعام. لأننا في تلك الأيام كنا نأكل مع بعض. كانت أم كريم تطبخ في المطبخ لنا ولهم وللضيوف، الضيوف الذين كانوا يأتون كل ليلة.

- كان كريم يظن أن مهتاب منزعجة لأننا نأكل مع بعض وكان يقول:

أقول لمهتاب. بالنسبة لنا فإن ذلك أفضل. أكيد أن الطعام هنا أفضل من طعامنا بمائة مرة.. ولكنها حمارة. منزعجة وكأن أبوها كان نائب السلطنة في علي آباد! حسنًا ليس من باب المجاملة أنتم تملكون ونحن لا نملك شيئًا.

أقول لها يا حمارة! الماء لا يجري نحو الأعلى... بل يجب أن يجري نحو الأسفل. لو جرى نحو الأسفل، ستختل المعادلة ولكني لم أكن أقول أي شيء. كنت

أجلب لها الطعام. بحيث لم يشعر أحد. كنت أخرج إناء الطعام دون أن ألفت انتباه أحد. كانت أمي في شرود دائم ومريم في غرفتها وجدي مستلق في فراشه وكنت أوصل الطعام لمهتاب خفيةً وأقول:

هذه حصتي.

وكانت تقبل مني الطعام بإكراه وتأكله. عندما كنا نرى بعضنا البعض، كنا نشعر برغبة بالبكاء. لا تظن بنا سوءًا! كان سني لا يتجاوز الثانية عشرة. لم يكن مجموع عمرَينا نصف عمر أحد عشاق الطاولة المجاورة في مقهى المسيو برنر. وطولنا كذلك. فعندما كانت تقف كان رأسها يصل إلى كتفي لذلك عندما كانت تنظر إليَّ كانت تضطر لرفع رأسها لذلك تتجمع الدموع في عينيها ولا تسقط وتتحول عيناها البنيتان الناصعتان إلى قطعة من البحر. كنت أرى البحر أو السماء أو الجبال أو القمر في عينَيها.

كنا نبكي بحرقة ونغص بعبرتنا. وفي مرة، ساءت حالتها من البكاء. تراجعت للوراء واصطدمت بالجدار. كانت تترنح وتبكي. خفت أن تقع على الأرض، أمسكت بأكتافها الناعمة بيدَي. حركتها ولكنها لم تعِ. واستمرت تبكي وأكتافها تهتز من شدة بكائها. أخذتها وأجلستها على الدرج جنب الممر وجلست إلى جانبها أيضًا. وضعت رأسها على كتفي واستمرت تبكي حتى ابتل كتفي من دموعها. قربت رأسي من وجهها فشممت منه رائحة الياسمين. كانت رائحةً قويةً بحيث اضطررت إلى أن أسحب رأسي للوراء. كلما كنت أقترب من مهتاب، كانت رائحة الياسمين تسكرني، رائحة الياسمين القوية تلك، لم تسمح للإنسان أن يقترب من مهتاب. لم تكن رواية التقوى ولكنها مجرد رائحة الياسمين، الرائحة ملأت الباحة بأسرها. ملأت كل الباحة ورفعتها للسماء. ونحن كنا جالسين على المدرج ونرى من هناك، من الأعالي، من السماء كل مكان. رأينا مداخن القمائن كأعواد تهوي ورأينا طالبات الصف التاسع لمدرسة إيران للبنات. وكانت زميلات مريم يتزوجن الواحدة تلو الأخرى ويلدن. ضحكنا أنا ومهتاب ونظرنا إلى بعضنا البعض. وأثناء ضحكها فقد أقطبت مهتاب بوجهها. خرجت مريم من غرفتها ورفعت رأسها ورأتنا أنا ومهتاب نضحك ونبكي. كان رأس مهتاب على كتفي. لم تقل مريم شيئًا وعادت إلى غرفتها.

كانت رائحة الياسمين قد ملأت الباحة ورفعتها إلى السماء وكانت رائحة

الياسمين هي الوحيدة التي تستطيع أن تملأ الباحة وترفعها إلى السماء.

وإلاّ، فإن روائح كثيرةً قد تملأ الباحة، مثل رائحة حساء الخضار. كانت رائحة الياسمين قد ملأت الباحة كلها ورفعتها للسماء. كنا نرى من الأعلى سيارة جدي الدودج وهي تتأرجح في جادة القمين بلا هدف. وقفت في مكان قريب من حسين آباد، قرب سبعة أشياء سوداء كأنها أحجار صغيرة. كانت تلك الأشياء أولئك العميان السبعة.

قال الأول: «ليعوضك اللّه» وقام النفر الأخير ليجلس في أول الطابور. وكانت سيارة قوام الفورد وهي سيارة السلطنة السوداء والتي كانت كنملة تذهب هنا وهناك وتظن أنها ليست تائهةً، مرةً تتجه يمينًا و مرةً شمالًا وكأنها تلعب، ومرت بالعميان السبعة، صاح سائقها: هذه سبعة أحجار. ويبدو أنه كان على عجلة من أمره لأنه لم يرهم أصلًا. من هناك من الأعالي كان واضحًا أنه تائه. أرتني مهتاب مكانًا بعيدًا. مقهى المسيو برنر في فرنسا. أرتني نفسها ونفسي كذلك. لم أكن أعرف أين يقع ذلك المكان. ثم أرتني الأعالي. أرتني أبي الذي كان في السماء وفي العلى. كان يُرينا أنا ومهتاب لأصدقائه في السماوات العلى. كان له رفاق بشوشون لم أكن أعرفهم. كان أبي يشير بسبابته – التي فقدها إلى ابننا أنا ومهتاب الذي لم نكن نمتلكه، أسرّ لهم بشيء وضحكوا من شيء لم يكن قد قاله. من الواضح أنه كان شيئًا حول زواجنا. لأننا لم نتزوج أبدًا. وبعد ذلك، رأيت أمي على الأرض. كانت لا تزال تجلس على السجادة وتتكلم. قامت إمي من على السجادة وجاءت جنب الأيوان. رأتنا أنا ومهتاب نجلس إلى جانب بعض على الدرج. تقدمت وصاحت بصوتها الذي بُح من البكاء والنواح:

– تعال يا علي إلى هنا بسرعة!

انتهت رائحة الياسمين. تلك الرائحة التي ملأت الباحة ورفعتها إلى السماء. لم يعد هناك شيء يبقينا في الأعالي، وقعنا من السماء ربما بسبب قانون الجاذبية طبعًا. هي نفس الجاذبية التي أبقتنا في الأعالي، لا جاذبية نيوتن والشمس، بل جاذبية مهتاب والقمر. وقعنا على الأرض ووقعت دموعنا على الأرض بشدة وانكسرت قلوبنا. البناء الوحيد الذي إذا اهتز استحكم هو القلب. قلب الإنسان يجب أن يعصر كرمانة لكي يخرج عصيره.. طبعًا عصيره لذيذ...

مسحت دموعي. كانت لذيذةً. ذهبت إلى أمي ولم يكن ذاك بسيء. لأننا أنا ومهتاب لم نكن نبكي لأبي فحسب، كان لنا شعور آخر، عندما رأينا أبي في السماء، هو ورفاقه بوجوه ضاحكة في الأعالي لم نعد نبكي من أجله. يبدو أننا كنا نبكي لنفسنا. ماذا أقول أنا؟ هل أنت معي أيها الكاتب؟ ربما اصطنعت ما قلته لك من عندي. ليس من المؤكد أن يكون ذلك حقيقيًا. ولكن بما أنك كتبت ذلك... فإنه وقع حتمًا...

لم نذهب أنا ومريم لمدة أسبوع أو أسبوعَين إلى المدرسة. ولم يذهب كريم ومهتاب أيضًا لأجلنا إلى المدرسة. وبعد أن ذهبنا إلى المدرسة وبّخوا مهتاب وكريم بشدة. قالوا لهم إن والدكم لم يتوف فلماذا لم تأتوا. وهذا صحيح، فأبوهم إسكندر كان سليمًا.. وللحقّ فإن إسكندر لم يصبه سوء.. ماذا كنت أقول؟ كان يجب أن أحكي حكاية إسكندر.. حكاية إسكندر والأفعى.

***

كان جدي طريح فراش المرض. بعد الأيام العشرة للمأتم، لم يتحرك من مكانه لأسبوع أو أسبوعَين إلى أن أتى اليوم الذي زاره فيه رفاقه في رياضة الزورخانه، ومن ثم جاؤوا بطبيب الأعشاب، ذلك الذي سبق أن تكلمت عنه. لم أفهم ذلك اليوم ماذا قال طبيب الأعشاب للمرشد، ربما بسبب صوته المبحوح. ولكن الصوت المبحوح لا يمكن أن يكون السبب لأني لم أفهم أيضًا ماذا قال المرشد لإسكندر مع أن صوته كان جهوريًا.

سمعت صوت إسكندر فقط الذي أجاب قائلًا: «الكلام الصحيح لا يردّ. فقرات الظهر. الإنسان بحاجة إلى فقرات ظهر جيدة..».

مرت أسابيع. وكنا نذهب صباحًا أنا ومريم وكريم ومهتاب مع بعض إلى المدرسة. كانت أمي منشغلةً بأحزانها، لذلك لم تكن منتبهةً لنا وإلا لقالت:

لا تشوّهوا سمعة عائلتكم. لا تصادقوا أولاد الحفرة...

عندما كنا نذهب إلى المدرسة رأينا مرةً طبيب الأعشاب صباحًا وبيده مخلاة واقفًا قرب الباب يكلم إسكندر. عندما شاهدانا، أنا ومريم سكتا. سلّم علينا إسكندر وقال:

إن شاء اللّه عندما تعودان عند الغروب، سترون الجد واقفًا مشافًى. إن نفس هذا الطبيب مباركة... لم نفهم ما كان إسكندر يقول. نظرنا، أنا ومريم لبعض باستغراب ومشينا. فكّرنا في الطريق بشفاء جدي. عند السوق، رأينا الدرويش مصطفى بعبائته وجبته البيضاء وكشكوله وفأسه، قال لي:

يا من اسمه دواء وذكره شفاء. إنه كذب عندما يقولون الدواء من عندنا والشفاء من عنده... الدواء من الإمام والشفاء من الإمام علي أيضًا. اسمه دواء وذكره شفاء.... ياعلي مدد.

نظرنا مرةً أخرى، أنا ومريم لبعض باستغراب وأكملنا طريقنا. حتى الغروب، عندما عدنا كنا نفكّر بجدي. كنا ننتظر أن نجده نشاطًا ومرحًا ولكننا عندما وصلنا إلى بداية الشارع شممنا رائحةً سيئةً. وحين مررنا بدكان درياني ازدادت حدة الرائحة، ضحك كريم وقال:

-الظاهر أن درياني لم يعثر على المرافق الصحية للمسجد.

لم نضحك ولم تكن مريم تستلطف كريمًا. وكنا أيضًا حزينَين ولكن كريمًا كان على حق. كلما اقتربنا من المنزل كلما ازدادت الرائحة. كان باب البيت مفتوحًا. دخلنا البيت وكان باب الباحة الخلفية مفتوحًا وكانت مهتاب تقف هناك وقد غطت أنفها بطرف ربطتها. لذلك كانت نهاية الشلال البني قد ظهرت عندما رأتني. ضحكت ضحكةً خفيفةً وقالت:

يا علي! قام جدك من فراشه ولكن ليس بسبب دواء وعلاج طبيب الأعشاب.

تجاوزنا الممر متعجبين ودخلنا باحة المنزل. كان جدي واقفًا وهو يصيح ويصرخ. كانت أمي تلف قطعة قماش على فمها وقد وقفت فوق الأيوان. كانت تسب وتلعن. كانت الرائحة العفنة قد ملأت المنزل. تقدمنا واضطررنا من حدة الرائحة أن نمسك أنوفنا. كان قدر نحاسي صغير فوق نار في وسط الباحة. كانت أمي تنظر إلى ذلك القدر وتلطم صدرها بقبضتها. وتسب وتلعن من جهز وعمل ما في ذلك القدر. كان جدي يشير لذلك القدر ويصرخ. رتّب طبيب الأعشاب عمامته البيضاء الحليبية اللون. التفت وتمتم قائلًا:

ما دخلي أنا؟ أنا عملت الوصفة. إن لم ترغبوا بذلك لماذا لم تذهبوا إلى

الطبيب الإفرنجي المسلك، شارب الخمرة! كان من الأفضل أن لا آتي. كنت ساذجًا. عاهدت نفسي ألف مرة أن لا أذهب إلى دور الأغنياء. كنت ساذجًا. مالهم وكتاب الطب الكبير؟ كان يجب أن يأتيهم ذلك الطبيب، شارب النجاسات ويطعمهم الحب الشبيه بالجبس وبول الحمار على أنها حبوب وشربت الدواء. مالهم ولفقرة الظهر الجيدة؟ ياخسارة نصف يومي الذي ضيعته لكي أجهز هذه الوصفة.

أخذ إسكندر كيس نقود من جدي وأعطاه للطبيب. هزّ الطبيب بعد إصرار وإلحاح رأسه وجمع عدته. عندما دخل الممر مكث لحظةً والتفت لجدي الذي اشرأبت جميع شرايين رقبته:

كان هذا الصراخ والصياح جيدًا. كان جيدًا لكم. سيخرج السموم من بدنكم ولا ترم هذا القدر بعيدًا ياحاج فتاح. عندما يهدأ غضبك قل لإسكندر أن...

صرخ جدي وقال لإسكندر:

أخرج هذا الرجل قبل أن تصيبني جلطة...

رافق إسكندر طبيب الأعشاب إلى الباب. ذهبنا، أنا ومريم يدفعنا الفضول لمعرفة ما في القدر ماسكَين أنوفنا. كان يطوف فوق القدر حوالي شبر من الزيت. أمسكت مريم بعود من الأرض وغمسته في القدر وحركته قليلًا. هاجت الرائحة بقوة.

-لا تفعلي ذلك يا بنت. إنك تتدخلين في كل شيء.

لم تعر مريم انتباهها وحركت السائل الدسم والغليظ في القدر. وصل العود في قعر القدر لقطعة من اللحم ورفعتها كانت أشبه بلحمة رقبة ولكن أطول وفقرات أكثر وأكثر دسومةً. نزل جدي وأبعد مريم.

لا تحركيه يا ابنتي. ستهيجين الرائحة بعملك هذا. هذه الأفعى المسكينة.

ثم التفت لإسكندر الذي كان واقفًا في إحدى زوايا الباحة كقطة مضروبة وقال:

كان يجب أن تعرف هذا. ولنفرض أنك لم تعرف. ألم يكن من المفروض أن تسألني؟

قال المرشد والحكيم... يا سيد إن شفائكم...

شفائي؟ وهل شفائي بيد طبيب الأعشاب وهذه الأفعى المسكينة. ألم تخف من أن تلدغك وتصبح رمادًا؟ لقد خلفت ورائك طفلًا صغيرًا. إن لم تهتم بنفسك.

فكّر بهؤلاء الأطفال. قل لي من أين أتيت بهذا الحيوان المسكين يا إسكندر؟

من الباحة الخلفية. يا سيد لم تكن مؤذيةً. كل يوم، كانت الأفعى المسكينة تجلس عند الغروب هادئةً قرب الدرج. ضربتها هناك بالمسحاة...

الباحة الخلفية؟! لا بد أن تكون تلك الأفعى...

أيّ أفعًى يا سيدي!؟

جدي الذي كان قد هدأ لتوه، اشتعل غضبه من جديد وتورّمت شرايين رقبته، ولو كان بيده شيء لرمى به إسكندر. وصرخ حتى بحّ صوته.

الباحة الخلفية... يا إسكندر الغبي. هذه نفس الأفعى التي أطعمتها الخبز والملح. قتلتها بقلة مرؤة وشهامة. سلمت يمينك. الحيوان قد وثق بنا. ونحن به. لماذا قتلتها يا إسكندر؟ لكي أشفى؟ وكيف عرفت أنني سأشفى؟ لنفرض أنك عرفت. كيف عرفت أن هذه المسكينة يجب أن تموت كي أشفى؟

ألم تفكر بأنه ربما يكون الصلاح أن أبقى طريح الفراش، ألم تفكر أن الخير في أن تبقى هذه الأفعى لفترة طويلة في ضيافتنا؟

لو كنت أريد أن أشفى لشفيت. رأيت كيف أني بلمح البصر طلبت من اللّه وقمت بكلمة يا علي. لأري طبيب الأعشاب هذا أن الدواء والشفاء من اللّه. لأريه أنه أسوأ من ذلك الطبيب. إذا كان ذلك الطبيب شاربًا للنجاسة – وهو ليس كذلك – فإنه على الأقل لا يسقي الناس نجاسةً كما أراد أن يفعل هو... وبعد أن هدأ جدي قليلًا قال:

كنت أتوقعها من أي شخص آخر ولكن ليس منك يا إسكندر. لم أتوقع ذلك منك. كنت معي عمرًا يا عديم المرؤة. أنت تعرفني. أنا لا أرضى حتى أن أؤذي نملةً من أجل راحتي... أنا غاضب أساسًا من أنك تعرف أني أطعمت هذه المسكينة خبزًا وملحًا..

رفع إسكندر الذي كان قابعًا في إحدى زوايا الباحة رأسه بهدوء وقال:

لا يا سيد. اللّه شاهد علي. أنا لم أعرف بهذا الموضوع وإلا فلتحل علي اللعنة وليقطع مقطوع الساعدَين سيدي العباس بن علي عليه السلام يديَّ إن كنت فعلت هذا الشيء وأنا أعرف بذلك. لم يكمل جدي الحديث. طأطأ رأسه ودخل غرفة الزاوية. في هذه المسألة كنا نختلف أنا وجدي. لم يلح جدي في اتباع أخطاء الناس وأنا كنت ألح وأنت أسؤ من كلَينا. لقد تتبعت أخطاء الناس كثيرًا.

ولكن الخطأ المرتبط بإسكندر والذي أشرت إليه في بداية الفصل، هو أنه لم يكن حاضرًا في موضوع الخبز والملح و قضية طبخ الأفعى. أكد هو ذلك بنفسه، وكان صادقًا، لأنه ربيب جدي ومن المحال أن يكذب من كان ربيب جدي، أما عن سقراط فهوفان... ماذا أقول؟ حسنًا. أنت كتبت أنه كان حاضرًا في خماسيته.

وعلى أي حال فقد دونت ذلك. ولنفترض أن في ذلك تناقض، فلا داعي للقلق، فثمة من يقول أن هذا الصنف من الروايات وطريقة الكتابة إنما هي موضة، أليس كذلك؟!

نحن، أي علي وعشيرة فتاح أيضًا. نعم، لست أنت وحدك الذي تفرح؟! لقد أطنبت في الكتابة...

في نهاية المجلس، دعى المدّاح وطلب من اللّه الرحمة لروح عبد اللّه الأصفهاني وابن الحاج فتاح وقال بصوت مرتفع:

يا إلهي أرحم المستغيثين، آمين.

اقض ديوننا. شاف مرضانا واقض حوائجنا.

في هذه الليلة العزيزة، اغفر لنا ذنوبنا.

في هذه الليلة، اجعل أرواح المتوفين عبد اللّه الأصفهاني وابن الحاج فتاح تلتقي على مائدة سيدهم أبي عبد اللّه الحسين.

ردّد الضيوف: آمين.

سداسيتي

وفي غد ذلك اليوم الذي قام طبيب الأعشاب والعم إسكندر بذلك العمل القبيح، طلبت أمي من أم كريم إحضار النحّاس الذي كان يشتغل في دكان السمسار إلى البيت، كانت والدتي تجلس في الأيوان، تسحب أنفاسًا عميقةً من النارجيلة، تتوهج الجمرات وتتصاعد فقاعات الماء في زجاجة النارجيلة. بعد ساعة من خروجها من البيت، عادت أم كريم برفقة نحّاس مسنّ. وضع النحّاس يده ذات الثّفن على صدره احترامًا لأمي وتقدّم قليلًا، طأطأ رأسه، وقد حال ذلك دون رؤية تل القدور المتراكمة جنب حوض الماء. رحبّت أمي به وطلبت منه أن يرى القدور النحاسية. تقدّم الرجل العجوز ونظر إلى القدور المتراكمة.

كان واضحًا أنه قد تم غسلها أكثر من مرة، إلا أن ذلك لم يمح أثر الفحم الأسود الذي طبع على سطحها الخارجي، تقدم النحّاس خطوات أخرى، وأصيب بالدهشة من عدد القدور، بلّل إصبعه بلعابه ومسح به قاع أحد القدور ثم صار يتابع امتداد الأثر، هزّ رأسه مبديًا حيرةً من الأمر، ثم كرر نفس العملية في قاع قدر آخر. أخذ حجارةً صغيرةً كانت ملقاةً في جنينة الدار، من جوار شجرة الرمان تحديدًا، رسم خطًا قصيرًا على قعر القدر ثم اتجه نحو الأيوان:

– سيدتي، هذه قدور قد تم جلاؤها سابقًا وهي ليست بحاجة إلى جلاء مجدد.

أجابته أمي غير مكترثة بكلامه:

– لم أدعك إلى هنا كي تجلي القدور، ولا أنوي والعياذ باللّه أن أغبن حقك،

لكن ثمة من استعمل إحدى هذه القدور لطبخ أفعًى، ولا نعرف في أي قدر.

قال الجلاّء باستغراب:

– أفعى؟

– نعم، أفعى من أجل شفاء آلام الظهر التي كان يعاني منها الحاج فتاح. أولادنا أصروا أن نعرف القدر الذي تم طبخ الأفعى فيه، إنهم ملحّون على عدم استعماله من جديد.

– ليس ثمة غبن في الأمر ولا عيب، سوف نغسل جميع القدور ونكون بذلك قد تخلصنا من هذه المعضلة.

– لا أنوي أن أستعملها مجددًا، أريد منك أن تأخذها للسمسار وأن تبيعها لتشتري قدورًا بنفس التعداد.

– ظننت أن مهمتي تقتصر على الجلي والغسل، ولم أفكر قط بعرضها للبيع. جميع أصحاب المحلات المخصصة للقدور لن يستطيعوا مجتمعين شراء هذا التل الكبير من القدور.

لكن يمكنك أن تضعها لدى السمسار أمانةً ويبيعها على هون.

هذا جزء من المشكلة، والجزء الآخر يتعلق بالمبلغ الذي أحتاجه لشراء قدور بنفس التعداد، فالمبلغ الذي سوف نحصل عليه من بيع القدور المستعملة سوف لن يكون كافيًا.

طلبت أمي من أم كريم أن تحضر الصندوق الخشبي الصغير، أخرجت قطعًا نقديةً ورقيةً مدعوكةً، ثم أعادتها إلى مكانها بعد أن أخرجت سبيكة "أشرفية"[١] وأعطتها للرجل المسن.

أمسك الرجل بالسبيكة، قبّلها ووضعها على جبينه:

أعتقد أن بالإمكان شراء قدور أكثر عددًا من القدور القديمة، بارك الله

(١) قطعة نقدية.

برزقكم، سوف أمضي إلى السوق اليوم وأرتب الأمور على أحسن ما يرام. وأعود مساءً لتصفية الحساب.

خرج من الدار لجلب مجموعة من الحمالين لنقل القدور. أغلقت أم كريم الباب وراءه مباشرةً وتسلقت الدرج بسرعة وجلست في الأيوان وقد أثنت قدمَيها وشرعت تتحدث بهدوء:

- سيدتي، من المثير للندم أن تقدمي على بيع هذه القدور، فهذا عمل غير محبذ، فلن يكون بإمكانك أن تعثري في الأسواق على مثيل لها، ولا تنسي أن بعضًا منها كان ضمن هدايا عرسك. الحاج فتاح لا يرضي بهذا. أقسم باللّه أنني لا أعرف في أي واحد منها طبخ إسكندر تلك الأفعى اللعينة. أنا على معرفة بأخلاقك، ولو أنني كنت أعرف لعزلته ورميته خارجًا. وقد رأيت بنفسك أنني قمت بغسلها كلّها أكثر من سبع مرات، وقد أنهكني غسلها، ومن المؤكد أن القدور تطهرت بعد غسلها عدة مرات، فالأفعى ليست أكثر نجاسة من الكلب والخنزير.

استنشقت أمي نفسًا طويلًا من النارجيلة ثم التفتت إلى أم كريم وقالت:

لم تكوني عمياء؟ ألم تشاهدي كيف أن عليًا امتنع يوم أمس عن تناول الطعام؟

كان على إسكندر أن يرمي القدر خارجًا بعد أن دفن الأفعى في جوار الشجرة. والآن إن أقسمتُ أكثر من ألف مرة لعلي ومريم أنني رميت القدر فإن ذلك لن يقنعهما أبدًا.

استجابت أم كريم لكلام أمي وهزت رأسها بالتأييد:

كما يصدق كلامك على أبنائك، فذلك يشمل عزيزتي مهتاب أيضًا، هي الأخرى لم تأكل البارحة شيئًا.

أمسكت أمي مرةً أخرى برأس الأنبوب المطاطي للنارجيلة وراحت تستنشق نفسًا آخر متجاهلةً كلام أم كريم وربما قالت في سرها: هذا لا يهمني أبدًا.

بعد ساعات قليلة من ذلك، جاء عدد من الحمالين وقد أحضروا أربع أو خمس عربات إلى جنب بيت الحاج فتاح ونقلوا فيها القدور، وقبل أن يحين وقت الغروب، عاد الجلاء المسن وقد وضع القدور الجديدة في نفس العربات وجاء بها

للبيت، كانت القدور الجديدة شبيهةً إلى حد كبير بالقدور القديمة، يصعب التمييز بينهما، ويكاد المرء أن يتصور أنها نفس القدور، مع ذلك ورغم الشبه الكبير إلا أن عليًا ومريم كانا على يقين باستبدال القدور.

قال درياني الذي رصد عبور العربات المحملة بالقدور القديمة والجديدة لزبائنه:

حينما يموت رب البيت تحل مصيبة كبيرة، هؤلاء الذين كانوا يتباهون بالثراء ليسوا سوى أناس ذوي جيوب فارغة، اليوم يبيعون القدور، وغدًا الوسائد، بعد غد سوف يبيعون الذهب وكل ثمينٍ يملكونه.

كان بعض الزبائن يهزون رؤوسهم مؤيدين كلام درياني، معربين بذلك عن الأسف لما آلت إليه أمور عائلة الحاج فتاح، وبعضهم الآخر كانوا يعبّرون عن رفضهم قائلين: لسنا بمثابة شرطي المحلة، ما دخلنا بالأمر؟ بعد هنيهة قال الباجچي إسماعيل (أبو الشوارب) الذي جاء لشراء زجاجة من الطرشي لزبائنه معترضًا عليه:

يا درياني! لا تتفوه بمثل هذا الكلام الفارغ، ما علاقتك بالأمر؟ لماذا تزج بنفسك في أمور لا تعنيك. نحن نعرف جيدًا أن نصف رزقك يأتي من جيب الحاج فتاح، وربما كنت أعمًى حينما لم تر أن القدور الجديدة التي تم شراؤها أكثر عددًا من القدور القديمة.

لم يكن لدرياني ما يقوله، كان لكلام إسماعيل (أبو الشوارب) وقع قوي ومنطقي وواضح، شغل درياني نفسه بتصفية حساب أحد الزبائن. بعد ذهاب إسماعيل، استأنف درياني نقده لبيت الحاج فتاح بطريقة موارية:

عائلته لم تنتظر عامًا واحدًا، هذه الدنيا لا وفاء لها، لقد تخلصوا من القدور كي يجددوا أثاث البيت، ألم يكن البيت جديدًا كي يقدموا على التجديد، اللعنة على هذا الزمان.

***

نادرًا ما كان الحاج فتاح يذهب إلى القمائن، يأتي في مطلع ظهيرة كل يوم إلى البيت ليتناول وجبة الغداء، لقد فقد رغبته بالعمل. منذ وفاة ابنه، فقد ميله للعمل. يعمل الإنسان من أجل منح ثمرة عمله لأبنائه، لم يعد لدي ابن، فلماذا يجب أن أتعب

نفسي بالعمل؟ كان القدامى يقولون لي بعد وفاة زوجتي: اذهب وتزوج من جديد، فلو مات ابنك - لا سمح اللّه - فما عساك أن تفعل؟ والآن فقدت ابني العزيز. لا بد أن مهمتي تتلخص بالاهتمام بأبنائه علي ومريم. هذه الثروة التي تتناقص يومًا بعد يوم، يجب أن تصل إليهما، وما يعقّد الأمر هو أنني فقدت الرغبة بالعمل، لم يعد الفرق كبيرًا، فمهما عملت أبدو كمن يفرغ سطلًا من الماء في البحر.

بعد أن يتناول وجبة الغداء، ينام الحاج فتاح لمدة ساعة أو ساعتَين، وعند الغروب يأتي العم إسكندر، ليهيىء السماور والفحم لنارجيلة الحاج فتاح ونارجيلة أمي التي بدأت في استعمالها منذ وفاة الوالد. يجلس الحاج فتاح في الغرفة ذات المصاريع الخمسة ليستمع لشكاوى الجيران. كان أحدهم يشكو زوجته: «إنها كالعفريت أيها الحاج، لا تصغي لأوامري، تجلس عند الباب وتثرثر مع الجيران، قلت لها أن ذلك عمل منبوذ، قلت لها تعلمي الأخلاق من أفراد عائلة الحاج فتاح الذين نادرًا ما يراهم أحد، أقول لها...».

كان رجل آخر يشكو جاره الذي يرمي الزبالة في مكان غير مناسب. قلت له تكرارًا لا تؤذ جيرانك فسوف أضطر أن أقدم شكوًى ضدك عند الحاج فتاح وأفضحك هناك. كفّ عن رمي الزبالة عند حائط بيتنا. فقد صار يفوح برائحة البول الكريهة.

من الحاضرين في المجلس، كان رجل من زملاء الحاج فتاح، أي رئيس صنف بيع السكّر ويدعى فخر التجار، وقد أجلس إسكندر حوذيه في الباحة على أريكة وذهب فخر التجار إلى الغرفة ذات المصاريع الخمسة. وكان السيد فتاح يتكلم مع أحد عمال القمين. وعندما رأى فخر التجار نهض من مكانه وعانقه. جلس فخر التجار على الموبليات وكان مستعجلًا. استمر الحاج فتاح بالتحدث مع العامل.

اذهب يا مسعود، فأنت مثل ابني، توكل على اللّه، تزوج، ثم عد مع زوجتك فقد أوصيت السيد رحمان أن يهيئ غرفةً نظيفةً ومناسبةً لك ولزوجتك.

هذا لطف منك سيدي!

أتمنى لكما حياةً سعيدةً مدى الحياة.

خرج العامل حائرًا، بعد أن ودعه الحاج فتاح لخطوات. وبعد أن جلس الحاج

فتاح على كرسيه، التفت لفخر التجار:

أهلًا وسهلًا بكم، هل أضعت الطريق، أم أنك كنت مصممًا على زيارتي؟

ما عساي أن أفعل، فحضرتكم صرتم تهملون الفقراء من أمثالي.

الفقير هو الشيطان. طيب، فما حدث لك؟ أنت خائف يا فخر التجار!

دسّ فخرالتجار يده في جيب معطفه وأخرج قصاصةً مطويةً من الورق وسلمها للحاج فتاح.

قال: قبل حوالي ساعتَين سمعت طرقًا على الباب، وحينما فتحتها سلمني مأمور من الشرطة وبرفقة موظف حكومي قصاصة الورق هذه. بصوت مسموع شرع الحاج فتاح بقراءة ما ورد فيها: حفل التجدد المهيب وفقًا لإرشادات السيد رئيس الوزراء واحتفاءً بمسيرة التقدم والتجدد ندعو نقابة تجار السكر والقند... ندعو فخر التجار وسيدته المحترمة...

رفع الحاج فتاح طاقيته من على رأسه وتوقف عن قراءة القصاصة، خاطب فخر التجار الذي كان ينظر إلى فتاح بترقب واهتمام بالغَين:

لقد تفضلوا عليك ومنحوك شرف حضور حفل مسيرة التجدد والازدهار، ربما ستكون فقرة تناول العشاء ضمن فقرات الحفل!

أرجوك لا تستهزئ بي.. إنها قضية تمسّ شرف الإنسان. أنت أيضًا رئيس النقابة وسوف يدعونك أيضًا. وما يعقّد الأمر بالنسبة لي هو أن الدعوة موجهة لزوجتي أيضًا. أنت تعلم أن في بيتنا حمامًا خاصًا لنا وأعطي الرشوة لعريف الشرطة كي لا يزاحمنا. فقال الحاج فتاح: أنا فعلت نفس ما فعلت أنت. وتعلم أيها الحاج العناء الذي تحملناه من أجل أن نتخلص من مضايقات عزتي، كان يأتي في مطلع كل شهر لنعطيه شيئًا من المال ليترك أمور تنظيم زقاقنا.

لقد فعلنا نفس الشيء معه، كي لا يتدخل في شؤون الحارة، لذا أشعر بالارتياح لأن كنّتي وحفيدتي تترددان دون إزعاج منه. ونحن نأخذ حفيدتي بالسيارة للمدرسة صباحًا.

لقد تدبرنا الأمر هكذا، ولكن كيف سيكون الحال مع هذه الدعوة المشؤومة.

لقد طلبوا مني شفويًا أن أحضر زوجتي من دون حجاب.

حسنًا، لا تصحبها معك، قل لهم إنها مريضة.

يا فتاح! ليس الأمر سهلًا مثلما تتصور، لقد أخذوا توقيعًا خطيًا مني بأن يتم عزلي من منصب رئاسة النقابة في حال عدم الحضور مع زوجتي، وربما كانت هناك غرامة إن لم تكن هناك عقوبة بالسجن أو النفي.

شغل فتاح نفسه بالتفكير بحلٍ يكفل له ولفخر التجار التهرب من حضور الحفل، كان يجول في الغرفة ذهابًا وإيابًا إلى أن جاء إسكندر حاملًا صينية الشاي، ألقى التحية على فخر التجار وقال للحاج فتاح:

سيدي، ينتظرك عند الباب السيد تقي مع شخص آخر والشرطي عزتي.

بعد أن مكث لحظةً، طلب فتاح من إسكندر أن يجامل السيد تقي للحضور داخل الدار. خرج إسكندر من الغرفة ذات المصاريع الخمسة. ارتدى الحاج فتاح عباءته البنية وقال لفخر التجار:

المصيبة تتربص بنا عند باب الدار.

بعد أن ارتشف فخر التجار الشاي، هز رأسه مؤيدًا وابتسم ابتسامةً مريرةً. خرج الحاج فتاح من الغرفة وسلّم على حوذي فخر التجار الذي كان جالسًا وذهب نحو باب البيت. في الممر التقى الحاج فتاح السيد تقي، ما أن وقعت نظرات السيد تقي على الحاج فتاح حتى أطلق ضحكةً وصار يفرقع أصابعه:

سيدي الحاج فتاح، لقد جاؤوا إلى رئيس موكب محبي الحسين، ليدعوه إلى حفلهم، ربما تفضلوا على الحاضرين بوجبة عشاء وربما حفلة للرقص. هيا أسرع والتحق بالمدعوين فقد ابتسم لك الحظ.

ربت السيد تقي على كتف الحاج فتاح، وهزّ بطنه واتجه متكئًا على عصاه نحو الغرفة ذات المصاريع الخمسة.

حينما رأى حوذي فخرالتجار، ضحك وقال بصوت مرتفع: عزيزي فخري، أنت أيضًا هنا؟ إذن ابتسم لك الحظ أيضًا، ألف مبروك.

***

اتجه فتاح نحو الباب، رأى رجلًا ذا تسريحة إفرنجية، قد جاء بصحبة الشرطي عزتي، كان يضع نظارات ليس لها ذراع على عينَيه، وكان يضطر أن ينظم محل استقرارها على عينَيه كل دقيقة. ألقى هو والشرطي عزتي التحية على الحاج فتاح. قال عزتي:

يا سيدي! هذا هو الحاج فتاح.

صافح الرجل ذو التسريحة الإفرنجية الحاج فتاح بحرارة، ثم رفع نظارته قليلًا وقال: يا حضرة السيد فتاح! يا نقيب نقابة الخزّافين! أعتقد أنك قد اطلعت على التطورات التي جاءت بأوامر حضرة الشاهنشاه. رتب السيد فتاح طاقيته وقال:

نعم، عرفت بعض الشيء؟

وأكيد أنك على دراية أننا ننفذ أوامر الشاه ونقوم بالإسراع في تنفيذ التطورات وقد رتبنا سهرة أنس يحضرها مسؤولون كبار من العاصمة خاصةً وكذلك شخصيات سياسية وعسكرية من العائلة المالكة الحاكمة ومن الأمراء القاجاريين، ومن المدعوين أيضًا، رؤوساء النقابات وبعض العلماء أيضًا.

هل دعوتم علماء لمجالس الأنس؟

نعم دعونا علماء إلى مجالس الأنس.

ضحك فتاح وقال:

أحمد اللّه أننا مستأنسون ببعضنا البعض ولا نريد أن نكلف حكومتنا الفخيمة. إن علاقة رؤوساء النقابات بالعلماء متينة منذ أعوام طويلة.

من المؤكد أن حضرتكم تمزحون، لكن حديثكم لا يخلو من الجدية، مع ذلك نكرر بأن حضوركم وحضور زوجتكم الكريمة أمر لا بد منه من أجل أن تكونوا في صميم عمليات التطورات.

أعتذر، إذ أن حضور زوجتي لن يكون ممكنًا.

ضحك الرجل ذو التسريحة الإفرنجية وقال:

يتعذر الجميع بنفس الأعذار تقريبًا، يقولون مثلًا، إنها غائبة أو إنها في سفر، أو إنها ذهبت لزيارة العتبات المقدسة، وهم لا يعرفون أن نساءهم أينما ذهبن فعليهن

أن يحضرن في الأسبوع القادم وإلا ستضطر الحكومة أن تتخذ تدابير لهذا الأمر.

إن زوجتي تتواجد في حديقة طوطي (الببغاء).

ضحك عزتي ضحكةً خفيفةً، فنظر إليه الرجل ذو التسريحة الإفرنجية وقال مخاطبًا الحاج فتاح:

لا إشكال في الأمر، سوف تذهب إليها وتعودا معًا لحضور الحفل.

لقد قلت لها سابقًا... لكنها لن تعود.

ماذا يعني أنها لن تعود؟ اذهب إليها وأمسك بيدها وأحضرها معك.

ليس بمقدوري أن أنفذ ذلك، من الأفضل لك أن تطلب مساعدة الحكومة لإحضار زوجتي من «حديقة الببغاء»، فمن الشائع عن الحكومة أن أنفاسها الدافئة تعيد الحياة للموتى.

زودنا بعنوانها وسوف نتخذ التدابير اللازمة.

مدينة شهرري، الشاه عبد العظيم، حديقة طوطي (الببغاء)، حينما تدخل من الباب الرئيسية وبعد أن تلقي السلام على مرقد السيد طاهر، بجوار الحائط الذي على اليسار، مقبرة عائلة فتاح...

لم يستطع عزتي أن يسيطر على نفسه، فانفجر ضاحكًا، رفع طاقيته من على رأسه وغطى بها وجهه، كان يقهقه بصوت عال. أراد الرجل ذو التسريحة الإفرنجية أن يسيطر على الموقف فبادر بالضحك، إلا أن ضحكاته كانت مفتعلةً، قال:

توقعت أن يكون الحاج فتاح رجلًا لطيفًا ومرحًا، حسنًا لو كان بإمكانكم الحضور بصحبة إحدى بناتكم، فالفتيات أكثر انفتاحًا من أمهاتهن.

لا بنت لي.

بدت الحيرة واضحةً على ملامح الرجل ذي التسريحة الإفرنجية، أراد أن يقول شيئًا حينما أنقذه عزتي من الإحراج:

يمكنك أن تدعو كنتك...

رمق الحاج فتاح عزتي بنظرات غاضبة جعلت عزتي يتراجع عن كلامه، بدا وكأنه يبتلع كلامه.

قال الرجل ذو التسريحة الإفرنجية:

إنه كلام معقول، بإمكانكم أن تدعو نجلكم وزوجته للحضور إلى الحفل نيابةً عنكم، فهو ولي عهدكم في نقابة الخزّافين.

صدرت ضحكة مريرة من أعماق فتاح وقال:

إن نجلي يرقد هو الآخر في مقبرة العائلة في حديقة الببغاء.

كاد الرجل ذو التسريحة الإفرنجية أن يفقد أعصابه، أعطى الرسائل الحكومية لعزتي وقال: يبدو أن جميع المدعوين تحولوا اليوم إلى شخصيات مرحة، بما فيهم السيد تقي الذي غمرنا بروحه المرحة. في جميع الأحوال عليكم أن تحضروا في الأسبوع القادم برفقة سيدة ترتدي ملابس عصريةً.

هزّ جدي رأسه وأغلق الباب ودخل الممر غارقًا في فكره.

***

حينما دخل الحاج فتاح الغرفة ذات المصاريع الخمسة، رأى فخر التجار يقف إلى جوار السيد تقي ويقهقهان ضحكًا، في حركة خاطفة انتزع السيد تقي الساعة ذات السلسلة الذهبية من معطف فخر التجار. حاول الثاني أن يستردها، لكن دون جدوى، قال له السيد تقي:

عزيزي فخري، عليك أن تفي بوعدك، وفضلًا عن ذلك فإن الساعة الذهبية لا تتناسب مع الرجل المسلم، فالمسلم لا يستعمل الذهب للزينة، أنا أخذتها منك كي أعطيها للكفار.

كان فتاح ينظر مستغربًا لمنظر فخر التجار الذي بدا فرحًا ومبتهجًا إلى حد غير متوقع، كان يتساءل في قرارة نفسه: كيف استطاع السيد تقي أن يدخل البهجة إلى قلب فخر التجار في هذا الظرف العصيب وأن ينسيه موضوع حفل السلطة. ففخر التجار فقد صوابه هو أيضًا. لقد تغيّر من حال إلى حال وقد قطع صوت السيد تقي سلسلة أفكار الحاج فتاح، حيث قال: يا حاج فتاح!

حينما وقع نظرهما على فتاح وقد بدت الحيرة واضحةً على ملامحه، حاولا أن يخففا من همومه، قال السيد تقي:

أهلًا وسهلًا بك يا فتاح، ماذا حل بك، تبدو وكأنك ذئب جريح، تعلّم من العزيز فخري. كان قد واعدني بأن يعطيني ساعةً ذهبيةً، انظر لقد خطفتُ ساعته الذهبية منه بطرفة العين، وأعطاني إياها برغبة لأنه يجب على المرء أن يفي بوعده، فماذا سأحصّل منك؟ قل: يا فتاح ماذا ستقدم هديةً لي؟

نظر فتاح إلى فخر التجار كأنه يسأله إن كان عليه أن يقدم شيئًا للسيد تقي؟ هزّ فخر التجار رأسه بعلامة الموافقة، فأخرج فتاح خاتمه الذي كان مرصعًا بحجارة الفيروزج وقدمه للسيد تقي. ضحك السيد تقي وقال:

شكرًا لك، شكرًا لك، ثم مسح على بطنه كعادته، وأردف قائلًا، لا تقلق بخصوص الأسبوع القادم، ليس هناك ضرورة أن تقلق من أجل نفسك ومن أجل فخر التجار ومن أجلي أنا، فقد دبرت الأمر، ولكن أرجو أن توافق ولا تذع السر. قال فتاح بدهشة:

كيف يمكنني أن أقضي على القلق، كيف سأحضر امرأةً غير محجبة معي في حفلة الأسبوع القادم، إنها ليست سلعةً كي اقترضها من دِرياني!

قال السيد تقي:

لا تعجل ودعك عن حديث درياني. ما دمت صديقك فلا تهتم ولا تقلق نفسك، لقد هيأت لك امرأة تحضر معك في الحفل في قمة الترقي وكأنها المرأة النموذجية التي يحلم بها الشاه.

ضحك فتاح وقال:

من أين هيّأتها ومن هي؟

أجاب السيد تقي برضًى:

قلت أنهن لسن امرآت غريبات. إنهن ثلاث نساء بولنديات، طاهرات نجيبات، تشردن بعد الحرب العالمية. صادفتهن أثناء عودتي من إحدى رحلاتي إلى بلاد الغرب، التقيتهن في إسطنبول. وكان معي عدد من الأصدقاء. شعروا بالحزن

لوضعهن المأساوي، وأثناء عودتنا إلى إيران وبمحض الصدفة التقيناهن على سطح الباخرة أثناء وصولنا إلى الساحل الإيراني. كنا نغادر الباخرة حينما رأينا عددًا من العاملين في المركب قد التفوا حولهن كوحوش مفترسة، لم يكن لديهن مبلغ لتسديد ثمن التذاكر، أنا ورفاقي دفعنا ثمن تذاكرهن وفهمت من إحداهن بلغة الإشارات، أنهن مفلسات، ربما سُرقت أموالهن في المركب، لم تسمح لنا أخلاقنا أن نتركهن بلا مأوًى فأقسمنا أن نساعدهن.

هن يعشن حاليًا في مزرعة أملكها في منطقة شميران ويعلّمن اللغة الفرنسية لأحفادي، وينسجن الملابس والقفازات. لهن مهارة عالية في الخياطة، ويدرن حياتهن من عملهن في هذه المهنة إنهن نساء شريفات لم تبدر منهن أعمال منافية للأخلاق. وقد سألت إمام مسجد قندي إن كان يجوز لنا توظيفهن من أجل الحفلة الحكومية فقال لا إشكال في ذلك خصوصًا وأن الناس سيقولون إن المؤمنين ضحكوا على الحكومة وأحضروا معهم نساءً أجنبيات عوضًا عن زوجاتهم ولكن هناك شرط واحد وهو أن تكون مطمئنًا من أن لا يخطأ كل من فتاح وفخري بحقهنّ.

قال فتاح:

أنا مطمئن بأنني لن أرتكب أي خطأ، ولكني لن أقدم أي ضمان بخصوص فخر التجار. فلا أستطيع أن أمنعه إن أراد اغتصابهن.

ضحك السيد تقي وقال:

لقد أخبرت إمام المسجد أن النساء البولنديات هن نساء صالحات ولن يقدمن على أي سلوك شائن حتى وإن رميناهن في محيط فاسد أو بين جمع من الشبان العزاب، وليس هناك ما يثير الشك بخصوصنا فنحن رجال في سن متقدمة.

***

روى فتاح لكنّته تفاصيل ما دار بينه وبين الرجل ذي التسريحة الإفرنجية، كما تحدث لها عن الخطة التي من المقرر أن ينفذها مع السيد تقي وفخر التجار. ضحكت أم علي وقالت إن في البيت غرفةً إضافيةً، فيما لو أعجب بإحداهن، فيمكن له أن يدعوها للسكن في تلك الغرفة والعمل في مجال الخياطة والتطريز. قال الحاج

فتاح: لقد أصبحت رجلًا مسنًا شبيهًا بمن حصد منذ سنوات حصاده واستنفد كل حصته من الحياة.

على مدار الأيام التي سبقت إقامة الحفل، التقى الحاج فتاح فخر التجار عدة مرات في مقهى شمشيري، كان الناس يتطرقون إلى الحفل بأحاديث شتّى يصعب التمييز بين الإشاعة التي لا صلة لها بالحقيقة وبين ماهي حقيقة.

كان الحاج رضا يعتقد أن موضوع الحفل ليس إلا لعبةً حكوميةً جديدةً، تحاول الحكومة أن تمررها على الناس، وربما سببت أضرارًا كبيرةً على حياتهم، وعندما تضايقت الظروف جمع كل أثاث بيته واستأجر ثلاث شاحنات وانتقل للعيش جوار العتبات المقدسة في العراق.

هل قصدت حاج رضا الكواز؟

كلا، إنما الحاج رضا مامان.

ليس الحاج رضا مامان وحده وإنما جمع غفير من الناس انتقلوا للعيش إلى جوار مراقد الأئمة في كربلاء، والنجف، وخاصةً النجف التي تضم عددًا كبيرًا من الإيرانيين. الحاج حسين طلا والحاج حسن أيضًا من ضمن الراحلين إلى هناك.

حينما ينعدم الأمن للناس فلا شك أنهم سيتجهون إلى أماكن آمنة للعيش فيها.

في خضم الأحداث والاعتقالات، سمعت أن أحد رجال الشرطة سحب العباءة عنوةً من رأس امرأة شريفة، وقد تأثرت المرأة إلى حد أنها أسقطت جنينها.

من المتوقع أن يداهموا البيوت ليصادروا العباءات وكل أنواع الحجاب.

كان هذا متوقعًا حينما سافرت عائلة الشاه إلى قم دون ارتداء العباءة.

لم يمنعوا العباءات النسوية فقط وإنما عباءات العلماء وعماماتهم أيضًا.

والأنكى من ذلك أنهم فرضوا على الرجال أن يعتمروا القبعة البهلوية.

رفع فتاح عرقجينه ونظر وضحك مع نفسه. لم يكن يتصور نفسه بقبعة بهلوية. وخاطب رجل هرم الحاج فتاح قائلًا:

يا حاج فتاح كيف ستتدبران الأمر، فحضرتك وكذلك فخر التجار أصحاب مكانة اجتماعية رفيعة. ابتسم الحاج فتاح وأجاب الرجل الهرم:

نستعين بالله. لقد تمرغنا بالتراب فلا يمرغوننا أكثر.

قال ذلك دون أن يسيطر على موجة من الخوف والقلق كانت قد داهمت أعماقه خوفًا من عاقبة أمره.

***

استقل فخرالتجار والحاج فتاح سيارة الدودج العائدة للحاج فتاح، كانا يخجلان من الناس والجيران من أن يجلسا مع نساء أجنبيات فتواعدا مع السيد تقي بأن يلتقيا به قبيل منطقة توبخانه. جلس فخرالتجار في المقعد الخلفي، فيما جلس الحاج فتاح إلى جوار السائق لأنه لا يحب أن يترك السائق لوحده وقد خاطبه قائلًا:

أتمنى أن تتذكر ذلك اليوم الذي جئت فيه من شميران، حينما كلفتك أن تسوق السيارة دون أن تنبس ببنت شفة حتى وإن رأيت رأسًا مقطوعًا مرميًا على قارعة الطريق، وأن تمحو من ذاكرتك كل ما رأيت وكل ما سمعت. هزّ السائق رأسه مؤيدًا.

إنك اليوم ترى شيئًا كالرأس المقطوع فلا تبُح به أبدًا.

فليطمئن سيدي!

في ميدان توبخانه، كان السيد تقي بانتظارهما حسب الاتفاق، كان يجلس إلى جوار سائق سيارته. لوح لهما بيده، فسارت السيارتان باتجاه حفل البلدية. من مقعده الخلفي، كان فخر التجار ينظر بين حين وآخر لسيارة الحاج تقي وللنساء الثلاث الجالسات في المقاعد الخلفية وهن منشغلات بالحياكة والثرثرة مع السائق الأرمني. بعد أن اجتازت السيارتان شارع «لاله زار» انعطفتا نحو مبنى البلدية وتوقفتا عند حديقة «باغ رز». نزل الجميع من السيارتَين، ووقف السائق الأرمني إلى جوار السائق الشميراني عند بوابة الحديقة.

عند البوابة ثمة قنديلان يعملان بالغاز ومصباح في وسطهما وصينية مملوءة بالحرمل منضوية على طاولة، وحارسان يقفان عند المدخل. ألقى الحارسان التحية على الضيوف، ما أن اجتازوا بوابة المدخل حتى توقفوا للحظة، فتاح وفخر التجار

والسيد تقي في جهة والنساء البولنديات في الجهة الأخرى. تذمر الحاج فتاح من نفسه حينما نظر إلى النساء. وفي اللحظة نفسها التقت نظرات الحاج فتاح بنظرات السيد تقي، هزّ الأخير رأسه متأوهًا، لم يعد ذلك الرجل الفكه، خفض الحاج فتاح نظراته، لكن فخر التجار كان يحدق بنظرات حادة نحو النساء، وحينما وقعت نظراته على إحداهن ابتسم واتجه نحوها وقال:

أنا سوف أحضر الحفل مع هذه السيدة الجميلة.

لم يجبه السيد تقي، لكن المرأة البولندية سحبت نفسها من جنب فخر التجار وركضت نحو السيد تقي وقالت له شيئًا غير مفهوم. بادلها السيد تقي بكلمات غير مفهومة، ثم استدار نحو فخر التجار:

يبدو أنك التهمت الحياء وتقيأته، هل تعرف ماذا قالت؟ لقد قالت: إنهن جئن إلى هنا بحكم ثقتهن بي، وإلا فإن فتيان إسطنبول أكثر وسامةً لهن منّا نحن الرجال الهرمين، آه لقد صرنا مثل ذلك الصياد الذي أنقذ الخروف من الذئب، لا حبًا بالخروف وإنما للظفر بلحمه.

طأطأ فتاح رأسه واتجه نحو الباب، لكن الحاج تقي أمسك بيده وأعاده إلى المكان الذي اجتمعوا فيه وقال له بصوت ساخط:

لا حيلة لنا يا حاج فتاح، نذهب معًا والنساء يجلسن لوحدهن ونحن نجلس لوحدنا.

كان الحاج فتاح يترنم بكلمات غامضة وبعد هنيهة لم يعد قادرًا على إخفاء غضبه فقال بصوت مرتفع:

لقد غلبونا وأسكتونا تمامًا وعلينا الآن أن نرقص مرغمين وفقًا لإيقاعهم. إنهم تغلبوا علينا بالضربة القاضية.

كان البستان يرضخ للمناخ الخريفي، ويبدو مصفرًا وقد فقد روحه، يشبه جثةً هامدةً، كانت الأضواء تتراءى من على بعد مسافة من أعمدة القاعة الواقعة في نهاية المزرعة. اتجهوا نحو القاعة وكانت الوريقات الصفراء تخشخش تحت أقدامهم.

عند باب القاعة يقف ذلك الرجل، يتطلع إلى الجمع من على بعد مسافة،

وحينما اقتربوا منه أكثر، وضع نظارةً بلا ذراعَين على عينَيه، وتأكد من النساء الثلاث، لم يكن يضعن ربطات على رؤوسهن. تقدم من الجمع وألقى تحيةً على السيد تقي قائلًا:

أهلًا بك وأهلًا بالحاج فتاح وأشكر فخر التجار على حضوره، تفضلوا، تفضلوا إلى الداخل، أهلًا بكن سيداتي، إن حضوركن شرف كبير لنا، آه يالذوقكن الرفيع، نساء عصريات بكل ما تعنيه الكلمة، انظر لقبعاتهن الجميلة ولذوقهن البديع، تفضلوا..

قال السيد تقي بصوت منخفض لذلك الرجل:

اخرس أيها الجرو.

يبدو أن الرجل ذا التسريحة الإفرنجية تفهم الأمر فلزم الصمت وصحبهم جميعًا نحو أكبر طاولة في القاعة. جلسوا حول أطراف طاولة مستديرة، النساء إلى جوار بعضهن الآخر، والرجال إلى جوار بعضهم البعض. ألقى فتاح نظرةً على الحاضرين وشعر بالطمأنينة حينما انتبه إلى أن الحضور لا يتجاوز العشرين شخصًا، أما النساء البولنديات فقد نسين لبرهة من الوقت إزعاجات فخر التجار ورحن يتهامسن تارةً، ويتبادلن أطراف الحديث بصوت مسموع تارةً أخرى.

على الطاولة، تم إعداد فطائر تحوي على الحليب المسكر وإناء ممتلىء بعصير الليمون وصحن فواكه. لم يكن الحفل قد بدأ نشاطه بعد. كان ذلك الرجل يملي على زميل له أسماء الحاضرين، ألقى السيد تقي نظرةً على المكان وقد لاحظ أن بعض الحاضرين جاؤوا مع نسائهم وبناتهم وكانوا يتضايقون إن نظر إليهم أحد ما، مما يعني أنهم كانوا في غاية الاضطرار لحضور الحفل.

أما النساء فقد خبأن أنفسهن في قبعات كبيرة الحجم من الموديلات الغربية وفي ملابس وفساتين فضفاضة من التصاميم الأوربية وكن يحرصن أن يخفين وجوههن خلف الكؤوس المعدة لعصير الليمون. عدد قليل من النساء لم يتضايقن من أجواء الحفل ويبدو أنهن سبق لهن حضور مثل هذا الحفل مرات عديدةً ماضيةً. فجأة همس السيد تقي لفتاح قائلًا:

انظر لتلك السيدة وذلك الرجل، هل عرفتهما، ربما يصعب عليك معرفة

المرأة، لكن دقق في ملامح الرجل، إنه رئيس نقابة الألبسة الجاهزة الذي كنت أعتبره من المؤمنين بسبب حرصه على المظاهر الدينية.

كان السيد تقي يتحدث عن رجل مسن تجاوز الستين ببضع سنوات، حليق اللحية، في يديه خواتم من العقيق والفيروزج، كان يشرب عصير الليمون ويجلس إلى جوار طاولة كبيرة، برفقته امرأة تجلس على مسافة ثلاثة مقاعد، لم تضع قبعة على رأسها، كانت سفورًا وقد أطلقت العنان لخصلات شعرها، ذات وجه جميل وأنف صغير الحجم وترتدي ملابس قطنية لم تناسب أجواء تلك الليلة الباردة، مع ذلك ربما لم يغب عن بالها تمامًا برودة المناخ فوضعت رداءً من الصوف على كتفَيها دون أن ترتديه وكان منظرها يبدو مثل امرأة خرجت للتو من المجاعة وقد عثرت على وجبة طعام شهية، لم يكن ذلك الرجل الهرم ينظر إليها ولكنه بين حين وآخر يقدم لها الحلويات والفواكه. انتبه فخر التجار هو الآخر لذلك الرجل الهرم المعروف بحرصه على العبادة وإقامة الشعائر الدينية، ثم صار ينظر إلى المرأة التي تجلس إلى جواره وقد شغف بجمالها.

بعد هنيهة، لفتت هذه المرأة انتباه النساء البولنديات اللواتي أطلن النظر إليها.

قال فخر التجار باستغراب:

- يا للحيرة إنه محمد علي بلحمه ودمه، هذا الرجل نعرفه من مسجد هدايت، إنه يحرص أن يؤدي الصلاة بوصفه إمامًا حينما لم يأت إمام جماعة المسجد، انظروا لمنظره الآن، يبدو وقد تعرى ليكشف عن جوهر حقيقته. لا أعرف حقًا أين يخبىء هؤلاء الناس وجههم الثاني؟

هزّ فتاح رأسه وقال بلهجة أقرب للاعتراض:

لا تتسرع في الحكم على الآخرين، ربما قال محمد علي نفس الشيء عنا.

بعد لحظات قليلة صارت المرأة ذات الشعر الذهبي تنظر بتمعن إلى النساء البولنديات، نهضت من مكانها متجهةً نحوهن، مسحت برداء معطفها شفتها وقالت شيئًا لهؤلاء النساء ثم جلست على ركبتَيها ووضعت رأسها في حضن إحداهن وصارت تبكي بحرقة مطلقة شهقات مؤلمةً، راحت إحدى النساء تمسح على رأس

المرأة ذات الشعر الذهبي محاولةً أن تهدىء من روعها وتخفف عنها آلامها.

أمسك فخر التجار بيد تقي والتمس به: أرجوك أخبرني ماذا في الأمر؟

وهل اعتقدت أن أبي أو أمي كانا يجيدان البولندية كي تتوقع مني أن أجيبك على سؤالك. ألم تسمع أنها تحدثت بالبولندية؟

بعد لحظة نهض محمد علي خان من مكانه واتجه نحو طاولة الحاج فتاح، بقي واقفًا إلى جوار كرسي الحاج فتاح دون أن يقول شيئًا. كسرت إحدى النساء البولنديات الصمت الذي أطبق على المكان وأسرّت شيئًا للسيد تقي الذي بادر بنقل ما قالته للآخرين، ثم أردف:

من حسن الحظ أنهن أبناء بلد واحد، فهذه السيدة ذات الشعر الذهبي هي أيضًا مواطنة بولندية.

كانت البولندية ذات الشعر الذهبي مستمرةً في البكاء، لكن بوتيرة أقل من اللحظات الأولى التي تعرفت فيها على مواطناتها الأخريات، وعلى بعد مسافة قليلة كان الرجال الأربعة يضحكون بصوت غير مرتفع، قال فتاح:

إذن يا سيد محمد علي خان أنت أيضًا واحد منا؟

نعم أنا واحد منكم، ولكني تساءلت في قرارة نفسي حينما رأيتكم في الوهلة الأولى كيف يمكن أن يحضر الحاج فتاح وهو المعروف بدوره الهام في مجالس عزاء موكب محبي الإمام الحسين برفقة نساء غير محجبات، وقلت في نفسي ربما كان يجيد فن التمثيل بشكل بارع في السنوات الماضية.

لا تقلق، فقد قلنا نفس الشيء عنك، قلنا إن الحاج محمد علي خان الذي يواظب على إقامة صلاة الجماعة بوصفه إمامًا للمصلين ماهو إلا ممثل قدير.

ضحك السيد تقي وقال:

الحمد للّه، إننا تعرفنا على حقيقة الأمر، ولكن إحك لنا يا محمد علي حكاية هذه المرأة، كيف تعرفت عليها وكيف صحبتها إلى هذا المكان؟ أما النساء الثلاث اللواتي معنا فإن حكايتهن طويلة جدًا.

سحب محمد علي أحد الكراسي وجلس عليه ثم قال:

حينما استلمت الدعوة للحضور صرت في حيرة من الأمر، وبلغ بي القلق حدًّا بحيث أنني كنت ألوب وأصابني الدوار دون أن يخطر أي حل على بالي، كنتُ أشبه بالذئب الجريح الذي يترنح يمينًا ويسارًا، وعلى عادتي خرجت لزيارة مرقد الولي إمام زادة معصوم، سيرًا على الأقدام، متذكرًا تهديدات ذلك الرجل الذي حضر بنفسه إلى محل عملي وصار يهددني فيما إذا غبت عن الحفل. في طريقي إلى الولي معصوم، رمت إمرأة سفور بنفسها أمام قدمَي وصارت تتحدث بلغة فارسية غير مفهومة تمامًا، طلبت منها أن تهدأ، وبلغة الإشارات وبعض الكلمات الفارسية فهمت أنها بلا مأوًى وتعاني من الجوع، تعاطفت معها وطلبت منها أن تتبعني، فكّرت بأن أصحبها معي إلى البيت وأعطيها وجبةً من الطعام، وأنا في طريقي إلى البيت واذا بنداء يدوي في أذني يقول لي: يا محمد علي هذه هي المرأة التي سوف تنقذك من حفل البلدية المشؤوم.

في هذه الأثناء قطع صوت ذلك الرجل حديث محمد علي، كان الرجل ذو التسريحة الإفرنجية يقف وراء طاولة كبيرة موضوعة في بداية القاعة وقد أمسك بيده ورقةً:

أيتها الخواتين والسيدات المحترمات، أيها السادة الأفاضل رؤوساء النقابات، في بداية الأمر أتقدم لحضراتكم بجزيل الشكر على حضوركم الذي شرفنا في هذا الحفل الذي نتمنى أن يتكرر على الدوام، كونه يمنحنا الأنس والاتحاد ويجعلنا مستأنسين بلقاء بعضنا الآخر، ثانيًا يسعدني أن أعلم حضراتكم أن إحدى نقائص مملكتنا الشاهنشاهية والتي تجعل بلادنا متخلفةً عن الركب الحضاري هو انزواء بعض النساء في البيوت، وهذا يتنافى مع تاريخ المرأة الإيرانية، فالأدلة التاريخية تؤكد أن المرأة الإيرانية كان لها الحضور الكبير في جميع مجالات الحياة الفنية والصناعية في تاريخ ما قبل الإسلام، ولم تتخلف المرأة الإيرانية عن الفروسية والمبارزة عن الرجل الإيراني، إن الانزواء الذي لحق بالمرأة الإيرانية هو حصيلة فساد السلاطين المترفين في القرون التي تلت الإسلام.

واصلت النساء البولنديات تجاذب أطراف الحديث فيما بينهن، فيما جلس فخر التجار والسيد تقي على يمين الحاج فتاح، وجلس محمد علي على يساره، ولم يعر أحد أهميةً للرجل.

أخرج السيد تقي من جيبه ساعةً ذهبيةً كانت تعود لفخر التجار ونظر إلى محمد علي وعلى آثار السجود في جبينه وقال:

حينما أنظر لرجل مؤمن ولسيماء العبادة على وجهه، فإني أشعر آنذاك بالسرور، لن أجرؤ على كسب المال الحرام، فخذ يا عزيزي فخري ساعتك الذهبية التي وجدتها في مكان ما، فيبدو أنك قد فقدت الكثير من وزنك حزنًا على فقدانها من الأمس حتى اليوم.

ضحك فخر التجار وأخذ الساعة من السيد تقي، فقال الحاج فتاح، وماذا عن مصير خاتمي الفيروزج.

حينما تبلغ فيروزجتك عامها التاسع فزوّجها لمن تريد.

ضحك الجميع من جواب تقي وشرح فتاح لمحمد علي حكاية خاتم الفيروزج الذي أخذه تقي منه. كان ذلك الرجل مستمرًا في قراءة البيان ولم تجِد عينه عن الورقة التي صار يمسكها الآن بكلتا يدَيه: ولابد من أن نذكر للسيدات المحترمات أنَّ ارتداء الزي القديم - العباءة والنقاب - سوف يكون حصرًا على النساء العاهرات، إذ عليهن ارتداء الأزياء العصرية، فالأزياء العصرية مخصصة للسيدات والآنسات المحترمات ولهذا السبب فإن المعلمات والطالبات في المدارس الإيرانية هن في مقدمة النساء اللواتي يخلعن الأزياء القديمة، ولاشك في أن حضراتكن بمثابة نموذج يحتذى به في ارتداء الأزياء العصرية، وليعلم الجميع أن ارتداء الأزياء العصرية لا يعد على الإطلاق تقليدًا للأمم الأخرى ومحاكاةً للأزياء الأوروبية، وبناءً على ذلك أرجو من جميع السيدات والآنسات الحاضرات في هذا الحفل أن لا يضعن على رؤوسهن منذ اليوم ما هو غير ضروري من الأزياء وأن يخرجن من هذا الحفل سافرات وأن يكشفن عن وجوههن.

في هذه اللحظة أراد ذلك الرجل أن يرتجل لقول شيء فرفع رأسه وقال: على سبيل المثال فالسيدة الكريمة الجالسة في نهاية القاعة، وأشار إلى امرأة هناك، وأقصد زوجة السيد دولابي تاجر الحقائب والأحذية، أرجوك سيدتي أن لا تعزلي نفسك بهذا النحو ولا تخبئي نفسك بهذه الشاكلة.

اتجهت جميع النظرات إلى آخر القاعة، كانت المرأة تضع قبعةً كبيرةً على

رأسها وبوشيةً سوداء تغطي وجهها، احتمت المرأة من نظرات الحاضرين بزوجها الذي نهض من مكانه ووقف أمامها، كان طويل القامة عريض المنكبَين ووقورًا، ثم استدار نحو زوجته واحتضنها، كأنه أراد أن يجعل من ساعدَيه حجابًا يخفي زوجته عن أنظار الآخرين، قال لها بهدوء:

لا تنفعلي، فما الفرق بين هذا المكان و حفلة تخرج ابنتك في مدرسة «حكمت»؟

قالت:

في حفل التخرج الدراسي لا أحد يرميك بهذه النظرات الحادة.

حينما خرجا من الباب أخرجت زوجة دولابي عباءةً سوداء من حقيبتها ووضعتها على رأسها فغطت كامل جسدها، ثم صوبت وجهتها نحو الحائط وأخرجت شيئًا ما من حقيبتها وسرعان ما رمته بوجه ذلك الرجل الذي سقط على الأرض.

وقد تبين أن الشيء الذي شهرته بوجه ذلك الشخص لم يكن سوى شعر مستعار.

أثار فعل زوجة هوشنك خان، ردود أفعال مختلفة. فثمة من وقف ينظر إلى المشهد باستغراب تام وثمة من أثار هذا المشهد فيه الرغبة في الضحك والاستهزاء بحفل البلدية، وكان من بين المستهزئين فخر التجار الذي أطلق ضحكةً مدويةً وخاطب أرباب تقي وفتاح ومحمد علي قائلًا:

لقد كانت هذه المرأة منكم فقد كانت تخدعهم بسفورها.

إلاّ أن صرخة هوشنك خان قطعت حديث فخر التجار، فقد هجم في تلك الأثناء على ذلك الرجل وأمسك به من ياقته ثم طرحه بقوة على الأرض، فعمت الفوضى في القاعة واضطر أحد موظفي البلدية إلى مساعدته فأمسك بهوشنك خان ومنعه من أن يوجه ضربات لذلك الرجل المطروح على الأرض. دخل عدد من الحراس إلى القاعة استجابةً لنداء الإغاثة الذي أطلقه الرجل ذو التسريحة الإفرنجية. ألقى الحراس القبض على هوشنك خان ولم تجد محاولات السيد تقي

وفتاح لتخليصه منهم، أما فخر التجار، فقد وقف على بعد مسافة من الحادث وصار يصرخ:

ليس من اللائق أيها السادة أن تشتبكوا في هذا المكان، فثمة نساء محترمات يفزعهن هذا المشهد، لقد عمت الفوضى ولم يعد هناك حفل.

***

أصدروا حكمًا بالسجن على هوشنك خان، وبضمانة مالية تم الإفراج عن فتاح وفخر التجار، إلاّ أن هذه الحادثة لم تكلّف فتاحًا وفخر التجار الكثير ولم تضرّ بسمعتهما. فقد راجت بين أوساط الناس شائعة تقول بأن نقيب صنف الخزّافين والأواني فتاح، ونقيب المعمارين السيد تقي وفخر التجار نقيب صنف السكر، إضافةً إلى نقيبَي صنفَي الملابس والجلود، أي محمد علي وهوشنك خان تلاعبوا على البلدية وتقصدوا الإساءة لحفل الدولة وهذا ما دفع الحكومة لإصدار حكم بالسجن لمدة شهر كامل على هوشنك خان.

يومًا بعد يوم كانت الضغوط التي توجهها الشرطة والبلدية على الناس تتضاعف أكثر فأكثر، دون أن يزحزح ذلك من ثقة الناس بمواجهة الحكومة، في الأيام الأولى التي اضطر فيها علماء الدين أخذ مجوز من الحكومة لا رتداء العمامة، حاول عزتي أن ينتهز الفرصة، فاتجه نحو الدرويش مصطفى، لكنه أدرك متأخرًا أن الدرويش لا يضع عمامةً على رأسه، هزّ الدرويش فأسه وقال لعزتي:

أيها البائس، ظننت أنني أضع عمامةً على رأسي وعليّ أن أحصل على رخصة منك. الحقيقة هي أنك أنت من عليه أن يتوسل إليّ ليحصل على مجوز لا رتداء ملابس الشرطة هذه.

كان الناس يستفسرون من الحاج فتاح عن تفاصيل حادث الحفل الرسمي وحكاية النساء البولنديات. كان بعضهم يبارك له ما فعله في الحفل وكيف استطاع أن يمرر خطته على الحكومة.

ذات يوم وفيما كان الحاج فتاح متجهًا نحو قمائن الفخار مستقلًا سيارته الدودج، صادف في الطريق الدرويش مصطفى بملابسه البيضاء، كان الدرويش يبدو مهمومًا على غير عادته. طلب الحاج فتاح من سائقه الشخصي أن يقف

للحظة، فقد افتقد الدرويش على مدار أكثر من أسبوع. ترجلّ الحاج فتاح من السيارة، ألقى التحية على الدرويش وتوقع منه أن يبادره بالسؤال عن ليلة الحفل، لكن الدرويش لم يقل شيئًا بهذا الصدد، اكتفى بوضع يده على كتف الحاج فتاح وقال له بصوت خشن ومتعب:

يا حاج فتاح، لقد استطعت في هذه المرة أن تحضر نساءً بولنديات وربما سوف تضطر في المرة القادمة أن تصطحب رجالًا بولنديين، إنه زمن الحرب، يا علي مدد.

لم يجبه فتاح، إذ لم يعثر على الكلمات المناسبة للرد عليه، اكتفى بالنظر إلى الدرويش وهو يبتعد رويدًا رويدًا، ثم قال بصوت أقرب للهمس:

يا للخفّة!

***

كانت حادثة الحفل سببًا في أن يأتي الشرطي عزتي والضابط لأخذ الأتاوة من جدي وفي استدعاء الجد عدة مرات إلى إدارة البلدية والإدارات الحكومية المختلفة، لكنها كانت ذات مغزًى هام بالنسبة للحاج فتاح. فقد استطاع أن يتغلب بذكائه على الفخ الذي نصبته الحكومة له وللشخصيات المرموقة من أصدقائه، كما كانت سببًا في أن يتناسى لفترة مصيبة ابنه القتيل، وتتناسى كنّته فقدان زوجها وينسى علي ومريم همّ اليتم وفقدان أبيهما. كانت حادثةً محفورةً في الذاكرة، حينما يرتفع صوت طرق الباب أحيانًا، كان علي يسرع نحوها قبل إسكندر وزوجته، وعندما يفتح الباب ينتبه إلى خطئه بأن أباه قد مات، ثم يعود إلى داخل الباحة منكسرًا، ينظر بحزن إلى مهتاب ويتذكر أن والده لم يعد على قيد الحياة وأن أمله برؤية والده من جديد ليس إلّا وهمًا.

وحينما كان إسكندر وزوجته يفتحان الباب ويشاهدان أن الطارق زوجة فخر التجار أو بنت الميرزا إبراهيم أو والدة السيد المهندس برويز فإنهما يهرعان إلى أمي ويقفان جنبها بعد أن يتبدل خوفهما أمنًا ويبتسمان ويقولان لها:

كنا نخاف أن يكون الطارق من الشرطة، لكن الطارق زوجة فخر التجار أو بنت الميرزا إبراهيم، أو والدة السيد المهندس (مونث) برويز فإنهما كانا يقولان (مونث) أي مهندس.

كانت أم علي تدعوهنّ إلى داخل البيت، وبعد أن يجتزن الممر، كنّ يقفن في الباحة، ثم تكرر أم علي دعوتها لهنّ بالدخول. تجلس بجوار الباب ذات المصاريع الخمسة وتنتظر كي تحضر أم كريم.

كانت الضيفات آنذاك يغتنمن الفرصة المناسبة للدخول في صميم الموضوع: إن القصد من الزيارة هو أن نسأل حضرتك لتحديد موعد لزيارة أخرى.

كلا، لماذا موعد آخر، تفضلوا بالحديث، فهذا البيت المتواضع مفتوح لكم دائمًا.

لكننا نفضل موعدًا تكون مريم حاضرةً فيه معنا.

مريم؟ لماذا مريم؟!

حضرتك تعلمين أن من له بنت في عمر الزواج، فما هو القصد من ذكرها هنا.

حينذاك تتأوه أمي وتتوقف عن المجاملات مذكرةً الضيوف أنهم ما زالوا يعيشون مأساة وفاة زوجها.

أعتقد أنكم تعلمون أن والد مريم قد توفي مؤخرًا، ولابد من الانتظار.

تبتسم الضيفة، وأحيانًا تمسك بيد أمي من باب المواساة وتقول:

رضاك هو المهم وسوف تحل سائر الأمور الأخرى، وحضرتك تعلمين أن الحاج فتاح لن يمانع كثيرًا خصوصًا وأنه يبدو سعيدًا هذه الأيام بما أنجزه في حفل البلدية.

ما أن يغادر الضيوف حتى تغوص أمي في همومها، تنفث الآهات ويستشري الشعور بالحزن والألم في روحها ويلف جميع أرجاء أعماقها، لم تكن أم كريم تمتلك القدرة على الحديث معها. فهي سعيدة وحذرة في آن واحد، كان يسرها أن تتزوج مريم لتحظى بحياة زوجية سعيدة بعد أن فقدت والدها علّ ذلك يخفف من أحزانها، خصوصًا إذا كان العريس من عائلة محترمة ومؤمنة، لكن ما يشغل بالها هو موافقة مريم نفسها.

وما كان يضاعف من بهجة أمي أن جميع من تقدموا لخطبة مريم هم من عوائل

كفوأة لعائلة الحاج فتاح، سواء كان العريس نجل فخر التجار، أو نجل السيد الميرزا إبراهيم، أو السيد برويز المهندس، لكن مريم ما زالت صبيةً صغيرةً وربما لم توافق على الزواج وفضلت مواصلة تحصيلها الدراسي، ولعل الزواج مناسب جدًا لها خصوصًا وأنها فتاة يتيمة لا أب لها، مع ذلك ربما كان من الأفضل الانتظار سنةً أوسنتَين. فحفيدة الحاج فتاح لا بد أن تذهب إلى بيت العريس مرفوعة الرأس وبما يناسب مكانة جدها وسمعته الحسنة بين الناس.

***

لم تجرؤ أمي أن تفاتح الجد بموضوع خطوبة مريم. كانت تخشى رفضه من جهة ومن جهة أخرى لم يكن مجديًا أن تتحدث مع مريم بهذا الموضوع ما لم تكن قد تحدثت عنه مع الحاج فتاح عن الموضوع، يضاف إلى ذلك أن الحديث مع مريم بموضوع الزواج قد يعيقها. ليت أن أباها كان على قيد الحياة، فلربما كان ذلك يخفف من القلق الذي يعتريها كلما فكرت بتداعيات الأمر. لم يقدر علي ولا مريم من أن يخففا عنها معاناتها أو أن يوقفا الهواجس التي تعكر صفو حياتها، وقد ازدادت المشاكل مع مجيء عائلة إسكندر وإقامتهم في الباحة الخلفية من البيت. كان يؤلمها أن الحاج فتاح لم يبادر من تلقاء نفسه من مفاتحتها فيما يخص إقامتهم معنا؟ فهو في جميع الأحوال كبير العائلة، وهي من جهة أخرى ربة البيت ولها حقوق والتزامات. كان علي وحده يشعر بالحياة من خلال صداقته لكريم، فيما لا تكف مريم عن وصف عينَي مهتاب الجميلتَين، وقد عشقها علي أيضًا فليكن جمالها مباركًا عليها وعلى عائلتها.

أعادت مطرقة الباب النسوي أمي إلى وعيها وأوقفت سيل التداعيات التي ملأت ذهنها. ذهبت أم كريم للتسوق فأسرعت مهتاب نحو الباب ثم عادت مسرعةً نحو أمي وقد هيمن الخوف عليها، قالت بصوت مرتعش:

يا سيدتي، ثمة إمرأة عند الباب وقد وقفت بوضع خاص.

ما هذا الكلام، ماذا تقصدين؟

شكلها مختلف تقول إنها والدة الشرطي عزتي...

ابتسمت أمي وقالت:

حسنًا فلتدخل.

لقد ضحكت أمي بوجه مهتاب للمرة الأولى وقالت لها أدخليها البيت ثم تمتمت مع نفسها: بنت حلوة، نعم إن شكل المرأة شكل عجيب. لقد أصابت البنت في قولها. ماذا تريد هذه العفريتة؟ من المحتم أنها جاءت لخطوبة مريم. لقد خمنت ذلك من قبل. إن ابنها عزتي الأعزب لم يكنّ الاحترام لنا عبثًا. لم يكن عدم اكتراثه بربطة رأس مريم وعباءتي عبثًا. يا هوان الدنيا على ما يجري علينا.

لم تكن المرة الأولى التي تأتي فيها أم الشرطي عزتي إلى بيت الحاج فتاح، لكنها مع ذلك صارت تنظر بتمعن إلى الحيطان وإلى الباحة. استغربت أم علي من منظر ضيفتها. فلم ترتدِ العباءة هذه المرة، وإنما كانت ترتدي معطفًا مطرزًا بالورود وقبعةً بيضاء على الرأس. ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتَي أمي وهي تنظر إلى الهيئة التي بدت عليها أم عزتي، وقالت في سرها، العباءة كانت مناسبةً لها، فإنها تخفي ذوقها السيء في انتخاب الملابس.

بعد تبادل السلام، لم تعط أمي فرصةً لضيفتها:

مع أنك في سن متقدمة، مع ذلك إرتأيت عدم ارتداء العباءة رغم أن ابنك شرطي ولا يزاحمك أحد.

وضعت أم الشرطي عزتي يدها على صدرها وانحنت قائلةً:

إنه خادمكم الذي....

بابتسامة هازئة قاطعتها أمي:

كنت أقول لك إن منصب الشرطة يساعدك على أن لا يزاحمك أحد في نزع العباءة.

كلا، ليس من هذا المنطلق، وإنما تلبيةً لأوأمر الشاه، حينما كنا نعيش في القرية كان خالي من علماء الدين وكان يردد أن الشاه هو ظل اللّه على الأرض، وكلامه هو كلام اللّه، وعلينا أن لا نكون ملكيين أكثر من الملك، أمثال خالي من رجال الدين، هم من يحللون ويحرمون. وحسب كلام ابني عزتي نحن غير معنيين بالتفاصيل.

بعد أن أطلقت ضحكةً خفيفةً صمتت لبرهة، ولزمت أم عزتي الصمت.

ألقت أمي نظرةً نافذةً على ضيفتها بانتظار أن تسمع منها شيئًا، لكن الضيفة طأطأت رأسها دون أن تنبس ببنت شفة، كان صوت أنفاسها مسموعًا. تعاطفت معها أمي حينها وقالت في نفسها: عليَّ أن لا أقسو عليها، إنها امرأة مسكينة، وليس من اللائق أن تخرج مكسورة الخاطر من بيتنا، فوجهت لها كلامًا لينًا:

أتعرفين أيتها الحاجة، أنت بمثابة أمي، ولا بد أن أذكر لك ما أراه ضروريًا، لا بد أن يكون الرجل كفوأً لزوجته، فلو أن الفتاة كانت شابةً لا بد أن يكون زوجها في عمر مقارب لها كي تكون لهما حياة سعيدة ملؤها التفاهم. ولا تنسي أن مريم ما زالت صبيةً في مقتبل العمر وأن فكرة الزواج فكرة مبكرة بالنسبة لها خصوصًا مع رجل هو في عمر والدها.

كانت أم عزتي تهزّ رأسها مؤيدةً، فأثار فعلها استغراب أمي، كيف يمكن لضيفتها أن تؤيد كلامها، وإن كانت متفقةً معها في هذا الرأي فلماذا تجشمت عناء المجيء.

فلّت أم عزتي عقدة القبعة لتستنشق نفسًا عميقًا ثم قالت:

يشهد اللّه عليّ، أن لي نفس الرأي، لقد قلت له نفس الكلام، (وكانت تقصد ابنها) وذكرت له عدة مرات أن عليه أن يفكر بامرأة في عمره وأن يطرد من رأسه فكرة الزواج من فتاة في مقتبل العمر. وأنا أؤيد كلام حضرتك. فالعزيزة مريم صبية صغيرة، وأنا أنظر لابنك علي وكأنه حفيد لي، فليحفظ لنا اللّه الحاج فتاح، مع ذلك أقول أن عليًا ومريم بحاجة لمن يكون لهم بمثابة أب دون أن يعني كلامي هذا انتقاصًا من منزلة الحاج فتاح، وأن حضرتكِ امرأة شابة...

احمّر وجه أمي خجلًا، وصار مع كل لحظة يزداد احمرارًا. لقد أدركت مغزى كلام الضيفة وماعليها الآن إلّا أن تعبّر عن سخطها وغضبها فلم تقو على السيطرة على نفسها، كانت نارجيلة التدخين هي أقرب الأشياء إليها، رمت الفحم اللاهب باتجاه أم الشرطي عزتي، فاحترق ثوبها وصارت تهرول هاربةً باتجاه باب الدار، وفي لحظة خاطفة صوبت أمي قطعة الفخار التي توضع عادةً على رأس النارجيلة اتجاهها فارتطم برأسها وسقطت النارجيلة وانسكب ماؤها على الأرض، ولم يتسن

للضيفة أن تلبس حذاءها، فخرجت حافيةً من البيت. ومن سوء حظها أنها صادفت مهتاب في طريقها عند الفرار، فارتطمت بصينية الشاي وحرقت بعض قطرات الشاي الساخن يدها ووجهها. لم يكن بوسع أمي سوى البكاء، ولم يكن في البيت من يواسيها غير مهتاب التي احتضنتها وواصلت بكاءها.

***

لم تطلع مريم ولا أحد غيرها من عائلة الحاج فتاح على تفاصيل ما حدث مع أمي، واحتفظت مهتاب بالسر، لكن الحادثة تركت أثرًا عميقًا لدى أمي التي كانت تلزم الصمت في أغلب الأحيان. لا تجيب بحيوية على أسئلة علي ومريم حتى ظنّا ربما أن أحدهما قد أساء التصرف معها أو أزعجها دون قصد، وراحا يستفسران منها: هل نحن السبب، وكانت ترد: كلا لا شيء هام. كانت تقضي أغلب أوقات فراغها وحيدةً تدخن النارجيلة وأحيانًا تنادي مهتاب كي تجلس إلى جوارها وترتب لها شعرها البني. لم يدرك أحد سر هذا التغيير في سلوك أمي، خصوصًا وأنها صارت تعامل مهتاب بمحبة. كان البعض يتساءل أليست أمي هي من كانت تصف مهتاب بأنها واحدة من بنات الحفرة.

***

اندهش عزتي من منظر والدته وهي تخرج من بيت فتاح في حالة يرثى لها، فقد احترق ثوبها، وبدت آثار الشاي المغلي واضحةً على هيئة بقع متناثرة على وجهها، والأكثر غرابةً في الأمر أنها خرجت حافية القدمَين. كان عزتي يقف خارج الدار على أمل أن تودع أمي ضيفتها ويتسنى له بذلك أن يتجاذب معها الحديث أو تأدية السلام والتحيات على الأقل، إلاّ أن ظنه سرعان ما خاب ما أن رأى أمه التي شرعت بسبه وشتمه قائلةً:

ألم أقل لك أيها الجرو! إنه عمل قبيح، أين كنت من نصائحي حينما كنت شابًا وطالما حرّضتك على الزواج؟ كنتَ منشغلًا بكل ما هو دنيء ومنحرف.

لم تكفّ أم عزتي عن توجيه الكلام المزعج لابنها وحينما اقتربت منه، رفع عزتي قبعته الزرقاء من على رأسه وضربها بقوة على الأرض ودفع أمه جانبًا وقال:

كفى، أرجوك، أنت لا تجيدين سوى النكد وتوجيه اللوم، هذه هي المهمة الوحيدة التي تبرعين بها. مع ذلك سوف أجعلهم يدفعون الثمن غاليًا، إنهم أثرياء

ولا يعرفون أن يدخروا المال إلا بجهود الآخرين، يتذرعون بالقانون ولكنني أعرف كيف ألقنهم درسًا سوف يكون عبرةً لهم وللآخرين.

***

منذ أن صدر قانون رفع الحجاب، كانت مريم لا تعود من المدرسة مع صديقاتها. إلاّ بعد أن تكون سيارة جدها قد وصلت واستقرت عند باب المدرسة، وكانت في غاية الحذر أثناء ركوبها السيارة لئلا يراها أحد وهي ترتدي الحجاب. حال خروجها من المدرسة لتجد الجد جالسًا في السيارة بانتظارها، ما أن تضع قدمَيها في السيارة وتأخذ مكانها في المقعد الخلفي حتى تسحب ستارة النوافذ الخلفية، وبنفس درجة الاحتياط تواظب أن لا يراها أحد وهي تترجل من السيارة.

عند شارع مسجد قندي، كانت حريصةً على أن تؤدي هذه المهمة بأحسن شكل، ولم يعد الخوف يساورها. فقد اعتادت على هذا الأمر منذ فترة غير قصيرة. ترجل الحاج فتاح قبل مريم وسار خطوات أمامها. قرب محل دریاني، خرج عزتي فجأةً وقال بصوت غاضب مخاطبًا مريم:

أيتها الفتاة، ما هذا الحجاب على رأسك؟ هل تخالفين القانون؟ هل ظننت أنه بالإمكان شراء كل شيء بالمال؟ يا مستغلي جهود الآخرين، أيها المنتفعون بجهود وعرق جبين الآخرين! سوف أذيقكم المر.

لم يتحمل فتاح الأمر، فهجم على عزتي وأمسك به، لكن عزتي استدار ووجه ضربةً قويةً لفتاح بهراوته أصابت وجهه، حاول فتاح أن يسيطر على توازنه وسقط على الأرض فاستغل عزتي الفرصة وهجم على مريم لينتزع الخمار من رأسها.

سداسيته

ثمة أحداث لم تقع، هل ظننت أنك قادر على كتابة كل شيء؟ أو أن تكتب كما يحلو لك مثلما فعلت في المقطع الأول؟ في الحقيقة لم أكن أعرف وما زلت أجهل السبب الذي دفع أم هذا اللعين الشرطي عزتي للمجيء إلى بيتنا؟ لو كان لي علم بذلك لوضعت سرواله فوق رأسه حسب قول كريم. انتظرت كي أطلع على الأحداث بتفاصيلها ولهذا السبب توقفت عن الكتابة كل هذه الفترة، وتركت لك أمر الكتابة دون أن يعني ذلك أن تكتب كل ما يروق لك. فالمرحومة مريم هي أختي في جميع الأحوال. وحرصًا عليها ومن منطلق الاهتمام الكبير بها أرسلها الجد إلى فرنسا. ليس كل ما يعرف يقال وليس كل ما يعرف يجب أن يدون على الورق.

دعنا نكون أكثر وضوحًا. ما الذي يدفعك أن تكتب عن أشياء تسبب لي الألم الشديد بكل تفصيل؟ لكنك تطفر الأمور التي أريد أن تكتبها، تكتبها بين سطر وسطر وتمضي.

طلبتُ منك أكثر من مائة مرة أن تتفرغ لكتابة حياة السيد مجتبى، وكنت تتذرع بأن كتابةً من هذا القبيل ستأخذ منحًى سياسيًا وتاريخيًا، كفّ عن هذا الكلام الفارغ. كتبتَ أنهم أطلقوا لقب صفوي على السيد مجتبى (راجع ثنائيتي)، ماذا يعني ذلك؟

ذلك يعني أنهم أطلقوا اسمًا آخر غير ذلك الذي كنا نطلقه عليه، فقد كان معروفًا بيننا باسم سيد مجتبى مير لوحي، وأكثر من ذلك إثارةً للعجب أنك حذفت لقب السيد من اسمه، ثم سمعنا فيما بعد تسميةً أخرى عرف بها: «نواب

صفوي» وهي التسمية التي ظلت مرافقةً له في أيام صعود نجمه واشتهاره بين الناس.

في الأعـوام التـي فـرض فيها منع الحجاب أو بعد عامَين من ذلـك، غـادر السيد مجتبى إيران متجهًا نحو مدينة النجف وأقام في تلك المدينة لدراسة العلوم الدينية. يقولون إنه حصل على رتبة الاجتهاد في غضون ثلاثة أو أربعة أعوام. حينما سافرنا مع جدنا الحاج فتاح لزيارة العتبات المقدسة في مدينة كربلاء، انتهزنا الفرصة وسافرنا من هناك إلى حوزة النجف الأشرف للقائه، وكأنه لم يتغير كثيرًا، كان قليل الكلام كعادته المألوفة، مؤدبًا. كان يعيش في غرفة صغيرة متواضعة، مملوءة بالكتب. ألقى السلام على جدي، ثم عانقني وسألني عن أحوال جميع الأصدقاء. استفسر عن أحوال كريم، لم يكن كريم قد سافر معنا إلى كربلاء، لقد رفض جدي أن يصحبه معنا واكتفى بأن يصطحب والده إسكندر ضمن قافلتنا، قال جدي إن السبب لا علاقة له بتكاليف السفر، لكنه لم ير كريمًا يؤدي الصلاة ولو لمرة واحدة، وهو بذلك لا يستحق زيارة الأماكن المقدسة، لقد بذلت جهدي خلال أسبوع كامل من أجل أن أقنع كريمًا بإقامة الصلاة، لكن جهودي ذهبت سدًى، حاولت بعد ذلك أن أقنع جدي أن لا يميز بين من يؤدي الصلاة ومن لا يؤديها كما كان لا يفرق بين أبناء الحفرة والناس الآخرين، لكن جدي كان يجيبني دائمًا: الصلاة هي أصل الصداقة، بالنسبة له على الأقل، قال: يمكن أن يكون كريم صديقًا لك، لكنه ليس صديقي. إن كنت تصر فاصحبه بنفسك إلى كربلاء.

إذن من هو كريم؟ لنترك موضوع كريم، فقد كان مقررًا أن أتحدث عن السيد مجتبى، أقصد عن الشهيد نـواب صفوي، ربما هـذا ما سيثير غضبك، هـذا لن يهمني كثيرًا. فأنا أروي ما يروق لي في هذا الفصل الذي هو فصلي أنا، وبتعبير أدق هـذا الفصل المخصص له، ولتكن جميع الفصول المتعلقة بي هي هبة لك، لن أتنازل عن فصله، وسوف أدعك تكتب أنه كان مؤدبًا وفي غاية التهذيب وحسن الأخلاق، وأنه لم ينسجم مع كريم، لكن عليك أن تعرف أنني لست أنت، أنا من يمثله، بل أنا هو بعينه، بلحمه ودمه.

كان ذا سجية في غاية النقاوة، ذكيًا فطنًا ومؤمنًا، بعد فترة قضاها في النجف عاد بطريقة سرية إلى إيران، وكان يقيم في سرداب في الحي المجاور لمرقد السيد

شاه عبد العظيم في ضواحي طهران، كنا نحن من نسدد إيجار ذلك السرداب. كنت أستلم المبلغ من جدي وأسلمه لصاحب السكن - السرداب -.

ذات مرة ذهبنا أنا وكريم للقائه في ذلك السرداب المتواضع، كانت مريم ومهتاب قد سافرتا إلى فرنسا في تلك الفترة، عثرنا على محل سكنه. أردنا أن نطرق الباب، لكن بعض الرجال الذين كانوا يرتدون بدلات سوداء حالوا دون ذلك، إذ وقفوا بوجهنا، كانوا في عمرنا تقريبًا ولكن كانوا يبدون من اللحى الخفيفة التي نبتت على وجوههم ومن سيماهم بأنهم من الشباب المؤمنين، لم يقصدوا إيذاءنا. وجهوا سؤالهم إلى كريم الذي كان يرتدي قميصًا مفتوح الياقة: بمن تريدون أن تلتقوا؟

قال كريم: طبعًا مع العزيز مجي، أي مجتبى.

كن مهذبًا وحسّن من ألفاظك، أنت تقصد السيد مجتبى نواب صفوي؟ ماذا تريدان منه؟

استمر كريم في لغته الاستفزازية وأجاب:

أريد أن آخذ منه تعويضًا عما خسره معي في لعبة الكعب: الموضوع يعود لأعوام مضت، أي في ذلك العام الذي تزوجت فيه المرأة العجوز المصابة بالجذام.

قال كريم ذلك بطريقة يستوحى منها الاستهزاء والمزاح، فهجم عليه الشبان وأرادوا أن يضربوه، حينها شرع كريم بالصراخ: يا سيد مجتبى عوضًا عن أن تدفع لي شيئًا مقابل خسارتك ها أنت قد كلفت هؤلاء الشبان بضربي، هل هذا العمل صحيح؟ هل هذا من الإنصاف؟

ما أن سمع السيد مجتبى صراخ كريم حتى خرج من السرداب مسرعًا، توقف الشبان في مكانهم حينما رأوا السيد مجتبى، أما أنا وكريم فقد أصابنا الذهول ووقفنا مسمرّين في مكاننا حينما رأينا السيد. كان يرتدي عباءة رثّة بنية اللون وعمامةً سوداء صغيرةً.

ابتسم السيد مجتبى فبرزت أسنانه البيضاء الناصعة وخاطب كريمًا:

تفضل إلى الداخل يا أخ كريم وسوف يسرني أن أسدد ديني لك، فمهمتي تتلخص بأداء حقوق الناس.

عانقنا السيد ودخلنا بيته في السرداب. وجه كلامه لكريم ثانيةً وقال:

مازلت مشاكسًا كما كنت في الأعوام الماضية وفي أيام المدرسة.

لكننا لم نجرؤ على الحديث، وكأن الصم قد أصابنا لحظتها. فلم نكن نتوقع أن السيد مجتبى قد أحدث هذه النقلة الكبيرة في حياته، فهل يا ترى هو نفس الشخص الذي كنا نوده ونعتز به ونخاطبه بمُجي العزيز. ربما لن أبالغ إن قلت إن هذا التغيير هو الذي أربكنا وجعلنا نفقد القدرة على الكلام.

لا أعرف إن كان الأمر يصدق على كريم، أم لا، ولكنني مطمئن أنك يا علي قد عانيت من ظلم الحكومة، كانت الحكومة في عهد الأب البلهوي ظالمةً، وها هي في عهد ابنه البهلوي تسير على نفس المنوال في الظلم، ومعلوم أن إسقاط الحكومة الجائرة واجب شرعي، فيا علي إن العمل من أجل إسقاط هذه الحكومة ينبغي أن لا يكون من منطلق الانتقام لوالدك فقط، وإنما من أجل جميع الناس المظلومين، وهو واجب شرعي يشمل الجميع. العلماء الأفاضل طلبوا من الناس المؤمنين التهيؤ ليوم المواجهة، واليوم هو يوم المواجهة ومقارعة هذه الحكومة الظالمة.

ثم طلب من أحد مرافقيه أن يجلب رزمة من الأمانة الموضوعة في مخزن المياه، وقد تبادر إلى ذهننا من السؤال عن معنى الأمانة، ماذا تكون حقًا؟ ربما كان السيد يقصد كتابًا أو بيانًا سياسيًا. حينما عاد الشاب إلينا سلّمنا بندقيتَين. أصابتنا الدهشة وصرنا ننظر إلى بعضنا الآخر دون أن نقدر على الكلام. قال كريم للسيد مجتبى:

يا سماحة السيد! أنا دائمًا في خدمتكم، لكن فيما يخص علي فبودي أن أطلع سماحتكم أنه على شرف السفر إلى فرنسا. وفيما إذا سافر علي مثلًا أتصور أنني قادر على أن أكون في خدمتكم. فيدٌ واحدة لا تصفق كما يقول المثل، وأنا ليس لي أي وعي سياسي، ولا أفهم أي شيء من هذه البندقية، ولكن إذا حدث ما يستوجب أن أخوض معركةً من أجلكم فأنا رهن إشارتكم ولكن باستعمالي السكين، لا البندقية.

عقبت على كلام كريم مخاطبًا السيد مجتبى:

يا سماحة السيد، نحن رهن إشارتكم في أي مساهمة مالية أو روحية.

ولكني كذبت حينها، فلم أفعل شيئًا للسيد سوى إيصال مبلغ إيجار السرداب لصاحب المكان، وهو مبلغ لم يكن من نفقتي بل من نفقة جدي الحاج فتاح.

في نفس الوقت الذي أقدمت فيه الحكومة على اغتيال جماعة السيد نواب صفوي، قام قاجار بدفع مبلغ من المال لأخوة شمسي عشيقة كريم وهم ستة إخوان أشقياء قاموا بقتل كريم في ممر قلي ضربًا وطعنًا بالسواطير. كانت عاقبة كريم حسنةً، فمع أنه كان يشرب الخمر لكنه أنهى حياته على الطريق المستقيم. فقبل قتله على يد أخوان شمسي، كان قد أدى الصلاة في مسجد الحاج حسن في شارع شاه بور. وكان في انتظاره هؤلاء الأخوة الستة الذين ملأ الحقد قلوبهم، إلى حد أنهم لم يكتفوا بقتله بل قطعوه إربًا إربًا ودفنوه في قبر طوله ٨٠ سانتيمترًا وعرضه ٥٠ سانتيمترًا.

(راجع أحاديتي)

سباعيتي

عاد عزتي تعبًا غاضبًا وحزينًا إلى دكان درياني، طلب زجاجةً من عصير الليمون وراح يرتشف منها ليروي ظمأه، لم يستمر في ارتشاف العصير، اتجه نحو باب الدكان ثم خرج إلى الزقاق وأفرغ على الرصيف محتوى الزجاجة، ثم التفت إلى درياني الذي كان ينظر إليه مستغربًا وقال:

مع أنني ملزم بتنفيذ القانون، مع ذلك فإن هؤلاء الناس الأشرار اتحدوا ضدي. هل رأيت ماحدث؟ وترى من الذي أخبر كل هؤلاء الناس ليهبوا للدفاع عنه. أيها المنافق لماذا لم تدافع عني.

قال درياني:

لقد أصابني الدوار ولم أعرف ماذا عليّ أن أفعل.

بهمس غير مسموع، وجّه عزتي سبابه لدرياني وخرج من الدكان. قال درياني بصوت تقصد أن يصل إلى مسامع عزتي:

يخلق لي عداوات في الحي ويأكل ويشرب مجانًا ولا يدفع الثمن، ويوجه كلمات للناس ويسبني أيضًا، يالها من مصيبة!

***

اتجه عزتي نحو بيته خائبًا ومنهارًا نفسيًا. مرّ من جوار الحفرة وتذكر سكنهم هناك، قبل أن ينتقلوا إلى بيتهم الجديد، كان عزتي ينظر إلى نفسه وماضيه من الأعلى، تذكر كيف أن الحاج فتاح ساعدهم في شراء المنزل الجديد حيث سدد جميع

ديونهم في دفعة واحدة دون أن يشترط عليهم شرطًا واحدًا في تسديد المبلغ الذي دفعه نيابةً عنه وعن والدته. قطع صوت امرأة عجوز سلسلة أفكاره وتداعياته وكانت تسير ببطء مستعينةً بعصًا كانت تمسكها بيدها اليمنى:

أيها السيد الكريم، هل يمكنك أن تقول لي إن كنت قد اجتزت حمام عباس العمومي أم لا، لم يعد السيد عباس يسخن الماء بقدر كاف ولذلك لا أستطيع استشمام دخانه كي أطلع على مكانه، وأخاف أن أقع في قبضة أوغاد الشرطة الذين يسحبون العباءات من رؤوس النساء، فهم لا يميزون في أفعالهم المشينة بين المرأة الشابة والمرأة العجوز.

نظر عزتي إلى المرأة العجوز، كانت مستمرةً في الكلام وتمسك العباءة بكلتا يديها بعد أن توقفت عن السير، رمقها عزتي بنظرة غاضبة:

أيتها العجوز، ألا تعرفينني حقًا؟

لا، ظننتك في بادي الأمر ابن السيدة كوكب خانم، لكن أبناء السيدة كوكب خانم ينادونني أماه، ولم يخاطبني أحدهم بأيتها العجوز.

اخرسي أيتها العجوز، أنا واحد من أوغاد الشرطة والآن سوف ألقنك درسًا.

سحب العباءة من رأس المرأة العجوز التي راحت تصرخ وتستغيث وتركض وراء عزتي دون أن تستطيع اللحاق به، فقد كانت بطيئة الحركة، وبعد أن توارى عزتي عن الأنظار، استمرت المرأة العجوز في الصراخ والاستغاثة، كانت في حال يرثى له، وربما شعرت بالخجل من الثوب الذي كانت ترتديه تحت العباءة إذ كان مرقعًا بعشرات الرقع.

لحظات وأوقفها اثنان من الشبان طلبا منها أن تكف عن ملاحقة عزتي وسحباها إلى أحد البيوت حيث أخرجت امرأة شابة عباءة صلاتها وقدمتها للمرأة العجوز، ثم اصطحبتها إلى داخل البيت وضيفتها بكوب من الماء البارد. قالت العجوز:

- أتمنى أن أسمع خبر موت هذا اللعين. فقد خدعني حينما ظننته واحدًا من أبناء السيدة كوكب خانم. فإذا به واحد من الأوغاد الذين لا يخافون الله ورسوله، لم

أتبين هويته جيدًا بسبب ضعف نظري، ثم وجهت كلامها نحو المرأة الشابة قائلةً: كوني حذرةً يا ابنتي حينما تكونين خارج البيت فهؤلاء الشرطة لم يعودوا يضعون الطاقية الخاصة بهم على رؤوسهم كي يخفوا هويتهم عن الناس.

قالت ذلك دون أن تعلم بحادثة سقوط طاقية عزتي جنب مسجد قندي بعد اشتباكه مع الناس، وقد عثر عليها الأطفال فيما بعد. (راجع سباعيته)

***

سجنت مريم نفسها في الغرفة ولم تعد تخرج منها، كما كفت عن تناول الطعام على المائدة مع أفراد عائلتها، لذلك كانت أمي تصبّ طعامًا لها وتأخذه إلى غرفتها كي تتناوله هناك. لم تنبس مريم منذ حادثة اشتباك جدها مع عزتي جنب مسجد قندي بكلمة واحدة. توقع الجميع أنها سوف تشرع بالصراخ الحاد أو تبكي بكاءً شديدًا، ثم يصير كل شيء عاديًا ويعود إلى مجراه الطبيعي، إلا أن ذلك لم يحدث، مما دفع بالحاج فتاح وأمها بالتفكير بحل يخرج مريم من غرفتها ويعيدها إلى صوابها.

كانت تضع قماشة رسم جديدة مؤطرة على قاعدة ثلاثية الأعمدة وتحدق مليًا في البياض. دخل علي عدة مرات إلى الغرفة ورآها غارقةً بالنظر في بياض القماشة دون أن يعي شيئًا من الأمر. انتبه إلى أن مريم وضعت إطارًا أسود على صورة والدها الراحل، بعد مرور أيام أدركت العائلة سر اللوحة البيضاء، فقد كانت مريم تمسك جدائلها أكثر من مرة في الساعة الواحدة ثم تسحبها بقوة كما فعل عزتي لتضع على قماشة الرسم ما اقتلعته من خصلات.

قرر جدي وأمي إيجاد حل لمريم يرغمها على وضع حد لاعتكافها في غرفتها والعودة إلى حياتها الطبيعية. كانا يخافان أن تتفاقم الأمور وأن تعرض مريم نفسها لمصيبة كبيرة. صارت مريم نحيفةً جدًا وكأنها هيكل عظمي أو شبح من الأشباح. دخلت أمها الغرفة. كانت مريم جالسةً على الكرسي. أمسكتها أمها من يدها واصطحبتها إلى زاوية في الغرفة وجلستا هناك، لم تكن مريم على ما يرام، كانت نظراتها زائغةً ولا تستجيب لنظرات أمها المتوددة، طلبت الوالدة من علي أن يخرج من الغرفة، ثم شرعت بإسداء النصائح لمريم:

– يا ابنتي العزيزة، أرجو منك أن تباشري حياتك الطبيعية من جديد، لقد

تأخرت عن الدراسة، ولكن هذا لا يعد مشكلة كبيرة. فأنت تتمتعين بذكاء خارق ويمكنك أن تعوضي تأخرك في غضون أيام قليلة.

ثم نظرت إلى مريم التي كانت جالسةً مستندةً على وسادة خلف ظهرها. لم تكن تبدي أي اهتمام لحديث والدتها.

أسهبت أمي حتى الظهيرة في الحديث مع مريم، وظلت مريم صامتةً وكأنها تمثال من حجر. عاد جدّي إلى البيت بعد أن قضى ساعات من العمل في مصنع الفخار ليتناول وجبة الغداء، وقد شعر بالسرور حينما رأى مريم خارجةً من غرفتها، ألقى التحية على مريم، وردت بدورها بتحريك شفتَيها دون أن يسمع أحد صوتها، وضعت أمي الطعام أمام مريم، وقد أصيب علي بالحيرة من سلوك أخته التي كانت تتحرك وكأنها دمية آلية.

لم يستطع علي أن يتناول طعامه رغم تنبيه والدته له على ذلك. جلس في الرواق ثم اتجه نحو حوض الماء في الباحة ودار حوله أكثر من مرة، ثم أخذ طريقه نحو شجرة الرمان. تحت أنظار أمه وجده، صار يضرب رأسه بقوة بجذع الشجرة: « يقولون أنني أخٌ، فهل أنا بمستوى أخ لائق؟ (كدتُ أن أنسى، ربما لهذا السبب أصاب شجرة الرمان الجفاف ولم تعد تعطي الثمار، لا من أجل الحية) (راجع خماسيته).

إثر صراخ علي، خرج الجميع من الغرفة واستقروا في الباحة، هجم الجد على علي وأوقفه عن ضرب رأسه بجذع الشجرة، أفلت علي من قبضة جده، لكنه صار يتأمل هذه المرة شجرة الرمان، لم يعرف ما الذي جعله يعود إلى ذكرياته مع كريم في هذه الأثناء، تذكر كيف كانا يعصران الرمان ويشربان عصيره، سرح ذهنه في ذكريات كأنها كانت تعود لحياة أخرى وفي عالم آخر.

وقف علي وقد بدت عليه ملامح الغضب ثم مدّ يده وقطف رمانةً ناضجةً توًا، وصار يتأملها متذكرًا صديقه كريم ومهتاب والدرويش مصطفى. سحب يده إلى الوراء ثم ضرب الرمانة بقوة بالجدار المواجه له. انفجرت الرمانة وسال عصيرها على الجدار. فقد علي صوابه في تلك اللحظة وصار يقطف رمان الخريف الناضج ليضربه بالجدار صارخًا:

أيها السيد الدرويش، يا درويش مصطفى، إنَّ قلب الإنسان مثل رمانة، يجب أن يعصر مثلها، إن عصير القلب وعصير الرمانة لهما مذاق طيب.

هيمنت عليه رغبة في البكاء لكنه واصل حديثه: ولكن حينما يحطمون قلب الإنسان فلن يعود هناك سوى الدم، فهل للدم مذاق رائق أيها السيد الدرويش؟

خطت مهتاب عدة خطوات نحو علي، كانت الدموع تنهمر من عينَيها حينما خاطبته:

أرجوك يا علي كفى، من أجلي كفّ عن هذا الصراخ...

جلس علي على الأرض ولم يعد يصرخ. كان يبكي بهدوء، أما مهتاب فقد بقيت واقفةً تتأمل منظر علي وهو يبكي جنب شجرة الرمان.

خارت قوى علي وجلس على الأرض. وقف الجد جنب الحوض وكان يبكي بهدوء ويحاول أن يقف معتدل القامة. نظر إلى علي كيف يجلس في الحديقة جنب شجرة الرمان ويبكي بحرقة.

حينما رفع علي رأسه بعد فترة من البكاء رأى مهتاب تجمع الرمانات التي ضربها بالجدار. كانت تضعها في سلة، واحدةً تلو الأخرى. لكن الذي أثار استغراب علي في تلك اللحظة هو أن مهتاب كانت تلطخ يديها بماء الرمان ثم تطلي به وجهها.

لم تتحمل أمي مشهد الجد المؤلم، وبدل أن تبكي، صرخت بأعلى صوتها بوجه مريم:

هل هذا ما كنتِ تطمحين إليه، لقد جعلت الجميع يشعرون بالمأساة، هل هذا ما يُرضي قلبك؟

عادت مريم إلى صوابها، نهضت من مكانها مستجمعةً جميع أحزانها وآلامها. فصارت تصرخ صراخًا خيل للجميع أنه لا يخرج من حنجرتها وإنما من مئذنة مسجد قندي ليدوي في جميع أرجاء حي خاني آباد:

آه يا أمي ويا علي ويا جدي العزيز، وأنت يا مهتاب الرائعة، قولوا لي هل

فعلت عملًا قبيحًا؟ هل كنت مراهقةً لا تعي ما تفعل؟ هل تجاوزت الأدب؟ هل آذيت أحدًا؟ أجيبوني أرجوكم، هل كان عزتي التافه يجرؤ أن يؤذيني لو كان والدي على قيد الحياة؟

احتضنت أمي مهتاب ولزمت الصمت، أما الجد فلم يطق الوضع فخرج من البيت، وحينما عاد في وقت متأخر لم يستطع النوم بسبب آلام شديدة في الظهر لم تفارقه منذ تلك الليلة أبدًا. بقي علي جالسًا على الأرض يعبث بتراب الحديقة، يرفع الحصى ويستبدل أمكنتها.

***

حتى عصر ذلك اليوم جلست مريم جنب أمي وهي تبكي بحرقة ودون انقطاع، بكت كثيرًا حتى تجففت الدموع على وجنتَيها. أما الدموع الجديدة فكانت تشق طريقًا لها لتسقط في حضن أمها. في اللحظات الأخيرة من عصر ذلك اليوم، فجأةً نهضت مريم وقالت بملامح غاضبة:

لن أذهب أبدًا إلى المدرسة، فالإنسان يتعلم في بيته أكثر من أي مكان آخر.

كانت أمي تبكي هي الأخرى تعاطفًا مع ما حلّ بمريم، مسحت دموعها ونهضت من مكانها، ثم أمسكت بيد مريم وجعلتها تسايرها في المشي نحو الباحة، تنفست أمي الصعداء لأن ابنها لم يكن متواجدًا هناك، فكانت تريد أن تقول شيئًا لمريم لا يسمعه علي:

ألم أقل لك إن أخاكِ له قلب أصغر من قلب العصفور، كان حزينًا قبل قليل وها هو قد خرج ونسي حزنه وغضبه.

***

وقف كريم إلى جوار علي بالقرب من الباب الخشبية. قال كريم ليفتتح الحديث ويكسر الصمت:

لقد ذكرت لنا مهتاب أنك قمت بتصرفات جنونية وضربت الرمان بالجدار وأنها كانت تمسح وجهها بماء الرمان دون أن تفهم السبب، مع ذلك فهي قامت بجمع الرمانات، وقد قمنا أنا ووالدي بتفريط الحبات والتهمناها، حسنًا ما فعلت، كان جنونًا جميلًا وذا فائدة لي، فقد ملأت بطني بالرمان.

ألقى كريم نظرةً على الحصى التي في يد علي، وانتبه إلى أنه كان يهذر، فغيّر من لحن كلامه وقال: ما هذه الحصى التي في يدَيك؟

أريد أن أصفّي حسابي مع بعض الناس وسوف أبدأ من درياني، ففي محله أختبأ عزتي، وهو بذلك قد تواطأ معه.

فرح كريم وقال له:

صدقت، أوافقك في الرأي، إنه يستحق العقاب. حينما يغلق محله فهناك فرصة جيدة لتدميره.

لم يوافقه علي على ذلك وقال:

كلّا، من الأفضل أن ألقنه درسًا بحضوره، أي أثناء العمل، كي يرى بعينَيه كيف يتحطم زجاج دكانه، أما إذا فعلنا ذلك أثناء إغلاق المحل، أي في غيابه فسوف يتصور أننا كنا خائفَين منه ولم نجرؤ على مواجهته.

قال كريم: سوف أرمي حجارةً وأهرب، وحينما تتساقط الزجاجات سوف يفقد درياني عقله ويطاردني ولذلك تكون لك الفرصة لرمي حجارات متتالية نحو باقي الأواني الزجاجية.

وافق علي على مقترح كريم، رمى كريم حجارةً اصطدمت بالواجهة الخارجية، ولم تتساقط الأواني، فهرع درياني إلى خارج المحل وصار يصرخ: أي وغد رمى الحجارة.

صرخ كريم بعلي: لماذا تقف متفرجًا، سوف أبدأ بالركض وعليك ان تبدأ برمي الحجارة.

ثم أطلق كريم ساقَيه للريح. لكن درياني لم يره ولم يتعرف إلى هوية الرامي، كان يصرخ: من فعلها؟ أي ظالم فعلها؟

لم ينتبه درياني لعلي، كان يصرخ بأعلى صوته مستنجدًا بمن يدله على هوية الفاعل، هرول إلى نهاية الزقاق ثم عاد إلى محله، حينها صرخ علي:

أنا، نعم أنا يا درياني.

تسمّر درياني في مكانه إذ لم يتوقع ما سمعه. اجتمع عدد كبير من أهل المحلة قرب محل درياني ليشاهدوا ما سوف يحدث بعد كل هذا الصراخ الذي أطلقه درياني والسب الذي وجهه للفاعل، قال أحد المتفرجين:

كلا، لستَ أنت من رشق الواجهة بالحجارة، أبناء الحاج فتاح لا يصدر منهم عمل كهذا كان ابن إسكندر عامل الحاج فتاح.

إذا لم أكن من رمى الحجارة، انظر إذن!

رمى بحجارة نحو محل درياني فاصطدمت بزجاجة الواجهة الكبيرة وسقطت على الأرض وتحولت إلى قطع مهمشة صغيرة.

حينما شاهد درياني ما حدث تحول إلى كتلة من الغضب، صرخ بأعلى صوته:

أرأيتم أيها الناس، ويشهد اللّه إنه اعتدى عليّ، أرأيتم أيها الناس! لم يكتف درياني بالصراخ وإنما أخذ بالركض تجاهه وقد أغلق قبضته، وصار وجهه قطعةً حمراء من الغضب، بدا منظر درياني مضحكًا بالنسبة لعلي الذي أراد لحظتها أن ينفجر من الضحك.

رفع درياني يده إلى الأعلى كي يوجّه ضربةً قويةً لعلي. إلّا أن عليًّا شاهد يدًا أخرى تمسك بيد درياني. من صورة البطل الأسطوري سهراب التي كانت مرسومةً بالوشم على ذراع صاحب اليد الأخرى، تعرف علي على هوية ذلك الشخص. إنه موسى القصاب، الذي خاطب درياني قائلًا:

أترفع يدك على طفل أيها الأحمق، أقسم إن فعلتها لأحولك إلى ألف قطعة بضربات الساطور. رأى علي كيف دفع موسى القصاب درياني وأسقطه على الأرض.

***

أمسك موسى القصاب بيد علي وأخرجه من بين ازدحام الناس الذين اجتمعوا بدافع الفضول، وسايره نحو مسجد قندي، ثم وصلا إلى محل المشهدي أكبر لبيع المرطبات، هناك، كان عدة شبان يجتمعون حول طاولة، يتبادلون الحديث ويضحكون، كانوا يدخنون سيجارةً واحدةً تتنقل بينهم من يد إلى يد، ما أن يأخذ أحدهم نفسًا منها حتى يبدأ بالسعال ويحولها إلى الآخر.

وكانت أمامهم آنية صغيرة فيها كمية من المرطبات، كان الجو باردًا وغير مناسب لأكل المرطبات، ولكن المشهدي أكبر كان حريصًا على أن يبيع المرطبات حتى في أكثر أيام الشتاء بردًا.

ما أن رأى الشبان موسى القصاب حتى نهضوا من مكانهم، أدوا التحية وغادروا المكان بسرعة، لم يكونوا خائفين من موسى القصاب وإنما كانوا يكنون له احترامًا كبيرًا يجعلهم يفكرون بأنهم يصيرون مثله فتيةً أباةً وأشقياء المحلة.

أطل كريم من مطلع زقاق السوق وقد كان باديًا عليه أنه انتظر مجيء علي طويلًا، كان يمشي متثاقلًا بسبب قلقه على علي. حينما رآه بصحبة موسى القصاب يدخلان محل المشهدي أكبر، دلف هو الآخر إلى هناك، ما أن رآه موسى القصاب حتى أوصى المشهدي بأن يحضر لهم مرطبات ممزوجةً بالزعفران.

قال المشهدي في هذا الجو البارد توصي بمرطبات لمن هو في عمر علي، أكيد أنه سيصاب بنزلة برد.

أجابه موسى القصاب: لا تقلق إنه شاب نشط.

جلس كريم على إحدى الكراسي الأربعة الفارغة المنصوبة حول الطاولة. أراد موسى القصاب أن يقول شيئًا، حينما قاطعه كريم الذي غيّر شكل جلوسه على الكرسي قائلًا: رجاءً يا سيد موسى القصاب، قل للمشهدي أصغر أن يحضر لي صحنًا من الفالوذج أيضًا ويكثر من عصير الليمون.

تشتتت أفكار موسى القصاب، حينما سمع ذلك من كريم، تمنى أن يوجه صفعةً قويةً له لكنه اكتفى بالقول:

أيها الجائع دومًا، ألم تعلم أنه ليس من الآداب مناداة من أكبر منك بلقبه، يضاف إلى ذلك أنك كالخروف الذي التهم كثيرًا من العلف، وهل ظننت أنك جئت لعرس أمك كي تأكل كثيرًا.

ثم وجه كلامه إلى علي قائلًا:

يا سيد علي، لست من أهل الموعظة، الحقيقة هي أنني أنتظر دائمًا من يعظني وينصحني، وأنت شاب مهذب وتعرف جيدًا أنَّ ما فعلته لا يتناسب مع

مكانتك. ثم فكّر مليًا وقال في نفسه لو كنت بدلًا من علي ما كنت أفعل؟ أردف قائلًا: أحسنت صنعًا، لا بلت يداك، لقد فرحت لعملك هذا.

انتبه موسى القصاب إلى طريقة كريم في التهام الفالوذج والمرطبات، فوجه الكلام إليه:

حاول أن تأكل مثل البشر، بالمناسبة أين كنت حينما حصلت المواجهة بين دارياني وعلي؟

تلعثم كريم في الإجابة:

واللّه، أقسم.. كنت في السوق.. أنتظر.

صوت قوي لفت أنظار الحاضرين إليه:

أكمل تناول الفالوذج أولًا، ثم تكلم، فليس صحيحًا أن تتكلم أثناء الأكل.

التفتت الأنظار نحو باب الدكان حيث مصدر الصوت، كان السيد مجتبى، طلب منه موسى القصاب أن يجلس معهم وأحضر له كرسيًا.

قال السيد مجتبى:

كنتُ خارج البيت لشراء بعض الحاجيات، ورأيت الناس مزدحمين بشكل غير مألوف واستفسرت عن السبب فسمعت الحكاية بالتفصيل.

كان موسى القصاب معجبًا بشخصية السيد مجتبى، بأدبه وطريقته الحضارية في التعامل مع الآخرين، قال موسى:

آسف على المقاطعة، هل تسمح لي أن أوصي لك بمقدار من المرطبات الممزوجة بالزعفران، أو الفالوذج؟

وضع السيد مجتبى يده على صدره وقال:

شكرًا سيد موسى، ليست لي الرغبة في تناول شيء وأشكر لك دعوتك. في حقيقة الأمر لا أرغب أن أتدخل في قضية لا تعنيني، ولكن الحقيقة أن عامل الصداقة الذي يجمعني بكريم وعلي يدفعني أن أبدي ملاحظةً بسيطةً، فيا عزيزي علي أرجو أن تعرف أن دارياني ليس مذنبًا، فقد اختبأ عزتي دون إرادته، وربما أكل

عزتي أو شرب شيئًا دون أن يدفع الثمن، وتعرف أيضًا أن درياني لا يقوى على رفض طلب لعزتي الذي يستغل منصبه ووظيفته ليفرض أوامره على الآخرين من أمثال درياني. إنَّ درياني شخص مسكين حاله حال الآخرين الذين يفرض عليهم عزتي أوامره.

هز موسى رأسه مؤيدًا كلام السيد مجتبى وقال:

– ما شاء اللّه، وكأنه يرى معجزةً. تتكلم وكأنك رجل كسب بعمره الطويل الكثير من التجارب في الحياة، أحييك يا سيد مجتبى على عقلك الكبير ورأيك السديد، وكما قلت فإن درياني ليس السبب ولا هو عزتي، إن الأوامر تصدر من جهات عليا.

قال مجتبى: شكرًا يا سيد موسى. عليّ الآن أن أتجه نحو البيت، فوالدتي تنتظرني.

قال موسى: لكنك لم تأكل شيئًا من المرطبات. أجاب سيد مجتبى: لا يهم، فليأكل كريم حصتي. ثم خرج بعد أن ودع الجميع.

قال موسى أضرب لكم مثلًا، فشخصيًا لا أتذكر من طفولتي غير مضايقة الناس وإيذائهم.. دعونا من هذا الحديث، لكن إن صديقك السيد مجتبى هو شاب مهذب جدًا، إنه بسلوكه المهذب يفرض على المرء أن يحترمه كثيرًا.

وأريد أن أضيف شيئًا آخر يا علي، فلعائلتك فضل كبير عليَّ.. لذا سوف أفعل شيئًا لتأديب... عصر يوم غد سوف أنسق مع السيد رحمان فهو صديقي منذ فترة طويلة. سوف أطلب منه أن يهيأ أكثر عماله قوةً وشجاعةً. عصر يوم غد تحديدًا، لأن عرس عزتي سوف يقام في محلة السوق.

وافق كل من كريم وعلي على كلامَ موسى، وعقّب كريم قائلًا:

يا سيد موسى الق (لم يكمل اللقب)، أرجوك يا سيد موسى أن توصي السيد رحمان بأن يكون نعمت راكب الثيران ضمن رجاله فهو قوي جدًا.

موافق، ولكن احذر يا كريم أن تقول شيئًا لوالدك عن هذا الموضوع فوالدك لا يحتفظ بأي سر، إذ أنه ينقل كل شاردة وواردة للحاج فتاح.

أقسم كريم أن يحتفظ بالسر وأن لا ينقل أي شيء لوالده، ما أن انتهى الحديث حتى أسرع علي نحو السيد أكبر ليسدد حساب المرطبات، لكن موسى القصاب أزاحه جانبًا قائلًا:

أتريد أن تهينني يا علي؟ فليس من عادة وطقوس الأشقياء أن يدفع الحساب من هو بعمرك لمن هو بعمري

ابتسم علي، وخرج مع كريم.. كاد كريم أن يطير فرحًا لحظة التي أعدها موسى القصاب. كان يكرر: غدًا يوم عرس عزتي، فيا للرقص الذي سوف نشهده. التزم علي الصمت بانتظار الغد.

***

اتّجه كريم وعلي نحو البيت، كانت مريم قد استردت نشاطها وحيويتها مساء ذلك اليوم وعادت إلى طورها الطبيعي، كانت تتحدث مع جدها طوال الوقت عن إصرارها بعدم الذهاب مجددًا إلى المدرسة، وبعد حوالي ساعات، اقتنع جدها بكلامها ورضخ لإرادتها، وأخبرها أنه سيوصي السيد تقي كي يتحدث مع إحدى السيدات البولنديات لتدرّس مريم دروسًا في اللغة الفرنسية في البيت، وأكد لها أنه سيمضي يوم غد نحو مقهى شمشيري ليتحدّث مع السيد تقي بالموضوع.

***

استمر عزتي بمضايقة النساء المحجبات، كان يقوم بسحب العباءات من رؤوسهن ويسبب لهن إحراجًا كبيرًا نظرًا للجانب الديني في شخصياتهن وإيمانهن بارتداء الحجاب. كان عزتي يتفاخر باعتدائه على الآخرين وكان يردد مع نفسه: لقد استطعت أن أزيح الحجاب من حفيدة الحاج فتاح، فهل ستعصي علي هذه المهمة مع الآخرين، وهل هناك عائلة في خاني آباد أكثر وجاهةً من عائلة فتاح؟

***

دوى الخبر في كل مكان. في عصر ذلك اليوم كان السيد تقي يجلس على أريكة في مقهى شمشيري، وعلى بعد مسافة كان يجلس فخر التجار على أريكة أخرى، كانا متأكدين من أن الحاج فتاح لن يأتي إلى المقهى، ولم يعلما بنية فتاح بالمجيء والحديث مع السيد تقي بخصوص المعلمة البولندية وتدريسها مريم اللغة الفرنسية.

بعد لحظات من الصمت، ومن أريكته غير النائية، قال فخر التجار: ما رأيك يا سيد تقي بالذهاب إلى بيت الحاج فتاح لعيادته.

يا فخر التجار يبدو أنك فقدت عقلك، أو أن رأسك الكبير يحتوي على عقل عصفور. اسكت يا هذا.

لكنني لم أقل شيئًا يثير غضبك على هذا النحو.

ألقى السيد تقي نظرةً على الكسبة وباعة الساعات والخواتم وقد جلسوا على الأرائك المنتشرة في المقهى، وكان يجيب على سلام بعض الزبائن الذين كانوا يحرصون على إلقاء السلام عليه نظرًا لمكانته الرفيعة. عاود فخر التجار كلامه: لكني لم أتفوه بما يثير غضبك يا سيد تقي.

رمقه السيد تقي بنظرة حادة وقال:

كان عليك ألاّ ترفع صوتك بين هذا الحشد من الزبائن الحاضرين في المقهى. يجب أن تصون ماء وجه الحاج فتاح. فهو غير مصاب بمرض خطير كي نعاوده، ولو أننا ذهبنا فإن ذلك سوف يضاعف من شجونه فسوف يعرف أننا على علم بما حدث بينه وبين عزتي.

قال فخر التجار بسخرية:

وهل تعتقد أنَّ الأمر عبارة عن سر، نصف أهالي طهران على علم بما حدث ياسيد تقي!

أرجوك كف عن الكلام يا فخر التجار.

كان السيد تقي في حالة سخط لم يعرف فخر التجار سببها، ولكنه كان يعرف أن مزاج السيد تقي ليس على ما يرام ولهذا السبب كان كلامه بذيئًا بعض الشيء.

لا أعرف سببًا يجعلك غاضبًا إلى هذا الحد يا سيد تقي.

في هذه الأثناء دخل شاب مضطرب إلى المقهى وكان يرتدي دشداشةً بيضاء وهو في منتهى الغضب والحيرة. سرعان ما لفت انتباه جميع زبائن المقهى إليه، ألقى نظرةً حواليه، كان الهلع باديًا على ملامحه وكان يبحث عن ضالته، كلما اتجه

إلى أريكة، خمد صوت غليان النارجيلة، كانت له لهجة أهالي الجنوب:

في أي مكان أنا يا إلهي، أهذه هي طهران حقًا، أين إذن أشقياؤها الساعون إلى الخير ومساعدة الآخرين؟

صرخ السيد تقي بوجهه:

صه يا هذا وأجلس واسترح قليلًا.

ثم خاطب صاحب المقهى قائلًا:

ضع كوبًا من الشاي أمامه.

أسرع الشاب نحو أريكة السيد تقي، هوى على ركبتَيه وقال:

أنا متأكد أنك الأكثر وجاهةً في هذا المكان.

ليس هناك من هو أكثر أو أقل وجاهةً، قل كلامك ولا تخف.

خطيبتي، أقصد زوجتي، جئت معها إلى طهران، رفعوا خمارها من على وجهها. كان ذلك شرطي يدعى عزتي فضربته وهربت. وقد ألقوا القبض عليها وساقوها إلى مخفر الشرطة، أتوسل إليك أيها السيد ساعدني، أنقذني من هذه المحنة الكبيرة فهي لم ترتكب ذنبًا سوى أنها كانت ترتدي الحجاب.

قال السيد تقي: أقسم بالإمام علي إنني سوف أنزل بلاءً على رأس عزتي لن ينساه مدى الحياة، إنه أقذر من الكلب، فالكلب حينما يريد أن يأخذ طعامه ينظر إنْ كان قادرًا على التهام العظمة أم لا، أما هذا السافل فإنه لا يعرف من يكون الشخص المواجه له.

قال فخر التجار للشاب: لا تخف يا أخي، فنحن لدينا معارف كثيرون هنا ولا تقلق، قم واشرب شايك وسوف نحل لك المشكلة هذه!

سمع فخر التجار أقوال الزبائن:

يبدو أنَّ عزتي صار أفعًى كبيرةً بعد أن تناول الكثير من الأفاعي الصغيرة.

صار أكثر قوةً من أي شقي في الحي.

لم يعد يخاف أحدًا، فالذي يستطيع أن يقف بوجه الحاج فتاح فمن المؤكد أنه لن يخشى شخصًا غريبًا جاء من مدينة أخرى.

يقولون إنه حصل على ترفيع بعد أن أجرى القانون بحذافيره.

***

في طريقه إلى المقهى شعر الحاج فتاح بأوجاع شديدة في الظهر. فاقترح عليه السائق أن يتمدد على المقاعد الخلفية لسيارة الدودج، عندما توقفت سيارة الدودج عند باب المقهى رأى أن سيارة السيد تقي قد انطلقت آنذاك وبسرعة فاستغرب الحاج فتاح، وقال بصوت عال: ماذا حدث يا ترى؟ ليس من عادة السيد تقي أن يغادر المقهى في مثل هذا الوقت. لم تكن له الرغبة أن يلتقي فخر التجار، فهو جاء للمقهى ليناقش السيد تقي بخصوص المعلمة البولندية، لذا طلب من سائقه أن يعود به إلى البيت.

***

كان الجو معتمًا، في أحد أروقة سوق إسلامي، جلس نفر من الرجال حول عربة بيع الشلغم المطبوخ، وكان فانوس بائع الشلغم يضيء المكان ويكسر عتمته، كان موسى القصاب يمسك سكينًا بيده، وبين حين وآخر يلامس مقبضها، كان يفعل ذلك بدافع القلق، في كل دقيقة كان السيد رحمان ينهض من مكانه ويذهب نحو مطلع الزقاق ثم يعود قائلًا:

كلا لم يأت بعد.

كان كريم يتناول مقدارًا من الشغلم المطبوخ ويقول سوف نختنق بسبب كثرة تناوله، إذن لماذا لم يأت عزتي؟

أجابه أحد العمال:

صبرًا، سوف يأتي، عليك أن تصبر فقط.

قال نعمت لكريم:

كل على مهلك يا هذا فلن يطير الشغلم المطبوخ الذي في صحنك. أما حسن الملقب بحسن جهنمي فكان يكرر باستمرار عبارةً واحدةً يخاطب بها بائع

الشلغم: ضاعف من النار التي تحت القدر فالشلغم بارد كالثلج.

كان يأخذ الشغلم من القدر مباشرةً ويضعه في فمه دون اكتراث بحرارته وكان يثير بذلك استغراب البائع الذي لم يكن يجرؤ أن يمسك الشلغم الحار بيده إلا بالمقبض.

لحظةً إثر أخرى يزداد قلق المجتمعين، فجأة كسر علي الصمت وقال:

عذرًا يا سيد موسى، ربما كنت أنا السبب الذي دفعكم للانتظار في الجو البارد. لا أعرف لماذا لم يأت، ولكني أقسم بحياتي أنه كان يعود كل يوم في مثل هذا الوقت.

رفع موسى القصاب أكمام قميصه إلى الأعلى وقال: ليس الذنب ذنبك يا علي، وأنت محق فمن المعتاد أنه يعود كل يوم في مثل هذا الوقت، ولكن ليس معلومًا في أي قبرٍ يتواجد الآن.

مرةً أخرى مضى السيد رحمان نحو مطلع الزقاق، ثم عاد وقال: لا جديد في الأمر.

رد نعمت راكب الثيران الذي صادق العامل الكردي توًا:

اصبر يا هذا!

لم يعد موسى ينظر إلى صورة رستم الموشومة على ذراعه، ترك رستم لحاله ووجّه نظراته نحو نعمت وعضلاته وقامته وهيكله وذارعه والذي كان يتكأ على عصا مسحاته وقال:

ما هذا الذي تستند عليه، هل ظننت أنك جئت لري الأرض؟

ضحك نعمت وأجاب:

كلا يا موسى، إنه بمثابة السكين الذي تحمله في يدك. بضربة واحدة أقصم ظهره، إنَّ رغبتي باستعماله فريدة جدًا، فلم يكن لي الشعور نفسه فيما مضى، ربما لأنها المرة الأولى التي أنوي فيها على دخول معركة حقيقية.

ألقى السيد رحمان نظرة إلى سقف طاق السوق المقبب، ربما اعترته رغبة في

رؤية السماء، كان الطين الذي يكسو الطابوق قد تساقط منذ فترة طويلة، نظر إلى علي وقال:

نفتقد في هذا المكان لعبد اللّه الفضولي، فليرحمه اللّه، كان يستطيع أن يعرف أين يتواجد الشرطي الأعزب من وقع أقدامه، كان يمتلك الحاسة السادسة.

هزّ علي رأسه مؤيدًا كلام السيد رحمان.

كان علي بانتظار مجيء عزتي، كان ينتظر بفارغ الصبر وكأنه يجلس على جمر من نار لأنه تسبب في الزحمة للآخرين. نهض من مكانه وألقى نظرةً على الحاضرين، كل منهم شغل نفسه بشيء ما كي يخفي قلق الانتظار، باستثناء كريم الذي كان منشغلًا بالأكل. راح علي يتمشى في السوق، وينظر إلى الدكاكين المغلقة، فجأةً سمع صوت احتكاك فلز ما، وحينما تابع الصوت رأى شبح شخص ما، أراد علي أن يهرب لكنه تأخر إذ أمسك الشبح بعلي ووضع يده على فمه لئلّا يصرخ، كان يرتعد من الخوف، بعد لحظة رفع ذلك الشخص المجهول يده من فم علي وقال:

يا هذا، ماذا تفعل هنا، ألستَ عليًا حفيد الحاج فتاح؟ قل لي ماذا تفعل هنا في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

تعرّف علي إلى هوية صاحب الصوت إنه صوت السيد تقي.

يا سيد تقي لا أفعل شيئًا هنا، صدقني، أقسم لك، نحن هنا من أجل لا شيء. فقط قررنا أن نجلس هنا لنتسامر.

مسح السيد تقي يده على رأس علي بتودد وقال له: لا تخف يا بني! لم أتقصد أن أخيفك، ربما كنت تنتظر شخصًا ما.

كلا، أقسم لك، لا أنتظر أحدًا.

ضحك السيد تقي، وخرج من الرواق. ثم أشار إلى الحشد الذي كان يجلس على بعد مسافة منهما:

من أين جاء هؤلاء؟ هل هي صدفة أن يجتمعوا في هذا الوقت من الليل ليأكلوا الشلغم؟ وهل يتواجد معهم سائق سيارتي؟

كلا.

هل هم بانتظار ذلك الشخص؟

رفع علي حاجبَيه إلى الأعلى، هيمن الاضطراب على قلبه حينما سمع كلمة «ذلك الشخص» وظن أن السيد تقي يعرف كل التفاصيل:

كلا، إنهم يأكلون الشلغم فقط، لا ينتظرون أحدًا، ولا علاقة لهم بالعريف عزتي.

ضحك السيد تقي وقبل رأس علي وقال:

ها قد اعترفت. لأبناء الحاج فتاح قلب بحجم قلب العصفور، إنهم لا يستطيعون أن يخفوا شيئًا. ثم أخفى ذلك الشيء الفلزي تحت قميصه دون أن يرى علي شيئًا، ثم اتجه مع علي نحو بائع الشلغم.

أصاب الهلع قلوب الرجال المجتمعين حول عربة بائع الشلغم، وكأن نظراتهم كانت توجه سؤالًا واحدًا لعلي: لماذا اصطحبت السيد تقي إلى هنا؟

ما أن رأى موسى القصاب السيد تقي حتى أخفى السكين التي كانت في يده، ثم وضع يده على صدره وقال:

السلام عليكم، أهلًا بك سيدي، هل ترغب بأكل الشغلم؟

ضحك السيد تقي:

لك قلب يشبه قلب الأطفال، فيما سبق كنت تذبح الخراف فقط.

ما هذا الكلام سيدي؟ فما زلت أذبح الخراف فقط وفقط.. وها أنا هنا لأكل الشلغم. نظر السيد تقي إلى باقي الرجال وقال ضاحكًا:

جميعكم خرجتم في هذا الجو البارد من أجل أكل الشلغم.

لم يجرؤ أحد على الكلام، بادر نعمت وقال:

يشهد اللّه نحن نأكل هنا الشلغم فقط ولا شيء آخر.

قال له السيد تقي:

هل أنت أحد عمال الحاج فتاح؟

نعم سيدي، وقد اجتمعنا هنا لنأكل الشلغم.

أشار السيد تقي إلى المسحاة التي كانت في يد نعمت وقال:

هل تأكل الشلغم بالمسحاة؟

ألقى نعمت نظرةً على مسحاته وكأنه يراها للمرة الأولى وأجاب:

أنت محق سيدي، لا يمكن أكل الشلغم بالمسحاة. أدرك السيد تقي أنه أحرج الجمع، لذا حاول أن يغير من طريقته في الحديث معهم وأن يزيل الخوف والقلق من قلوبهم، لذا قال:

في حقيقة الأمر، أنا أيضًا خرجت بحثًا عمن يبيع الشلغم، فقد طلب مني شخص عزيز على قلبي أن أهيأ له شلغمًا مطبوخًا في هذا الوقت من الليل، والآن عليكم أن تكملوا ما تبقى من الشلغم وكل يعود من حيث أتى.

تنفس الجميع الصعداء، وداهمتهم موجة من الضحك بعد أن تأكدوا أن الأمر لن يأخذ مجرًى خطيرًا ولن يسبب لهم مشاكل هم في غنًى عنها. تقدم موسى القصاب واقترب من السيد تقي وقال:

كلنا خدم لك يا سيد تقي، سمعًا وطاعةً سوف نعود من حيث أتينا.

قال نعمت للعامل الكردي: يا للخوف الذي أصابنا. أما كريم فقال لحسن: كل الشلغم يا حسن فكل شيء على ما يرام.

وفيما كان الجمع مبتهجًا بزوال الخطر، فجأة أطلت مهتاب مرتدية خمارًا أبيض. رآها علي قبل الجميع، اتجه نحوها، وقفت وقالت لعلي:

يا علي، جدك يأمرك أن تعود إلى البيت وأن تكف عن الانتظار، ثم وجهت كلامها للسيد تقي وقالت:

كلفني الحاج فتاح أن أطلب منكم أيضًا أن تعودوا إلى بيتكم، ثم استدارت وقد تطايرت في الهواء جدائلها التي خرجت من تحت الخمار الأبيض.

نظر السيد تقي إلى موسى وقال:

ما شاء اللّه، يا لجمال هذه الصبية. حقًا إن حفيدات الحاج فتاح يتمتعن بجمال خارق.

قال موسى القصاب: لا يا سيدي، إن للحاج فتاح حفيد واحد وحفيدة واحدة تكبر هذه الصبية بسنوات.

قال السيد رحمان:

إنها ليست حفيدة سيدي الحاج فتاح، وإنما هي بنت إسكندر، وهي أخت هذا الفتى الذي يقف هناك، ثم أشار إلى كريم.

أيد كريم كلام السيد رحمان حينما هزّ رأسه لأنه لم يكن قادرًا على الكلام بسبب انشغاله بأكل الشلغم. عبّر السيد تقي عن دهشته حينما سأل موسى القصاب: لكن لماذا لم توجه كلامها إلى أخيها؟ وكيف علم فتاح بخبر تواجدنا هنا؟ وهل كان لهذه الفتاة التي تشبه الملاك علم الغيب.

- مسح كريم فمه بيده وقال للسيد تقي.

- لم ترني هذه الجحشة.

- ضحك السيد تقي وقال: نعم إنها رأت شيئًا آخر. ثم قال لموسى: يا عجبًا لهذا الزمن... إنهم أطفال هذا الزمن... هزّ موسى رأسه مؤيدًا ولا حاجة له بالكلام. فإن رائحة الحب تفوح ولا حاجة لفراسة لاستشمامها.

***

تفرّق الجمع، كل أخذ طريقه نحو بيته. استطاع قليل منهم أن ينام، إذ شغلهم التفكير بأحداث تلك الليلة وحرمهم من النوم.

عند الظهيرة، أثارت دعوة إحدى مكبرات الصوت من مأذنة مسجد قندي حيرة ودهشة أهالي محلة خاني آباد: يا أهالي حي خاني آباد ندعوكم لحضور صلاة الجماعة في مسجد قندي إذ ثمة خبر هام.

أُغلقت أكثر الدكاكين، فيما أوصى أصحاب المحلات الأخرى عمالهم أن ينوبوا عنهم فيها. لم يعد المكان المخصص للوضوء يستوعب المصلين بسبب امتلائه بالناس الذين وفدوا إلى المسجد لإقامة الصلاة والاطلاع على هذا الخبر الهام

الذي لم يفصح عنه بعد. كان درياني من ضمن الحاضرين، لكنه كان يخرج كل لحظة لينظر من جنب باب المسجد إلى محله، في هذه الاثناء جاءت امرأة وطلبت منه أن يبيعها ما تحتاجه من السلع المتوفرة لديه، فقال لها:

سيدتي، إنه وقت الصلاة، لا البيع والشراء، أم أنك فقدت عقلك.

فأجابته باستهزاء:

لم أكن أعلم أن القطط المنافقة تصلي أيضًا.

بين صلاتَي الظهر والعصر، جلس إمام الجماعة على الدرجة الثانية من مدرج المنبر، كان يشبه كثيرًا الدرويش مصطفى، مسح بيده لحيته البيضاء، ثم قال:

وصلنا خبر يقول أن ثمة شرطي في هذا الحي يدعى الشرطي عزتي وهو نفسه الذي بدرت منه أفعال مشينة، يقول الخبر أنه تم العثور على جثته....

ردد الحضّار الصلوات بأعلى أصواتهم، ثم ارتفع لغط الحاضرين الذين أراد كل منهم أن يعبر بجملة أو بعبارة عن فرحته الكبيرة بمقتل عزتي الذي سبب المتاعب تلو المتاعب لأهل الحي:

إلى جهنم وبئس المصير.

لقد ظلم الناس كثيرًا وهو يستحق هذا الجزاء، إنه ظالم وعدواني.

تهيأ درياني للخروج من المسجد وقال: كان عزتي شابًا طيّبًا. فليغفر اللّه له. نظر موسى القصاب إلى السيد رحمان نظرات تشبه النظرات المتبادلة في لعبة الملك والوزير للتعرف على القاتل فيها، ربما كان بالإمكان معرفة القاتل من نظراته لمن أراد أن يبحث عن هوية القاتل. لم يصمد السيد رحمان أمام نظرات موسى، فأراد أن يتخلص من هذا الاحراج ولم يكن من حل أمامه سوى أن ينظر بدوره الى السيد تقي، بعد لحظة اتجهت أنظار كل من موسى القصاب والسيد رحمان والسيد تقي وإسكندر وكريم نحو الحاج فتاح. أطلق فتاح ضحكةً حقيقيةً وقال:

لماذا تنظرون إليّ هكذا؟ أنا مثلكم لا علم لي بالحادث وكل ما عرفته هو من إمام الجماعة.

حينها قال إمام الجماعة:

وكما أود أن أعلمكم أن الشخص الذي أخبرني بمقتل عزتي ذكر أيضًا أنهم شاهدوا آثار سبع طعنات في جسده.

سباعيته

ربما غيرتَ ترتيب الفصول كي تستدرجني لمعرفة تفاصيل عن ملف قتل عزتي، هذه خطة فاشلة مسبقًا، ففي تلك الليلة، إن أسعفتني الذاكرة، اتجهت صوب بيتنا وخلدت إلى النوم، كان جدي متواجدًا أيضًا في البيت، لكنه لم يستطع النوم بسبب أوجاع في الظهر التي أصابته بسبب الشجار الذي حدث بينه وبين عزتي بشأن قضية مريم ولابد أن تعرف بأنه خارج لعبة الملك والوزير ولا شأن له بالقتل وأن هذه الطعنات السبع لها مداليلها الخاصة ولكن لا يمكن أن يفترض لها صغرى وكبرى الفلسفية بنحو قاطع.

مع ذلك لا بد أن أقول أن الطعنات السبع التي استقرت في جسد الشرطي عزتي تثير هي الأخرى هاجس الفضول لديّ. ولكني لم أستطع أن أتوصل إلى معلومة هامة أخرى. المعلومة الأكيدة هي الطعنات السبع ولا شيء آخر. فلم ير أحد ما جثة عزتي، ولكن دعني أذكر لك هذه الحكاية، فبعد انتصار الثورة وقبل اندلاع الحرب المفروضة، كنت هنا في بيت جدي، وحين الظهيرة كان هناك من يطرق الباب، ثم صار يضغط على الجرس أيضًا، ظننت في بادىء الأمر ربما يكون ساعي البريد وقد حمل لنا رسالةً من مريم أو مهتاب من فرنسا.

لم يسمع نعمت، لا طرق الباب ولا صوت الجرس بسبب سمعه الثقيل، فقمت بنفسي وفتحت الباب، فإذا بشاب أنيق يرتدي قميصًا أبيض وسروالًا أسود، له لحية قصيرة ويضع النظارات السميكة على عينَيه، وكان يبدو من جيل الشباب الثوري المؤدب في أوائل الثورة، ألقى التحية بأدب ولئلا يزاحم أوقاتي امتنع في بادىء الأمر عن الدخول، لكنه رضخ في نهاية الأمر لإلحاحي بالدخول، إذ رغبت أن

أستضيفه. جلس على الأريكة الموضوعة إلى جوار الغرفة ذات المصاريع الخمسة. قدّم لنا نعمت الشاي، ثم قام من مكانه احترامًا وقدّم الشاب نفسه وقال: أنا هاني حفيد فخر التجار. أردت أن أقول له: دعك من هذه الأكاذيب فالساعة الذهبية التي كان يعلقها فخر التجار على سترته، أثمن من كل هذه الملابس التي ترتديها، ولا يمكن أن تكون حفيد ذلك الرجل الثري، ربما استشف شيئًا من أفكاري، فقال:

فليرحم اللّه موتاكم، فكما كان يقول كل من السيد تقي والحاج فتاح، أنا حفيد فخري.

حينما دققت النظر إليه تأكدت من أنه حفيد فخر التجار، فعيناه النرجسيتان تشبهان حد التطابق عينَي فخر التجار.

وحينما شعر بأنني بدأت أتفحصه، قال: يا سيد علي فتاح، صحيح أنني لم ألتقكم سابقًا، ولكن دائمًا كانت لدي الرغبة في أن أتشرف بلقائكم والتعرف عن قرب على حضرتكم. خصوصًا وأنني سمعت الكثير من والدتي وجدّي عن فضائلكم.. وحينما جاءت السيدة مريم مع السيدة مهتاب أكثر من مرة قادمتَين من باريس إلى إيران، تشرفت برؤيتهما حينما ذهبت مع والدتي، كنت صغيرًا حينها، أعتقد أنكم تذكرون والدتي؟ فقد رافقت والدتي شهين فخر التجار في سنة كشف الحجاب أختكم المحترمة في رحلتها إلى باريس. لقد كان مصيبًا وإنه سبط فخر التجار حتمًا؟

وكيف حال الوالدة الدكتورة؟

هي بخير وللّه الحمد، ولكن القصد من زيارتي لحضرتكم هو أن زملائي في محكمة الثورة عثروا على ملف ربما سيحظى باهتمامكم.

علمت فيما بعد أن هاني هو المسؤول عن المحكمة المشرفة على جنوب طهران، مع أنه لم يكن يود أن يفصح عن وظيفته من باب التواضع.

واصل هاني كلامه: كان زملاؤه يبحثون في الملفات المحفوظة في الأرشيف، حينما عثروا على ملف مثير. وقد نصحتني والدتي أن أطلعكم على الملف. لا كما يفعل الآن بعض الناس. فهم يحملون دفترًا وقلمًا ويدّعون بأنهم كتّاب. لا تنزعج. الأمثال تضرب ولا تقاس. ونحن أبناء طهران معروفون بضرب الأمثال.

أخذت منه الملف ورحت أطالع صفحاته، كان الملف متعلقًا بقضية قتل الشرطي عزتي، بقي الملف مفتوحًا ولم تغلق القضية حتى بعد نصف قرن على وقوع الحادثة:

«الجسد يعود للمقتول أكبر عزتي ابن حمد اللّه، وهو مواطن أعزب كان له ٤٣ عامًا، شرطي في الشعبة الثامنة من شرطة طهران ومسؤول عن حي خاني آباد وقناة آباد. والمقتول حصل على ترقية على أدائه المميز في تنفيذ ومراقبة المقررات الحكومية وخصوصًا في مجال كشف الحجاب.

تم العثور على جثة المقتول في صباح يوم الخميس، في الثالث والعشرين من شهر دي[1]، وفقًا لشهادة قدمها راع شاب وذلك في الطريق المؤدية إلى حسين آباد، وقد تم نقل الجثة إلى الطب العدلي في طهران بنفس اليوم، وحسب التقرير الطبي، فقد تعرض المقتول لسبع طعنات من قبل القاتل أو القاتلين، وتدل الضربات التي أصابت أماكن مختلفةً في جسده أنها جاءت عشوائية وتدل على العنف، وكأن الضارب أو الضاربين قد أقدموا على الطعن بأعين مغمضة».

لفتت انتباهي الإشارة إلى أن الضارب أو الضاربين، سددوا الطعنات بأعين مغمضة وكانت سبع طعنات، هل فعلها العميان السبعة؟ خصوصًا وأنهم غالبًا ما يسلكون جادة حسين آباد، كيف أمسكوا به، وما هو دافعهم لا يمكن أن نأخذ هذا الأمر بعين اليقين؟

***

حدث أن رأيت أبي ذات يوم في شارع مختاري، كان يتشاجر مع الحداد الذي وقف أمام الميزان الكبير الذي يزن به قطع الحديد، كان يتمايل في وقفته بسبب قدمه العرجاء، قال الحداد بهدوء: سوف أعالج الأمر، لكن أبي كان مغتاضًا وعصبيًا، قال للحداد:

إنَّ هذه السيدة المسنة تريد أن تنام إلى وقت متأخر من الصباح، وإن طرق الحديد يكاد يفتت صبرها وقلبها، إنه يزعجها جدًا.

(١) أول شهر من فصل الشتاء حسب التقويم الإيراني.

بعد أسبوع انتقل الحداد إلى محل آخر خارج حي خاني آباد، ربما انتقلت المرأة المسنة وبقي الحداد، لا أتذكر الأمور بدقة، كنت حينها في السابعة عشر أو الثامنة عشر من العمر، أي بعد أعوام من وفاة والدي، ربما سوف تتساءل عن سر هذا التناقض في روايتي، إذ أن أبي توفي قبل عدة أعوام فكيف تسنى لي رؤيته في شارع مختاري؟ يا لها من مهنة سيئة، أعني الكتابة. هل عليّ أن أسرد تفاصيل الحلم على نحو يجعل القراء يظنون أنني أسرد مشهدًا حقيقيًا؟ بل إنها المرة الأولى التي أرى فيها والدي بعد مماته أو مقتله. كانت دقات قلبي تدق متسارعةً وكأن قلبي يريد أن يطير من بين أضلعي، فيما ابتسم هو وقال:

هل أنت خائف؟

كلا، كلا، وهل يخاف الإنسان من أبيه، وإنما، أنت توفيت....... لا أعرف كيف أعبر عن فكرتي...

قال أبي:

أكمل عبارتك وقل: لكنك يا أبي قد توفيت منذ أعوام، قد قتلت.

ثم مسح بيده على رأسي وقال:

تأكدت أنك صرت الآن رجلًا ورأيتها مناسبةً لألتقيك. دع عنك حديث الحياة والموت. أما بخصوص الحداد والمرأة المسنة. فرأيت من واجبي أن أجد حلًا لهذه المرأة الصالحة التي تقضي كل الليل بالأرق والسهاد. إن الواجب الإنساني لا يميز بين الحي والميت وكان من مسؤوليتي أن أنبّه الحداد.

حينما نظرت إلى حواليّ، رأيت جمعًا من الأطفال جعلوا من قبعة عزتي لعبةً لهم، يضربونها بأقدامهم وكأنها كرة، وتذكرت كيف كانوا يخافون فيما مضى ويهربون منه ما أن يضع قدمَيه في الزقاق أو الشارع، رأيت عزتي وقد صار هرمًا، وكان العرق يتصبب من جبينه وكان يركض وراء الأطفال ملتمسًا أن يعيدوا إليه قبعته، ورأيت سبع طعنات على جسده تنزف دمًا.

قال أبي: ربما أراد ملاك البرزخ أن يمضي وقته في اللهو فأخرج عزتي لبرهة كي يضحك على هذا المشهد البائس لعزتي. في هذه الأثناء وجهت سؤالًا لأبي:

يا أبي أخبرني أرجوك من قتل عزتي؟

فأجابني:

كان من المفروض عليك أن تسأل من قتلني ظلمًا، ولكنك تشغل نفسك لمعرفة الشخص الذي قتل عزتي بحق!

فجأةً اختفى أبي من أمام ناظري، كذلك اختفى شبح عزتي، كان الأطفال يلهون بطاقيته الزرقاء وقد رسم عليها صورة الأسد والشمس وهي علامة الطاقيات التي يضعها على رؤوسهم رجال الشرطة.

سألتهم: من أين لكم هذه الطاقية؟

أجابوا:

جلبها إلى هنا كلب جريح، كانت موضوعةً على رأسه.

كفى هراء أيها الأغبياء، إنها قبعة رجال الشرطة. ما إن سمعوا ذلك مني حتى لاذوا بالفرار وتركوا القبعة مرميةً على الأرض.

اتّجهت نحو الحداد واستفسرت منه عن أسباب شجاره مع ذلك الرجل. رمقني الحداد بنظرة غاضبة وقال:

ليس شجارًا، مجرد نقاش، وليس صحيحًا أنه فرض عليّ أن أنتقل إلى مكان آخر، فهذا القرار اتخذته بنفسي، وربما سيكون بإمكاني إقناع السيدة حسيني أن تنتقل هي إلى مكان آخر.

اضطررت إلى مغادرة المكان مسرعًا، فقد تفاقمت عليّ الأمور ولم أعد أميز بين الحقيقة والخيال، بين الصحو والرؤيا، ما أن بلغت نهاية الشارع حتى صار الحداد يركض ورائي دون أن يستطيع اللحاق بي بسبب عرقلة قدمه العرجاء وهو يصرخ: قل لي يا هذا كيف علمت بالحكاية فأنا لم أحدث أحدًا بهذا الخصوص.

***

في نفس اليوم أخبرت جدي بتفاصيل ما حدث، وقلت له إن والدي أوصاني بطلب العامل الفلاني. فقال لي جدّي: إن والدك كان يأتي في منامي ويخبرني بهذه الأمور. لعلك كبرت ونضج عقلك ولهذا أخبرك أنت. طلب مني جدي أن أحتفظ بهذا السر وأن لا أبوح به لأي شخص آخر غيره.

لم أستطع أن أحبس هـذا السر في صـدري، فسردت الحكاية ذات يوم لمهتاب، وكان ذلك في مقهى المسيو برنر، لكن يبدو أنني أفرطت في تبسيطها حتى بدت حكايةً عاديةً لم تثر اهتمام مهتاب.

كان رد فعلها عبارةً عن ابتسامة بسيطة جعلت خمارها البني يسرح من على رأسها قليلًا، كانت تشرب القهوة بهدوء، ثم قالت:

كعادتها، تأخرت مريم في المجيء.

هي تتأخر باستمرار.

عليها أن تقرأ جزءًا آخر من القرآن الكريم فهي مثلي تريد أن تنجز النذر الذي قطعته على نفسها.

أي نذر؟

نذرنا أنا ومريم أن نختم سورة يس من القرآن إن جئت إلى هنا، إلى باريس.

قلت لها: كم تشبهينني فأنت أيضًا لا تستطيعين أن تحفظي سرًا.

ربما كنت محقًا حينما قلت لها إنها تشبهني، فكلانا يملك قلبًا صغيرًا بحجم قلب العصفور، وربما لهذا السبب لم يكن بإمكاننا أن......... فإن هذه الأمور لا تحتاج إلى صغرى وكبرى في المنطق.

***

منذ أن رأيت أبي في شارع مختاري، غيّر جدي طريقة تعامله معي، صار ينظر إليّ كرجل رشيد، قال:

الحمد للّه، لقد صرت رجلًا واعيًا.. أعتقد أن مهمتي في الحياة قد انتهت وعليّ أن أهيأ نفسي للرحيل.

ومع أني كنت في الثامنة عشرة من العمر، لكن لم أكن أتصور أبدًا الحياة بلا جدي، ولا أظن أنني قادر على أن أبرمج حياتي دونه. كيف يمكن أن أدير البيت وقمائن الطابوق. لقد أفرزنا رباط المسافرين وقسمناه لقطع صغيرة لنبيعه، ولكن ماذا عن عائلتي السيد رحمان والعم إسكندر، يضاف إلى ذلك الراتب الشهري

الذي يتعين عليّ أن أرسله إلى مريم ومهتاب بعد تحويله إلى عملة الفرنك الفرنسي، وهناك مصاريف بيتنا المزدحم دائمًا بالضيوف والأقارب. لا أعرف حقًا ما هي الموارد المالية التي كانت تساعد جدي على دفع كل هذه الأجور.

في أحد أيام الصيف من تلك السنة، طلب مني جدي أن أحضر في مكتبه في القمين، هناك رأيته مع الميرزا المحاسب، الذي صار شيخًا كبيرًا وجعلوا له مساعدًا شابًا يساعده ويشرف على جميع أمور المعمل، الحوالات الواردة والصادرة، وكان الميرزا يجري مراجعةً نهائيةً عليها، أرسلني جدي للميرزا حيث قال لي الميرزا:

هل تتذكر يا سيد علي الشاحنات التي كانت محملةً بالسكر؟ إن الأمر يعود إلى حوالي سبع أو ثمان سنوات، والأضرار التي لحقت بهذه البضاعة؟ سوف أزودك بالوثائق وسوف يكون بإمكانك استرداد المبالغ التي تضررناها حينها.

ألقيت نظرةً حائرةً على جدي ورأيته ينظر إليّ بجدية منتظرًا إجابتي، طلبت العذر من الميرزا، ثم اتجهت نحو جدي وهمست في أذنه:

لا أعتقد أنني لائق بمهمة كهذه، لا يمكنني أن أذهب لوحدي، ولا يمكنني أن أتحدث دون أن يكون شخص معي.

أولًا من أجل أن تسترد حقك، عليك أن تبادر بأسرع وقت ممكن كي لا يضيع حقك، ثانيًا، هيا أسرع لإنجاز هذه المهمة، فقد جهزت لك الأوراق والوثائق التي تحتاجها. عليك أن تطبّع نفسك لإنجاز مهمات أخرى فأنت من سيكون مسؤولًا عن كل شيء في المصنع. فأنا عازم على الرحيل. لقد حان وقت موتي لأستقر مرتاح البال في قبري. لم أتمكن من الاعتراض على كلامه. إن لم تذهب إلى خارج البلاد. لقد ذهب والدك المرحوم وهو في سنك هذا مع إسكندر إلى باكو وجلب أول محمولة من السكر لوحده. لم يذهب وحده. ذهب مع إسكندر. تأملت قليلًا. أنا ابن والدي وقزوين ليست كربلاء كي لا يمكن للمذنبين أن يدخلوها. فأنا أذهب مع ابن إسكندر. فقال لي جدي: لا بأس خذ كريمًا معك. لا تغالط في كلامك. من قال لا يحق للمذنبين أن يذهبوا لكربلاء؟ إن كانت مائدة اللّٰه تعالى شهر رمضان ولا يحق للمذنبين أن يجلسوا عليها، فإن مائدة الحسين (عليه السلام) شهر محرم ويحق لكل الناس أن يجلسوا عليها. خذ كريمًا معك.

***

وحسب تعبير كريم، فنحن ركبنا سيارة الشوفرليت بعد غسلها وتشحيمها وإنما امتطيناها وكأنها حصان، وكانت هذه سفرتي الأولى بلا جدي وأمي. كنا نقف عند كل مقهًى يصادفنا في الطريق، كان كريم يتفحص محرك السيارة ويراقب نسبة الزيت اللازمة للمحرك، ومن أجل أن يعبر عن سروره كان يستفسر من شباب القرى عن الطريق إلى ألمانيا وكانوا يظنونه جادًا في السؤال.

استغرب صاحب أحد المقاهي من سؤال كريم، كان يسمع للتو من جهاز الراديو الذي يمتلكه أشياء عن هتلر والنازية والعرق البشري المتفوق، لكن لا بد من الإجابة لذا قال:

أيها السيد الشاب، إنها مسافة طويلة ولا أعرف بالضبط كم من الوقت تحتاج للوصول إلى ألمانيا. أعرف أن المسافة من هنا إلى قزوين عشرون فرسخًا ثم تأخذ طريق زنجان ومن ثم تبريز.

ولكن ما الذي يدفعك للذهاب إلى ألمانيا؟

يجب عليّ أن أصطحب هذا الشاب إلى ألمانيا بأمر من «الرئيس هيتلر» لأنه شخصية مرموقة ومعروفة، فهذا الشاب هو من العرق الآري الأصيل وسوف يتم الاحتفاء به هناك.

بعدها سأل صاحب المقهى كريمًا وكيف عرفت أنه آري أصيل.

طلب كريم من أحد الشبان القرويين أن يتقدم وسأله إنْ كان موافقًا على إجراء اختبار عليه ليعرف إن كان من الجنس الآري أم لا. وافق الشاب القروي ولم يخطر بباله أدنى شك في أن الموضوع في غاية الجدية، طلب كريم من الشاب أن يفتح فمه وأن يصرخ بأعلى صوته وقرب كوب الشاي من فم الشاب بعد أن أنهى الشاب صراخه.

قرّب كريم الكوب من أذنيه وتظاهر بالاستماع إلى انعكاس الصوت، ثم قال:

- يؤسفني أن أخبرك أنك لست من العرق الآري، لا من ناحية الأم ولا من ناحية الأب.

أجرى كريم الاختبار على شبان آخرين وكان ينوع إجاباته، كأن يقول لأحدهم والدك من العرق الآري ولكن يؤسفني أن أقول لك إنَّ والدتك ليست آرية تمامًا،

ومما أضفى طابع الجدية على كلام كريم أنه أخبرهم أنه سيصطحب معه إلى ألمانيا آخرين ممن ينتسبون إلى العرق الآري. فثمة متسع في المقاعد الخلفية لسيارة الشوفرليت، بعدها أبلغ كريم صاحب المقهى أنه سيسدد ثمن جميع أكواب الشاي التي تناولها الحاضرون، وقد دفع المبلغ من الميزانية التي خصصها لنا الحاج فتاح.

كان كريم في غاية الكرم ولكن ليس من جيبه بالطبع. حينما خرجنا ودعنا الشبان القرويون، وصاروا يدورون حول سيارة الشوفرليت ويمسحون بأيديهم على زجاجها وأبوابها وكأنهم يتبركون بها أو كأنها ملك شخصي لهتلر نفسه.

استغرقت رحلتنا إلى قزوين ثلاثة أيام خلافًا لما كنا قد خططنا لها، إذ اعتقدنا أنها سوف تستغرق يومًا أو يومَين، ويعود السبب لكثرة توقفنا في المطاعم والمقاهي التي كانت بمحاذاة الطريق.

حينما وصلنا قزوين اتجهنا إلى العدلية والتقينا بقاض مسن في العمر، كان يتكلم بتأن، عرضنا عليه القضية وجميع الوثائق التي زودنا بها الميرزا. وبدل أن يتطرق القاضي إلى الجانب القانوني صار يسهب في تقديم نصائح لا معنًى لها:

عليكما يا بني أن تتهيآ جيدًا للقضايا الإدارية والمراجعات، فالأمور ليست بالسهولة التي تتصورانها وكان عليكما أن تقدما الوثائق اللازمة والضرورية، وأن تتقنا قضيتكما جيدًا لعل القانون يجد حلًا لها.

الهراء الذي تفوه به القاضي الهرم، أفسد علينا ثلاثة أيام من المتعة، ثلاثة أيام هي من أجمل أيام حياتي على الإطلاق. مع ذلك لم يستسلم كريم للقاضي وللغته القانونية التي تذرع بها كي يتخلص منا ومن القضية التي جئنا من أجلها. قال كريم:

دعنا نعود إليه ثانيةً، فقد ذكر في كلامه أن علينا أن تكون لدينا أدلة صغرى وأدلة كبرى من أجل أن نكسب القضية فدعنا ندخل عليه ونحاول من جديد.

خاطب كريم القاضي:

سيدي القاضي، لقد سمعت من حضرتك الكثير من النصائح القيمة وأظن أن حضرتكم محق، لذا أترك رفيقي هنا لتوجهوا له المزيد من النصائح والتوجيهات القيمة وسوف آتي لكم خلال نصف ساعة بما يثبت حقنا فيما يتعلق بالشاحنات

المحملة بالسكر. أرجوك سيادة القاضي، نصف ساعة فقط من وقتكم الثمين.

وافق القاضي على طلب كريم وشرع بتوجيه النصائح إليّ، أما كريم فخرج مسرعًا من الصالة، وعاد بعد نصف ساعة خالي اليدَين، فاستغرب القاضي وقال له:

أين تلك الوثيقة الدامغة أيها الفتى، فلا أكاد أرى شيئًا في يدَيك.

نعم يا حضرة القاضي، لا أحمل شيئًا. لكن لحظةً واحدةً من فضلك، ثم نادى امرأتَين كانتا تقفان خلف الباب فدخلتا إلى الصالة، قال كريم هذه هي كبرى، ما اسمك أيتها المرأة، عرّفي نفسك لسيادة القاضي، قالت المرأة موجهةً كلامها للقاضي:

-أنا كبرى، سيدي.

ثم خاطب كريم المرأة الثانية، قال لها لقد أعطيتك مبلغًا من المال من أجل أن تقولي للسيد القاضي كلمةً واحدةً، هيا إذن، فقالت:

أنا صغرى، يمكنك يا سيدي القاضي أن تخاطبني بالآنسة صغرى.

قالتها بصوت واضح.

كادت عينا القاضي أن تخرجا من حدقتَيهما تعجبًا للمسرحية التي أخرجها كريم خلال لحظات معدودة. لم يتوقف كريم عن الكلام وقال:

طلبت منا صغرى وكبرى وها هما بين يدَيك سيدي القاضي، وإن كانت لديك أية أوامر أخرى فنحن في خدمتك وفي خدمة القانون، لكننا نرجوك أن تحسم لنا قضية شاحنات السكر، علينا أن نذهب إلى ألمانيا، وهذا الشخص الذي يمثل أمامك اسمه علي فتاح وقد اتضح أن الدماء التي تسري في عروقه هي دماء آرية نقية، ولذا كلفني القائد هتلر أن أرافقه إلى ألمانيا ليتم الاحتفاء به. لا يخدعك صمته يا سيدي فهو يجيد عشرات اللغات ويستطيع أن يسب بها سبّا مقذعًا، سوف نكون هناك في ألمانيا ولا تدع الألمان يقولون عنك إن ابن عمنا القاضي لم يتعاون وللأسف لحل قضية ابن عمهم علي فتاح، أرجوك.

غيّر القاضي لهجته الرسمية الجافة، وضع يده على بطنه وصار يرتج من الضحك كمحرك شاحنة تم تشغيله للتو، وقال:

كفى أيها المهرج، سوف أنفجر من الضحك.

***

لقد أجاد كريم في شرح معنى الكبرى والصغرى، رغم أنه لم يكن ذكيًا في الدراسة، وقد أعجبني تصرفه. فقد ربحنا القضية التي كلفنا بها وبذلك نكون قد نجحنا في مهمتنا. بالطبع فإن هذا النجاح سوف ينظر له جدي الحاج فتاح على اعتباره نجاحًا شخصيًا لي في إدارة مصنع قمائن الطابوق.

من جهة ثانية، ترك القاضي لغته وسلوكه الرسميَّين وصار ودودًا معنا للغاية، ألح علينا أن يستضيفنا في بيته وقال:

- لم أضحك طوال حياتي بقدر ما ضحكت اليوم ولم أر في حياتي شخصًا ظريفًا مثل كريم.

في بيته تناولنا وجبةً دسمةً من العشاء، أعد لنا الطاهي الذي كان يعمل عند القاضي كبابًا مشويًا تناولنا منه مقدارًا غير قليل وبشهية.

في الصباح الذي تلا تلك الليلة أمر القاضي بالإفراج عن شاحنتَين من مجموع ١٥ شاحنةً تعود ملكيتها للحاج فتاح. أما الشاحنات الأخرى فقد أكد لنا القاضي أن مصيرها غير معلوم بعد.

ثمانيتي

شهدت تلك الأيام مجيئ إحدى السيدات البولنديات لبيت جدي، كانت تأتي عصر كل يوم، لتدّرس مريم اللغة الفرنسية جنب الغرفة ذات المصاريع الخمسة وعند النافذة المشرفة على الباحة كانت تقوم بتعليم مريم اللغة الفرنسية، وأحيانًا كانت مريم ترسم نماذج من ورود التطريز على الورق، بغض النظر عن أجرة التعليم الباهضة التي كان يسددها الحاج فتاح للمعلمة البولندية، كانت ثمة علاقة محبة واحترام من قبل مريم تجاه هذه المعلمة المحترمة التي كانت تبذل جهدًا حقيقيًا وتعطي الدرس حقه. كما كانت تشيد بموهبة مريم بالمقارنة مع طالبات يتلقين بدورهن دروسًا في اللغة الفرنسية.

كانت أحداث أخرى تقع في البيت، من ضمنها أن الأطفال كبروا ولم يعودوا أطفالًا. كان الأمر يصدق على كريم أكثر من غيره.

ذات مرة طلبت المعلمة البولندية من أمي أن ترتب لهما مكانًا آخر للدرس، قالت إنها لا ترى الغرفة ذات المصاريع الخمسة مكانًا مناسبًا.

انفردت بأمي وقالت لها:

لم أرغب أن أتكلم بهذا الصدد بحضور ابنتكم مريم.. ابنكم علي ولد طيب ووديع، ولكن مراعاة لآدابكم وأخلاقكم الإيرانية الرفيعة، أقول أن ذلك الشاب الطويل (وكانت تقصد كريمًا) يأتي ويجلس عند حوض الماء وينظر إليّ بنظرات متلصصة.

وافقت أمي على طلب المعلمة البولندية ورتبت لها غرفةً أخرى، ثم صارت

تراقب سلوك كريم. جاء ثلاث مرات وجلس عند الحوض وبدا متذمرًا لأنه لم يشاهد المعلمة البولندية. تيقنت أمي من صحة كلام البولندية، فنادت عليًا وقالت له:

قلت لك أكثر من مرة كفّ عن مصاحبة أبناء الحفرة، عليك أن لا تصاحب كريمًا بعد اليوم. لقد صار شابًا وأنت ما زلت طفلًا وثمة أمور لا أعرف كيف أشرحها لك.

لم يكن علي بحكم العمر يفهم مغزى كلام والدته، كان ما يزال فتًى صغيرًا، لكن بعد سنوات أدرك ماذا كانت تقصد والدته من كلامها وتنبيهها له. (راجع ثنائيته)، مع ذلك أراد أن يبرهن لوالدته أنه أدرك مغزى كلامها، فرفع حاجبَيه إلى الأعلى وابتسم قائلًا:

هل تظنينني ثقيل الفهم؟ ليس كما تتصورين يا أماه فقد قال لي كريم كل شيء.

ماذا قال لك؟

أمس حينما كنا عائدين من المدرسة، أخذت حقيبة مهتاب كي أجلبها بنفسي إلى البيت.

تحمل حقيبة طفلة صغيرة، عجيب أمرك، لقد سببت لنا الإحراج بسلوكك هذا.

لم أفعل شيئًا سيئًا، كانت مهتاب تحمل أشياء في يدها ولم يكن بوسعها أن تحمل الحقيبة، أقصد أنها كانت تأكل الخبز واللحم ولذلك لم يكن بمقدورها أن تأكل وتحمل الحقيبة في آن واحد.

الخبز واللحم. ياللعجب، أي ما أعطيته لك كي تأكله في وقت الفراغ؟

سحب علي رأسه إلى الوراء، تأوه وقال:

أنت لا تعطينني فرصةً للحديث يا أماه.

حرّكت أمي رأسها يمينًا ويسارًا وقالت:

تفضل، تفضل بالحديث ياحضرة السيد.

حينها خاطبني كريم قائلًا: أنا أعرف يا علي لماذا تحمل حقيبة مهتاب وتعطيها الخبز واللحم وعصير الليمون.

إذن أعطيتها عصير الليمون أيضًا.

دعيني أكمل كلامي يا أماه، أرجوك.

تفضل أيها السيد.

قال كريم أنه يعرف جيدًا لماذا أقوم بهذه الأفعال من أجل مهتاب.

لماذا؟

لم يقل أكثر من ذلك، فقط فهمت من كلامه أنه يعرف السبب، لكنه أضاف أن له أيضًا أمنيةً.

فليخرس، عن أية أمنية تحدث؟

قال إنه يتمنى أن يرتبط بعلاقة حب مثل علاقتي بمهتاب مع المعلمة البولندية وأن يتزوجها.

بصعوبة ابتلعت أمي ضحكةً كادت أن تفلت منها.

هيا أخرج من هنا أيها الطفل البرىء، إنه تفوه بكلام أكبر من رأسه، لا تكرر هذا الكلام أبدًا، وكف عن معاشرة كريم، إنه يعلمك أشياء لا تتناسب مع من هو في عمرك.

***

أكملت مريم تعلم اللغة الفرنسية شيئًا فشيئًا، لم يفهم أحد شيئًا من تجاذبها الحديث مع معلمتها البولندية، وكانت أم كريم تشكو لأمي عدم فهمها أية كلمة من كلامهما. كانت أمي ترد بابتسامة وتستمتع لغليان الماء في نارجيلتها.

كان الجميع على معرفة أي منحًى سيأخذ تعلم مريم الفرنسية وعدم ذهابها إلى المدرسة واهتمامها بالرسم. ولكن لم يتفوه أحد بشيء في هذا الصدد، وقد

حاولت مدرسة إيران للبنات أن تجلب رضا مريم للعودة إلى الدراسة، جاءت مديرة المدرسة أكثر من مرة بنفسها إلى بيت الحاج فتاح ولكن دون جدوًى، وقد طلبت من أمي أن تسعى لإقناع مريم بالعودة إلى مدرستها. كانت المديرة تقول:

إن لمريم ذكاءً خارقًا وهي قادرة أن تسترد خلال أسبوعَين ما فات منها بسبب انقطاعها عن المدرسة في هذه الفترة.

وكانت إجابة مريم في كل مرة واضحة وهي: لن أعود إلى المدرسة أبدًا. أنا أستطيع هنا أن أرسم وفق مزاجي والإنسان يستطيع أن يتعلم في بيته أكثر مما يتعلمه حينما يكون في بيوت الآخرين.

بعد عام، كانت شهين بنت فخر التجار قد تعلمت الفرنسية هي الأخرى من المعلمة البولندية الثانية، كانت شهين تضغط على والدها من أجل أرسالها إلى أوروبا كي تكمل دراستها في مجال الفن وكانت تتذرع بكلام المعلمة البولندية التي قالت لها:

لقد آن الأوان كي تواصلي تحصيلك الدراسي في أوروبا.

كانت شهين تخاطب والدها فخر التجار قائلةً:

لقد تعلمت اللغة الفرنسية وصرت أجيدها بطلاقة، ثم ماذا، هل عليّ أن أتفسّح في البيت؟

وكان فخر التجار يجيب ابنته بصراخ وسخط:

هل تتوقعين مني أن أرسلك لوحدك إلى بلاد الغربة، وكيف سأجيب الناس الذي سيستهزئون بفخر التجار الذي أرسل ابنته لوحدها إلى بلاد الغربة، هل عاقِبتي أن أكون محل سخرية للناس؟

وكانت شهين ترد:

لستُ وحدي، إن وافقت سأسافر مع مريم فتاح.

وكلما سمع فخر التجار هذه الإجابة، استغفر اللّه ولزم الصمت.

***

بعد إصرار متواصل من قبل شهين، اضطر فخر التجار أن يذهب إلى الحاج فتاح ليتحدث معه في الأمر وارتأى أن يتحدث مع الحاج فتاح في قمين طابوق الفردوس وليس في قهوة شمشيري المزدحمة دائمًا. لذا طلب من سائقه أن يسلك جادة حسين آباد نحو قمائن الفردوس التابعة للحاج فتاح.

حينما سمع فتاح بمجيء فخر التجار خرج من مكتبه واستقبله معانقًا إياه:

هل جئت لشراء الطابوق، هل شرعت بالبناء؟ عليك أن تفكر بإقامتك في عالم الآخرة وأن تعمل من أجل سكنك هناك.

ابتسم فخر التجار، وكانت أمارات التعب باديةً على ملامح وجهه.

استمر الحاج فتاح قائلًا:

لقد زوجت أبناءك، وأنت الآن بانتظار عريس، ومن الواضح أن العريس يريد بيتًا منفصلًا يسكن فيه مع زوجته.

لا يا حاج فتاح، إن إحدى بناتي تريد أن تجعل مني أضحوكةً للقاصي والداني، إن ابنتي الصغيرة التي تعلمت اللغة الفرنسية مع حفيدتك مريم، رفضت هي الأخرى الذهاب إلى المدرسة، كلما قلت لها إن السبب الذي دفع مريم فتاح يختلف اختلافًا كبيرًا عن الأسباب التي تدفعك لعدم مواصلة تحصيلك الدراسي، لم ينفع الكلام، قلت لها: لقد وافقت على رغبتك بتعلم الفرنسية لكن عليك الذهاب إلى المدرسة أيضًا، فأنت لم تواجهي ذات المشكلة التي واجهتها حفيدة الحاج فتاح، أكملي دراستك ثم استغفري اللّه على عدم ارتداء الحجاب أيام الدراسة وتحجبي بعد ذلك. لا تقارني نفسك بحفيدة الحاج فتاح فهي مفروض عليها ارتداء الحجاب الكامل.

عذرًا على المقاطعة، لكن مريم هي من اختارت طريقها ولم يفرض عليها أحد أي شيء.

على أي حال، ابنتي شهين تلحّ على الذهاب إلى أوروبا لمواصلة دراستها هناك، ولا أعرف ماذا سيقول الناس عني إن أنا استجبت لطلبها؟

ابتسم الحاج فتاح، وقال:

لماذا تشغل بالك بكلام الناس إن لم ترتكب خطأً ما، ما المشكلة إن سافرت إلى خارج إيران للدراسة؟ أنا وكنّتي نحاول منذ ٦ أشهر أن نقنع مريم للذهاب إلى الخارج لتكميل تحصيلها الدراسي، لكنها لم توافق بعد، تقول إن الإنسان يتعلم في بيته أكثر من أي مكان آخر.

لم يكن فخر التجار يتوقع هذه الإجابة من الحاج فتاح، فنظر إليه نظرة استغراب وقال:

هل أفهم من كلامك أن لا مشكلة في الأمر إنْ ذهبت إحدى الفتيات للدراسة في بلاد الغرب؟

رفع فتاح رأسه وقال:

لا، لا ضير في الأمر.

الذي يحيرني أنك تناضل من أجل أن تحافظ حفيدتك على ارتداء الحجاب وتوافق في نفس الآن على ذهابها إلى بلاد الغرب التي هي ديار الكفر؟

نعم، هكذا هو الأمر.

كيف؟

اليوم بلادنا أكثر كفرًا من بلاد الغرب، فهناك ثمة على الأقل فسحة للحرية الشخصية ويستطيع المرء أن يختار بنفسه نوع الملابس التي يرغب أن يرتديها، وأن يختار طريقة الحياة التي يرتئيها. أما هنا فكل شيء يتم بالقوة والإرغام، على المرء أن يعيش هنا وفق ما يرسمه له الآخرون. على الإنسان أن يعيش على ضوء أوامر اللّه سبحانه وتعالى، فإن تعذّر ذلك فعليه أن يحيا كما يشاء هو بنفسه وليس كما يفرض عليه الآخرون.

أيد فخر التجار كلام فتاح، لكنه لم يقتنع تمامًا، فثمة اعتراض أخفاه في أعماقه، قال:

أوافق كلامك، ولكن فتاةً صغيرةً تعيش وحدها في الغربة، فذلك يعني...

علينا أن نربي أبناءنا على النحو الذي لا يجعلنا نقلق عليهم إن بلغوا سن

الرشد. دعني أعطيك مثالًا فلو أنك علّمت الحمامة على الطيران وأحسنت تعليمها فإنها سوف تعود إلى عشها أينما ذهبت ولا يمكن أن تقص جناح الحمامة لأنك تخاف إن هي تعلمت الطيران فلربما لن تعود إليك. هكذا هو الحال مع الأبناء، فالتربية الحسنة تجعلنا لا نقلق عليهم إن كبروا، على العكس فالثقة العالية بهم سوف تجعلهم يشعرون بالمسؤولية أكثر فأكثر، ولا فرق إن كان أبناؤنا يعيشون في حي الشاه عبد العظيم أو في باريس.

ربما كانت المرة الأولى التي يسمع فيها فخر التجار كلمة باريس. لم يرد هذا الاسم على مسامعه من قبل أبدًا. ولهذا السبب ربما راح يتمتم: باريس، باريس، باريس.

وفيما بعد عندما كان فخر التجار يستلم رسائل من ابنته وقد كتبتها له من باريس، ومن يد ساعي البريد ويقول له: لكم رسالة من ابنتكم الدكتورة من باريس، فكان يتمتم كلمة باريس عدة مرات.

***

بعد ثلاثة أشهر من الحوار الذي دار بين فخر التجار والحاج فتاح، استعدّت كل من مريم وابنة فخر التجار للسفر إلى باريس، كانت جوازات السفر جاهزةً، وقد أعرب الحاج فتاح عن استعداده لمرافقتهن إلى العاصمة الفرنسية، على أن يسافروا جميعًا بسيارة الحاج فتاح، إلى الحدود ومن هناك يواصلون السفر بواسطة نقل أخرى، وسوف يبقى الحاج فتاح معهن إلى أن يرتب أو يشرف على الإجراءات المرتبطة بالحصول على مكان للإقامة وذلك في أواخر عام ألف وثلاثمائة وستة عشر شمسية.

***

في يوم من أواخر أيام فصل الربيع، كانت سيارة الحاج فتاح تقف بجوار مسجد قندي، وقد اجتمع جم غفير من الناس، فيما أحضر موسى القصاب خروفًا كي يذبحه تيمنًا بمناسبة سفر الحاج فتاح وحفيدته مريم.

ومع أن ذلك اليوم صادف أيام امتحانات نهاية الفصل الدراسي، إلا أن طالبات مدرسة إيران خرجن من المدرسة باكرًا ليحضرن حفل توديع مريم، أما أم كريم فقد حملت صينية ملأتها بالحرمل لطرد عيون الحسّاد كما وضعت آنيةً

مملوءةً بالماء لتسكبها فور مغادرتهم المكان، كانت تدور حول الحاج فتاح ومريم وتقرأ بعض الأوراد، كان الجميع بانتظار فخر التجار. بعد لحظات جاء فخر التجار بسيارته مصطحبًا ابنته، فيما حمل آخرون الأشياء التي تلزم ابنته في رحلتها إلى باريس بالعربة.

تعرفت مريم إلى هوية ابنة الحاج فخر التجار بسرعة، فقد سبق أن رأتها مرارًا في مدرسة إيران، لكن لم تكن هناك من معرفة عميقة بينهما. فشهين كانت تكبر مريم بعامَين وكانت في مرحلة دراسية أخرى.

خطت شهين نحو مريم وقبلت وجهها، رأى جميع الحاضرين كيف أن الدموع صارت تسيل على خدَّيها تأثرًا بلحظات الوداع، شعرت مريم أن جميع الناس الذين حضروا لحظات الوداع يعرفون جيدًا أن لا مكان للفرح في قلبها، كما أنهم يعرفون السبب الذي دفعها لمغادرة وطنها، فهي لن تسافر إلى الغرب من أجل أن تتعلم أشياءَ، وإنما من أجل أن تنسى أشياءَ مؤلمةً، ظنت أن جميع أهالي الحي يعرفون القصد من سفرها إلى باريس، سمعت نساءً مسنات يقلن:

بديهي أن عائلةً محترمةً مثل عائلة الحاج فتاح لم تكن لترضى أن تسافر ابنتها مريم لولا أن هناك سببًا، فلعنة اللّه على من كان السبب في الغربة التي ستعانيها هذه الفتاة الصالحة.

سمعت مريم ذلك وتذكرت ما حدث معها حينما كانت عائدةً مع جدها الحاج فتاح من المدرسة، تلك الحادثة التي تركت جرحًا لا يندمل في روحها (راجع سداسيته).

***

لم يعر أحد اهتمامًا لفخر التجار وابنته، كانت الأنظار متجهةً جميعها نحو مريم، في الممر، ودّعت مريم أمها وعليًا، كان علي يبكي بحرقة وألم، تعاطفت معه أمه وحاولت أن تهدّيء من روعه، كان يظن أنه مقصر في سفر أخته إلى الغرب لأنه لم يقف إلى جانبها بما فيه الكفاية. عانقت مريم مهتاب وأوصتها أن تهتم بعلي. ابتسمت مهتاب. وتظاهرت أمي بأنها لم تسمع شيئًا، استدار علي نحو الحائط وشرع بالبكاء، لم يعرف سببًا لبكائه لكنه وجد نفسه مستسلمًا لنوبة بكاء جعلت الدموع تسيل على خدّيه.

شقت مريم طريقها وجلست على أحد المقاعد الخلفية لسيارة الدودج التابعة لجدها. كان إسكندر حينها يساعد السائق لوضع الأغراض في صندوق السيارة الخلفي. كان عمال قمائن الطابوق وكسبة المحلة يذكّرون السائق بالأشياء التي طلبوا من الحاج فتاح أن يشتريها لهم من باريس. أما فتاح فكان منشغلًا بالحديث مع فخر التجار.

قال فخر التجار لفتاح:

أملي ورجائي هو اللّه سبحانه وتعالى، وثقتي بك كثقتي بنفسي، وأنا متأكد أنك لا تفرّق بين شهين وبين حفيدتك مريم.

شحّذ موسى القصاب سكينة تهيؤًا لذبح الخروف وردد الحاضرون الصلوات، ما أن هم موسى بذبح الخروف حتى خرج درياني من دكانه حاملًا صينيةً، أعطاها لموسى قائلًا له: ضع حصتي من اللحم فيها. أجابه موسى متضايقًا:

دعني أذبح الخروف أولًا يا صاحب الدكان ذي الواجهتَين.

ودّع درياني الحاج فتاح وكان ما زال معاتبًا مريم ليس بسبب قصة العلكة التي وزعتها على زميلاتها فقط، وإنما لاعتقاده أن السبب في موت عزتي له ارتباط بما حدث مع مريم. أدخل رأسه في نافذة سيارة الدودج، وقال دون أن ينظر لمريم:

ليوفقك اللّه لكل عمل خير.

تقدم موسى القصاب ومسح سكينه بسرواله، ثم غض من نظره وقال لمريم:

أتمنى لك سفرةً سعيدةً.

لم يستطع أن يتمم حديثه، بدا عليه الحزن، ثم جاء كريم وأعطى مريم كيسًا كبيرًا وقال:

أختي مريم، وضعت لك في هذا الكيس مقدارًا من المكسرات، وهي ستبقى صالحةً للتناول فترةً طويلةً، كذلك تجدين في هذا الكيس خبزًا ومقدارًا من لحم الباجة. أعرف أنك تحبين لسان الباجة.

ضحكت مريم:

شكرًا يا كريم، هل ظننت أننا جميعًا نحب أكل اللحوم مثلك، على كل حال أشكر لك لطفك، سنأكل أنا وشهين هذا الطعام.

حينما رأى الدرويش مصطفى الناس محتشدين بجوار مسجد قندي، شق طريقه بين الناس نحو سيارة الدودج، ثم وجه نظراته نحو مريم ولم يقل شيئًا وذهب، كانت العبرة تخنق مريم. خرجت للحظة من السيارة وخاطبت أمها التي وضعت قبعةً على ربطتها من خوف الشرطة:

لا أريد أن أسافر.. فالإنسان يتعلم في بيته أكثر من أي مكان آخر. كانت أمي تبكي باستمرار، أرادت أن تقول لمريم: لكنك لا تسافرين من أجل التعلم، حينها أمر الحاج فتاح السائق أن ينطلق. ودع فخر التجار وزوجته ابنتهما شهين.

قالت مريم في سرها:

إنَّ الإنسان يتعلم أشياءً كثيرةً في بيته، أكثر من أي مكان آخر. انطلقت السيارة وسكبت أم كريم الماء على الأرض ولكن الماء لم يخمد الغبار الذي تصاعد في الجو وكان قد آذى عيون علي ومهتاب.

ثمانيته

صدقت مريم حينما قالت لا يتعلم الإنسان أشياءَ أكثر مما يتعلمه في بيته، لذا تعاملت مع المكان الجديد وكأنه بيتها. ليس الرسم هو فقط ما تعلمته هناك، وإنما تعلمت الحياة بكل تفاصيلها وتشعباتها.

استأجرت غرفةً مشتركةً مع شهين، علمًا أنهما لم يكونا في ذات التخصص الدراسي، فمريم كانت تدرس الفنون التشكيلية فيما كانت شهين تدرس علم النفس، وحينما التحقت بهما مهتاب في الأعوام التالية تعلمت من شهين أشياءَ كثيرةً خصوصًا فيما يتعلق بمدارس علم النفس ورموز هذا العلم كفرويد ويونج.

استقرت مريم هناك وتطبعت على المكان، صارت جزءًا منه، ليس من أجل زوجها ذلك الرجل الجزائري الطويل القامة، وإنما من أجل نفسها هي بالذات.

في ثالث مرة أذهب فيها إلى باريس، عرفتني مريم إلى زوجها، أعتقد أن ذلك كان بعد وفاة جدي عام ١٩٥٤، قالت إن خطيبها كان في السجن وقد أفرج عنه مؤخرًا، قلت. مبروك، إذن زوجك سجين قديم؟

ابتسمت وقالت: لن أخوض التفاصيل، إنه ينتمي إلى تنظيم تحرري.

قلت: كان سجينًا في كل الأحوال، بغض النظر عن جرمه. طلبت مني مريم أن ألتقيه، وأن أدعوه ذات ليلة للقاء في مطعم من مطاعم باريس. بعدها، قالت لي مريم وكنا جالسَين في مقهى المسيو برنر، أنت هنا بحكم ولي أمري.

استغربت من كلامها، فلم تكن مريم تنظر إليّ سابقًا من هذا المنطلق، ابتسمتُ وأجبتها:

لكن يا سعادة الأخت الكبرى لستُ في مقام عبدك فكيف لي أن أكون ولي أمركِ.

الرحمة على روح كريم، ها هي أخته تجلس معها، مع ذلك أجرؤ وأقول لك، كف عن تقليد أقواله وأفعاله، كان يجب أن يعترض على كل شيء مع مسحة من المزاح، وها أنا أقول لك بكل جدية أنت في حكم ولي أمري فأنت رجل، حتى وإن كنت تصغرني في السن.

ثم قالت وقد هيمن الخجل على ملامح وجهها:

إن رضاك ضروري يا أخي!

نظرت إلى مهتاب وقلت موجهًا كلامي لمريم:

أختي هي التي اختارت كل شيء والآن وقد تهيأت الأمور كلها وفق إرادتها، جاء دور الأخ وموافقته.

ضحكت مريم وقالت:

كم أحب هذا الأخ الذي يتفهم الأمور بسرعة ودون تعقيد. إذن أنت موافق على زواجي منه.

طبعًا أختاه، خصوصًا وأن هناك مثل يقول إن كانت المرأة موافقةً والرجل موافقًا فما عساه أن يقول القاضي، ودوري هنا هو دور القاضي.

كانت ردة فعل مريم على كلامي هذا أن رفعت حاجبيها وعضت سبابة يدها وقالت:

استغفر اللّه، ما هذا الكلام يا علي؟

أردت أن أقول لها، ما الذي أعجبها في هذا الرجل بحيث تتصرف وكأنها فتاة في الرابعة عشرة من العمر كلما ذكرته، تكاد تطير شوقًا إليه إن جاء ذكره وتكاد تذوب حبًا فيه، هل هو لائق بحب كبير كهذا؟

أردت أن أقول لها لماذا لا تنهج نفس المسار الذي سلكته شهين التي عادت إلى إيران وتزوجت طبيبًا إيرانيًا أنجبت منه طفلًا أسمته هاني، وقد كان فخر التجار سعيدًا بحفيده، وقد فارق فخر التجار الحياة بعد ولادة هاني بأشهر.

أردت أن أقول شيئًا لكن نظراتي وقعت على مهتاب وهي تضرب بملعقة الشاي على فنجان القهوة، حينما التقت نظراتنا حركت مهتاب يدَيها على نحو لا يتيح لمريم رؤية المشهد وربما يوحي أن كل شيء قد انتهى حسب ما خططت له مريم وبما يوحي أيضًا بأن لا تلح بالكلام والاعتراض يا علي!

قلت لمريم:

ألف مبروك أختاه! حسنًا متى سوف أرى الاضمحلال؟

غدًا، هنا، بالمناسبة إن زوجي له اسم ويمكن أن تذكره باسمه: أبو راصف وهو رجل مسلم، وفي الحقيقة لديه رغبة كبيرة في أن يتعرف عليك وأن يحصل منك على الموافقة الشرعية.

قلت: آه، ثم مسحت بيدي على وجهي، وأضفت: أرجوك يا مريم دعي الجانب الشرعي جانبًا ولا تخلطي موضوع الحب بما هو ديني وشرعي، ولكن أرجوك اطلبي منه أن يأتي شبعانًا.

استفسرت مني كل من مريم ومهتاب:

لماذا عليه أن يأتي شبعانًا؟

أخشى أن يلتهمنا جميعًا إن لم يكتف بوجبة الطعام التي سوف تقدم له، أي إذ بلغت الحلقوم.

حينها ضحكنا جميعًا، ففكرت أنها فرصة جيدة للحديث مع مهتاب والتعرف على مشاريعها وطموحاتها، فقلت لها:

لقد توفي العم إسكندر وكذلك المرحوم كريم، فلربما كنت بمثابة ولي أمرك أيضًا، فهل يتعين عليّ أن أستعد للقاء...

قالت: خطيبي لم يخرج من الحبس بعد.

شعرت بالخوف حينما سمعت منها هذه الإجابة، فخشيت أن يكون هناك من هو مصمم على الزواج منها:

لم يخرج من الحبس بعد؟

كلا لم يخرج بعد، إنه لا ينتمي إلى تنظيم سياسي، لكنه لم يخرج من أسر نفسه بعد، ومفتاح سجنه موجود بيده ولا يجرؤ على أن يحرر نفسه من السجن الذي هو فيه، ومن غير المعلوم المدة التي سوف يقضيها في السجن.

تضايقت مريم من كلامنا، فقالت:

– لقد رأيت هذا المشهد وهو مشهد مكرر، حسنًا نلتقي غدًا وفي نفس المكان.

***

في اليوم التالي التقينا في المقهى، جلسنا حول الطاولة المفضلة لنا، مريم ومهتاب في جهة واحدة وأنا والكرسي الخالي في الجهة المقابلة، إذ كنا قد سبقنا أبو راصف في المجيء.

فجأةً سمعت من يقول بلهجة غليظة:

السلام عليكم جميعًا.

دون شعور مني وجدتني واقفًا أتلكأ في الجواب: وعليكم.. وعليكم السلام. ثم مددت يدي لمصافحته. كان طويل القامة ويكسو الشعر يدَيه، تبددت الصورة التي كنت قد رسمتها عنه في ذهني، فهو شخص مألوف وودود، صار يتحدث معنا بلغة هي خليط من العربية والفرنسية. كان يتحدث بسرعة وكأن هناك من يلاحقه.

أعتذر عن التأخير، لقد انشغلت مع الأصدقاء، «باردون».

قلت له، هل اعتذرت بالعربية أم بالفرنسية؟

قال: لا تفاوت بينهما، انشغلت مع الأصدقاء، فثمة من كتب بيانًا سياسيًا وكان عليّ أن أراجع البيان من الناحية اللغوية إذ من المقرر أن يتم توزيعه في الجزائر، وثمة بيان آخر كتب خصيصًا للجزائريين المقيمين في فرنسا ومن المقرر أن يقرأ في كونشيرت سامي ياسر. ثم وجه الكلام إلينا وقال:

بالمناسبة، يا سيد علي لقد تحدثت مريم عنك كثيرًا. فماذا كنت تعمل؟

أجبت مؤشرًا برأسي:

لا شيء، نعيش تحت ظل اللّه، ولنا الكثير من المشاغل، ضحك ولم يمهلني أكمل كلامي وواصل قائلًا: لا تفاوت بينهما، فكما لديك انشغالات كثيرة، لدينا أيضًا الكثير من المشاغل، سوف يكون لنا اجتماع بجوار متحف اللوفر، وسوف تكون لي محاضرة عن الحرية في الغرب والحرية في الشرق.

ضحكت وقلت:

- لا تفاوت بينهما.

واستمر قائلا بجد:

نعم هناك تفاوت واختلاف كبير بينهما، ولديّ محاضرة بخصوص نقاط الاختلاف بين الحرية في الشرق ونظيرتها في الغرب. ثمة احتفال آخر سيقام في الجزائر وعليّ أن أنظم أوقاتي بشكل جيد، وفكرت في حقيقة الأمر أن نقرأ صيغة العقد الشرعي إن حصلنا على موافقة شرعية من السيد علي، ولكن ثمة طارىء قد حدث يحول دون ذلك، فقد ألقت الشرطة الفرنسية القبض على أحد شبابنا.

قالت مريم:

هل تقصد البشير؟

لا يا سيدتي مريم، إن الزمن يمر سريعًا، لقد تم إلقاء القبض على البشير في الأسبوع الماضي من قبل الشرطة الدولية، وليس من قبل الشرطة الفرنسية. إنما تم إلقاء القبض على مؤانس ذي الشعر المجعد، لقد نصبت له الشرطة الفرنسية فخًا سقط فيه. إنه واحد من شبابنا الناشطين، إن عقوبة إيقاف المتهم لا تتعدى الست ساعات في فرنسا، لكنه الآن في التوقيف (نظر إلى ساعته) حوالي ١٣ ساعةً، أي أنهم تجاوزوا المهلة القانونية بأكثر من سبع ساعات. كنت قد راجعت مكتب الشرطة السياسية ورفعت شكوًى عن الاعتقال غير القانوني لمؤانس وعليّ أن أتابع القضية يوم غد.

لا أعرف كيف يمكننا أن نستمر في أنشطتنا دون مؤانس، فهو مسؤول البرمجة

والتنظيم، ولا يمكن أن نبقى مكبلي الأيدي بانتظار الإفراج عنه. بالمناسبة، أعتقد أنك عاطل عن العمل في باريس يا سيد علي، أليس كذلك، حسنًا غدًا سوف يأتي إليك أفراد من أعضاء تنظيمنا ويصطحبونك إلى مؤسستنا، يكفي أن تكتب عنوانك على ظهر هذه الورقة فقط. تحت أنظار مريم ومهتاب واستغرابهما من العلاقة الحميمة التي بناها أبو راصف بهذه السرعة معي، كتبت عنواني، وألقيت عليه نظرةً فاحصةً، تبين لي من خلالها أن ثمة شبه كبير بينه وبين السيد مجتبى. فكلاهما كانا يتكلمان بسرعة وكأنهما في سباق مع الزمن لتحقيق أهدافهما، أهدافهما التي كانا حريصَين على أن يشركا أكبر عدد ممكن من الناس في تحقيقها انطلاقًا من إيمانهما العميق بها، لم يتوقف أبو راصف حتى حينما كنت أكتب له العنوان، كان يتحدث لمهتاب ومريم عن ضرورة أن تكون للمسلمين قوة عسكرية وسياسية.

قلت له: نحن أيضًا نعيش في إيران تحت وطأة حكومة مستبدة، بالطبع سوف أزور مؤسستكم غدًا، ولكن إن كان من المقرر أن أعمل ضمن تنظيم سياسي فمن الأولى أن يكون هذا التنظيم معنيًا بأمور بلادي وبذلك أقدم خدمةً لشعبي وليس لشعب آخر.

هزَّ رأسه ثم قال:

لا تفاوت بينهما! لا فرق بين الشعبَين الإيراني والجزائري، فكلاهما من المستضعفين، والحمد للّه الذي يرفع المستضعفين ويضع المستكبرين. لا يهم أين وفي أي وقت نقدم خدمةً للمستضعفين، المهم هو العمل، بالمناسبة هل ستوافق يا سيد علي على زواجي من أختكم المحترمة مريم.

قبل أن أجيب على سؤاله، أطل المسيو برنر بصلعته الحمراء والعرق المتصبب عليها وقاطع كلام أبي راصف:

أهلًا بكم، قهوة دارياني لسيد علي، قهوة تركية للآنسة مهتاب، وقهوة فرنسية للآنسة مريم، بماذا يوصيني ضيفكم المحترم؟

قال أبو راصف: قهوة من فضلك. ابتسمت وطلبت من المسيو برنر أن يجلب لنا كعكةً مطعمةً بالشوكلاته على شرف ضيفنا الجديد.

قال المسيو برنر: نعم لدينا كعكة مطعمة بالشوكلاته هي من أفضل أنواع

الكعكة في باريس وكان جان بول سارتر يحب مذاقها كثيرًا...

قبل أن يكمل المسيو برنر كلامه، اغتنم أبو راصف الفرصة ليتحدث من جديد، فوجه كلامه إلى مريم وقال:

هل تعلمين أننا في المؤسسة لا نرتاح كثيرًا لسارتر، فمواقفه متناقضة، إنه يدافع عن اليهود الذين راحوا ضحايا النازية ويدافع عن كوبا ولكن حينما يتعلق الأمر بالجزائر، نلاحظ أنه ينطلق من منطلقات قومية.

فرِحت أن أبا راصف أخذ يتحدث بالسياسة ونسي موضوع الزواج، قلت لمهتاب يبدو أنه سوف يأكل مخنا بكثرة الكلام وهذا ما أثار ضحكنا. انتبه أنه هو المقصود، فقال ما الذي يضحككم فأجبته: لا تفاوت بينهما.

تناولنا وجبة طعام مكونة من الأعشاب والخضروات وتخلو من اللحوم، وكانت وجبة عشاء زواج مريم. فقد أثبت أبو راصف أن له قدرةً خارقةً على تغيير مجرى الموضوع، فما أن أنهى حديثه عن أوضاع الجزائر حتى التفت إليّ وقال:

الحمد للّه، ثمة شهود يشهدون في هذا العقد. ومعروف أن حضور الشهود في عقد النكاح من المستحبات، فيا مريم أنكحت نفسي منك على المهر والصداق المعلوم، المهر هو حياتي وأهدافي ومبادئي كلها.

أجابته مريم بعربية ضعيفة لا أعرف أين تعلمتها:

قبلتُ!

تأمل أبو راصف حواليه، ثم وضع يده فوق يد مريم بهدوء وقال: من اليوم وصاعدًا ستكونين جزئًا من مبادئي وأهدافي، وأقسم بكتاب اللّه أنني لن أخون مبادئي، إن الحياة لا معنى لها لمن يخون مبادئه.

تبادلت ومهتاب نظرات الاستغراب والحيرة، فما كنا نعرف كيف نتصرف في هذا الموقف المحرج، بالنسبة لي، كان يهمني جدًا أن تكون لهما حياة سعيدة، لم ينبس أحد منا ببنت شفة، بعد لحظات من الصمت، التفت أبو راصف نحوي، عانقني وقال:

إن شاء الله يكون زواجًا مباركًا.

نظرت إليه مليًا، رأيت قطرات الدمع تتلألأ في عينَيه، بعد لحظات عادت الأمور إلى مجراها السابق، وصار أبو راصف يحدثنا عن مشاريعه للأسبوع القادم كما أسهب في الحديث عن برنامجه ومشروعه لتحقيق حياة عائلية ناجحة وتطرق إلى حضوري يوم غد في المؤسسة وعملي هناك نيابةً عن مؤانس الذي اعتقلته الشرطة الفرنسية. أشار أيضًا إلى حفل العشاء الذي سوف يقيمه أصدقاؤه بمناسبة زواجه من مريم.

أردت أن أمازح مريم قليلًا فهمست في أذنَيها:

لقد أرسل لك الله هذا العريس أبا راصف وكأنه ملاك النجاة.

لم تفهم في بادىء الأمر ما قصدته، ظنت أنني أمتدح أبا راصف، لكن مهتاب تدخلت لتساعدها على ما قصدته تحديدًا، فأتممت مزاحي مع مريم قائلةً:

إن من يصاب بالسرطان هو أفضل حالًا ممن يتزوجك، فكيف سوف يحتمل هذا العربي المسكين أخلاقك ومزاجك.

قالت مهتاب: لماذا لا تأخذ درسًا من صهركم الذي استطاع أن يحسم موضوع الزواج في خمس دقائق.

رمقتها بنظرات عميقة. الحليب والعسل.. الفاكهة المحرمة.

***

في اليوم التالي ذهبنا إلى مؤسسة أبي راصف استجابةً لدعوة أصدقائه الذين أقاموا حفلًا على طريقتهم احتفاءً بزواج أبي راصف ومريم، لم تكن هناك كراسٍ أو أرائك للجلوس. المؤسسة كلها كانت عبارةً عن طابق في عمارة قديمة، وقد تم فرش الأرضية بالسجاد الصناعي وليست هناك من طريقة للجلوس سوى على الأرض إلى جوار الحيطان التي لها دور المسند للظهر بالنسبة للجالس، امتلأت الحيطان بـالأوراق والبيانات والصحف، تكاد تجدها في كل مكان، نزعنا أحذيتنا ودخلنا. كان الشباب قد هيؤوا مائدة طعام جيدة احتوت على الرز وكمية من لحم الدجاج. فكرت مع نفسي، هل سيلتهمون كل هذه الكمية من لحم الدجاج حقًا؟

بعد لحظات سمعت من يرحب بنا نيابةً عن جميع الحاضرين، لم يكن صعبًا عليّ أن أتعرف إلى هويته، فمن خلال شعره المجعد ووجهه الأسمر الدائري عرفت أنه مؤانس الذي سبق أن حدثنا عنه أبو راصف: كان قد أطلق سراحه قبل ساعتَين، دعانا إلى تناول الطعام وقال:

بسم اللّه الرحمن الرحيم، تفضلوا:

ثم أضاف: أتمنى أن تساعدنا السيدة مريم مثل زوجها المحترم أبو راصف لتحقيق أهدافنا الدينية. إن الجهاد بالنسبة لنا هو نهجنا في الحياة، إن هذا الزواج البسيط هو خير دليل، فبالرغم من كل الظروف المعقدة لم تتوقف عجلة الحياة، مع ذلك أتمنى أن لا يفكر أحد آخر بالزواج في الظرف الحالي. فليست لدينا ميزانية لإقامة حفل عشاء آخر، مع ذلك نحن نحمد اللّه ونشكره على كل حال.

لاحظنا أنا ومهتاب أن الكميات الكبيرة للحم الدجاج قد اختفت خلال لحظات قليلة، كانوا يأكلون على طريقتهم ووفقًا لعاداتهم وتقاليدهم، وربما أتاحت لهم هذه الوليمة التخاص من عبء الروتين الفرنسي الثقيل في تناول الطعام.

نظرت مهتاب إليّ وقالت:

من حسن الحظ أننا لا نترك تلًا من عظام الدجاج في موائدنا، يبدو أن مجزرةً قد حدثت بحق الدجاج هنا.

أراد مؤانس أن يقول شيئًا، لكن أبا راصف سبقه في الكلام وقال معتذرًا: أرجو أن تعذروني، فلا أستطيع أن أبقى في هذه الأمسية الرائعة إلى آخر الوقت، بعد نصف ساعة سوف يكون موعد انطلاق طائرتنا إلى الجزائر، سوف تسافر مريم معي، لم يكن بإمكاننا أن نحجز بطاقات سفر لوقت آخر. سوف يكون لدينا نشاط هام هناك، بالمناسبة أرجو أن لا تنسوا أن تذهبوا غدًا للكونتشيرت الذي سوف يقيمه سامي ياسر.

بالنسبة لمهتاب لم يكن هذا الحفل طبيعيًا، كل شيء تم بسرعة وعلى عجل، شعرت بالحزن على مريم إذ لم أتخيل أبدًا أن يكون حفل زواجها على هذه الشاكلة، فمن المعروف عنها أنها لا ترضى بأقل من الأفضل، ولم تكن حقيبتها على سبيل المثال لتخلو من أفضل العطور الباريسية حتى وإن عانت من ضائقة مالية،

ويبدو أنها وقعت في شباك زوج من طراز آخر، لا يهتم بالشكليات، ولا شك في أنها في منتصف الطريق ولا يمكن لها أن تتراجع.

منذ أن وضعت قدمي في المؤسسة وأنا أعمل هناك ليل نهار، يضاف إلى عملي، حضوري في الاجتماعات المتتالية. كنت أشتغل في الصباح في رصف الحروف على الآلة الطابعة وباللغة العربية، وفي المساء أقوم بتصحيف الكراريس والإصدارات، شهرًا بأكمله، عملت ليل نهار في المؤسسة وشعرت بالرضا، إذ كنت أخاف أن يتكرر معي تأنيب الضمير القاسي إن لم أبذل جهدًا في مساعدتهم. لا أريد أن تتكرر تجربتي مع ما حدث مع السيد مجتبى الذي لم أساعده وأساهم في نشاطاته بالمستوى المطلوب، إلى يومنا هذا وأنا أشعر بأنني مقصر مع السيد مجتبى، هذا بغض النظر عن النسبة الكبيرة في سلوك كل من أبي راصف والسيد. لن أبالغ إن قلت أنني صرت أرى السيد مجتبى متمثلًا في شخصية أبي راصف. وهذا ما جعلني أعتقد أن أبا راصف سوف لن يعمر كثيرًا.

طوال فترة عملي في المؤسسة، لم أعرف من هو الرئيس ومن هو المرؤوس، الجميع يساعد بعضهم بعضًا بمحبة، أحيانًا، كنت أغفو في منتصف الليل على رزم أوراق البيانات، وحينما أفتح عينَي مستفيقًا من النوم أرى نفسي قد كنت نائمًا على سرير بسيط ولكنه نظيف في نفس الوقت، آنذاك أتيقن أنهم حملوني كي أنام بارتياح على السرير.

في الصباح أيضًا، كان يأتي إلى الغرفة أحدهم حاملًا إناءً يحتوي على عصير البرتقال أو الليمون ثم يقول:

- تفضل يا سيد علي، لقد عصرته بنفسي خصيصًا لك، ثم يعقبه شخص آخر يحمل أربع أو خمس صفحات ويطلب مني أن أطبعها على الآلة الطابعة.

فجأةً جاء شخص آخر مهم وسألني إن كانت لدي خبرة في تصليح الأنابيب، اعتذرت وأخبرته أن لا خبرة لي في هذا المجال، قال: حسنًا إذن تعال معي إلى سطحية المبنى وسأقوم بنفسي بلحم أنبوب الماء. حينما عادت مريم لوحدها من الجزائر، جاءت مباشرةً للعمل في المؤسسة، كنت منهمكًا بالطباعة حينما رأيتها واقفةً أمامي وقد أتضح من ملامحها الأرق والتعب. قالت: أخي العزيز، من أجلي أنا، أراك تعمل كثيرًا ثم وضعت يدَيها على خدي وقالت:

الآن تأكدت أنني أحبك كثيرًا، وأحب زوجي أبا راصف أيضًا.

قلت لها، من حسن الحظ أن جدي وأمي ليسا هنا وإلا فقد كان أبو راصف قد وجد لهما عملًا شاقًا لا يدع لهما مجالًا للتعبير عن مشاعرهما.

هل عرفت ماذا كنت أعمل ليلة أمس؟

قلت لا.

قالت: كنت أخط شعارات وأرسم بعض الرموز والأشكال على قطع القماش، أي أنني كنت أمارس الفن الملتزم الذي طالما رفضته فيما مضى وصرت الآن مقتنعةً به وبجدواه ودوره في مساعدة المستضعفين.

بعد فترة عاد أبو راصف من الجزائر، كان يبذل كل جهوده ويعمل بجدية تامة، أحيانًا، كان الشبان يطلبون منه أن يتفرغ لكتابة نص الخطاب الذي سيلقيه في الاجتماع، ولكنه كان يصر على كنس الغرف وتنظيف السجاد المفروش على الأرض، وتارةً كان يكوي ملابس رفاقه بكل تواضع، والحقيقة، إن كان شخص من بين جميع هؤلاء الشبان هو الرئيس الحقيقي أو المسؤول الأول فلاشك في أنه كان شخص أبي راصف، لا أحد غيره، كان شخصيةً قياديةً متواضعةً تنأى عن الغرور. كلمته نافذة على الجميع ولكنه يقولها بكل ود وثقة دون أن يشعر المقابل أنه يتعامل معه من منطلق القائد والتابع.

***

في الليلة التي سبقت يوم إقامة الاحتفال، تم إعداد كل شيء بانتظار الصباح، ذهب أبو راصف ومريم لإنجاز مهامهما. كان الحضور يتراوح بين ألفَين وثلاثة آلاف شخص حضروا منذ الصباح الباكر، كانوا يصفّقون بأيديهم. طلب منهم مؤانس أن يرددوا الصلوات عوضًا عن التصفيق ولكن دون جدوى، رأيت مهتاب متواجدةً هي الأخرى، لم أرها طوال هذا الشهر الذي انشغلت فيه بالعمل دون أن تكون لي فرصة لأن أحك رأسي.

بدل أن أستمع للكلمة التي كان أبو راصف يلقيها كنت أقول لها، انظري إلى مكبرة الصوت الكبيرة تلك، لقد قمت بنصبها بنفسي، هل ترين تلك الصورة، أنا

من قمت باستنساخ الآلاف منها، وهكذا صرت أعدد لها الأعمال التي أنجزتها طوال شهر من عملي المستمر في المؤسسة. بدت مهتاب تتضايق من كلامي فقالت:

يا لتواضعك، قل إذن أنك أنجزت كل شيء.

ضحكت، فهي كانت محقةً في كلامها، فعلًا لقد أنجزت أكثر الأعمال إلا حلاقة لحيتي، استدارت مهتاب نحو المنصة لتستمع لكلمة أبي راصف، كان بليغًا في كلامه:

الحرية هي الهواء، ليس مهمًا أن تعرف الهواء، المهم هو أن تتنفسه، لا أحد يطالب غريقًا نجى للتو من الغرق أن يقول مِن ماذا يتكون الماء، كم نسبة الأوكسجين فيه، وإنما المهم هو أن يضغطوا على صدره كي يستطيع أن يتنفس من جديد، نحن لا نحتاج من يريد أن يشرح لنا معنى الحرية، نحن نريد أن نعيش الحرية، أن نتنفسها كما الهواء.

فجأةً سمعنا لغطًا انبعث من نهاية حشد الجمهور، وحينما استدرنا نحو مصدر الضوضاء رأينا ثلاثة أو أربعة أشخاص أخذوا بضرب بعضهم الآخر، توجهت جميع الانظار نحو محل العراك.

اضطر أبو راصف أن ينتظر حتى يضع منظمو الاجتماع حدًا للعراك، واحدًا تلو الآخر اتجه الشبان المسؤولون عن تنظيم الاجتماع نحو مكان العراك الذي تحول إلى اشتباك بالأيدي. ما أن فرّق المنظمون المتشابكين الذين أثاروا الصخب في الاجتماع حتى عادت جميع الأنظار نحو المنصة، لكن لم يكن هناك أي أثر لأبي راصف، صرخت مريم:

أين هو، أين أبوراصف؟

رأيت مؤانسًا يركض نحو المنصة، لم تخطر فكرة واضحة على بالي تبرر غياب أبي راصف. فجأةً أغمي على مريم فوضعت مهتاب رأس مريم في حضنها وصارت تخاطبها مريم، مريم!

ركضت نحو المنصة، كان أبو راصف يتمرغ في دمه، سقط خلف المنصة بعد أن وجهوا له طعنةً عميقةً شقت صدره من تحت العنق إلى نهاية القفص الصدري. حينما رآني انفرجت أساريره، سحبني بيده كي يتسنى له معانقتي، قال:

يا سيد علي أرجوك أبلغ مريم أنني دفعت مهرها ورجائي الوحيد منها إن رزقها اللّه ولدًا أن لا تسميه أبا راصف، فلتختر له اسمًا آخر.

كان بياض عينَيه يلمع في وجهه الأسمر، هنيهةً، وصارت الدموع تسيل من عينَيه، كان يتكلم بصعوبة:

سامحني يا سيد علي فلم تكن هناك فرصة، لم تكن هناك فرصة كي...

أدخل يده في الشق الكبير الذي شطر صدره، وبنفس الهدوء الذي كان يخرج فيه ورقةً من جيبه أخرج شيئًا أحمر اللون كان ينبض ووضعه في يدي، ثم أغمض عينَيه بعد أن قال:

يا علي مدد!

انحنى كل من مؤانس وعدنان لمساعدته في التنفس دون جدوًى، حينها صرخ عدنان:

لم يعد يتنفس، لقد فارق الحياة.

أردت أن أخبرهم أن قلبه في يدي، أنَّ أبا راصف ما زال حيًا فها هو قلبه ينبض في يدي. كانت مريم قد نهضت متكئةً على يد مهتاب. ثم دفعتها، وصارت تركض نحوي، ثم قدمت يدها نحوي وقالت: أعطني قلبه يا علي!

لم أستطع أن أصمد أمامها، فقد قالتها بصوت امتزج فيه الغضب، سلمتها قلب أبي راصف، فأمسكته بكلتا يدَيها، كان ما زال ينبض ويضخ دمًا. احمّر ثوب مريم الأبيض، صارت مريم تصرخ وتركض، تركض لا على التعيين وأنا أركض وراءها ابتعدت عنا ولم أعرف أين تذهب. وكلما ركضت وراءها لم أدركها.

***

دعنا من أحاديث الموت، دعنا نتحدث عن الحياة أيضًا، بعد أشهر من حادث استشهاد أبي راصف، أنجبت مريم مولودها، لم يكن ولدًا كي نختار له اسمًا غير اسم والده، وإنما رزق اللّه مريم بنتًا أسمتها هليا استجابةً لطلب والدَي أبي راصف اللذَين كتبا لمريم رسالةً طلبا فيها من مريم أن تضع هذا الاسم على المولود إن كان بنتًا.

هليا.. اسم له وقع جميل وموسيقي.. قال طبيب المشفى الذي ولدت فيه

هليا، وكان طبيبًا فرنسيًا مسؤولًا على قسم الولادات، إن قلب هليا ينبض بصورة غير طبيعية، إن ضربان قلبها قوي جدًا، وبعد إجراء الفحوصات قال ربما هناك شبه انسداد في إحدى صمامات قلبها، أو أن هناك ما يصعب تشخيصه.

اضطرت مريم أن تراجع طبيبًا أخصائيًا في مسائل القلب، وبعد إجراء فحوصات دقيقة، قال الدكتور الأخصائي لمريم أن هناك مسألةً هامةً يريد أن يقولها عن هليا، إنها تملك قلبَين، واحد في الجهة اليمنى والآخر في الجهة اليسرى.

القلب الذي في الجهة اليسرى يعمل بشكل طبيعي مثل سائر القلوب، أما الذي في الجهة اليمنى فهو لا ينبض إلا حينما تقترب مريم من هليا، وهو مرتبط بالقلب الأيسر الذي يضخ له الدم، لم تستغرب مريم كثيرًا من التقرير الطبي وما قاله لها الطبيب الأخصائي، لكن مهتاب قالت لي ذات مرة:

أنا أعرف السر، فقد ابتلعت مريم قلب أبي راصف.

***

ما لكم لا تصدقونني حتى حينما أروي لكم أشياءً من الحياة وعن الحياة، هل تظنون أن الموت أكثر صدقيةً من الحياة؟

لقد دفنا، أنا ومريم ومهتاب، أبا راصف في مقبرة في الجزائر العاصمة، حضر مراسم التشييع آلاف الناس الذين تحدوا قرار الحكومة بمنع التجمع، كان والدا أبي راصف من ضمن الحاضرين، إنهم يلتقيان مريم للمرة الثانية. قدّما لها التعازي مثل سائر الحاضرين، وقالا لها: لم نعتقد أبدًا بأن امرأةً تستطيع أن تهيمن على قلب ابننا الشهيد.

بعد الدفن، تم وضع شاهدة القبر. الشهيد العبد الحر أبو راصف.

بقيت واقفًا أتأمل شاهدة القبر بعد أن رحل جميع المشيعين، كنت واقفًا لوحدي، قالت مهتاب:

ما الذي يثير اهتمامك في شاهدة القبر هذه، أما علمت أن مريم تنتظرك لمغادرة المكان وأن البقاء هنا طويلًا يثير فيها الشجون.

***

كبرت هليا مع أمها في فرنسا، وحينما عادت والدتها مع مهتاب إلى إيران، بقيت هليا في باريس، إنها تواصل تحصيلها الدراسي هناك في فرع ليس بعيدًا عن اهتمامات والدتها، أي فن التصوير، وتقيم معرضًا شخصيًا لها كل عامَين أو ثلاثة، ويبدو أن ثمة صلة دم تربطها بعائلة الحاج فتاح وهذه الصلة هي التي دفعتها لفن التصوير.

كانت تقيم معرضًا في باريس عن حي خاني آباد، وفي لندن عن الأطفال الجياع في أفريقيا. أحيانًا، تصنع إطارًا لصورة طفل أفريقي جائع وتهديها لبائع المرطبات في الحي الذي تسكنه بباريس، كانت مصممةً أن تقضي عطلتها الصيفية في طهران في العام القادم إذا ما تخلصت من جنونها في فن التصوير.

وبالفعل جاءت إلى طهران، كانت الوحيدة المتبقية من ذرية الحاج فتاح، كانت تخاطب مهتاب، بعمتي، وتناديني: خالي، ولم يحدث أن تتحول عمتها إلى زوجة الخال وخالها إلى زوج العمة.

فليرحم اللّه مريم ومهتاب، ذهبتا ضحية قصف صاروخي عام ١٩٨٧، في ذلك اليوم اتصلت بـ «هليا» هاتفيًا وطلبت منها أن تأتي إلى طهران، حينما وصلت تصرفت وكأنها تعرف كل شيء، ما أن رأتني حتى رمت نفسها عليّ، عانقتني وقالت: خالي العزيز، لا أحد لي في هذه الدنيا غيرك، أنا يتيمة، لم أر والدي في حياتي، كان قلبي سعيدًا بوالدتي وعمتي، لكن...

كانت تبكي بكاءً يوجع قلب كل من يسمعه، دموعها تسيل على خديها أو تحاول أن تكرر ما قالته بلغتها الفارسية غير المفهومة أحيانًا.

ذهبنا من المطار إلى البيت بالسيارة، لم أعطها أبدًا الرخصة في أن تذهب إلى الشقة التي كانت تسكنها والدتها، كانت تنوي أن تصور المكان للمشاركة في إحدى مسابقات الصورة الفوتوغرافية. رفضت طلبها عدة مرات لئلا يؤثر المشهد على معنوياتها.

بقيت معي حوالي عامَين، ثم عادت إلى باريس.

***

أثناء إقامتها في طهران، اعتنت هليا بلوحات أمها ومهتاب، كما أقامت معرضًا للصور الفوتوغرافية. كان ضيوفنا قليلين للغاية، وأكثرهم من المسنين من أصدقاء أو جيران جدي الحاج فتاح، مع ذلك لم تكن هليا تهتم لذلك. كان يحزنني أن لا أجد لها في هذه الدنيا غيري، وكان من مسؤوليتي أن أكون لها بمثابة الأم والأب والأخ، ذات يوم رن جرس البيت كما سمعنا طرقًا قويًا على الباب، لن يكون الطارق ساعي البريد بالطبع فقد مات كل من، مريم ومهتاب، إذن، لا رسالة من باريس، لن يسمع نعمت الذي يقيم مع عائلته في جناح خصصته له في نهاية البيت، لا صوت الجرس ولا صوت الطرق على الباب، لذا نهضت بنفسي وفتحت الباب.

قال: أنا هاني حفيد الحاج فخر التجار، سبق وأن أخذت من وقتكم الشريف قبل عشرة أعوام، حينما سلمتكم ملف العريف عزتي.

ابتسمت لأنه لم يكن بحاجة للتعريف بنفسه مجددًا فقد تعرفت إلى هويته من الوهلة الأولى.

بعد إلحاح مني وافق على الدخول إلى البيت، لم يتغير كثيرًا لكني لاحظت أنه يعرج أثناء السير، جلس على أريكة كانت منصوبةً جنب الغرفة ذات المصاريع الخمسة.

قلت له: كيف حال والدتكم الدكتورة؟

بخير ولله الحمد. رغم بعض المتاعب التي تفرض عليها البقاء في الدار فهي بخير والحمد لله. بالمناسبة أنا أعتذر على عدم استطاعتي حضور مجلس عزاء مريم ومهتاب.

سمعت من والدتك أنك كنت في جبهات القتال.

نكّس رأسه ولم يقل شيئًا، فباغته بالقول:

حسنًا يا سيد هاني فخر التجار، واليوم أحضرت ملف من؟

احمرت وجنتاه وبدا عاجزًا عن الكلام، صار جبينه يتصبب عرقًا، ربما يحمل اليوم ملف واحد منا.

***

اختارت هليا إحدى الغرف المهملة كورشة لعملها. الإضاءة الضعيفة في تلك الغرفة كانت عاملًا مساعدًا لتحميض الصور الفوتوغرافية. خرجت للحظة من غرفتها ثم دخلت مجددًا وحينما رأتني أنظر إليها ارتبكت كثيرًا وقالت:

خالي العزيز، هل ثمة ضيف جاء لزيارتنا؟

نعم يا عزيزتي، ظننتك على دراية بالأمر.

ابتسمت ولم تجب وكان من السهل اختبارها، قربت رأسي من صدرها وكان كلا قلبيها يخفقان بقوة. طلبت منها أن ترتدي الحجاب وأن تأتي إلى جنب الغرفة ذات المصاريع الخمسة.

***

حينما جاءت هليا، نهض هاني من مكانه احترامًا لها، يبدو أن قلبها الإضافي جعل الأمور مكشوفةً. طأطأ هاني رأسه، فاقتربت منه وقلت له:

إذن، معك اليوم ملف أحد أفراد عائلة الحاج فتاح، ولم تعد مهتمًا بلمفات أخرى مثل ملف هذا العريف أو ذاك الشرطي.

ثم نظرت إلى هليا التي احمرت وجنتاها، كانت مثل مريم لا تحتاج إلى أي مكياج، يكفي أن تشعر بالخجل قليلًا كي تتحول إلى قطعة حمراء من الخجل.

وجهت الكلام مجددًا إلى هاني:

لقد جئت من أجل شخص يمتلك شيئًا إضافيًا.

قال بأدب واحترام:

- نعم يا سيد فتاح، نعم، لقد أخبرتني والدتي فكما تعلمون بأنها كانت ترتبط بعلاقة وثيقة مع المرحومة أختكم. بالمناسبة أذكر أنني سبق أن تعرفت على ابنة أختكم الموقرة. فقد لعبنا سويًا حينما كنا أطفالًا.

ضحكت وقلت: إن الحياة صعبة مع من يمتلك قلبًا واحدًا فكيف مع من له قلبان؟

قال: إن كان تحديًا فأنا مستعد للعيش مع صاحبة القلبَين.

قلت: في المرة السابقة كانت معك وثائق، فما هي الأوراق التي تحملها معك بخصوص الملف الجديد؟

أخرج قصاصة من جيبه وقد كتب عليها العبارة التي ينوي أن يكتبها على بطاقات دعوة حضور الزواج: يسرنا أن ندعوكم لحضور حفل زواج هاني فخر التجار مع الآنسة الفاضلة هليا أبو راصف.

قلت لنفسي: يا لشطارته، هو من يخطط وهو من ينفذ المخطط، يا لبنت أختي المسكينة.

ثم سألته: ولكنك حفيد فخر التجار من ناحية الأم فكيف تسنى لك أن تحمل لقبه؟

أجاب: لقد اشترط فخر التجار على والدي حينما حضر ليخطب والدتي أن يضع اسم عائلته على مولودهما كي يحفظ بذلك اسم العائلة. فكما تعلم لم يكن لفخر التجار ابن يحفظ له نسله.

قلت: إذن سأشترط بدوري إن وافقت هليا نفس الشرط.

فقال: لا يمكنني أن أوافق لأن ذلك سوف يعني أن أمنية فخر التجار صارت غير قابلة للتحقق أبدًا.

حينها ضحكنا بصوت عال، فيما بقيت هليا صامتةً تستمع إلينا أو ربما لخفقان قلبَيها.

***

- سردت حكاية زواج أبي راصف ومريم لهاني وهليا، لقد راق لي أن أستعيد التفاصيل وتلك الذكريات بحلوها ومرها، ثم صرت أشرح لهما وجه التشابه بين مريم وهليا، ثم حدثتهم عن مهر مريم الذي سدده أبو راصف بروحه ودمه.

حينها قال هاني:

حضرة السيد فتاح، إن كانت السيدة هليا لها قلب إضافي، فأنا ينقصني شيء عن الأناس العاديين.

ثم أزاح جورابه وكشف عن ساقه فإذا هي ساق اصطناعية، فَقَدَ هاني ساقه

في الحرب المفروضة، لكن الأمر لم يكن مثيرًا للغرابة بالنسبة لهليا، وكأنها كانت تعلم به مسبقًا، طلبت منهما أن أقرأ لهما عقد الزواج فورًا، ومثل طفلَين يبشران بخبر سار، كادا أن يطيرا فرحًا وبهجةً. قال هاني: ليت أمي كانت حاضرةً معنا وأجابت هليا، الخبر السار يصل إلى الآخرين من تلقاء ذاته. وصدقت هليا، فما هي إلا لحظات حتى سمعنا صوت جرس الباب. هذه المرة أسعفنا نعمت الذي سمع صوت الجرس. فتح الباب ورحب بالسيدة شهين أم هاني، قلت لها: أهلًا بك سيدتي الفاضلة في بيتك.

لم تعد شهين تلك المرأة الشابة الحيوية. فقد بدت آثار السنين واضحةً على ملامحها.. قالت لم آت من أجل هاني، إنما جئت من أجل هليا، فليس من الصحيح أن تكون وحدها وأنا بمثابة أمها.

قال هاني مازحًا:

- إذن أنا وحدي هنا، لا أحد يقف إلى جانبي.

لم تضحك شهين، إنما أشارت إلى هاني: لقد طال لسانه يا سيد علي! فإنه لا يتكلم في البيت ولو بحرف واحد... ضحكت وقلت:

- من الآن فصاعدًا هذا هو بيته.

قالت أم هاني: هذا بيت أملنا ورجاءنا.

قالت شهين: من أين تأتي بالعاقد الآن؟

قلت: أنا أعد العاقد. فالدرويش مصطفى يعقد قرانهما هنا في المجلس.

لقد قفز هاني وهليا من مكانهما وقالا: الدرويش مصطفى؟

ثم استمر هاني قائلًا:

عندما كنت صبيًا سمعت بأن الدرويش مصطفى قد مات.

وصرخ: لا يمكن ذلك. فليس مزاحًا.. يجب أن يقرأ خطبة العقد.

قلت: لم يرد أي شرط لكون العاقد حيًا في أيٍّ من الرسائل العملية للفقهاء.

لقد ذكر ألف شرط للعاقد مثلًا أن يكون قديرًا في أداء مخارج الحروف وأن لا يكون متجاهرًا بالفسق وأن يكون عادلًا ولكن لم تذكر أية رسالة بأنه يجب أن يكون حيًّا..

لم يرض هاني ولا هليا. وقد قالت لي هليا:

- يا خالي العزيز: من أجل أن نطمئن على عقدنا، سوف نذهب لمكان آخر ونعقد من جديد.

ضحكت وقلت: لا تخالفي الشيوخ. لم يذكر في أية رسالة بأن العقد على العقد معتبر. أراد هاني أن يعترض، إلا أن شهين قالت:

أرجوكما يا هاني وهليا، أنتما من المتدينين الجدد. لا تعارضا حضرة فتاح. إنهم كانوا متدينين عندما لم يكن الناس يفهمون معنى الديانة.

قطعت كلام شهين لأنني سمعت صوت «يا علي مدد» للدرويش مصطفى. جاء من الممر وقد أمسك نعمت بيده. عندما وصل الغرفة ذات المصاريع الخمسة، نفض التراب من بدنه. نفض تراب القبر البني من عباءته وكسائه الأبيض. فرائحة تراب القبر تختلف عن رائحة الأتربة الأخرى. فإنه طري ورطب حتى عندما نراه نحن أبناء قمائن الطابوق العارفين بأنواع الأتربة. قامت شهين وسلمت عليه. قال الدرويش مصطفى بصوته المبحوح:

لقد قال أبوك فخر التجار يجب أن تدرس البنت ثم تستغفر وتلبي الحجاب من جديد. نكّست شهين رأسها. قال الدرويش مصطفى.

يمكن أن لا يمتلك الحكيم شيئًا لكنه يمتلك الحكمة.

وكأنه من أسرة فتاح «ياعلي مدد».

وضع يده على كتفي وقرأ الخطبة بهدوء. قبل هاني وهليا بالعقد غير مصدقين ما يجري.

كانت هليا المجنونة تخاف من الميت وقد قالت قبلت بسرعة من خوفها.

فقد بيت فتاح بريقه وحيويته منذ أن سافرت مريم إلى فرنسا، لم تعد أمي تطيق أي شيء وكانت تدخن النارجيلة من الصباح، كانت تفتعل الشجار بسبب أو دون سبب مع أم كريم.

وكانت الأخيرة تراعيها لمعرفتها بسبب مزاجها المتكدر، تصورت أم كريم أن السبب له علاقة بغربة مريم التي استمرت لسنين، لكن الحقيقة شيء آخر، إذ كانت مرتبطةً بعلي الذي صار حديث الناس بسبب علاقته بمهتاب، خصوصًا وأنه صار شابًا رشيقًا ووسيمًا، ذا صوت جهوري، وكان يصطحب جده أحيانًا إلى الزورخانه.

تعلم أم علي أن ابنها يرافق كريمًا إلى مقهى شمشيري، والأنكى من ذلك أنها سمعت ذات مرة أن الناس ينسبون لعلي بعض التصرفات السيئة التي تصدر من كريم.

لم تكن العلاقة بين علي وكريم هي السبب الذي يقلقها، فهي وإن كانت معترضةً على هذه العلاقة منذ سنوات طويلة وغالبًا ما نبهت عليًا بخصوصها، لكنها صارت كجرح قديم اندمل وجف.

إنَّ علاقة علي بمهتاب وتعلقه الشديد بها ومعرفة جميع أهل الحي بهذه العلاقة هو ما كان يثير قلق أمي ويجعلها متوترةً في أغلب الأوقات. ذات يوم ذهبت أم كريم إلى السوق لشراء بعض الحاجيات الأساسية والمواد الغذائية، وأرادت أن تبتاع شيئًا من درياني، فقال لها: كيف حال أسرتك؟

لم تفهم أم كريم وهي أم مهتاب أيضًا مغزى كلام درياني، اعتبرته نوعًا من

المجاملة، فراحت تتشكره على اهتمامه وحرصه على إبلاغ تحياته إلى أفراد عائلتها وحينما نقلت الحكاية لأمي ثارت هذه الأخيرة وقالت: فليخرس هذا الوغد اللعين.

ثم فكرت أمي بالأمر، وربما أعطت لأم كريم الحق، لأنها مهما كانت فهي أم مهتاب ويهمها جدًا سمعة بنتها التي لم تعد طفلةً صغيرةً وإنما هي صبية في الثالثة عشرة من العمر.

***

كان علي يأخذ استراحةً ظهيرة كل يوم، ليقف في مكان قريب من مدرسة إيران للبنات منتظرًا خروج مهتاب ليعودا معًا إلى البيت.

كان علي يتكأ على جذع شجرة، وأحيانًا يلهي نفسه بقراءة كتاب ما إلى أن تخرج مهتاب، وفي أحيان أخرى كان يتجاذب أطراف الحديث مع أصحاب المحلات كي لا يشعر بوطأة الوقت.

كان الأمر طبيعيًا إلى اليوم الذي كان كريم يرافق عليًا وأخته في طريق العودة، لكن ذات يوم أعرب كريم عن استيائه من العودة معًا إلى البيت ليس بسبب علي، وإنما لم يكن يرى ضرورةً من انتظار مهتاب، خصوصًا وأنها أسمعته كلامًا جارحًا إذ قالت له:

لا أرى أية ضرورة أن تنتظر خروجي من المدرسة ومرافقتي إلى البيت.

مع ذلك واستجابةً لطلب علي كان كريم يعود معهما أحيانًا إلى البيت ولكن ليس يوميًا.

جميع أهل الحي أدرك جيدًا أن حضور كريم ليس إلا ذريعةً. ذات يوم قال أحد الباعة لكريم: أين علي؟

فأجابه كريم: إنه منشغل بعمل ما.

فأجابه البائع: أعتقد أنكم استطعتم أن تصطادوه جيدًا.

لم يأبه كريم بكلام هذا البائع، فهو يقر بذلك في حقيقة الأمر ولكن ليس طمعًا بأي شيء وإنما محبةً بعلي فقط، خصوصًا وأن كريمًا يكن المحبة والاعتزاز

لعلي من منطلق الصداقة التي تجمعهما والتي يراها كريم فوق كل اعتبار.

***

وقف علي بجنب باب مدرسة إيران. انتظر طويلًا حتى أعلن الجرس انتهاء الدوام. كانت السنة الدراسية الأخيرة بالنسبة للمرحلة الابتدائية. استفسرت الطالبات من علي عن أحوال مريم، اضطر علي أن يجيب على سؤالهن رغم أنه تلكأ وتلعثم كثيرًا في الكلام، فقد حاول قدر المستطاع أن يبتعد عن أنظار الطالبات، لكن يبدو أن اشتياقه الكبير لمهتاب جعله يقف جنب باب المدرسة تمامًا. كان يسمع بعضهن أحيانًا يتهامسن أن علي الحاج فتاح أصبح عاشقًا والهًا.

رآها تخرج من البوابة وتسير ببطء وكأنها ملاك، أخذ الحقيبة من يدها وقال لها:

لقد تأخرت قليلًا.

أجابت: ليس كثيرًا بالطبع.

ألا تحرص أن لا يعلم أحد بانتظارك لي.

دعي البشرية كلها تعلم بالأمر، فلم أفعل فعلًا مشينًا،هل من الذنب أن يكون الإنسان عاش...

قبل أن يتم كلمته، وضعت مهتاب يدها على فمه، كانت قد ارتفعت قامتها ولم تعد طفلةً صغيرةً، قصيرةً، ثم خاطبته: لستَ عاشقًا ولا هم يحزنون، أنت لا تعرف معنى العشق ولا تفهم ماذا يعني أن يكون الإنسان عاشقًا.

رفع علي كتفَيه إلى الأعلى مستغربًا ثم ضحك ضحكةً مدويةً وقال:

لا تنسي أيتها العزيزة أنني أكبر سنًّا منك وليس صحيحًا سلوكك هذا معي. ضحكت هي الأخرى فتطايرت بعض خصلات شعرها التي لم يشملها الخمار وقالت:

إذن البعير يعرف أكثر منا معنى العشق.

لم يؤاخذها علي على جوابها الحاد، كان يعتقد أن معها الحق أحيانًا، لم يبال

علي بأن يراه الباعة والمارة وهو يسير جنبًا إلى جنب مهتاب، بل كان يتقصد أحيانًا إلقاء السلام عليهم لأن يلفت انتباههم. كان يعتقد أنه بهذه الطريقة يجعل والدته أمام الأمر الواقع، ويكسب رضاها على اقترانه بمهتاب.

في طريقهما نحو البيت، مرا من جوار محل درياني، أخرج رأسه وخاطب عليًا:

كيف الحال، هل كل شيء على ما يرام؟

لم يجبه علي فورًا وتجاهله في الوهلة الأولى وبعد أن ابتعد أكثر من خطوة عنه قال له:

طبعًا، رغم أنف الحساد.

حينما وصلا البيت فتح علي الباب، ثم قال لمريم تفضلي بالدخول سيدتي الآنسة. لم تقل مهتاب شيئًا، لكنها مكثت في مكانها فاضطر علي أن يضع يده على كتفها كي يدفعها برفق للدخول إلى البيت، استنشقت مهتاب نفسًا عميقًا، كان كتفها يرتعش، فيما بقيت في مكانها وصارت تتنفس بصعوبة. فلم تتوقع هذا الموقف من علي، وضايقها جدًا أن يسمع علي صوت أنفاسها. فارق اللطف صوتها حينما قالت: رجاء لا تلمسني.

وقعت عبارة مهتاب وقع الصاعقة على رأس علي، بقيت يده مستقرةً على كتفها، فقد السيطرة على يده، كان يود أن يسحبها ولكن يبدو أن الأوامر التي كان يصدرها الجهاز العصبي لم تعد تصل إلى يده، حينها اضطرت مريم أن ترفع يده بنفسها وقالت له:

أرجوك أن لا تكررها ثانيةً، هل تعدني بذلك؟

جن جنون علي، خرج من البيت وصار يركض في الزقاق الذي يقع فيه مسجد قندي وهو يصرخ:

هل هناك في العالم من هو أكثر سعادةً مني، هل هناك من هو أفضل مني؟

لاحقت مهتاب عليًا بنظراتها، ثم دون شعور منها تلمست خديها بأناملها، فاكتشفت جدول الدموع الذي شق طريقًا له على خدَّيها، وصارت تردد هي الأخرى:

هل ثمة شخص في العالم أكثر سعادةً مني؟

***

من صوت الباب، علمت أمي بمجيء مهتاب وعلي، وضعت قدمَيها في نعليها ونهضت متجهةً نحو حوض الماء. حينما رأت مهتاب خارجةً من الممر، كانت ما زالت تتنفس بمشقة، ابتسمت حينما رأت أمي، تقدمت خطوةً إلى الامام:

السلام عليكم سيدتي طابت أوقاتك.

أجابت أمي سلام مهتاب، لم يحدث أبدًا أن حدثتها بازدراء أو دون لطف، تأوهت أمي وسألت:

أين عزيزي علي؟

تأوهت مهتاب هي الأخرى، لوت عنقها وأجابت بنفس اللحن الذي نطقت به أمي:

لا أعرف أين يكون الآن عزيزي علي.

احمرت وجنتاها، لم تعرف هي الأخرى إن كانت قد تقصدت الإجابة أم أنها خرجت عفويةً من فمها. طأطأت رأسها ومضت إذ فقدت القدرة على الكلام.

***

كان الحاج فتاح يعود مبكرًا مساء كل يوم إلى البيت، فلم يعد يذهب إلى مقهى شمشيري منذ أن أصيب السيد تقي بجلطة قلبية أقعدته طوال الوقت في البيت.

فتح إسكندر الباب ودخل الحاج فتاح بيته. خرج كل من كريم ومهتاب من الباحة الخلفية ليقتربا من الحاج فتاح لأداء السلام، أجاب على سلامهما، ثم مسح على رأس مهتاب وقال:

كيف الحال ابنتي الصغيرة؟

بخير ولكم الفضل.

ثم اتجه نحو وسط الباحة وغسل وجهه بماء الحوض، من المعتاد أن تكون أمي قد نصبت النارجيلة في الشرفة المطلة على الباحة وكانت غالبًا ما تدعو الحاج

فتاح لتناول كوب شاي معها، لكن لا أثر لها اليوم.

قال بصوت عال:

أين كنتي العزيزة، ما لي لا أراها اليوم؟

خرج علي من غرفته، أمسك بيد جده، سلم عليه، ثم عانقه، صار علي أطول من جده كثيرًا، نظر الجد إلى علي، كان علي غير طبعه، يبدو متضايقًا من شيء ما، ولم يكن الجد في حال حسن، رفع حاجبَيه وصوب نظراته نحو الحائط المقابل لهما وقال:

ما الأمر، أين والدتك؟ هل حدث شيء ما؟

تأوه علي وكأنه وجد الفرصة ليفصح عما يعتمل في قلبه من شجون:

منذ عودتي ظهر اليوم من المدرسة وهي تتظاهر بالتمارض وترقد في غرفتها، تلعنني في كل لحظة وتقول إنني سأكون السبب في موتها كمدًا، تقول إنني صرت السبب في فضيحة صار يعرف بها كل أهالي الحي، وليت أنني لم أكن فتًى وإنما فتاة مثل مريم، ليت أن مريم بقيت هنا وأن عليًا هو من سافر إلى فرنسا بدلًا منها.

ابتلع الجد ضحكته وقال:

إذن هي تؤدي دور المريضة، ولكن الإنسان السليم لا يؤدي أدوارًا غير حقيقية.

قال علي:

أوافقك في كلامك يا جدي، ولكن هذا هو ما حصل تحديدًا، تتظاهر بأنها مريضة، ومنذ الظهيرة وهي تلعنني رغم أنني لم أعمل شيئًا يستحق اللعنات.

مسح جدي لحيته ورفع حاجبَيه:

أفهم من كلامك أن والدتك شرعت تلعنك دون سبب، وانطوت على نفسها في غرفتها تتمارض.

نعم، هذه هي الحقيقة.

ضحك جدي، ثم صعد الدرجات القليلة التي تؤدي إلى غرفة أمي وبصوت مرتفع طلب الإذن في الدخول. أما علي فقد أخذ طريقه نحو غرفة الزاوية وهي

الغرفة المخصصة له، وإن كان يرغب أن يسترق السمع من وراء الستارة للحديث الذي سيدور بين جده ووالدته ولكن أخلاقه أبت أن يسترق السمع لكلام الآخرين.

***

ما إن دخل الحاج فتاح الغرفة حتى نهضت أمي من مكانها، ثم جلست مستندةً إلى الوسادة، كانت تتأوه وقد بدت المتاعب على وجهها.

قال الحاج فتاح:

أتمنى لك السلامة التامة يا كنّتي العزيزة. وليرفع اللّه عنك المرض والبلاء، هل سبّب لك الأذى والإزعاج هذا الرجل الضخم (يقصد عليًا) كي آمر إسكندر أن يجري عليه حكم الفلقة.

ليس الذنب هو ذنب هذا الطفل المسكين، إن أساس المشكلة يعود لموافقتك على أن يسكن إسكندر وعائلته في الجانب الخلفي من الدار، صحيح أن بيتنا كبير وأن ثمة بيت آخر عائد إلينا بجوار الباحة الخلفية، ولكن ذلك تسبّب لنا بمشاكل كبيرة، ليتهم لم ينتقلوا إلى هنا وبقوا ساكنين في منطقة الحفرة.

هل بدرت منهم إساءة ما؟

كلا لم تبدر منهم أية إساءة، ولكن حضرتك تعلم بأن عليًا...

إذن لماذا تخصينهم بالذكر، أمّا علي فهو يرتبط بصداقة قديمة مع كريم، ولا اعتراض على ذلك، أعتقد أنك تذكرين بأن والد علي كانت له صداقات مع أناس أقل منزلةً منه. الوفاء في الصداقة هو المهم وليس أن يكون الصديق في نفس المنزلة. ألم يكن زوجك المرحوم أخلص صديق لموسى القصاب، وكان حسن الشقي وأصغر الشقاوة ومحسن الأعور من أصدقائه، أعرف هذه الأمور عنه جيدًا فهو قبل أن يكون زوجك كان ابني.

ضحكت أمي وقالت:

لا أتحدث عن صداقته مع كريم، وإنما كنت أقصد شيئًا أسوأ من ذلك.. علاقته بمهتاب...

أجاب الحاج فتاح:

إنه طفل، أولًا، وأنت تعلمين أن هذا الموضوع ليس جديدًا بل موضوع قديم.

أيدت أمي كلام الحاج فتاح بتحفظ:

كنت أعتقد نفس الشيء في الماضي، كنت أقول إنه الآن طفل وحينما يكبر سوف تتغير الأمور، وسوف يتصرف في المستقبل بحكمة وتروٍّ، لكن ذلك لم يحدث يا عمي العزيز. فابني شاب عنيد يصر على تنفيذ ما يريد.

نظر الحاج فتاح إلى أرضية الغرفة وقال:

تسألينني عن الحل رغم أنك أنت أمه، أي أقرب إنسان إليه.

أعذرني يا عمي، لا يخطر حل على بالي: كلما فكرت في الأمر، سوف أنفذ كل ما تأمرني به لوضع حد لهذه المشكلة الشائكة.

أيضًا لا يحضرني حل.

فجأةً خطرت فكرة في ذهن أمي:

لكن ماذا لو طلبنا من إسكندر أن ينتقل للسكن في مكان آخر، أي أن لا يعود ساكنًا في البيت الذي في الباحة الخلفية.

إلى أين؟ سأل الجد.

مثلًا في البيت الذي نملكه في مدينة ورامين.

كلا، إن ذلك البيت يقع خارج المدينة، فضلًا عن أنه آيل للخراب.

لا أعرف أين، ولكن المهم هو أن ينتقل إلى مكان آخر.

حسنًا، لدي فكرة، تعرفين أن أملاكي هي أملاكك وأملاك علي ومريم، فإن سافرت إلى العالم الآخر سوف تكون كل أملاكي إرثًا لكم، ولكن مع ذلك فكرت أن أهب إسكندر ملكًا تعويضًا للخدمات التي قدمها لنا، ليس من الصحيح أن يحتاج للآخرين إن أنا مُت ولم أرتب له حياةً إنسانيةً كريمةً، لقد خدمنا طوال حياته والناس يسمونه إسكندر فتاح نسبةً لنا. من الناحية القانونية ينتسب إسكندر إلينا فقد تم تسجيل لقب عائلته في سجل النفوس باسم إسكندر فتاح.

قاطعت أمي الجد بأدب:

وماذا سوف تهبونه؟

في الحقيقة فكرت أن أهبه بستان قلهك.

صرخت أمي:

بستان قلهك؟

نعم، يا كنتي العزيزة، بستان قلهك الذي نملك فيه أشجارًا ودارًا شبه خربة، فنحن لا نمر على هذا المكان إلا مرةً واحدةً في كل عام أو عامَين، لا أعتقد أننا بحاجة إليه، ويمكننا أن نستغني عنه ونهبه لإسكندر.

مرةً أخرى قاطعت أمي كلام حماها:

هل تعلم يا عمي العزيز كم هو ثمن أراضي البستان، الأراضي فقط؟

لا أعتقد أن ثمنها غال جدًا، ثم إن متابعة أمور البستان والحفاظ عليه يأخذان جهدًا كبيرًا مني، إنه يقع في قرية في شمال طهران وعلى من يسكن هناك أن يخالط القرويين وربما لن ينسجم معهم، وربما لو سكن إسكندر هناك سوف يحافظ على المكان ولن يجرأ أحد على سرقة أشجاره.

قالت أمي: لكن سيكون مستقبل جيد للمنطقة التي يقع فيها البستان.

إنها مجرد إشاعات، فهذه المنطقة تقع في شمال العاصمة ومعروف أن طهران ستتسع بشكل حقيقي من ناحية الجنوب حيث السهول والأراضي المستوية، أما الشمال فلا أمل فيه حيث الجبال الصخرية. وحينما اشتريت البستان كان نزولًا عند رغبتك ورغبة ابني المرحوم، فقد أعجبكما المكان كثيرًا حينما قضيتما فيه شهر العسل وفكرت أن أبتاعه كي يكون المكان الذي تقضيان فيه أوقات الفراغ.

تأوهت أمي حينما تذكرت الأيام السالفة وذكرياتها مع زوجها والدي. حينما كانا يتنزهان في البستان، قالت:

مع ذلك تمنيت أن يبقى هذا المكان لعلي ومريم، ولكنني مستعدة أن أتنازل

عنه من أجل مصير ابني علي.

***

بعد أيام، استجاب إسكندر لإلحاح وإصرار الحاج فتاح، ووافق على استلام بستان قلهك، حاول أن يتغلب على دموعه قائلًا:

سيدي لم أكن أتوقع هذا الكرم من أي إنسان على وجه الكرة الأرضية، لقد بلغ إحسانك إلى درجة جعلنا نشعر بالخجل والإحراج، إن فضلك كبير علينا، دائمًا كنا نعيش بالإحسان والفضل اللذَين تغدق بهما علينا. ولو أنك أمرتنا بأن نخلي البيت ونرمي الأثاث في الشارع لما تأخرنا لحظةً واحدةً. والآن أريد أن أقول عبارةً واحدةً إن سمحت لي يا سيدي.

ابتسم فتاح وقال لإسكندر:

ها أنا كلي أذن صاغية لك أيها الصديق الوفي.

قال إسكندر:

ما دمت على قيد الحياة لن أتركك يا سيدي ولن أغادر أبدًا البيت الذي في الباحة الخلفية.

دهش الحاج فتاح من كلام إسكندر، نظر إلى أمي، فبادرت بتوجيه كلامها إلى إسكندر:

لا يا عم إسكندر، أرجوك انتقل إلى البستان، واستمتع بحياتك وسوف نكلف السيد رحمان أو الميرزا أو أحد عمال الأفران بمساعدتنا إن كنا بحاجة لمساعدة.

قال إسكندر:

لا يا سيدتي، أريد أن أكون أنا بلحمي ودمي من يقدم الخدمة لكم، لا أحد يستطيع أن يخدمكم أكثر منا، فنحن نعرف طبائعكم ونستطيع أن نخدمكم على أفضل نحو..

أيدت أم كريم كلامه.

نعم سيدتي، إن وظيفتنا هو أن نخدمكم، إني كنت بمثابة الأم لزوجك

المرحوم، ولو أنني ذهبت للعيش في مكان آخر فأقسم بأنني سوف أموت كمدًا وحزنًا.

***

إزاء الرغبة الصادقة لخدمة الحاج فتاح وعائلته، لم يكن بإمكان الحاج فتاح نفسه أو كنته أمي سوى الموافقة على بقاء إسكندر وعائلته. قالت أمي في سرها:

«ربما كان مقدرًا أن يهب الحاج فتاح بستان قلهك لإسكندر دون أن يغادر الباحة الخلفية، ولا يمكن أن نكون حجر عثرة في طريق أناس يودون أن يخدمونا وعلينا الآن أن نفكر بحل آخر.

لم يسر هذا الخبر أحدًا بقدر ما اسرّ عليًا الذي لم يعد بحاجة لمعرفة موعد العربات التي تمضي إلى منطقة تجريش أو تعود منها حيث يقع بستان قلهك.

***

مساء ذلك اليوم، أعدت أم كريم مائدة العشاء في الباحة وحضر علي مزهوًا بالنصر وكأنه الملك نادر الأفشاري، فكانت أمي مستلقيةً على سرير منصوب جوار باب غرفتها على الشرفة المطلة على الباحة.

ناداها الحاج فتاح:

هل ستحضر كنّتي العزيزة لتناول العشاء معنا؟ فمن حسن الحظ قد قامت أم كريم بطبخ عشاء لذيذ لنا، علينا أن نكون سعداء لعلاقتنا الوثيقة بهؤلاء الناس الرائعين أم كريم وإسكندر، فلنفرض أنهم وافقوا على المغادرة والإقامة في بستان قلهك فمن يا ترى سوف يهيء لنا غذاء لذيذًا وفق شهيتنا؟

من سريرها المشرف على الباحة، قالت أمي:

يا عمي العزيز، الموضوع لا علاقة له بالخدمات التي يقدمونها لنا، وإنما له علاقة بحكاية أخرى.

خرج علي عن صمته وقال بابتسامة ساخرة.

حكاية أخرى! كلا، لسنا بحاجة لحكاية أخرى، على مهتاب أن تخرج من هذه الدار، وإن فقدنا الغذاء اللذيذ فليكن، فحسب قول والدتي نحن أناس لا نعقد

الأمور، ونرضى بكل ما يكون أمامنا من طعام.

أثار كلام علي الضحك في نفس جده، ضحك ضحكات متقطعة، علقت عليها أمي بالقول:

هذه الضحكات هي التي شجعت بعض الناس على ارتكاب الأخطاء.

فرد علي: هؤلاء البعض يحملون اسمًا هو: علي فتاح، أليس كذلك يا جدي.

لم يرد الجد، لكن أمي عاودت وقالت:

نعم اسمه علي فتاح، وله اسم آخر علي نسيب إسكندر، ألا تخجل من أفعالك هذه، أم تريد أن تعذبني بسلوكك المؤذي؟ هل تريد أن يقول الناس إن حفيد فتاح بكل مكانته واعتباره، قد عشق بنت الحفاة؟

رفع علي يده لأخذ رخصة لمقاطعة كلام والدته وقال:

اسمحي لي أيتها الوالدة، ليسوا حفاةً أولًا، ثانيًا إنهم يملكون بستانًا ليس لنا بستان مثيل له.

كادت أنفاس الجد أن تنقطع لكثرة الضحك، كان علي يضحك هو الآخر، أما أمي فقد حزنت من جواب ابنها وانصرفت إلى غرفتها بعد أن قالت:

لا أريد لك إلاّ الخير يا علي، افهمني أرجوك!

***

لقد أثار انقطاع أمي عن حضور المناسبات الدينية فضول أهالي حي خاني آباد، وضاعف الفضول عدم خروجها من البيت للتسوق، كانت أم كريم هي من تنوب عنها في ذلك، وقد حاول كل من الجيران أن يعرف السبب في اعتكاف أمي في بيتها دون أن يتوصلوا إلى جواب مقنع، كانت الإجابات مجرد حدوس وتخمينات.

عشاريتي

هل ظننت أنني أغفلت فصلي السابق فتركت صفحاته بيضاء؟ ربما قلت لقد اشتريت كتابًا يحوي على صفحات ناقصة، وربما جلست جوار أقاربك وأصدقائك لتحدثهم عن هذا الموضوع، كأن تقول إن صناعة الطباعة والنشر متأخرة جدًا، وإنك ابتعت روايةً تحتوي على صفحات أمحيت كلماتها، ربما ظننت أن الورق المستورد من دول المعسكر الشرقي هو ورق سيء بسبب سعره الرخيص، سوف تقول اشتريت روايةً بسعر دم أبي، ولكن راصف الحروف نسي طباعة أهم صفحات في الرواية وكرر بعض الصفحات والعبارات، ولكن أهكذا تقيم ثمن دم أبيك؟

هل يعادل ثمن دم أبيك الأوراق التي بين دفتَي هذا الكتاب، إن كان هذا هو تقييمك فهات كوبَين من الشاي كوبًا لك وكوبًا لي ولنمض الوقت بتجاذب الحديث ما دمت قد اطمأننت بأنك لا تعرف كيف تقيم دم أبيك، فهو أثمن بكثير مما تتصور، يا للطامة الكبرى، صرت وكأنك الأخ الأكبر في رواية الأخوة كارامازوف الذين لم يتوانوا عن ارتكاب أي جريمة للتخلص من الأب.

وهل ظننت أنك الوحيد الذي انتبه إلى هذا النقص، وأن الجميع لم يتوقفوا عنده وأقصد بالجميع كل من اطلع على الرواية قبلك، المنقح اللغوي، والرقابة والمشرف على الطباعة والناشر.

ماذا تكتب؟ حينما تصير الأنا ذاتًا للآخر؟ ليس صحيحًا أن المؤلف هو من يسيّر شخصيات روايته وفق هواه، أحيانًا يكون المؤلف تحت سيطرة وهيمنة إحدى

الشخصيات، وها أنا أعترف أن «هو « أي ذلك الآخر قد ترك تأثيرًا كبيرًا ليس على طريقتي في السرد، وعبارتي النثرية فحسب، وإنما على شخصيتي وسلوكي أيضًا، أعتقد أن هذه النقطة هي من البديهيات التي لا تحتاج إلى جدل أو نقاش، وربما أراد حضرة السيد علي فتاح أن يضيف هذه الملاحظة في فصله الذي جاء بلا كلمات، أو ربما أراد أن ينبهني إلى ضرورة النأي عن الثرثرة، وأهمية تلخيص الكلام، الكلام الإضافي يثير غضبي واشمئزازي، فيمكن القول إن الإنسان كائن يفنى. وإن فتاح ليس بسقراط، لكنه آدمي، لقد مات فتاح ومات الدرويش مصطفى، ماتت أمي، كذلك مريم ومهتاب، أنا أيضًا سوف أموت، «هو» أيضًا غير هارب من قبضة الموت. أنت أيضًا سوف تموت، فما الذي سوف يبقى؟

ربما سيقول البعض إن الدرويش مصطفى كان متطفلًا على حياة الآخرين، ولكن هذا لا يعطي المبرر للقول إنه كان يعتاش على جهود الآخرين، إن الدرويش مصطفى هو الخباز محمد علي نفسه.

سوف يكون هناك من يقول إن دين الدرويش مصطفى هو دين لقيط وانتقائي لا علاقة له بأصل الدين، ويستحسن هنا القول إن الدرويش كان إمام جماعة مسجد قندي.

وهناك من سيدعي أن الدرويش مصطفى لا علاقة له بالرواية، إنه شخصية لا لا ضرورة لها، ويمكن شطبها من الرواية، لكن من الأفضل إعادة صياغة القول ليصير الدرويش مصطفى هو أساس الرواية، ولا يستقيم سرد الحكاية من دونه.

وردًا على آخرين سيتفوهون بأشياء كثيرة على الدرويش مصطفى، يجب أن أقول إن الدرويش مصطفى هو الحاج فتاح وهو العريف عزتي وهو قاجار، وربما كان يمثل الأسطة محمد، ربما كان يمثلنا جميعًا ويمثلك أنت أيضًا.

***

لم يعد علي يرغب بالحديث مع أحد، أما مهتاب فقد فقدت الرغبة في التواصل مع الآخرين، بعد شهرَين من انقطاع العلاقة بين علي ومهتاب، انتقلت عائلة إسكندر للعيش في بستان قلهك.

تحسنت صحة أمي وغادرت فراش المرض، لتعاود حياتها بشكل طبيعي،

وقد أسرّ ذلك قلوب الناس الذين كانوا يكنون المحبة لعائلة فتاح، فقد قلقوا كثيرًا حينما علموا بمرض أمي ومتاعبها الصحية. إن تعاطف موسى القصاب والأسطة محمد مع أمي له أكثر من سبب، فهم من جهة يشعران بالامتنان للحاج فتاح ولأفضاله عليهما، وهما من جهة ينظران إلى أمي نظرة احترام ويعتبرانها بمثابة زوجة الأخ نظرًا للصداقة الحميمية التي جمعتهما بزوجها المرحوم.

وحينما سافرت مريم سفرتها الثانية لإيران وعادت إلى باريس اصطحبت معها مهتاب، سافرت مهتاب مع مريم إلى باريس بإصرار منها دون أن تودع عليًا، مما ترك أثرًا عميقًا في نفسه، كان يشعر أنه بلا أمنية أو أمل، يريد أن يغير طريق حياته لكن دون أن تكون له بوصلة تدله إلى الطريق الصحيح.

أحد الباعة الجوالين باعه خاتمَين مرصعَين بحجرَين كريمَين الأول هو من حجارة الفيروزج، والآخر من العقيق: قال البائع:

– الخاتم جزء من جسد الإنسان، لا ينفصل عن الجسد إلاّ في أوقات الوضوء، ففي تلك الأوقات سوف يكون من مرضاة اللّه أن ينزع الإنسان جميع الأشياء التي يحبها كي تنشر الرحمة الإلهية التي هي ماء الوضوء في جميع أطراف جسد الإنسان.

قال له: هذه الخواتم تطرد الحسد وهي معروفة إضافةً إلى ذلك بالصفاء وبالوفاء. طلب من علي أن يضع هذَين الخاتمَين دائمًا في يدَيه وسوف يرى نتيجة عمله في المستقبل إن هو بقي حريصًا على وضعهما في يده طوال الوقت.

***

عشاريته

في بعض الأحيان كنت أضع الخاتم ذا فص الفيروزج في الإصبع الثاني من يدي اليمنى، وخاتم العقيق في الإصبع الرابع من يدي اليسرى. يقولون إن ذلك من المستحبات، ولكنني كنت أغير مواقعهما، إذ يقال إن لكل وضع أجرًا وثوابًا، وكان ذلك ذا تأثير إيجابي. أحيانًا، كنت أضع خاتم الفيروزج في الإصبع الثالث من يدي اليمنى وخاتم العقيق في الإصبع الرابع من يدي اليسرى. فقد سمعت أن هذا العمل من الأعمال المستحبة. وكان لذلك أثر إيجابي، في بعض الأحيان، كنت أضع خاتم الفيروزج في الإصبع الخامس من يدي اليمنى وخاتم العقيق في الإصبع الرابع من يدي اليسرى، وقد سمعت أن هذا من الأعمال المستحبة. في بعض الأحيان، كنت أضع خاتم الفيروزج في الإصبع الثاني من يدي اليمنى وخاتم العقيق في الإصبع الثالث من اليد اليسرى، فيقال إن ذلك من المستحبات. أحيانًا كنت أضع خاتم الفيروزج في الإصبع الثاني من اليد اليمنى وخاتم العقيق في الإصبع الرابع من اليد اليسرى فذلك من مستحب الأعمال.

فصلي الحادي عشر

كفى يا علي، انتبه لنفسك، يا لهذا الجهد العبثي، يا لهذا السعي غير المثمر الذي تشغل به نفسك، توكل على اللّه أيها الشاب وضع حدًا لهذه الحال التي أنت فيها.

بعد عام من الانقطاع بين علي والدرويش مصطفى، وذات يوم التقينا صدفةً، شرع الدرويش بالحديث، خاطب عليًا بلهجة قاسية وصار يهدده بالفأس الفضي الذي يحمله بيده، لم يكن أمام علي الذي نبتت بعض الشعيرات على وجهه مكونةً له لحيةً غير كثيفة سوى أن يحتمي بحائط المسجد، أن يغمض عينَيه ويحاول أن يحمي وجهه ورأسه بيديه، لم يكن يستطيع أن يصمد أمام نظرات الدرويش الثاقبة، صار الدرويش يتأمل يدَي علي، رأى خاتمي الفيروزج والعقيق وصار يصرخ بوجه علي:

هل ظننت إنْ أنت وضعت خواتم مرصعةً بالأحجار الكريمة في يدَيك واعتكفت طوال النهار في المسجد وصرت تسبّح كسماور يغلي، سوف تحقق شيئًا ما؟ أقسم بالحجر الأسود الذي قبّله جدك الحاج فتاح لو أنك صيرت هذا الحجر فصوصًا لخواتم تضعها على يدَيك وإن كان سيف ذو الفقار يشكل خاتم يدَيك، ولم تغير نفسك، فإنك لن تكون شيئًا يذكر، إن تكسب قلب شخص ما ليس بمأثرة، المأثرة إنما هي تقديم قلبك لمن يستحقه.

رفع علي رأسه وقال بلغة هادئة:

قيل لي إن داومت على وضع هذه الخواتم في يدي فإنني سوف أرى تأثيراتها الإيجابية في حياتي.

عن أي تأثيرات تتحدث يا هذا، هذه ليست تأثيرات وإنما لهو ولعب.

سيدي الدرويش مصطفى، ليس لي ما يؤنسني سوى هذَين الخاتمَين والاعتكاف في إحدى زوايا المسجد، لا أحد لي.

لا أحد لك؟ لماذا تقول هذا الكلام يا علي، أنت إنسان محترم، الناس السيئون وحدهم لا أحد لهم في الحياة.

هزّ علي رأسه مؤيدًا كلام الدرويش، حينها مد الدرويش يده وطلب من علي أن يسلمه الخاتمَين لكن عليًا اعتذر وقال إنه وعد بأن لا يفارقهما.

قال له الدرويش:

يمكن أن تكون قد وعدت الآخرين بأشياء أكثر أهميةً من الوعد بأن تحافظ على هذَين الخاتمَين، الوعد مع البشر هو المهم، وتذكر وعد سيدنا أبي الفضل العباس ووفائه بوعده. إنه قدوة الشرفاء في العالم كله، لقد قاده وعده إلى نهر العلقمي مبتور اليدَين، لم تكن له يد كي يكون فيها خاتم.

أعطى علي الخاتمَين للدرويش الذي تأملهما ثم رماهما في الساقية، حينها صرخ علي:

يا سيدي الدرويش، لقد رميت الفيروزج والعقيق اللذَين لم ألمسهما إن لم أكن على وضوء...

من المؤكد أنك سمعت بحكاية سيدنا إبراهيم والأصنام، والآن دعنا نتطرق لحكاية إبراهيم وإسماعيل، توكلنا على اللّه.

ثم طلب من علي أن يتبعه. كان الدرويش يردد مع كل خطوة يا علي مدد، من خلف طاولة صغيرة في دكانه، رآهما درياني، فقال مع نفسه:

هذا الدرويش هو من جعل المسكين عليًا يخرج عن طوره ويبلغ الجنون.

***

قال علي: إلى أين نحن ماضيان.

إلى بيتي، هناك سوف أهدم بيت قلبك.

وهل تعلم شيئًا عن أحزاني؟

أتظن أنني لا أعرف شيئًا عنها؟

هز الدرويش رأسه متأسفًا. عند انتهاء السوق الصغير، بلغا جدارًا آيلًا للسقوط، دلف الدرويش إلى زقاق فرعي، دفع بقدمه بابًا خشبيةً ودخل في باحة غير صغيرة.

بالنسبة لعلي كان دائمًا يثير اهتمامه السؤال عن المكان الذي ينام فيه الدرويش وقد تحققت له الفرصة أخيرًا للحصول على الإجابة، لقد تحققت أمنيته أخيرًا في معرفة أمر طالما تمنى أن يعرفه يومًا ما.

أربعة حيطان، في وسطها حوض ماء، لا سقف في الدار، وشجرة النروند بجوار الحوض، هذا هو بيت الدرويش مصطفى، حيث السماء هي السقف والأرض هي البساط للدار. قال علي باستغراب:

لكن هذا ليس ببيت.

فأجابه الدرويش:

بالنسبة لمن يعتبر نفسه درويشًا، فأي مكان يمكنه أن ينام فيه فذلك المكان هو داره، فليحفظ اللّه لنا جدك الحاج فتاح فهو من أهدى لي طابوق الجدران، وبناها لي شخص صالح آخر مجانًا، والبلدية هي التي نصبت الباب كي لا يسطو اللصوص على المكان فيسرقوني.

ثم مسح الدرويش يده على لحيته وقال:

حسنًا تعتقد أنني لا أعرف شيئًا عن همومك وأحزانك؟

طبعًا لا تعرف شيئًا.

حسنًا انظر إلى الآجرات التي فوق واجهة باب الدار، لقد كتب على ثلاثة منها «الحق مع علي»، فهل فهمت المغزى؟

نظر علي متحيرًا إلى الآجرات الثلاث، فهن الوحيدات من بين سائر الآجرات لم يتم طلاؤها بالطين، يبدو أنهن أثرن ذكرى قديمةً في نفس علي.

هل فهمت المغزى؟

هزّ علي رأسه ثم قال: كلّا.

أخرج الدرويش قصاصات ورقية من الكشكول ووضعها في يد علي.

اقرأ بصوت مسموع، اقرأ كتابك.

ما هذا؟

اقرأ كتابك، لا تقرأ هذا المقطع فلم يجف حبره بعد، فهو يختص بهذه اللحظة الراهنة وقد كتب للتو. اقرأ من البداية، إنه كتابك، ولعلك لا تعرف كم هي ثمينة هذه الأوراق التي هي الآن في يدَيك؟

ما هذه الأوراق، كأنها كتاب حياتي أيها الدرويش.

إنه كتابك أيها المسكين، أنت لا تشعر بالملاكَين اللذَين يجلسان على كتفَيك ويدونان كل ما تفعله، ألم تقرأ في الدعاء: وكلتهم بحفظ ما يكون مني، مع أن القيامة لم تقم بعد، ولكن لا بأس بأن تقرأ كتابك الآن.

بدهشة واستغراب كان ينظر علي إلى الكتاب، فيما يكرر الدرويش أوامره:

- اقرأ ولا تخف، أريد أن أسمع منك حكاية الحق مع علي، وأريد منك أن لا تنساها أبدًا.

***

إرجع إلى الوراء وراجع رباعيتي، لم يكن يعرف ماذا يتعين عليه أن يفعل في قمائن الفردوس التابعة لجده، رفع عودًا من على الأرض، وخط به على إحدى اللبنات «علي» ثم نظر إلى لبنة أخرى كانت قد خرجت من نفس القالب.

كانت تجاور اللبنة الأولى تحت أشعة الشمس في ذلك الجو الخريفي الملائم، اللبنتان متجاورتان وكأنهما متعانقتان. دفعته الرغبة في أن يخط على اللبنة الثانية اسم «مهتاب» لكنه فجأةً رأى السيد رحمان يراقبه من قريب، فانصرف عن كتابة اسم مهتاب، كان يشم من الآجرة الثانية عطر الياسمين، لذا فكر مع نفسه وقال: حسنًا سأكتب الحرف الأول من اسمها، فإن رأى السيد رحمان ذلك فلن

يفهم قصدي، ثم طور فكرته وصمم أن يكتب الحرف الأول من اسمها إضافةً إلى الحرف الأول من اسمه «مع»، نفّذ فكرته، ثم ألقى نظرةً على الأرض المسطحة المملوءة بأزواج الآجر المستلقية تحت أشعة الشمس.

الآجرتان اللتان خط على الأولى اسمه وعلى الثانية الحرفين الأولَين من اسم مهتاب واسمه، هما ما شد انتباهه، ثم رأى آجرتَين مكتوب عليهما اسم إسكندر وأم كريم، وعلى مسافة رأى زوجًا من الآجر يحملان اسم جده وجدته التي فارقت الحياة منذ أمد بعيد. كذلك رأى اسم والده ووالدته مكتوبَين على آجرتَين غير بعيدتَين عنه.

دفعه الفضول أن يبحث عن اسم مريم وزوجها، لكنه لم يستطع أن يقرأ بسهولة اسم زوجها الجزائري. فجأة ناداه السيد رحمان: يا علي، أنا لا أجيد كثيرًا القراءة والكتابة لكنني أستطيع قراءة القرآن الكريم، أعتقد أنك كتبت اسمك ولكن ما هذه الكلمة «مع»؟

***

وضع الكتاب على الأرض، واتجه نحو الآجرات الثلاث التي تعتلي الباب، تأملها مليًا، ثم تذكر ذلك اليوم الذي خط اسمه والحرف الأول من اسم مهتاب، ارتجف قلبه، وبدا عليه الارتباك.

قال له الدرويش وقد ارتسمت الابتسامة على وجهه:

هل ما زلت تعتقد أنني لا أعرف شيئًا عنك وعن همومك.

لم يستطع الإجابة، انعقد لسانه، لكنه استعاد بعض قواه وقال متلعثمًا:

كيف يمكن لهذه الآجرات أن تصمد كل هذا الوقت ولا تسقط من مكانها؟

لا تسقط من ورقة إلا بإذنه، وبديهي أن لا تسقط آجرة بهذا الحجم. لا تصيبنك الدهشة ولا تبهت فقد بهت الذي كفر.

أمسك علي برأس خيط الحكاية فصرخ:

لكنني لست أنا من كتب على الآجرة الثالثة «الحق»، ثم قال بصوت منخفض، يبدو أن ثمة أمرًا غير متضح في هذه الحكاية.

طلب الدرويش مصطفى من علي أن يضرب بفأسه الفضي قشرة الطين التي تكسو سائر الآجرات، وحينما استجاب علي لطلب الدرويش وبعد أن تساقطت قشرة الطين رأى أن مفردة الحق مكتوبة على جميع الآجرات.

قال الدرويش: هذه هي آجرات الحاج فتاح، إنها حقيقية وإنها جميعًا تردد: هو الحق، هو الحق. وقد رأيت وسمعت ذلك بنفسك وهذا يذكرنا بقوله تعالى:

(يسبح للّه ما في السموات والأرض)

وهذه الحكاية موجودة في كتاب الحاج فتاح ولكن ليس من المسموح لي أن أطلعك على كتاب جدك فقد قال الحكيم: اقرأ كتابك ولم يقل اقرأ كتاب جدك.

***

كان علي خائفًا بعض الشيء. حينها كان الدرويش مصطفى قد أطلعه على جميع تفاصيل حياته، ولكنه سأل الدرويش إن كان قد قرأ أيضًا ما له علاقة بمهتاب، فأجابه الدرويش أعرف عنها ما ورد فقط في كتابك.

وماذا عن الأسطة محمد اللعين؟

رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه.

هل أنت وحدك من قرأ كتابي.

إلى هذه اللحظة نعم، واللّه عليم بالمستقبل، لكن دع الجميع يقرؤون كتابك، وأخيرًا سوف يعلم الجميع في المستقبل بكل التفاصيل، وكلما سعى الإنسان في تهذيب نفسه وصقلها كلما كان ذلك أفضل له: «موتوا قبل أن تموتوا وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا»

كان الدرويش ينظر إلى كتاب «أنا–هُ»، ربما كان يعرف حتى عدد النسخ التي صدرت منه، وعدد صفحاته، قال لعلي:

ألم أقل لك إنني على معرفة بآلامك وأسرارك.

نعم، أنت محق.

راح الدرويش يدور حول حوض الماء:

ربما لم تصل إلى حقيقة الأمر بعد، ولم تعرف لماذا لم تتزوج من مهتاب إلى الآن؟

بسبب الأسطة محمد.؟

كلا، ذلك أمر عَرَضي.

بسبب قاجار.

كلا، ذلك سبب هامشي.

اصبر، وسوف أقول لك السبب.

كان الدرويش يسير على حافة الحوض وقد ارتسمت صورته على الماء وكان يتحرك. أشار الدرويش بفأسه إلى صورته التي في الماء، صار الدرويش الذي في الماء يشير بفأسه إلى الدرويش الحقيقي، وصار الدرويش يشير بفأسه إلى الدرويش الذي في الماء. بدأ الدرويش يسير على حافة الحوض كذلك الدرويش الذي في الماء بدأ بالسير أيضًا:

قال الدرويش: كل شيء أفعله، يفعل الدرويش الآخر نفس الشيء، أفعاله متطابقة مع أفعالي تطابق النعل بالنعل.

ولكن ليس هذا هو الحقيقة بأكملها، فأحيانًا أنا من أقلده في أفعاله النعل بالنعل.

قال علي للدرويش:

هل يريد هذا الدرويش الذي في الماء أن يقول أنه الدرويش الحقيقي؟

ربما، نعم، وربما لا. ربما كنا كلانا حقيقيَّين، أنا والدرويش الذي في الماء.

خطرت فكرة على بال علي، رفع حصاةً من الأرض، ورماها بقوة تجاه صورة الدرويش المرتسمة على ماء الحوض فتبددت صورة الدرويش وتلاشت ملامحها ثم انمحت.

قال علي مبتسمًا: هل رأيت؟ نحن الحقيقيون. قال الدرويش: كيف تعرف

ذلك؟ لقد رمى الدرويش الذي في الماء حجارةً أيضًا. لعلنا نحن نعتبر متبددين في نظرهم أيضًا. لكن اعلم أن عليًا الذي هو في الماء هو الأفضل. لأن الحجر بقي في حوضهم ولم يبق حجرهم في حوضنا. فإنه صاف وبلا حقد «إن الدرويش الذين في الماء هو الأفضل لأن الظلال هي التي تتحرك».

ربما نحن من نتبع أثر الظلال، ربما هم يسيرون في الطرق ونحن نتبع آثار خطاهم. ربما كانت ظلالنا أكثر حقيقيةً منا.

وضع علي يده على جبينه وقال:

لم أعد أفهم شيئًا سيدي الدرويش ما هي فائدة هذه الأمور؟

وما هي علاقتها بمهتاب؟

سأقول لك.

تصفح الدرويش كتابًا، ثم وصل إلى صفحة كان يقصدها وقال:

ها هي، إنها هنا، وصار يقرأ بصوتٍ عال:

***

(راجع رباعيتي) انحنى الجد وقبّل وجه علي وقال:

إنَّ الحب هو ما يضفي جمالًا مضاعفًا على محيا أبناء الحاج فتاح.

ركض علي وراء نعمت ليذهب معه إلى الفرس. ودعهما الحاج فتاح، ثم صار ينظر إلى حفيده علي، قال في سره على هذا الطفل اليتيم أن يدير جميع هذه القمائن في المستقبل، كان الحاج فتاح يتمنى أن يهدم كل هذه القمائن ويسويها مع الأرض، فقد كان في أشد الغضب ويتمنى لو أنه يستطيع أن ينتقم لابنه الذي قتل غدرًا.

ظن أن عليه أن يهدم هذه القمائن انتقامًا لابنه وكأنها هي السبب في مقتله. انحنى على الأرض ليلتقط آجرةً ويلطمها بالأرض، فرأى الآجرة التي خط عليها اسم علي. فردد الحاج فتاح:

يا علي مدد. قبّل الآجرة لكنه لم يعدها إلى مكانها المجاور للآجرة الثانية التي

كتب عليها «مع» وإنما وضعها على بعد مسافة دون أن يقصد شيئًا من ذلك. (راجع فصلي الحادي عشر)

***

هل فهمت يا علي، لم يكن جدك متقصدًا لشيء، لقد وضع آجرتك بعيدًا عن مهتاب، هذا هو السبب الذي يجعلك بعيدًا عن مهتاب. إن الحقيقة هناك، وجودكما الحقيقي أيضًا هناك وما أنت ومهتاب سوى ظلَّين أو شبحَين أو صورتَين لوجودكما الحقيقي الذي هناك.

كان علي يرمق الدرويش بنظرات حائرة، أدركها الدرويش فصار يردد:

الحق مع علي، يا علي مدد.

لم يكن علي قد أفاق من الحيرة والدهشة التي داهمته، حينما عاد الدرويش إلى الحديث وبصوت منخفض:

هل ظننت أنك عشقت مهتاب دون غش وخداع؟

هل ظننت أنك أحببتها من أجل ذاتها؟

ليس ظنًا يا سيدي الدرويش، ألم تقل إن البناء الوحيد الذي يزداد استحكامًا إن تعرض لهزة هو القلب؟ ليس ظنًا وإنما حبًا، أحببت مهتاب وما زلت أحبها.

لم أقل لك لا تحبها، أو توقف عن محبتها، وإنما أقول لك عليك أن تعرف كيف تحبها وكيف تعبّر لها عن مشاعرك تجاهها.

هل تعتقد أن حبك لمهتاب هو جزء من حبك للّه تعالى؟

عجز علي عن الإجابة، لكنه تمنى لو أن حبه لمهتاب كان كذلك، أي جزءًا من حبه للّه. قال الدرويش، دعني أروي لك حكايةً، ثم مد يده نحو الكشكول وأخرج قصاصة:

يقال أن مريدًا عاشقًا قال لأستاذه الشيخ أنه يحب فتاةً حبًا كبيرًا، فقال له الشيخ:

هل تعتقد أن حبك لهذه الفتاة هو من حبك للّه.

قال المريد، هي نفحة من عطر المحبة الإلهية، مثل من يرى الهلال في حوض الماء، فقال له الشيخ لو كان عنقك غير مثقل بالأوساخ لرفعت رأسك وتأملت القمر الذي في السماء، دون حاجة لحوض الماء.

***

اقترب علي من حوض الماء وراح يتأمل صورة الشمس فيه، عندئذ قال له الدرويش:

هل كنت ترى وجه اللّه في مهتاب؟

ضحك علي وقال: أرى صورة الشمس في حوض الماء.

لكنك لم تنس قول شيخنا ونصيحته للمريد العاشق.

لكن لا علاقة لحكمة شيخكم بما أنا فيه، فقد وقع شيخكم في خطأ كبير، إذ لا تنطبق حكمته على الشمس، فلا يمكن لأحد أن ينظر مباشرةً إلى الشمس ثم يواصل تأمله لها، ولكن يمكن ذلك عبر ماء الحوض ومهتاب هي شمسي.

في هذه المرة كان دور الدرويش بأن يضحك ويقول:

لم يكن ذلك الشيخ شيخنا وإنما كان شيخهم، وإن كان قد أخطأ في القول فذلك أمر بديهي، فهو غير معصوم عن الخطأ، ونحن نقول صدق اللّه وصدق الرسول ولا نقول صدق الشيخ، ولكن اصغ إليّ جيدًا أرجوك، فأنا لم أطلب منك أن تتوقف عن حب مهتاب. على العكس من ذلك، أنا أشجعك أن تستمر في حبك لها. وحينما تحين الفرصة فبادر للزواج منها، لكن ليبقى قلبك عامرًا بالحب لها.

كيف يمكنني أن أتزوجها؟ إنها في الجهة الأخرى من العالم.

لا وجود لجهة أخرى من العالم، مشارق الأرض ومغاربها قريبة من بعضها الآخر، إنَّ وصولك إلى مهتاب يحتاج إلى الزمان وليس إلى المكان. إنّها مسألة وقت وحسب.

متى؟

متى ما شعرت أنك صرت تحب مهتاب لكونها مهتاب، لا لشيء آخر، لا من أجل جمال شعرها البني، أو عطر الياسمين الذي يفوح من فمها أو الأشياء التي قالها عنها ذلك اللعين، فلو أنك تزوجت بمهتاب وشعرت أن جميع النساء يمكن لهن أن يأخذن مكانها، أو لو أنك أيقنت أن كل إمرأة يمكن أن تكون مهتاب فسوف تندم على الزواج ندمًا كبيرًا قد يفوق ندمك إن لم تتزوجها.

وماذا إذن عن العلاقة الإنسانية؟

يا للكلام الفارغ الذي تشغل بالك به، إن كان حبك حبًا إنسانيًا فعليك أن تفكر أيضًا بطريقة إنسانية.

لكنني أحبها وأحب عطر الياسمين الذي....

لا خلاف في ذلك، ولكن عليك أن تحبها لأجلها ولاعتبارها هي بالذات وليس من أجل اعتبار آخر.

لكن مهتاب ليست بمهتاب من دون هذه الأشياء.

إن لم يكن لمهتاب اعتبار ذو قيمة وتزوجتها حينها ستكون كائنًا عديم القيمة والاعتبار، فلو أن للمرآة قدرةً على حفظ الصورة لتحولت إلى لوحة رسم، فإن نظرت إلى مرآة ذاتك سوف تكشف جوهر حقيقتك.

يا علي إن استطاعت مهتاب أن تكون مرآةً صافيةً لجوهرك النقي فأنا سأكون أول من يشجعك على الزواج منها، أي سأجعلك ترتبط بمرآة حقيقتك وجوهرك الثمين.

اقتنع علي بكلام الدرويش مصطفى، أراد أن يقبل يده، لكنه سحب يده وتراجع إلى الوراء، ثم قبّل رأس علي وأسرّ له شيئًا.

فصله الحادي عشر

بعد استشهاد أبي راصف، كنا في باريس عائدين للتو من الجزائر، لم تكن مريم معنا، فضلت أن تبقى عدة أيام مع والدَي أبي راصف. إن لم تخنّي الذاكرة، فلم يكن في الشقة أحد غيري وغير مهتاب.

كنت أقضي الوقت على أريكة منصوبة في الممر، وعلى الأريكة ذاتها كنت أنام الليل، وكانت مهتاب تنام في غرفتها على سريرها المجاور لسرير مريم.

لم أستطع النوم، كنت أتلوى على الأريكة، لا يفصلني عن مهتاب سوى هذا الجدار الكاذب، كنت مستعدًا أن أضحي لحظتها بالغالي والنفيس من أجل أن أستمع لصوت أنفاسها واستنشاقها الهواء، من أجل أن أجلس بجوارها وأشم عطر الياسمين الذي يفوح من فمها، لكن ذلك محال فربما هي الآن في سبات عميق يشبه سبات الدب القطبي، أو ربما هي الآن مستيقظة متأثرة باستشهاد أبي راصف وحزنها الكبير على مريم.

لا أستطيع أن أخلد للنوم، كل قطرات الدم تكاد أن تخرج من عروقي لتطير شوقًا واضطرابًا. دبّ الأمل في روحي، نهضت من مكاني كذئب جريح. قاطعًا الممر ذهابًا وإيابًا.

قلت لنفسي:

يا علي إن مهتاب قاب قوسَين منك، قاب خطوتَين، لن يفهم أحد ما، أيها الحمار، ألستَ رجلًا، لا أحد هنا، أيها الأحمق، اتجه نحوها، هيا.

وصرت أسب نفسي وألعنها محرضًا إياها على الذهاب إلى مهتاب، يكفي أن تضغط قليلًا على مقبض الباب وتديره لتكون عندها.

فجأةً هجمت جميع المواعظ والنصائح التي سمعتها في مسجد قندي على ذاكرتي: إذا كان هناك رجل وامرأة من غير المحارم في مكان خال، أو في الخلوة فليعلما أن الشيطان ثالثهما. ثم فكرت بهذا الحديث فقلت إنه يحتمل تفسيرًا آخر، فلو أن هذَين الشخصَين كانا مؤمنَين وكان اللّه شاهدًا على سلوكهما فلن يحضر الشيطان أبدًا.

كان جسدي يتصبب عرقًا، فكرتُ أن أفاتحها بموضوع الزواج فمن المؤكد أنها لن ترفض ذلك. كنت أصرخ في أعماقي:

« أين أنت يا درويش مصطفى، تعال وشجعني، تعال وقل إنها اللحظة المناسبة التي عليّ أن أنتهزها لأطرح فكرة الزواج على مهتاب».

بعد مساومة مع الذات، حرّكت مقبض الباب، دخلت واتجهت نحو مغسلة صغيرة وغسلت وجهي عسى أن تهبط حرارة جسدي. كنت أنظر إلى المرآة وأوجه سبًا عنيفًا لنفسي:

أيها الجبان، الأحمق..

فجأةً أضاء مصباح الممر المكان، كانت مهتاب بخمارها البُني اللون، كأنها كانت تعلم كم أحب لون هذا الخمار، كانت عيناها حمراوتَين أثر السهاد. كانت مستلقيةً على الأريكة، قالت:

لقد أحدثت الكثير من الضوضاء الذي حرمني من النوم، ثم استنشقت نفسًا عميقًا وأضافت: أنت لم تستطع النوم هذه الليلة فقط، لكنني لم أنم طوال هذا الأسبوع، أي منذ تواجدنا في هذا المكان. كنت أبحث عن مكان أجلس عليه علّه يخفف عني التوتر الذي كاد أن يقتلني.

أردت أن أجلس على الأرض، حينما ابتسمت مهتاب وقالت:

تعال أجلس هنا، هل تخاف مني فتبتعد عني هكذا؟ أثنت ساقَيها لتضمهما إلى صدرها، وقد هيأت لي بذلك مكانًا للجلوس، وصرنا نتأمل عينَي بعضنا الآخر،

وهي ممارسة كنا نتسلى بها حينما كنا صغارًا، ولم نكررها منذ سنوات، عيناها العسليتان تثقبان قلبي، كأنهما تحتويان على مادة كيمياوية تذيب قلب المقابل، سحبت نفسها إلى الوراء وقدمت رأسها حتى كاد وجهها أن يلتصق بوجهي، فسحبت رأسي إلى الوراء، قدمت رأسها فسحبت رأسي، ثم أغمضت عينَيها وكأنها تصورت أن عينَيها يثيران الخوف فيّ، كانت عيناها مغمضتَين، إذ ليس من عين تستطيع أن تراني الآن، استنقشت نفسًا عميقًا وحينما عاودت استنشاق الهواء، هجمت نفحة من عبق الياسمين عليّ، شعرت أن صدري قد امتلأ بهذا العبق الطيب، أردت أن أضمها إلى صدري، أردت أن أضمها إلى صدري، أردت أن... لكنني لم أضمها إلى قلبي.

صرت أبكي دون انقطاع، فتحت عينَيها ورأيتهما مغرورقتَين بالدموع، كانت تبكي من أجلي، قالت:

يبدو أنك لا تحبني؟

قلت لا يوجد على الأرض من يمكنه أن يحبك بمقدار حبي لك.

تقدمت نحوي ودست يدها في شعري وقالت:

لقد تحدثتُ بخصوصك ذات مرة مع شهين.

من هي شهين؟

شهين بنت فخر التجار، كانت تدرس هنا في باريس علم النفس، ثم ذهبت إلى إيران وتزوجت واستقرت هناك. حصلت على الدكتوراه في علم النفس. هي التي شرحت لي السبب الذي يدفعك لسحب رأسك من أمامي وكأنني أريد أن ألتهمك وعللت لي أيضًا الأسباب التي تجعلك تخاف مني، يا علي! إنني أتعاطف معك كثيرًا، لو كنت مثل المرحوم كريم، لما تألمت على هذه الحال التي أنت فيها ولقلت إنه يحب امرأةً أخرى.

ولكني أعرف أن لا أحد لك في هذا العالم غيري فلا تسحب رأسك أيها الطفل المسكين.

سحبتُ رأسي أكثر ولم تعد مهتاب تستطيع أن تلمس شعري، فأثار ذلك

غضبها. شعرتُ أن كلامها لم يؤثر فيّ، فصرخت بغضب، هل تعلم ماذا قالت عنك شهين، هل تعرف شيئًا عن الذات وعن الليبدو؟

من.

عشق

فعفَ

ثمّ مات!

فقد مات شهيدًا

فما هذه الترّهات؟ مات شهيدًا؟

شعرت أنه قد حان الأوان كي أصرخ فصرخت مرددًا تلك العبارة التي تعلمتها من الدرويش مصطفى:

من عشق فعفَ ثم مات، مات شهيدًا (راجع فصلي الحادي عشر).

***

سوف لن يكون من الأخلاق أن لا أذكر دور الدرويش مصطفى وجهوده من أجل ترتيب زواجي مع مهتاب، فقد أخبرني ذات يوم أن الأوان قد آن للزواج إذ تيقنت أنني أحب مهتاب من أجل مهتاب. كان ذلك حوالي عام ١٩٨٧، أي عام حرب المدن التي شنها النظام البعثي. جاء الدرويش إلى بيتنا ليلًا وسألني:

هل تعلم كم تحب مهتاب الآن؟

قلت نعم لقد أدركت حجم حبي لها، قال الدرويش مصطفى وقد صرت رجلًا هرمًا مقوس الظهر:

إذن غدًا سوف نقرأ عقد الزواج.

ما أن غادر الدرويش بيتنا، حتى أسرعت في إبلاغ مهتاب بالخبر، كانت امرأةً هرمةً حينذاك إلا أن ذلك لم يجعل مدى فرحتها بالخبر أقل من فتاة في العشرين من العمر يخبرونها بعقد زواجها مع فارس أحلامها. قالت:

إذن لقد استسلمت للأمر الواقع بعد عناد دام خمسين عامًا وقالت إن لم أوافق، فما ستفعل؟

ضحكت وقلتُ: لقد صبرتُ نصف قرن ومستعد أن أصبر نصف قرن آخر.

ضحكنا وجعلنا صباح اليوم القادم موعدًا لنا.

***

في تلك الليلة رأيت حلمًا مفزعًا، كان شيء ثقيل يرزح فوق صدري، قلت ربما كان تفسيره حبي لمهتاب، لكنه يختلف مع أحلام مماثلة، فقد كان ذلك الشيء ثقيلًا جدًا، في الحلم نفسه وضعت يدي فوق صدري فإذا بحجارة سوداء، لا أعرف من الذي وضع حجارةً سوداء كبيرةً جدًا فوق صدري، تلمستها بأصابعي، ومن خلال الشقوق التي على الحجارة أحسست أن هناك كلمةً منقوشةً على الحجارة، كلمةً كأنها «مهتاب» وكأن الحجارة هي شاهدة قبر، حينما استيقظت فزعًا من النوم، خصصت مبلغًا بسيطًا صدقةً لدفع البلاء عن مهتاب، لكنني لم أتوصل إلى تفسير لمعنى الحجارة تلك.

***

حسب الموعد، اتجهت صباح اليوم التالي إلى شقة مريم ومهتاب، كنت مطمئنًا أن الدرويش مصطفى سيأتي أيضًا في الموعد المقرر، أتذكره منذ العام ١٩٣٧ أي منذ حوالي خمسين عامًا، تذكرت أيضًا ذلك اليوم الذي أعدّت فيه عائلتي اللحم المفروم المقلي بزيته، ثمة دسم مضاعف في لحم الخراف، أيضًا هناك رائحة خاصة لشواء لحم الأغنام، لكن كيف يمكن أن يصف الإنسان رائحة لحم الشواء، لكائن إنساني، مهما كان دقيقًا في الوصف فإن فجاعة الموضوع ومأساويتها سوف تغلب الوصف، لا أعرف لماذا كنت أشم رائحة لحم مشوي حينما دخلت البناية التي تقع فيها شقة مريم ومهتاب.

***

وقد فهمت تفسير شاهدة القبر الموضوعة على صدري، «وفي قلب من والاها، قبرها...»

طوال حياتها كانت مهتاب عاشقةً حقيقيةً وامرأةً عفيفةً وشريفةً و... من عشق فعفَّ ثم مات، مات شهيدًا.

أنا-هُ

تشير الساعة الآن إلى التاسعة إلا ربعًا من صباح يوم الخميس، أقف بجوار مسجد قندي، إذ أن لي موعدًا مع حضرة السيد علي فتاح في تمام الساعة التاسعة، أي بعد ربع ساعة من الآن، قضيت لحظات في شارع خاني آباد الذي تحوّل إلى شارع تختي، علّني أعيد ذكرياتي إلى الأيام السالفة. ثمة معالم زالت وانمحت وثمة معالم ما زالت تصارع عجلة التغيير، لا أثر لمحل موسى القصاب ولا لمحل إسماعيل (أبو الشوارب)، وهؤلاء قد ماتوا قبل أعوام عديدة، تم استحداث حديقة كبيرة في المكان الذي كانت تقع فيه محلات حاج قلي لتعمير الثلاجات وبيت الأسطة محمد، لكن محل درياني ما زال في مكانه، سألت الشاب الذي يقف في المحل:

هل لديكم شربت ليمون؟

شربت ماذا؟ لدينا عصير برتقال.

هل تعرف درياني؟

هل حضرتك ابن أخت الملائكة منكر ونكير؟

اسألكم بجدية وبعيدًا عن السخرية، هل تعرف درياني؟

سؤالك في غير محله، فلو أنك نظرت إلى القطعة المثبتة فوق رأسك لعلمت أن محلنا يحمل اسم درياني.

هل المحل ملكٌ لكم؟

وهل حضرتكم من موظفي إدارة الضرائب؟

فقط أردت أن أعرف إن كنتَ تعرف المالك القديم أم لا، هل تعرف مثلًا جاركم السيد فتاح؟

نعم أعرف حضرة السيد فتاح وأكن له كل الاحترام. مَن مِن أهالي هذا الحي لا يعرفه؟ فهو إنسان فاضل وهو قرة عين المحلة.

وهل تعرف درياني؟

هل حضرتك صحافي؟ إن كنت صحافيًا فهيىء دفترك واكتب: لا أعرف درياني، لقد استأجرت هذا المحل من امرأة عجوز، بالمناسبة، لا ترتدي هذه العجوز بنطال جينز.

أضحك من كلامه ثم أفهم لاحقًا أن هذه المرأة العجوز التي تشرف حاليًا على مؤسسة مشهورة لتعليم الرسم هي ابنة درياني التي كانت في الصف الأول من مدرسة إيران للبنات ومن ضمن الطالبات اللواتي علمتهن مريم فن الرسم. قبل خمس دقائق من الموعد أتّجه نحو منزل له باب خشبية لها مطرقة حديدية ولها جرس أيضًا، قبل أن أطرق الباب، ثمة من يفتحها لي. ثم أرى ثلاثة أو أربعة أشخاص يستقلون سيارةً، أفهم من النمرة أنها سيارة حكومية، وحينما أنظر إلى الباب الجانبية أرى شعار مؤسسة الإمام لمساعدة الفقراء، وقد كان رجل دين يودعهم وقد وضع سماعةً على أذنه ثم نظر إليّ وسألني بلهجة تركية: ماذا تريد؟ صوت خشن ينادي من نهاية الممر:

دعه يا نعمت يدخل، إنه على موعد معي في تمام الساعة التاسعة.

فهمت أن المقصود بنعمت هو نعمت راكب الثيران، الذي قال:

يا حاج علي، امنح بقية الأشياء لهذا الرجل وسوف نطمئن حينها أن علينا أن ننام الليلة في المسجد.

ضحكة تدوي في الرواق، يقترب شخص ما يرتدي بنطالًا أصفر وقميصًا أبيض، ذو لحية وحاجبَين معقودَين، يقترب ثم يمسك يدي فأقول له:

أقبل يدَيك سيدي حاج فتاح؟

أهلًا بك أيها الشاب، إن ذلك الرجل هو نعمت راكب الثيران؟

أجتاز الممر خلف علي فتاح، الحيطان رطبة وآيلة للانهيار، يصدر أمامي منظر الباحة فهو يبدو أكبر مما تصورته، شجرة رمان وحيدة تجاور حوض الماء أستطيع أن أشق طريقي نحو كل مكان في الدار حتى بأعين مغمضة، يلتفت إليّ حضرة الحاج علي فتاح ويسألني: هل الدار كما رويتها لك؟

ذهني منشغل أكثر من أية مرة سابقة، ولكن الدار تبدو أكبر مما مضى وأجمل وأقدم.

إنها أقدم مني وأقدم من نعمت الذي سوف يأخذ طريقه إلى التراب. فهو في أواخر أيام حياته.

ندخل الغرفة ذات المصاريع الخمسة، تم تخليتها من الأثاث القديم، وقد تناثرت حولها بعض الموبليات البالية. وطلب مني أن أجلس على إحداها وبقيت سجادة مندرسة مفروشة في وسط الغرفة، كنت أتوقع أن تكون الغرفة أكثر فخامةً.

يقول السيد علي فتاح:

هلّا تذكرت هذه السجادة؟ إنها نفس السجادة التي كانت أم كريم تتناول عليها طعامها، ولم تشملها آهة درياني، هذه هي الأثاث الوحيد الذي تبقى.

- يا سيد فتاح هل تعتقد بآهة درياني؟

غريب أمرك وأنت ممن كتب بالتفصيل عن آهة درياني وها أنت تسألني إن كانت هذه الآهة حقيقيةً أم من صنع الخيال؟

نعم، أنا من كتب عن الآهة، ولكن دع التبرير جانبًا، الحقيقة هي أن إرادة اللّه سبحانه وتعالى شاءت أن تطهر أموال وأملاك الحاج فتاح. فلا تخف، ثمة ما تبقى في البيت مما يسعفني لأستضيفك به، هناك ثمة حلوى البقلاوة والفاكهة فتناول منهما شيئًا، أما حلوى الحليب فهي ليست من طبخ الجيران، طبختها أمي التي توفت قبل أربعين عامًا أو أكثر، كُلْ منها، فصحيح أننا سقطنا من الفرس لكننا لم نسقط من حقيقتنا ومن أصلنا.

آخذ مقدارًا من البقلاوة، ويضع فتاح مقدارًا من حلوى الحليب في إناء بلوري، ما أن يرفع الملعقة الأولى لتناول الحلوى حتى ترتجف يده وتسقط الملعقة وتلطخ قميصه ببقعة صفراء كبيرة. يشرع بتنظيف البقعة ويقول:

إنها الحلوى المخصصة للموتى، وعليك أن تتوقع أحداثًا كثيرة حينما تتناولها، صحيح أننا سقطنا من الفرس لكننا لم نسقط من حقيقتنا، من أصلنا.

إنها حلوى حليب الموتى وعلينا أن نتوقع حدوث وقائع كثيرة أثناء تناولها. لم يبق أحد في هذا البيت، كلهم رحلوا، ماتوا، هل نقيم هنا في هذه الدنيا. لقد كنا في السابق وكانت قطة بيتنا واجبة الحج واليوم وأصبح كبيرنا واجب الزكاة.

– لماذا لا تستأجر شقةً في بناية في منطقة راقية من هذه المدينة؟

ليس هناك مكان أفضل وآخر أسوأ، كل المنازل هي بحكم محطة لإقامة مؤقتة، أما البيوت الجديدة فهي تشبه الفنادق، بأربع نجوم أو دون نجمة واحدة، نقيم في هذا العالم ليلتَين ثم نرحل حينها لا فرق بين الخرابة والقصر.

حدثتك عن الإقامة في مكان آخر انطلاقًا من احتمال تداعي السقف أو أحد الجدران.

لا أظن أن هناك خطر الانهيار، فالمرحوم جدّي الحاج فتاح أشرف بنفسه على البناء وكان متأكدًا من قوته واستحكامه. ربما ينهار هذا البيت ولكن في المستقبل.

لا سمح اللّه، أتمنى أن لا ينهار فلدي ذكريات كثيرة فيه.

لدي وثيقة تؤكد أنه سينهار.

يأتي نعمت وفي يده صينية شاي، كان يبدو متذمرًا بعض الشيء، ينظر إليّ، ثم يشير إلى السماعة التي وضعها على أذنه، ثم يقول:

مهما كنت كريمًا يا سيد فتاح مع الآخرين، ومع أنك وهبتهم كل شيء، رغم كل ذلك فلن أخرج من هذا البيت كي تهبه للناس، لقد فرطت بقمائن الطابوق وبكل أملاك جدك وها جاء دور هذا البيت.

يحاول السيد علي فتاح أن يُسكت نعمت دون جدوى، فيطلب منه أن يتبعه

إلى الغرفة المجاورة، يتحدث معه بصوت منخفض لا أسمع منه شيئًا، فجأةً يصرخ نعمت:

لنفترض أنني ذهبت إلى البناية التي في قلهك، فإلى أين ستذهب أيها الحاج؟ ألم تسمع المثل القائل:

يجب أن لا يتبرع الشخص بمصباح البيت للجامع.

بعدها عاد علي فتاح وقال مبتسمًا:

كان عليّ أن أسحب بطارية سماعته يوم أمس.

يحدق فتاح مليًا بوجهي ثم يقول بلهجة جادة:

هل جئت إلى هنا كي توزع الابتسامات؟

كلا إنما جئت كي أقدم لحضرتكم نسخةً من المسودة، وكي أستأذن من حضرتك بخصوص...

وهل انتهت الحكاية؟ هل انتهت حكايتنا حقًا؟

نعم، من ناحيتي انتهت. من ناحيتي «أنا»

لكن بالنسبة له: «ل + هو» لم تنته بعد، فأين مصداق قوله تعالى: {كذلك نجزي الكافرين}؟ قالها تعالى في نهاية قصة الكافرين.. أي لا بد أن تكون نهايةً وخاتمةً للقصة.

حسب كلامكم ستكون الخاتمة «والعاقبة للمتقين»

صه، أين نحن من المتقين، لو كنت تريد أن تذكر جوابًا مقنعًا كان من الأفضل لك أن تقول: {كذلك ننجي المؤمنين} وهي الآية الواردة في نهاية سورة المؤمنين.

بعد لحظات كسر الصمت وقال:

في كل الأحوال، جئت في الوقت المناسب، فثمة حدث مهم سوف يقع اليوم.

أي حدث؟

تعتبر الأمهات الجدد سؤالك هذا ضربًا من ضروب حب الاطلاع، أما الأمهات القدامى فيتعبرنه فضولًا وتدخلًا في شؤون الآخرين.

لم أركز في الإصغاء لحديثه، كانت أسناني تصطك حينما التفت إليّ وقال:

هل تشعر بالبرد؟

طبعًا يا سيد فتاح فالغرفة كبيرة والمدفأة لا تكفي لغرفة بهذا الحجم؟

عن أي مدفأة تتحدث؟ إنها مطفأة.

نظرت إلى المدفأة وكانت مطفأةً حقًا، نهض من مكانه اتجه نحو المدفئة ودعاني للاقتراب منها قال: «أطفأتها لأن أنبوبها يؤدي إلى عش العصافير».

اعترضت قائلًا لكن العصافير هي التي بنت عشها فوق الأنبوب، والأسبقية لكم فأنتم من نصب الأنبوب أولًا ثم بنت العصافير عشها.

قال: «نحن الأوائل» يشبه هذا القول كلام الأطفال الذين يتشاجرون دائمًا حول موضوع الأسبقية.

ألزم الصمت وأعود إلى الأريكة، أتمدد عليها، أمضي الوقت صامتًا، بعدها جاء فتاح وجلس قبالتي قائلًا:

لقد رحبت بك ومازلت أقول لك أهلًا وسهلًا بك، جئتَ في اليوم المناسب، اليوم هو يوم الخميس وهو يوم مبارك، لكنك لم تقل بعد لماذا جئت؟

– في الحقيقة أن القصد من الإزعاج هو التعرف إليكم أكثر وأكثر.

– وهل تبقّى شيء عني لم تعرفه بعد؟ فقط ربما تحتاج لبصمة إبهام مني كي تتأكد من هويتي، ضحكت من الأعماق وقلت:

أريد أن أتعرف إليكم معرفةً حقيقيةً.

تأوّه علي فتاح وقال: كما تقول: راجع أحاديتي، أحاديته، ثنائيتي، ثنائيته،

ثلاثيتي، ثلاثيته، فصلكم الثاني، فصلي الثالث، فصلك الثالث......

ضحكت وقلت: ربما سيروق لك أن تحيلني إلى فصل «أنا-هُ».

***

ما أعجب المشهد في الغرفة ذات المصاريع الخمسة وهي لولب القصة! كنا متقابلَين. نرمق بعضنا البعض. أنا وهو بحاجبَيه المعقودَين اللذَين ابيضا الآن. بذلك القلب. القلب، المحب العاشق، حيث أصبحت صماماته عاطلةً قطعًا مع... كان كل شيء غير عادي. كانت الأبواب والجدران تحدّثني. لم أستطع التكلم. فقلت بهدوء: «لا يوجد عسان في شرغ الآلم وقربه يشبهك..»، ضحك وقال:

كيف تتكلم، لقد أخطأت في إملاء الكلمات. أردت أن تقول: لا يوجد إنسان في شرق العالم وغربه يشبهك....

لم أكن قادرًا على التنفس بسهولة، من حسن الحظ ارتفع صوت نعمت الذي كان يتحدث مع شخص ما في باحة الدار:

لن أغادر هذا البيت، لا أعرف ما الذي أصاب الحاج علي فتاح، لقد وهب للآخرين كل أشيائه، تبقى أن يهب ملابسه. أجابه ذلك الشخص:

لا تتكلم هكذا يا نعمت فهو حر بأملاكه.

يقترب الصوت أكثر فأكثر، يفتح نعمت باب الغرفة ذات المصاريع الخمسة ويدخل رجل وسيم يعرج في مشيته ومعه امرأة سبقت الرجل في الدخول. ألقيا سلامًا حارًا علينا، كنت أعرفهما جيدًا، قالت المرأة:

هل زاحمنا أوقاتك يا حضرة الخال؟

- لا يا هليا، أبدًا، السيد الذي معي هو من أصدقائي الخلص، وعمله له علاقة بكما أيضًا.

قال هاني مخاطبًا الرجل:

فرصة سعيدة أن أتعرف إلى حضرتكم.

ثم وجه هاني سؤاله إلى فتاح:

ما هي مهمة السيد وما علاقته بنا.

عمله له علاقة بسطحية الدار، ليس لتبليط السطيحة بالأسفلت أو القير وإنما عمله هو أن يرمي من فوق سطحية الدار طست الفضيحة، أقصد طست فضيحتي أنا.

ضحك الجميع وقال فتاح: في كل الأحوال أفضّل العمل فوق سطحية الدار على العمل في الطوابق السفلية.

قالت هليا:

- أرجوك يا خالي العزيز إن أتممت أعمالك، أن تتفرغ لنا ظهيرة هذا اليوم، نريد أن نذهب إلى مرقد السيد شاه عبد العظيم لزيارة أهل القبور، وكان من المقرر أن يذهب هاني...

أكمل هاني حديث زوجته هليا قائلًا؟

كان من المقرر أن أذهب لوحدي ولكن هليا قامت بمرافقتي إلى جنة الزهراء لأتفحص جنازة شهيد يقولون أنهم عثروا على جثته في إحدى الجبهات في منطقة ماووت وأنها تبدو سالمةً بعد أكثر من عشر سنوات على استشهاده. وبما أنني كنت متواجدًا في هذه الجبهة أيام الحرب المفروضة فقد طلبوا مني أن أتفحص الجثة علّني أتذكر هوية صاحبها.

ضحك علي فتاح وقال:

في الماضي كانوا يصطحبون خالهم إلى منتجعات منطقتَي دركه ودربند، أو يدعونهم إلى وجبة غداء فاخرة في مطعم ممتاز، (ينظر إليّ ويقول) لقد تغير الزمان كثيرًا أليس كذلك أيها الصديق.

حاولت هليا أن تتخلص من الإحراج فقالت:

لقد أخبرتكم يا خالي العزيز أن الغرض هو زيارة أهل القبور.

أجابها علي فتاح:

إذا كان القصد هو الزيارة، فكان رائعًا لو أنكما دعوتماني لزيارة بيت اللّه، وإن كان ذلك متعذرًا، فزيارة كربلاء، أو الإمام الرضا في خراسان، وإن كان ذلك صعبًا عليكما فزيارة السيدة المعصومة بمدينة قم.

ضحكنا جميعًا وتهيئنا لمغادرة البيت، فهمت حينها أن الحدث المهم الذي تطرق إليه السيد فتاح ذا صلة بحكاية جثة الشهيد المجهول التي بقيت سالمةً بعد عشر سنوات.

قلت لعلي فتاح اسمح لي بالذهاب.

لم يوافق وقال عليك أن تأتي معنا. ثم طلب من نعمت أيضًا أن يهيئ نفسه للذهاب معنا جميعًا، قال له أقفل باب البيت الذي في الباحة الخلفية ودع عنك المناكفة والنكد.

أحضر هاني سيارته، وأوقفها أمام الباب الخشبية، وبعد إلحاح من علي فتاح وافقت هليا أن تجلس في المقدمة بجنب زوجها، أما المقاعد الخلفية فقد شغلها السيد فتاح وأنا ونعمت.

استطاع بصعوبة أن يستدير بسيارته في زقاق مسجد قندي نظرًا لضيق مساحته، كنت مستغربًا كيف يستطيع أن يقود السيارة بهذه المهارة رغم ساقه الاصطناعية. فجأة طلب فتاح من هاني أن يتوقف. بصوت مرتفع طلب مني أن أنظر إلى الرصيف المقابل لنا، في شارع خاني آباد وبجوار مسجد قندي رأيت العميان السبعة، دون إرادتي ارتجلت من السيارة، كانوا يجلسون على الأرض، يشبهون بعضهم البعض حتى يصعب العثور في وجوههم على علامات فارقة تميز أحدهم عن الآخر، ملابسهم مهترئة وذات لون واحد، اللون الرصاصي.

قال الذي كان في المقدمة بصوت امتزج بالأنين:

سبعة عميان، بقطعة نقدية واحدة، أبعد اللّه عنكم العوز.

منحهم جندي عشرين تومانًا، قال له الأعمى:

فليرزقك اللّه رزقًا كثيرًا.

***

كادت عينا هاني تخرج من حدقتَيهما، أخذ يصرخ:

جثتان؟ لا، وإنما جثة واحدة.

جثتنان سالمتان! أحدهما هذا الشاب ذو الجثة السالمة والملابس المهترئة، والجثة الثانية للرجل الهرم ذي الملابس غير المهترئة. ثم أشار إلى سلة تحوي ملابس الموتى، أزحت لباسًا رثًّا أخضر اللون كان فوق السلة وأخرجت سروالًا بنيًا فاتحًا وقميصًا أبيض ملطخًا بحلوى الحليب،

أعطيت القميص لهاني وقلت في نفسي:

لكن هذا القميص، لكن هذا هو قميص السيد فتاح فأين ذهب هو يا ترى؟

يترنح هاني كالمجانين، يخاطبه الطبيب:

ما الأمر أيها السيد، لم يكن لدينا سوى ملفان لهذا اليوم وقد راجعتهما وأصدرت لهما رخصة الدفن، سوف أريك نسخةً من الرخصة.

يخرج من صالة غسل الموتى ويعود بعد لحظات حاملًا ورقتَين ويقول، شاهدهما:

إدارة الوفيات.. الاسم والاسم العائلي.

كتب في الورقتَين: شهيد مجهول الهوية من معراج الحرس الثوري، فصيلة تفحص ماووت الرقم ٢٤، وفي كلا الهويتَين كتب في قسم تشخيص الهوية: مفقود الأثر وقد وقع الطبيب المعاين عليهما، فيما بقيت المساحات المخصصة للاسم والاسم العائلي فارغةً، ولكن تم إرفاق بصمة الإبهام في كل منهما. في الاستمارة الأولى كتب: العمر التقريبي ثلاثون عامًا. أما في الاستمارة الثانية فقد جاء العمر التقريبي حوالي ستين عامًا.

أضاف الطبيب مخاطبًا هاني: ربما تم إرسال جثتَين إلينا دون علمكم. قال العاملون في مجال تغسيل الموتى:

كانت هناك جثتان: الأولى ملقيةً على السرير الأول: والثانية على السرير الثاني وقد قمنا بغسل الجثة الثانية ووضعناها في التابوت ثم وضعنا العلم عليها

وأرسلناها للدفن وانتظرنا إلى أن أعادوا إلينا التابوت كي نضع فيه جثة الشاب.

يصرخ هاني:

لكن الجثة الأولى أي جثة الرجل الهرم هي جثة رجل من أقربائي وقد جاء إلى هنا حيًا.

ينظر جميع الحاضرين باستغراب وتعجب إلى هاني، يقطب الطبيب حاجبَيه ثم يقول لي:

لقد التقطنا صورًا لهما، كذلك أثر بصمة الإبهام.. ثم هناك ملاحظة أخرى فقد قمت بنفسي بمعاينة الجثتَين وكانا ميتَين دون أي شك.

أخرجت دفتر المذكرات لأنه كان يحوي على بصمة السيد فتاح وطابقتها مع البصمة المثبتة في ورقة التقرير الطبي، قلت إن البصمتَين متطابقتان ولكن يصعب القول إنهما نفس البصمة.

يخرج هاني من صالة غسل الموتى مسرعًا نحو مقبرة الشهداء، القطعة رقم ٣٢، تبعته ورأيت أن الطبيب واثنَين من العاملين في صالة الغسل خرجوا لمتابعة القضية.

بعد عشر دقائق نصل إلى القطعة رقم ٣٢، ثمة ازدحام حوالي القبر، إضافةً إلى هاني وهليا ونعمت فقد اجتمع عدد من الناس، يركض هاني نحو حفار القبور ويسأل: من نفّذ التلقين.

في هذه الأثناء، أشرح للطبيب واثنَين من العاملين في الغسل مواصفات السيد فتاح، في البداية لم يصدقوا الحكاية، لكنهم قالوا إن المواصفات التي ذكرتها هي نفس المواصفات التي كان يحملها صاحب الجثة، يبدو أن هليا ونعمت لم يفهما الكثير من الالتباس الحاصل في القضية، تسألني هليا شيئًا ولم أجبها لأنني لم أسمع سؤالها جيدًا بسبب الضوضاء الذي أحدثه جمهور واسع اجتمع حول القبر، سألت امرأةً عجوزًا عن سبب حضورها لمراسيم دفن شهيد مجهول الهوية.

مسحت دموعها وقالت بغضب:

ماذا يعني مجهول الهوية يا هذا، ألم تقرأ إنها القطعة رقم ٣٢ المخصصة

للشهداء؟ إنه قبر الحاج فتاح، إنه قبر ولي نعمتنا، فليرحمك اللّه يا علي فتاح.

تفد امرأة أخرى نحوي وتقول:

هل أنت ابن المرحوم؟

أرفع رأسي نافيًا ثم أشير إلى هاني، فيتجه عدد من النساء نحو هاني ويقدمن له التعازي.

تتضاعف حيرة هاني فيسألهن:

ما سبب مجيئكن إلى هنا؟

بديهي من أجل الحاج علي فتاح، فليرحمه اللّه.

من أخبركم بوفاته؟

أخبرنا السيد نعمت ليلة أمس.

ننظر أنا وهاني باستغراب إلى نعمت ونسأله عن حقيقة الأمر فيقول:

كعادتي في نهاية الأسبوع استلمت ليلة أمس من السيد فتاح ظروفًا بريديةً وقمت بإيصالها إلى أصحاب العناوين.

قالت النساء: هو من دعانا في هذه الرسائل للحضور إلى هذا المكان.

يسير هاني كمن فقد وعيه باتجاه الملقن، فيقول الملقن وهو رجل هرم:

كان في نية رجال الحرس الثوري أن يقوموا بعملية التلقين، ولكن في حقيقة الأمر كان بودي أن أرى الجثة، رأيتها بعينَي، يا سبحان اللّه كانت سالمةً، وكأن صاحبها قد استشهد للتو أو كان صاحبها قد خلد للنوم توًا، فارتأيت أن ألقنه بنفسي، ثم قبّلت وجه الشهيد. كأنها معجزة.

***

سألت الطبيب:

هل أنت واثق من مفارقته الحياة؟

نعم سيدي، لقد نفذنا كل الخطوات القانونية، بما فيها جس النبض.

أيد أحد العاملين في غسل الموتى كلام الطبيب:

أنا من قمت بغسله، كأنه كان ميتًا قبل مائة عام.

قلت للطبيب:

ألم يساوركم الشك ولو للحظة؟ ألم يكن جسده حارًا، ألم تثر ملابسه وارتداءه الحذاء أسئلةً عن احتمال كونه على قيد الحياة.

ما هذا الكلام يا سيدي فنحن أحيانًا نحضر إزاء جثة تم العثور عليها بعد عشرة أعوام ولكنها حافظت طوال هذه الفترة على سلامتها ونظارتها، أعتقد أن ثمة معجزات في الأمر.

دع موضوع الإعجاز، فمهمتكم يجب أن تتم وفق المعايير العلمية.

عن أي معايير علمية تتحدث سيدي؟ هنا نصادف أشياء يعجز العلم أن يفسرها، ماذا سوف يكون رد فعلك حينما أحدثك عن شهيد من المفروض علميًا أن تكون عظام جثته قد تفسخت لكننا وجدنا اللعاب ما زال يترشح من فمه، شهيد آخر قام من مكانه واتجه نحو ساقه المبتورة احتضنها وعاد إلى هجعته، هل يمكن للعلم أن يفسر لنا هذه الأمور.

***

صرخ هاني: علينا أن نخرجه من القبر. انتزع نعمت الفأس من أحد حفاري القبور وشرع بالحفر، حينها جاء المسؤول عن القطعة رقم ٣٢ وقال:

عليكم أن تحصلوا على ترخيص قانوني لنبش القبر، الطبيب المعاين أراه أمامي، أيها السيد الدكتور هل تشك بمعاينتك وتوقيعك والختم الذي مهرته على الملف؟

كلا.

ويردد مع كل خطوة: يا علي مدد!

يقترب أكثر ويقول:

من باب الحكمة علينا أن نهتم في بادىء الأمر بالأحياء.

ثم يشير بفأسه إلى هليا التي أغمي عليها دون أن يشعر أحد بذلك، يهرع هاني لمساعدتها، يحاول أن يرفع جسدها كي يأخذ هيئة الجلوس، يمنعه الدكتور ويقنعه أن هذه المحاولات بلا جدوى، ثم يقوم بالإنصات لدقات قلبها بسماعته الطبية، يرتبك قليلًا ويقول:

قلبها قد توقف ولم يعد ينبض.

يقول له هاني: وماذا بخصوص قلبها الأيمن ففي الحقيقة لها قلبان.

يضع الطبيب سماعته على قلبها الأيمن:

إنه ينبض بصورة طبيعية.

يقول الرجل ذو الملابس البيضاء:

لقد شملها لطف أبيها، إنه قلب أبي راصف.

تسكب النساء الماء على وجه هليا، يخاطب الرجل ذا الملابس البيضاء ويقول:

هل رأيت يا أيها الدرويش مصطفى ماذا حل بنا؟

يقول الملقن: في كل الأحوال هذا الرجل المتوفي رحمه اللّه لم يكن من الشهداء، ومكانه ليس في هذه القطعة المخصصة للشهداء، لذا علينا أن ننقل جثمانه.

رد عليه نعمت:

لعائلته مقبرة خاصة

أما هاني فكان يصرخ:

الرجل حي ولم يمت.

ويرد عليه الرجال والنساء والأطفال الذين حضروا مراسم التدفين:

لا تغضب أيها السيد، كأنك تحملنا مسؤولية موته، لم نأت من تلقاء أنفسنا، لقد أرسل إلينا دعوةً للحضور واستجبنا لدعوته.

تجلس هليا بجوار القبر وقد بهت لون وجهها ولم يعد فيه قطرة دم، بعد لحظات تشرع بالصراخ والبكاء وتهيل التراب على رأسها.

يصر هاني ونعمت والملقن على نبش القبر، فيما يرفض الآخـرون، فجأةً يسمعون صوتًا يردد، يا علي مدد، تلتفت الأنظار لمصدر الصوت. ياعلي مدد.

***

يفد رجل يرتدي ملابس بيضاء، له لحية بلون ملابسه، يحمل كشكولًا وفأسًا فضيةً، يخطو خطوات بطيئةً، يردد الدرويش:

لم يحدث شيء خارق يا هاني، لقد رحل في الوقت المناسب، بدون أية متاعب يسببها لأحد.

يبدو أن هاني لم يسمع كلام الدرويش، فيصرخ مجددًا:

علينا أن نخرجه من القبر.

يغير مسؤول القطعة رقم ٣٢ لدفن الشهداء رأيه ويقول:

إن لم يكن من الشهداء فعلينا أن نفعل ذلك.

يدفع الدرويش صدره إلى الأمام ويقول بصوت هادئ ومؤثر: أولًا، تعلمون جيدًا أن نبش القبر عمل محرّم، إلاّ إذا كان الميت امرأةً حبلى بجنين حي، أو أن المدفون ما زال على قيد الحياة، ومن الناحية الثانية (يوجه كلامه إليّ) أنت تعرف جيدًا أنه يستحق الدفن مع الشهداء، هل تتذكر الآية {كذلك نجزي المؤمنين} وعليك أن تختم الكتاب بالحديث الشريف: من عشق فعف ثم مات، مات شهيدًا؟

يغادرنا الدرويش مصطفى بخطًى وئيدة كأنه يعدّها، ومع كل خطوة يقول:

يا علي مدد.

أناهُ

هل يعادل ثمن دم أبيك الأوراق التى بين دفتَي هذا الكتاب، إن كان هذا هو تقييمك فهات كوبَين من الشاي، كوبًا لك وكوبًا لي، ولنمضِ الوقت بتجاذب الحديث ما دمت قد اطمأننت إلى أنك لم تقدِّر قيمة دم أبيك، فهو أثمن بكثير مما تتصور، يا للطامة الكبرى، صرتَ وكأنك الأخ الأكبر فى رواية الإخوة كارامازوف، الذين لم يتوانوا عن ارتكاب أي جريمة للتخلص من أبيهم.

ISBN 978-614-440-079-1
786144 400791 >

دار المعارف الحكمية
Dar Al maaref Alhikmiah